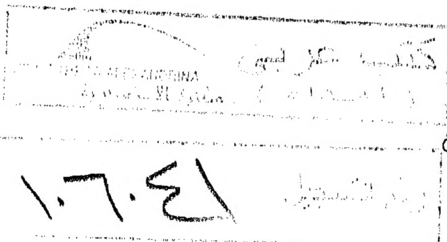
موريس لومبار

الإسلام في مجده الأول

من القرن 2 إلى القرن 5 هـ (8 - 11 م)

ترجمة وتعليق
إسماعيل العربي





منشورات دار الآفاق الجديدة
المغرب

Pr. Maurice LOMBARD

l'Islam dans sa première grandeur

الطبعة الثالثة 1411هـ ـــ 1990م

مقدمة الطبعة الثالثة

أصبح كتاب «الاسلام في مجده الأول» عملا كلاسيكيا يتمتع بالشهرة التي يستحقها عمل جَادَتْ به قريحة أستاذي المرحوم، موريس لومبار الخالد الذكر، ولم تلبث الطبعة الأولى أن نفدت وتركت فراغا في السوق مما حدا بالناشر إلى إعادة طبعه، وهذه الطبعة الثانية نفدت بدورها منذ عدة سنوات فلم تسمح الظروف الصعبة التي يمر به الناشر بإصدار طبعة ثالثة تستجيب للطلب الملحّ بين جمهور القراء من الجامعيين وغيرهم، وهذا الاعتبار هو الذي دفعني لأن أعهد به إلى دار مهمة للنشر سبق أن نشرت لي أربعة أو خمسة كتب في بيروت وتقوم الآن بنشر كتب أخرى في الدارالبيضاء.

إنني لسعيد حقا أن أقدم الطبعة الثالثة من كتاب «الاسلام في مجده الأول» للقراء وأن أغتنم هذه الفرصة لأثني على عميد «دار الآفاق الجديدة» لما أبداه بشأن هذا الكتاب وغيره من رحابة الصدر وإدراك اكتسبه من خبرته الطويلة في عالم النشر للقيم الثقافية.

أعتقد أن مقدمة الطبعة الأولى التي شرحت فيها خلفية اتصالي بالمؤلف الراحل وظروف ترجمة الكتاب لا تزال صالحة للطبعة الثالثة.

قلت الطبعة الثالثة ولكنه كان الأولى أن أتحدث عن الطبعة الرابعة لو اعتبرت الطبعة غير الشرعية التي صدرت للكتاب في بيروت، ولكن موضوع هذه الطبعة المسروقة لا يزال، على الرغم من مضي السنين يثير في نفسي الحزن والألم.

عقب انتهائي من ترجمة الكتاب مباشرة عرضته على الرئيس والمدير العام، السيد امازوز، للشركة الوطنية الجزائرية للنشر والتوزيع، وبعدما اطلع عليه ترآءى له أن لا يودعه ضمن عشرات الكتب التي كانت مركونة في خزائن الشركة بسبب ضئآلة وسائل الطبع التي كانت تحت تصرفها، فاتخذ قرارا بشأن الكتاب وعهد به إلى شخص كان يعمل في إحدى دور النشر في لبنان ويعمل في نفس الوقت وكيلا للشركة الجزائرية، ليعهد به إلى إحدى المطابع في بيروت لتطبعه لحساب الشركة، وبسرعة.

وكذلك سلّم المخطوطة إلى السيد ع.ن. وطلب منه الاسراع في طبع الكتاب. ولما عاد هذا الشخص إلى الجزائر بعد وقت سأله الرئيس أمامي عن تقدم العمل في الطبع وكم كانت دهشتنا قوية حينما أجاب بأنه لايزال يبحث عن طابع يسرع في العمل فيه، ومرت الشهور ولم يصلنا خبر عن طبع الكتاب ثم عاد السيد ع.ن بالمخطوطة كما هي معتذرا بأنه لم يعثر في بيروت عن طابع سريع ؟

ولكن الحقيقة هي أنه عثر فعلا عن طابع وطبعه بسرعة فائقة ولكن ليس لحساب الناشر الجزائري، بل لحساب ناشر مزوِّر في بيروت.

وكذلك ظهر الكتاب في بيروت قبل أن يسلمنا السيد ع.ن. المخطوطة وبعنوان «الإسلام في عظمته الأولى»، ولما حصلت على نسخة من هذا الكتاب المزوّر لم يقتض الأمر سوى تقليب صفحاته لأدرك بسرعة أن الترجمة هي ترجمتي، بعد حذف المقدمة والهوامش وبعد حذف اسم المترجم، لكي يضمن الناشر أصالة التزييف. كيف تفاهم ع.ن. مع الناشر المزيّف ؟ وماذا كانت عمولته أو مكافأته ؟ لا نعرف شيئا عن ذلك، ولكنه عندما رفع الرئيس والمدير العام بعد اقتناعه بالتزوير الأمر إلى وزير الثقافة أصدر الأخير تعليماته بإلغاء توكيل ع.ن. وبعدم الالتجاء إلى خدماته بعد ذلك للوساطة لشراء الكتب التي كانت الجزائر تستوردها من لبنان.

وبعد ذلك أعطت الشركة أولوية في برنامجها لطبع الكتاب فصدرت الطبعة الأولى في وقت قصير نسبيا. تلك صفحة محزنة من تاريخ الترجمة العربية لهذا الكتاب ولكنه كان لابد من سردها للأمانة.

مقدمة المترجم

تربطني بهذا الكتاب الذي حرصت على ان يشاركني القارىء العربي متعتي به واستفادتي منه ، أكثر من وشيجة واحدة . ففي المكان الاول ، يدخل الموضوع الذي يعالجه ضمن الموضوعات التي تهمني وأبحث بعض جوانبها . والكتاب من وضع أستاذي الراحل ، موريس لومبار الذي ادين له بالتوجيه والارشاد والذي فتح أمامي آفــاق البحث والمعرفة الحديثة وقاد خطايا المترددة في صبر وعطف في منعــرجات التــاريخ الاسلامي ، وكشف لي عن بعض أسرار هذه الحضارة الاسلامية التي ننتمي اليها ونعتز بهــا جميعا . ولكن الرابطة الكبرى بيني وبين هــذا الكتاب ، هي انه كان جزءا من محصولي العلمي ، حيث ان الاستاذ كان قد القى علينا خلاصته في قاعات الدرس بجامعة السربــون ، في شكــل محاضرات . والقارىء يستطيع أن يتصور دهشتي حينما تصفحت هذا الكتاب لأول مرة واكتشفت أنه سبق لي أن قرأته ! نعم ، فقــد رسخت في ذاكرتي الخطوط الرئيسية لما يحتوي عليه من النظريات والافكار ، كما نقشت فيها تلك المخططات والخرائط التي طــالما رأيتها ترســم بالطباشير على السبورة ، والتي لا تزال كراريسي المدرسية التي اصفر لون ورقها ، تحمل كثيرا منها ..

وقبل هذا وبعد ذلك كله ، تربطني بالكتاب تلك الروح التي كتب بها والتي سيلمسها القارىء منذ الصفحات الأولى : روح العــالم المتضلع والذي يملك أدوات للبحث لم يتح لي أن أعرف أحدا يملك مثلها (كان الاستاذ لومبار يستعمل ثلاث عشرة لغة للبحث) ، وذلك مع تواضع ونزاهة في البحث ، وتعاطف مع الاسلام ، بلغ به حدا يتحدث معه عن القرآن الكريم بأنه ((الكتاب الذي أوحي به الى محمد)) نعم ، فان نظرة لومبار تخرج به عن دائرة أولئك المستشرقين الذين سخروا أنفسهــم بطريقة مباشرة او غير مباشرة لمســاعدة الاستعمار على فهم عقليــة المسلمين و ((الأهالي)) ، بقدر ما كان بعيدا عن أولئك الذين يتظاهرون بالميل الى السلفية ، أو باعتناق الصوفية ، وعقيدتهم المسيحية اشد ما تكون صلابة ! فان الاستاذ لومبار الذي تعمق في تاريخ الاسلام والشرق ، لم يعرف هــذه المنطقــة الا عــن طريق الأرشيفات والحفريات وآثارهــا

الحضارية . وأما السياسة الشرقية ، فلم يكن يتسع لها وقته ولا يميل اليها طبعه .

كان الاستاذ لومبار هو المشرف على رسالتي ، وبعد انقضاء مرحلة الدراسة اتصلت العلاقة بيننا وشملني بعطفه وتبادلنا عددا من الرسائل تلقيت بعضها أثناء اقامتي في بنغازي (ليبيا) وتلقيت آخرها مع النص الفرنسي لرسالتي عن جغرافية ابن سعيد المغربي ، أثناء اقامتي في لندن في أوائل الستينات . وفي رسائله ، مثل ما كان الحال في محادثاته ، كان يحثني على مواصلة البحث والدرس (وبفضل ارشاده اتجهت لدرس دولة بني حماد) ، وقد كان يرى أن العمل في مجال التعليم يساعد الباحث على مواصلة الدرس . ولكن ما الحيلة ! فحتى الشخص الذي لا يؤمن بالجبر والقضاء والقدر ، لا يستطيع أن ينكر أن يدا خفية (ولنسمها العناية الالهية) تمسك بخيوط غير مرئية متصلة بمقادرنا ! فان السنوات التي قضيتها في ادارة التعليم العربي على رأس لجنة التعليم العليا في نطاق جمعية العلماء ، والتجارب المتواضعة التي اكتسبتها في هذا المجال، قدر لها أن تذهب أدراج الرياح ، حيث تلقفتني مهنة الاعلام في المرحلة الاولى ، والديبلوماسية في مرحلة تالية . ان فكرة النجاح والفشل فكرة نسبية بدون شك ، ولكنه اذا كنت قد حققت نجاحا مهنيا ما ، فهو ، بالتأكيد ، ليس هو النجاح الذي تمناه لي الاستاذ لومبار ، حينما علم أنني أشتغل في مكتب رئيس وزراء ليبيا .

والمهم أن هذا الكتاب الذي وجدت نفسي مدفوعا الى ترجمته يرتبط بحياتي العلمية ارتباطا وثيقا ، الامر الذي حملني على بذل أقصى الجهد حتى لا تفقده الترجمة شيئا من أصالته وعمقه . ولكنه قبل أن أمضي في عرض الملاحظات التي تعن لمترجم كتاب ، عادة ، يجب أن أسارع لأخبر القارىء بأن الكتاب الذي بين أيدينا نشر (في سنة 1971) بعد وفاة موريس لومبار ، وبالتالي ، فهو لم يتخذ الشكل الذي كان يود المؤلف أن يضعه فيه . ومضمونه كما سبق أن اشرنا ، يمثل المادة التي القاها لومبار في شكل محاضرات في مدرسة الدراسات العليا (السربون) وفي مدرسة المعلمين العليا ، خلال الفترة 1957 — 1960 . وقد قام جماعة من زملائه ، وعلى راسهم المؤرخ بروديل والاستاذ أندري ميجويل ، الأستاذ بالكوليج دوفرنس ، باعداد هذا النص للطبع . وهذا الأخير هو الذي تولى وضع علامات الكتابة والنطق على أحرف الكلمات العربية بالطريقة التقنية المعروفة بين المستشرقين .

والطريقة التي اعتمدتها للترجمة تقوم على اساس الترجمة «الشاملة» ، اي عدم اهمال أي معنى من معاني النص الاصلي . ونظرا « لمخالطتي » السابقة لهذا النص ، فانني لم أواجه أية صعوبة في الترجمة ، وذلك فيما عدا التعرف على الاماكن والاشخاص التاريخية وايرادها بالاسماء

التي ترد بها في الكتب العربية . وهذه ، كما يعرف كل باحث ، مهمة شاقة للغاية ، ولم يكن من الممكن التغلب عليها لولا المساعدة القيمة التي قدمها لي من قبل موريس لومبار نفسه . فان هذه الصعوبة هي نفسها التي واجهتها حينما قمت بترجمة ((كتاب الجغرافيا)) لابن سعيد الى الفرنسية ، ولكن في صورة عكسية ، أي ، التعرف على الاماكن والأشخاص العربية وكتابتها كما تسمى بالفرنسية أو اللاتينية . وانا أعترف أن يد لومبار طويلة وفضله كبير في انجاز تلك الترجمة التي ستظهر قريبا ان شاء الله .

والمشكلة الاخرى التي واجهتها منذ البداية ، هي حجم الهوامش ومداها . فان مما لا ريب فيه أن المادة الفنية التي يحتوي عليها الكتاب لتغري الباحث ببذل مجهود للاضافة والزيادة بالتعليق والحواشي ، ولكنه نظرا لأن العمل لم يظهر في شكله الكامل بسبب الظروف المأسوية التي أشرت اليها ، فقد رأيت الا تتجاوز هوامش المترجم الاطار الفعلي الذي ظهر فيه النص . وكذلك تجنبت التعليق عن صميم الموضوع بقدر الامكان واكتفيت ببعض الشروح التي تتناول ، خصوصا سير الاعيان ، والتي من شأنها أن تلقي ضوءا عاما على الموضوع . ولنفس الأسباب أحجمت عن الاحالة الى مراجع المؤلف . فلو عاش لومبار وقدر لهذا العمل أن يخرج كاملا ، لكان من المرجح أن تتجاوز مراجع الكتاب ألف مرجع . ونحن نذكر في هذا السياق أن كتاب المؤلف المعنون ((النقود من الاسكندر الى محمد)) يحتوي على 730 مرجعا ـ بالاضافة الى بيبليوغرافيا عامة ـ مع أن النص لا يتجاوز 200 صفحة)) . والتعليقات التي وضعتها تتخذ شكل ادراج ضمن قوسين في النص متى كان التعليق صغيرا ، ولا يتجاوز كلمة أو كلمتين ، ولكنه متى كان طويلا ، اتخذ شكل تخريج بالأرقام العربية ووضع في اسفل الصفحة .

وفي الجملة ، اشعر بالرضى للطريقة التي قامت بها الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بنشر هذا النص ، ولا سيما ما يتصل من ذلك بالمخططات والخرائط التي بذل العاملون في قسم النشر مجهودا فنيا يستحق التنويه لاخراجها على الصورة التي هي عليها . والشيء الوحيد الذي يقلل من غبطتي ، هو أن يظهر كتاب ((الاسلام في مجده الاول)) وصاحبه قد غادر هذا العالم ، لأنني أعرف أنه لو وصل هذا العمل الى المسلمين في اللغة العربية في حياته ، لكان ذلك مبعثا لسرور لا حد له في نفسه . ولكن الأشخاص يذهبون ، والخلود لأعمالهم ، متى كانت تستحق الخلود .

اسماعيل العربي

الجزائر في 20 يونيو 1978

تمهيد

تعتبر العصور الوسطى العليا ــ ابتداء من بناء القسطنطينية فى القرن الرابع حتى اتساع نطاق الحروب الصليبية ، منذ القرن الحادي عشر الميلادي ــ تعتبر هذه العصور فترة شرقية فى التاريخ .

وهذه الملاحظة تصدق، خصوصا، على القرون الثلاثة التي تمتد من منتصف القرن الثامن حتى منتصف القرن الحادي عشر ، والتي تمثل قمة ما حققه العالم الاسلامي . فان المراكز الموجهة للحياة الاقتصادية والثقافية فى العالم فى تلك الفترة كانت كلها تقع فى الشرق الاسلامي . وأما الغرب المسيحي، فلم يكن يمثل سوى فراغا ، حيث كان النشاط الاقتصادي والثقافي قد انحسر عنه منذ الانحطاط والتدهور الذي أصاب الامبراطورية الرومانية، وغزو البرابر (1) لأرضه .

ولكن فهم اقتصاد العالم الاسلامي بعد ما بلغ أوج نشاطه يتطلب نظرة الى الوراء ، وخصوصا ، الى عهد الفتوحات الاسلامية « الفترة التي تمتد بين منتصف القرن السابع ومنتصف القرن الثامن الميلادي » ، فان هذه هي الفترة التي تشكلت فيها معالم العالم الاسلامي الأساسية .

---

1 ــ نطلق كلمة « البرابرة » فى هذا الكتاب على العصابات المسلحة « القوط والوندال والبورجند والسويف والافار الخ » التي قامت بغزو الامبراطورية الرومانية خلال الفترة التي تمتد بين القرن الثالث والقرن السادس الميلادي ، وأسقطوا أباطرة الغرب وشكلوا دويلات هنا وهناك ، وبذلك نميز بين هؤلاء الأقوام وبين البربر سكان افريقية الشمالية ، وذلك على الرغم من أن هذه التفرقة لا يوجد ما يبررها من حيث الاشتقاق ، حيث ان اليونان الذين وضعوا كلمة البربر كانوا يطلقونها على جميع الشعوب غير اليونان « بما فى ذلك الرومان » ، وفى عهد متأخر تبنى الرومان هذه الكلمة ووضعوا أنفسهم مكان اليونان وكانوا يسمون « البربر » جميع الشعوب التي لا تنتمي الى الحضارة الرومانية ــ المترجم .

عهد الفتوحات :

قام بالفتوحات الاسلامية الأولى عرب الجزيرة من البدو الرحل وغيرهم ، فكانت هذه هي القوة العسكرية الأولى للاسلام . بقيادة قريش مكة الذين هم من الحضر . يمارسون التجارة ويجهزون القوافل . وفيما عدا الصحراء ومناطق الرعي فى شبه الجزيرة العربية ، اتجه الفتح العربي منذ البداية الى بلاد الهلال الخصيب . بلاد ما بين النهرين وسورية ومصر .

ولكنه الى جانب هذا العنصر العربي (الأصلي) . فتح جيش الاسلام صفوفه للمجندين من أبناء البلاد المفتوحة . وهذه العناصر المحلية ستوسع نطاق حركة الفتح الأصلية . وكذلك اتجه الايرانيون الى فتح آسيا الوسطى ، بينما اتجهت العناصر السورية المصرية الى فتح افريقية الشمالية، ليقوم البربر بدورهم (فى مرحلة تالية) بفتح الأندلس وجزيرة صقلية .

وهؤلاء الفاتحون العرب ، أو غير العرب . سوف لا يشكلون الا أقلية فى البلدان التي أخضعوها . وقد كان دورهم التاريخي هو تكوين منطقة دينية سياسية واسعة وتوحيد بلاد وشعوب مختلفة فى مملكة كبيرة لينصهروا بعد ذلك فى الشعوب القديمة التي أخضعوها . وبذلك استمرت الجماعات والشعوب الشرقية القديمة فى نشاطها التقليدي بدون انقطاع فى ظل الاسلام وتحت لواء الخليفة.وأما العرب الذين خرجوا من الصحراء، فسيستقرون فى العراق وايران وفى مصر . وهي بلاد ذات واحات ومدن كبيرة عرف سكانها بتقاليد تاريخية قديمة ؛ وتمتد جذور الحضارة فيها الى أعماق التاريخ . فان بلاد الشرق قد أنتجت حضارة من أقدم حضارات العالم .

والعنصر العربي (الأصلي) الذي يشكل الموجة الاولى للفاتحين . انما خرج من الصحراء ، وذلك على عكس العناصر التي خرجت من المناطق الخلفية ذات الغابات والاراضي الزراعية (أوروبا الوسطى) ؛

أو ذات المراعي (آسيا) ممن كانوا يشكلون الاحتياطي البشري للبرابرة الغزاة الذين استقروا فى أمواج متعاقبة فى أرياف الغرب ذي الغابات الواسعة والضعيف السكان . وفى هذه الحالة (حالة العرب) ، كان الفاتحون لا ينصهرون بسرعة فى جموع سكان الحواضر ذوي الحضارة المتفوقة . وكذلك كان العرب ينزلون فى المدن ، أو فى ضواحي المدن التي سرعان ما تشكل نواة لمدن أخرى ، مثل الكوفة والفسطاط والقيروان . وهذه الظاهرة تفسرها ضرورة المحافظة على نمط الحياة العربية بميل سكان الحواضر العرب الى التجارة ، وما يشعر به البدوي من اغراء المدينة،وكل ذلك مع الكره الشديد للأعمال الزراعيةوللاستقرار فى المناطق الريفية . فان جميع عناصر العرب الفاتحين كانت تواقة الى الاستمتاع بما توفره حياة المدن من المسرات . ولكن العناصر التي لم تكن قابلة للانصهار ، سرعان ما تندفع نحو الصحراء ومناطق الرعي ، وأحسن مثال لهذه العناصر ، هم بنو هلال الذين سيتسللون من صحراء الجزيرة العربية الى سيناء فى المرحلة الاولى ، ثم من سيناء الى برقة وبقية بلدان المغرب فى المرحلة التالية .

لقد احتفظت شعوب الشرق القديمة : الأرمن والفرس والمصريون ، بكيانها تحت الفتح الاسلامي . فماذا كان دور الفاتحين تجاه هذه الشعوب ، يا ترى ؟

من الناحية السياسية كانت نتيجة الفتح ، قيام دولة اسلامية فى رقعة فسيحة من الأرض كان الخليفة رمزا لها . ومن الناحية الدينية كان من نتائج الفتح ، نشر الاسلام ، ذلك الدين الذي يقوم على القرآن الذي أوحي به الى محمد . ومن الناحية اللغوية ، أدى الفتح الى اتساع انتشار اللغة العربية . وأخيراً ، فقد نجم عن الفتح الاسلامي ، من الناحية الاقتصادية اتحاد أراضي مختلفة فى تكتل اقتصادي كبير . على أن انتهاء الفتوحات كان ايذانا بتقلص العنصر العربي واندماجه فى

الشعوب القديمة : الايرانيين والساميين والمصريين والبربر والأندلسيين. وهذه أيضا هي الحالة فى المرحلة الثانية (من الفتح) . وقد لاحظ المؤرخون خصوصا ضآلة القوات التي ساهمت بها سورية وضعف العنصر البربري بين سكان الأندلس فى القرن العاشر الميلادي (2) .

كيف نعلل تلك السهولة والسرعة التي تمت بها الفتوحات الاسلامية الأولى على يد عدد صغير من الفاتحين ؟

لقد كانت لدى العرب جميع الفرص التي تتيح لهم حسن استقبال الشعوب القديمة السامية والسورية وما بين النهرين ومصر واعتبارهم محررين لهذه البلاد . فالى جانب العلاقات الاثنوغرافية واللغوية التي تربطها بالعرب ، كانت هذه الشعوب قد خضعت عهودا طويلة لحكم روما ثم لحكم بيزنطة فى الغرب ، وللامبراطورية الساسانيين الفرس فى الشرق . وكذلك كانت هذه الشعوب فى حالة ثورة دائمة ضد ادارة القسطنطينية واكتزيفون (3) وكانت ثورتهم ، كما هي حالة الثورات فى الشرق دائما ، ذات طابع ديني فى الظاهر ، ولكنها ثورات اجتماعية فى الصميم . وقد اهتز عرش بيزنطة بالبدع ومخالفة المألوف ، وبنظرية النساطرة والمذهب الذي لا يعترف الا بطبيعة واحدة للمسيح ، وهي كلها نظريات تتعارض مع المذهب الرسمي الذي تدين به الكنيسة الشرقية . وفى مملكة الساسانيين، كانت المانوية والديانة اليهودية والمسيحية وغيرها من المذاهب تنتشر معارضة للمزدكية ، الديانة الرسمية .

وفى مقابل كل ذلك ، نجد أن اتجاه الرسالة الاسلامية نحو الديمقراطية والمساواة ، وابتعادها عن النظرة الوطنية الضيقة ، كان

---

2 – راجع : LEVI-PROVINÇAL — *L'Espagne musulmane au X^e siècle : Institution et vie sociale,* Paris, 1932, pp. 8 et suiv. : ...

3 – Ctésiphon مدينة اشورية تقع على دجلة وكانت مقرا فى الشتاء للملوك البرث Parthes ثم للملوك الساسانيين من بعدهم . «المترجم»

يستجيب للحركات الثورية الاجتماعية والدينية فى البلاد المفتوحة . وهذا الاعتبار ، هو الذي سهل ، على الأقل جزئيا ، الفتوحات الاسلامية . ومن جهة أخرى ، فان الرغبة فى استتباب الأمن واستقرار السلام تدفع بسكان المدن الى الانضواء تحت لواء الفاتحين الذين ينتظرون منهم الحماية من الفوضى وعبث البدو . والمقاومة المتصلبة الوحيدة التي واجهها الفتح الاسلامي فى نهاية الأمر ، هي تلك التي أبداها البربر ، الذين قاوموا قرطجنة وروما قبل العرب ، وقاوموا الترك بعدهم . وكذلك ظل البربر تحت الحكم الاسلامي فى حالة مقاومة صريحة أو مكتومة .

وعلى كل حال ، فان عدم تشدد الفاتحين ، وفتورهم ، بل وتشككهم فى الأمور الدينية ، قد سهل قيام علاقات مرضية بينهم وبين الشعوب المغلوبة على أمرها . وكذلك نجد أن الفاتحين لم يمارسوا الاضطهاد أو القهر لحمل هذه الشعوب على اعتناق الدين الاسلامي . والشرط الوحيد الذي فرضه العرب ذو طابع ضريبي . فان معاهدة الصلح التي يوقعونها طبقا للاجراءات المعمول بها آنئذ مع السلطات الدينية المحلية ، تضمن ، فى مقابل ضريبة (الجزية) يقوم أعيان مختلف الجماعات بجمعها ، حرية العقيدة الدينية واستمرار النشاط الاقتصادي .

وقد تمت الفتوحات الاسلامية بسرعة كبيرة بحيث لم يقع أي انقطاع فى مجرى الحياة العامة . بل ان الحالة السابقة للفتح قد استمرت كما كانت فى جميع المجالات : المؤسسات والأجهزة الادارية والموظفين والاجراءات وأعمال المكاتب وجمع الضرائب ، وأخيرا العملة المتداولة . فان الدرهم الساساني المضروب من الفضة ، والدينار البيزنطي المضروب من الذهب ، سيستمر تداولهما فى البلاد المفتوحة حتى القرن الثامن الميلادي . وعلى الصعيد الاقتصادي ، استمرت المدن وشبكات الاتصالات التجارية (وهي هياكل حيوية) بدون تغيير يذكر . فان

ضريبة القمح التي تجبى على الغلة السنوية فى مصر والتي كانت توجه الى روما فى البداية ، ثم الى القسطنطينيــة لــدى تحــول السلطــة الامبراطورية الى هذه المدينة ، لم تلغها السلطات الاسلامية بعد فتح مصر ، وانما اكتفت بتحويلها ، عن طريق البحر الأحمر ، الى عواصم الجزيرة العربية ، ثم الى دمشق ، عاصمة الخلفاء الأمويين . وكذلك احتفظ المسلمون بجباية الضرائب ، ولكن لمصلحة الجماعــة الاسلامية وحدها . وقد كان فرض الضرائب على غير المسلمين مظهرا من مظاهر الفتح الاقتصادية ، حتى شغل الخليفة بالتهديد بفقــد الدخــل مــن الضرائب بصورة متزايدة ، نتيجة للاقبال على اعتناق الاسلام ، ففرض ضريبة عقارية شملت المسلمين وغير المسلمين على السواء .

والملاحظ أيضا أن الفتوحات الاسلامية لم ينجــم عنهــا شيء من التخريب والتدمير . فان الفاتحين المسلمين لا يحــرقون ولا ينهبون المدن المفتوحة . والحالة الاستثنائية الوحيدة التي تستحق الذكر ، هي حالة قصور الساسانيين التي كانت تحتوي على كنوز من الذهب . وبالتالي . فان الفتوحات الاسلامية لم يرافقها اضطــراب فى الحيــاة المــدنية . وقد كــانت الشعوب المغلوبة توفر بطريقة طبيعية الاطارات الادارية والطاقات الذهنية . وكذلك لعب المسيحيون واليهود والفرس الذين اعتنقوا الدين الاسلامي ، أو الموالي ، كما كانوا يسمون ، دورا حاسما فى اقامة دعائم هذه الحضارة التركيبية ، الحضارة الاسلامية . وحتى الموضوعات اللغوية ، مثل تنظيم قواعد النحو (العربي) وبعض المسائل التي تتصل بتثبيت نص القرآن بصفة نهائية ، ستكون مجالا لتدخل غير العرب من أبناء الشعوب الشرقية القــديمة الذين كانــوا يتمتعون بتدريب تقنى ذهني فائق .

وهكذا كان الشرق الاســلامي ، أي أراضي الساســانيين قديمــا (العراق وايران) وأراضي بيزنطية (سورية ومصر) ، بمثابة بوتقة

اشهر مختلف عناصر حضارة تركيبية ستنتشر فيما بعد فى جميع أنحاء العالم الاسلامي . شرقا نحو آسيا الوسطى . وغربا نحو افريقية (تونس وشرق الجزائر) والمغرب الأقصى وأسبانيا وصقلية .

ومن هذا الامتداد الحضاري ، نشأت فى القسم الشرقي فى ممتلكات الساسانيين والبيزنطيين القديمة ، حركة استمرار تعززت وأصبحت قاعدة الانطلاق ، وفى القسم الغربي قامت نهضة وتجديد حقيقي .

وعلى عكس نظرية بيرين المشهورة (4) ، فنحن نعتقد أن الغرب انما تمكن من الاتصال بالحضارات الشرقية ، وعن طريقها بالحركات التجارية والثقافية العالمية ، بفضل الفتوحات الاسلامية . فبينما نلاحظ أن الغزوات الكبرى التي قام بها البرابرة فى القرنين الرابع والخامس الميلادي قد نجم عنها تدهور اقتصادي فى الغرب الميروفانجي ثم الكرولانجي (نسبة الى شرلمان) ، نجد أن قيام الامبراطورية الاسلامية قد كان من نتائجه نمو مدهش لهذا الغرب المسيحي نفسه . فاذا كان الغزو الجرماني قد أسرع بتدهور الغرب ، فان الفتوحات الاسلامية قد تسببت فى انبعاث حضارته . وباختصار ، فان المشكلة التي قامت فى الغرب بشأن غزو البرابرة وبشأن الاستمرار أو التدهور ، يجب حسمها ، فى حالة الفتوحات العربية فى جميع أنحاء المملكة الاسلامية ، بالتأكيد بعدم وجود انقطاع . بل ، زيادة على ذلك ، فان هذه الفتوحات كانت نقطة انطلاق عظيم فى طريق النمو والتقدم والازدهار .

---

4 — راجع : H. Perenne, *Mohamed et Charlemagne*, 4ᵉ éd., Paris-Bruxelles, 1937.

والمقولات المجمعة والتي نشرها P.E. Hubinger تحت عنوان :

Bedeutung und rolle des islam Beim übergang vom Atlertum Zum Mitterlalter (wege der Forschung, 202) Darmstadt, 1968.

انتشار الاسلام واللغة العربية والعنصر السامي :

يجب أن نطرح ثلاث مشاكل ، كلا على انفراد وبوضوح ، وهي : نشر الاسلام ، وتعريب البلدان المفتوحة ، وتأثير العنصر السامي فيها .

فانتشار الاسلام ، معناه اعتناق سكان البلدان المفتوحة للدين الجديد . وقد ساعد على انتشار الاسلام الامتيازات الضريبية التي كان يتمتع بها من يعتنقون الاسلام وينضوون تحت لوائه . وبعبارة أخرى ، الغاء الجزية التي يدفعها غير المسلمين .

وأما التعريب ، فيجب أن نفهمه بمعناه اللغوي فقط ، وأما الدم والعرق العربي ، فهو لا يكاد يكون ملحوظا فيه (5) .

وأما التقاليد العربية الحقيقية ، فانها لم ينتقل منها الى البلدان المفتوحة الا الشيء اليسير . وأما الشيء الذي يسمى فى كثير من الأحيان ، غلطا ، بالتعريب ، فهو انما يعني فى الحقيقة اعتماد مجموعة من التقاليد والنظريات السامية والشرقية ، وتقبل بعض الأفكار الاخلاقية والمحظورات المقدسة ، والروايات التي تتعلق بخلق الكون ، واطارات التفكير والتطبيق ، مما هو شائع بين الشعوب السامية (أو بعبارة أدق التي أصبحت سامية) من السوريين وسكان ما بين النهرين ، وخصوصا طبقات السكان التي هي بمثابة المحرك للنشاط : سكان المدن الذين تجمعت فيهم رواسب الحضارات القديمة ــ تلك الحضارات التي علمتهم الدقة والسلوك المهذب والفنون الثقافية والتجارية ، والحاجة الى نظام اجتماعي ثابت

5 ــ ينبغي الا يغيب عن اذهاننا أن المؤلف يتحدث عن الفتوحات الاسلامية الاولى وعن الفترة الزمنية التي حددها لعمله هذا (بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي) . وبالتالي ، فهو لا يأخذ الى الاعتبار هنا تلك النتائج الا ثنوغرافية الهامة لبعض حركات الهجرة العربية ، مثل التي وقعت أثناء غزو بني هلال لشمال افريقية .» «المترجم»

الدعائم ، كما جردتهم أيضا من « الفضائل الحربية » — وهي خصائص شائعة بين شعوب العصور القديمة — مما احتاج الامر معه الى الالتجاء الى الجنود المرتزقة . والفتوحات الاسلامية ، هي أولا وقبل كل شيء عبارة عن معارك انتصر فيها العرب البدو الذين خرجوا من الصحراء سالكين طرقا واضحة المعالم لينقضوا على مدن عامرة تحيط بها أرياف وفلاحون يمدونها بما تحتاج اليه من المنتجات .

والفتوحات الاسلامية بعد ذلك ، هي من عمل البربر وصنهاجة (الرحل) وسكان الجبال من قبيلة كتامة . وفى مرحلة تالية ، أصبحت من عمل الأتراك والأكراد والديلميين . فمن هذا الاحتياطي من المحاربين المرتزقة ، جند الاسلام قوته العسكرية .

وأما تأثير العنصر السامي ، فهو شيء آخر . انه عبارة عن حضارة مدن الشرق القديمة ، وهي تتركب من عناصر فارسية وهلينية ، انتشرت خارج الاراضي السامية بواسطة عدد من الطرق والوسائل . فقد انتشرت هذه الحضارة فى المكان الاول عن طريق اللغة العربية التي هي لغة القرآن ، ولغة الحكومة ، ولغة المكاتب ، ولغة التبادل التجاري بين البلدان المتباعدة ، ولغة الحضارة الأدبية والعلمية . فان تفكير اليونان والايرانيين والهنود والصينيين انما وصل الينا معظمه عن طريق الترجمة باللغة العربية ، أي بواسطة أداة سامية . وكذلك سلك التأثير السامي الطرق التجارية التي استخدمها المشارقة ، وهجرة جماعات صغيرة وتكوين مجتمعات دينية فى نقاط استراتيجية فى التجارة العالمية . وهذه الجماعات من الرواد ستقوى وتتعزز بفضل مهاجرين جدد . وفى نفس الوقت اتسع نشاط هذه الجماعات التي كثر عددها وراحت تستكشف مناطق جديدة وتقيم المزيد من المراكز ، بينما تحتفظ بمؤخرة مواقعها لتتراجع اليها عند الحاجة ، وبوشائج تنقطع أحيانا ، بسبب الخلافات ، وتقوى أحيانا أخرى وتشتد ، باعادة التكتل والتجمع . وكذلك تولدت الجماعات اليهودية التي

تكتب باللغة العبرية أو الآرامية وتتحدث باللغة العربية ، والجماعات النسطورية التي تكتب اللغة السريانية وتتحدث باللغة العربية .

ونلاحظ أخيرا أن العمليات الثلاث التي حللناها باختصار : انتشار الاسلام واللغة العربية والتأثير السامي (عن طريق الحضارة) ، كانت المدن مسرحها ، في بداية الأمر . فان مناخ المدن كان ملائما لها ، نتيجة لنوع من الانسجام الذي كان موجودا من قبل . ومن المدن ، امتدت هذه العمليات الى البيئة الريفية . ونحن نعرف أن العالم الاسلامي كان خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر ، مركزا لحركة عظيمة لعمران المدن . والمناطق التي قوي فيها عمران المدن ، كانت هي المناطق الاولى والتي تتأثر أكثر من غيرها بهذه العمليات . وأما المناطق الأخرى ، فستظل وقتا طويلا تعيش على هامش هذه الحركة . بل ان بعض المناطق ستفلت الى الابد من هذا التأثير . وكذلك نرى معارضة تقوم في افريقية الشمالية بين المدن الواقعة تحت التأثير العربي والتأثير الشرقي ، وبين جبال البربر التي لا يكاد التأثير الاسلامي يمس في سكانها الا قشرة سطحية .

فضاء الفتوحات : العالم الاسلامي

يشمل الامتداد الجغرافي للفتوحات الاسلامية ما بين آسيا الوسطى وأسبانيا — في داخل هذه الحدود أو في المناطق الخاضعة لنفوذ الاسلام الاراضي التي تقع في قلب العالم القديم . وقد كانت هذه الاراضي في ذلك العهد ، أهم مناطق العالم من الناحية الاقتصادية ، بانتاجها الزراعي والصناعي والمعدني ، وخصوصا بتنظيمها التجاري : تجهيز الموانيء ، وشبكة طرق القوافل ، وأخيرا بنشاط سكانها . وقد أصبحت موارد تلك الاراضي منذ الآن تتمتع بقنوات واسعة للتسويق كما كانت موضوعا لنشاط اقتصادي فسيح الرقعة .

كانت الاراضي ذات التربة الخصبة هي : الاراضي الواقعة بين دجلة والفرات ومصر ، وهي بلدان قديمة ذات واحات وامكانيات للري ؛ وكذلك تشمل هذه الاراضي سهول افريقية الشمالية الخصبة التي تنتج القمح والزيت كما تشمل الاندلس .

وأما الاراضي التي تنطوي أحشاؤها على المعادن ، فهي تشمل القوقاز وبلاد الأرمن وافريقية الشمالية واسبانيـــا .

ولكنه الى جانب هذا الانتاج المعدني المباشر ، كان العالم الاسلامي يسيطر على الطرق المؤدية الى مناجم الذهب الرئيسية فى العالم : افريقية الجنوبية الشرقية والسودان وآسيـــا الوسطى .

وأما المراكز الصناعية التي سجلت تقدما كبيرا ، فهي تقع فى ايران وبلاد ما بين النهرين وسورية والدلتا المصرية .

وقد كان لدى العالم الاسلامي موانيء كبيرة تستقبل سفنه وتشتمل على أحواض لبناء وتصليح السفن ، وتقدم البحريين المـــدربين عـــلى شؤون الملاحة . وفى هذا المجال كان لدى العالم الاســـلامي ثلاث مجمعات فسيحة : موانيء الخليج العربي والبحر الأحمر التي يسير منها البحريون العرب والفرس سفننا فى اتجاه المحيط الهندي . ويكمل هذه المجموعة نظام الملاحة النهرية فى دجلة والفرات . وتأتي بعد ذلك موانيء سورية ومصر ، وفى مقدمتها ميناء الاسكندرية الذي تكمله الملاحة فى نهر النيل . وأخيرا ، موانيء مضيق صقلية ومضيق جبل طارق . وتلحق بها الملاحة فى نهر اشبيلية وقرطبة (الوادي الكبير = Guadlquivir).

وكذلك كان لدى العالم الاسلامي عدد من المدن التي كانت مراكز لتجارة القوافل وتتمتع بتنظيم محكم للنقل وتشرف على طرق التجارة التي تنطلق من بلاد ما بين النهرين (نحو سورية غـــربا والى ايران

وآسيا الوسطى شرقا) ومن الجزيرة العربية ؛ وطرق التجارة التي تسر عبر الصحراء . وهذا النظام الذي يقوم على شبكة من طرق المواصلات. يتطلب توفير حيوانات النقل الضرورية (الجمال والخيل والبغال والحمير) وموظفين وعمالا ومرشدين أكفاء وتجارا ومجهزين للقوافل يمدونها بالزاد والعتاد . وقد كان سكان المشرق الذين يطلق عليهم اسم « السوريين » أو « المشارقة » والذين كانوا يمسكون بزمام التجارة العالمية ، خير خلف للفنيقيين فى هذا المجال .

ومن جهة أخرى ، فقد كان رصيد الذهب الآتي من قصور الساسانيين ومن الكنائس البيزنطية ، موردا يعزز قوة العالم الاسلامي الاقتصادية ، تلك القوة التي تقوم ، خصوصا ، على الدور الذي كان العالم الاسلامي يلعبه بوصفه محتكرا لتجارة المرور (الترانزيت) بين الشرق الاقصى والمحيط الهندي والغرب من جهة ، وافريقية الوسطى والبحر الابيض المتوسط ، من جهة أخرى .

وكذلك كان الاسـلام يحتل موقعا حيويا عند مفترق الطرق التجارية الكبرى فى ذلك العصر ، ولم يكن يفلت من سيطرته سوى طريق تجارية واحدة : تلك الطريق التي كانت تربط الشرق الاقصى ومنغوليا وآسيا الوسطى متجهة الى السهول المجرية . انها طريق الرحل ، تلك التي تمتد فى شمال الحضارات الآسيوية القديمة وحضارات البحر الأبيض المتوسط، طريق ثانوية عريضة . وكذلك كان يفلت من سيطرة العالم الاسلامي مركز تجاري واحد ، وهو بيزنطة .

وهكذا تتضح لنا قيمة موقع العالم الاسلامي فى قلب العالم القديم . فالاسلام ليس بحضارة هبطت الى الأرض من كوكب آخر فجأة ، وبدون مقدمات . ولكنه يتصل اتصالا وثيقا بالبيئة والمناخ التاريخي الذي يحيط بمهده وبالرقعة الجغرافية التي انتشر فيها .

وفيما يتعلق بالمناطق التي يقطنها السود ، من شواطيء افريقية الغربية حتى شواطيء افريقية الشرقية ، فقد كان مجيىء الاســلام اليها حدثا تاريخيا عظيما ويشكل أساسا لتاريخ افريقية الحديثة .

ومن جهة المحيط الهندي ، سينتشر الاســلام فى تلك الأصقاع حتى يشمل أندنوسيا .

وفى آسيــا الوسطى ، سيتعرض العالم التركي والصين معا ، لنفس التأثير . فان الفتوحات الاســلامية الاولى ، سيكون من نتائجها اعتناق الترك للدين الاســلامي . وهؤلاء الترك سيقومون بدورهم بنشر الاسلام فى الصين .

وأخيرا ، فقد سلك الاســلام ، من جهة بيزنطة والغرب المسيحي ، الطرق المؤدية من البحر الابيض المتوسط الى أروبا الوسطى وحتى البلاد الواقعة على بحر البلطيق . وقد كان انتشار الاســلام فى هذا الاتجاه مصدر التقاء للتيارات ومثار تدخل ، اذا تذكرنا مطامح اسـكندناوة للتوسع ، من جهتها ، فى اتجاه البحر الأسود وبحر قزوين .

وجميع هذه المناطق والبلدان ، كانت تشكل آفاقا اقتصادية واسعة لنشاط المسلمين الاستكشافي . وقد ترك الاسلام فى كل منها آثارا لا تمحى من الناحية الدينية بانتشار هذا الدين بين السكان ، ومن الناحية التجارية ، كما تشهد بذلك قطع النقد الاسلامية التي اكتشفت فى هذه الأصقاع . ومن جميع هذه البلدان كان التجار المسلمون ينقلون سلعا متنوعة يتخذون منها أساسا لتيارات قوية للتبادل التجاري .

وأما مركز العالم الاسلامي ، فهو يقع فى المناطق التي تمتد بين الخليج العربي والبحر الأحمر ، والبحر الأبيض المتوسط ، والبحر الأسود ، وبحر قزوين . وكذلك نجد أن العالم الاسلامي تلتقي فى أحضانه منطقتان

اقتصاديتان كبيرتان : المحيط الهندي والبحر الابيض المتوسط . فان هاتين المنطقتين اللتين اجتمعتا فى العصر الهليني ، ثم افترقتا لتشكلا عالمين متنافسين ، الروماني ـ البيزنطي ، والبرتي ـ الساساني ، ستلتحمان وتشكلان وحدة اقتصادية من جديد ، بفضل الفتوحات الاسلامية .

وهذه الوحدة تقوم على أساس علاقات تجارية واسعة بطرق القوافل وبالطرق البحرية ، والعملة الشائعة التدوال ، الدينار الاسلامي ، واللغة التجارية الدولية حينئذ ، اللغة العربية . وقد سهل قيام هذه العلاقات ، تفتح العالم الجديد وتقبله للفنون والتقنية وتشجيعه لنشر طرق الانتاج فى جميع البلدان الاسلامية والتنافس بين طرق الانتاج البيزنطية والشرقية .

وأخيرا ، كان من أهم العوامل التي سهلت الوحدة الاقتصادية المذكورة عودة ظهور أسواق الاستهلاك الكبرى للتجارة العالمية فى المنطقة الغربية للبحر الأبيض المتوسط ، فى شكل مدن جديدة (القيروان وتونس وفاس) وانتعاش بعض الأسواق القديمة (مثل اشبيلية وقرطبة وبلرم) .

فان هذه المراكز الجديدة الواقعة فى غرب العالم الاسلامي سترتبط ارتباطا وثيقا بالمراكز الشرقية القديمة المقابلة لها والتي من بينها مراكز أنشأها الهلينيون ، مثل الاسكندرية وانطاكية ، وأخرى بناها العرب ، مثل القاهرة وبغداد .

وهذه الحقيقة الأخيرة جوهرية . فان قيام شبكة جديدة من المدن وانتعاش مدن قديمة ، سيمد العالم الاسلامي الجديد باطار اقتصادي واجتماعي وثقافي . وكذلك ارتبطت كل مدينة بأخرى بشبكة من العلاقات التي كانت مهمة ، لأن المدن كانت نقط الارتكاز والمراكز المحركة للحياة الاقتصادية فى العالم الاسلامي ونحن نلاحظ أن سيطرة المدن

وتفوقها كان من الأمور الرئيسية الثابتة خلال الفترة التي ندرسها ، أي بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي . فمن سمرقند الى قرطبة . كانت الحضارة الاسلامية ترتكز على المدن التي يتردد عليها الرجال وتستقبل السلع والأفكار الآتية من كل صوب . وهذه الحضارة الموحدة ، حضارة تركيبية تقوم على أساس حضارات أقليمية ريفية أو بدوية قديمة .

وكذلك نتصور العالم الاسلامي . وكأنه سلسلة من الجزر ، التي هي المدن ، ترتبط فيها بينها بالطرق التجارية .

وهـذا التنظيم الذي يقوم على أساس أهمية المدن ، سيتعرض لضربات قاضية نتيجة للأزمات والاضطرابات والغزوات التي وقعت فى النصف الثاني من القرن الحادي عشر . فان هذه الأحداث سيكون من نتائجها قطع التيارات الكبرى للتبادل التجاري . وبالتالي خنق المدن وتدهورها .

وفى المرحلة التاريخية التالية ، سيفقد العالم الاسلامي وحدته ويعاني من نتائج انقسامه . وسيكتسي الاسلام طابعا وطنيا فيكون هناك اسلام تركي واسلام فارسي واسلام سوري واسلام مصري واسلام مغربي . وبذلك نشاهد انقطاعا فى الحضارة الاسلامية وظهور العناصر المميزة للأقاليم والتي تركبت منها الحضارة الاسلامية بوضوح .

واعتبارا لما تقدم ، فسنعمد الى درس العالم الاسلامي فى الصفحات التالية ، (بلدا بلدا) . وسنبحث حالة كل بلد من الناحية الجغرافية : الظروف الطبيعية والاطار الفزيقي والبشري ، ومن الناحية الاجتماعية والاقتصادية : تركة الحضارات القديمة السابقة وامتدادها فى الأرض التي نمت فيها ، وعناصر السكان ، والتقنية التي نمتها ، والاطارات الذهنية والمعتقدات التي دخلت فيها — مع اعتبار التغيرات التي طرأت

عليها تحت تأثير عوامل جديدة . فبعد فترة وحدة الخلافة : خلافة بني أمية ، التي انتهت فى منتصف القرن الثامن ، أخذت الخصائص الاقليمية تظهر وتتبلور فى اطار الدول والممالك التي يمكننا أن نسميها «قومية» الى حد ما ، بشرط الا نضمن هذه اللفظة مدلولا حديثا جدا : الأمويون فى الأندلس ، والطولونيون والفاطميون فى مصر ؛ والطاهريون والسامانيون فى ايران الشرقية (6) فهذه الحركة المتميزة والمتنوعة والتي يسميها البعض ـ غلطا فى رأينا ـ « تقطيع أوصال الخلافة العباسية » ، نقترح تسميتها باعادة بناء العالم الاسلامي على أساس « بلاد الاسلام » .

* * *

6 ـ يمكننا ان نضيف الى هذه القائمة صنهاجة فى المغرب . «المترجم» .

القسم الأول

أراضي الإسلام الفضاء والشبكات

الفصل الأول

منطقة البرازخ

ستكون جزيرة العرب هي البلد الاول الذي نعالجه ، وهو البلد الصحراوي الذي خرج منه الاسلام . وبعد ذلك تأتي المناطق التي فتحها المسلمون فى المرحلة الاولى : مصر وسوريا وبلاد ما بين النهرين .

دور الجزيرة العربية :

لكي نفهم الدور الايجابي ، والسلبي فى نفس الوقت ، الذي لعبته الجزيرة العربية فى العالم الاسلامي : يجب أن نتعرض للعناصر البشرية التي كانت تميز الجزيرة فى العصر الجاهلي ، ونعيد ترتيبها فى الاطار الجغرافي الذي يتكون من الواحات والصحراء التي تستغل بصفة عامة للرعي . ففي الواحات الشمالية الغربية ، مثل يثرب (المدينة المنورة) يعيش مزارعون مقيمون ، وجد من بينهم محمد (صلى الله عليه وسلم) أنصاره الأوفياء ، الأنصار الذين سيتكون منهم جيشه فى المرحلة الاولى .

وبعد هؤلاء يأتي سكان مدن مكة والطائف وجدة،والقريشيون الذين يشتغلون بأعمال المصارف ويمسكون بأعنة تجارة القوافل ، والتجار الذين يبيعون ويشترون عن طريق موانىء الجنوب ــ موانىء اليمن وعمان . وأخيرا يأتي دور البدو الذين يعيشون فى القسم المعمور من

الصحراء الوسطى . وهم يشتغلون بتربية الحيوانات والنقل ويرافقون القوافل ، ويتمتعون بخصائص حربية ممتازة .

فأما الأنصار ، فسرعان ما أبعدتهم البورجوازية المكية ، حينما أدركت أهمية الدين الجديد لتجارتها وأنضوت تحت لواء الاسلام ، وقد اعتمد حزب الأمويين فى الغزو على قوة البدو الحربية ، أولئك البدو الذين سيتركون لهم الأسلاب والغنائم والذين سيضمنون نفوذهم السياسي حتى يستقر لهم الامر فى دمشق ، من حيث أنهم سيسيطرون على طرق التجارة. وبذلك فقد قلب الجزيرة العربية (الحجاز ونجد) كثيرا من سكانه ومن قوته الاقتصادية . وكذلك انصهر البدو تدريجيا فى حضارات مدن الشرق القديمة حيث ستستمر العناصر المحلية فى ملء الدواوين والكتابة باللغة الفهلوية أو اليونانية وتلعب دورا سياسيا فى غاية الأهمية .

على أن الحركة كانت لا تزال مستمرة فى عهد الأمويين بين شبه الجزيرة العربية والبلدان المفتوحة ، وكثيرا ما دفعت السلطات بالبدو العصاة الى الصحراء . وكذلك قام الخليفة عبد الملك فى أوائل القرن الثامن الميلادي بابعاد قبائل بني هلال وبني سليم الى منطقة قناة السويس (سيناء) حيث كانوا يرافقون القوافل ويعيشون حياة البدو على السلب والنهب . وأحفاد هؤلاء القوم هم الذين سيطلقهم الفاطميون فى منتصف القرن الحادي عشر الميلادي لتخريب افريقية . ومع ذلك ، فان خلفاء بني أمية حافظوا على صلات عاطفية بالصحراء العربية عن طريق حاشيتهم والمقربين اليهم ، وبسبب تأثرهم بالشعر الجاهلي الذي يصف حياة الصحراء . وكذلك كان للخلفاء قصور مبنية بالحجر ، ولكنه كانت لديهم أيضا خيم يضربونها فى صحراء سورية ، وبادية الشام . على أن هذه الصلة بالصحراء والبادية ستنقطع حينما تولى الحكم العباسيون وأعوانهم من بني خراسان الذين جاءوا من شرق ايران .

وابتداء من القرن الثامن ، سيتدهور المركز السياسي لشبه الجزيرة العربية التي أهملتها الدولة الجديدة . وهذا ما وقع بصفة خاصة لمركز شبه الجزيرة التجاري : فان مكة والمدينة قد كفت كلتاهما عن القيام بدور المركز الرئيسي لتجارة القوافل . ونظرا لتحول طرق القوافل البيزنطية والايرانية الى سورية والعراق نتيجة للفتوحات ، فقد فقدت هذه المنطقة دور الوسيط ومركزها التوجيهي القديم . ولما تمت للخلفاء السيطرة على الطريق التي تمر بالبحر الاحمر والطريق التي تمر بالخليج العربي ، ابتداء من القرن الثامن ، أهملوا الطريق البرية التي تمر بوسط الجزيرة العربية . فقد كانت السفن فى عهد الامويين لا تزال تفرغ شحنات القمح المصري فى ميناء جدة . ولكن شبه الجزيرة العربية أخذت تعاني من الشلل الاقتصادي تدريجيا ، حتى أصبحت فى عزلة فى العهد العباسي . وكذلك نجد أن شحنات القمح المصري لم تعد تتجه الى مكة والمدينة ، كما كانت الحال من قبل ، بل حولت الى ما بين النهرين والى بغداد . وقد كان ينقل بواسطة السفن التي تمخر البحر الأحمر والخليج العربي ، حتى ميناء مدينة البصرة . ومع ذلك ، وعلى الرغم من هذه النتيجة السلبية فقد استمر نشاط جانبي فى الطرق الكبرى فى الجزيرة .

ولكن مجالا معينا ستحتفظ فيه شبه الجزيرة العربية بدور ايجابي ، حيث ستبقى محور الحياة الدينية الاسلامية ، بمكة والكعبة ، والمدينة ، وقبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وبالطرق التي تلتقي عند مكة آتية من مصر ، وسورية ، والعراق ، والمحيط الهندي ، والحبشة ، استقبل قلب الجزيرة العربية تيارات متضاربة من الأفكار والمذاهب والديانات ، مثل المزدكية واليهودية ، والمسيحية الشرقية ، والبوذية ، والعقائد السحرية الآتية من بلاد الزنوج ، وكلها نجد لها ردود فعل فى القرآن . وهذه الطرق

نفسها هي التي سلكها الفاتحون . وهي الآن طرق يسلكها الحجاج . فالحجاج المغاربة يسلكون الطريق التي تمر بالقاهرة وبرزخ السويس . والحجاج الايرانيون يأخذون الطريق التي تمر ببغداد والكوفة .

وحركة الحج الواسعة النطاق نجم عنها انفتاح شبكة جديدة من الطرق وتيارات اقتصادية من نوع خاص : التجارة التي تتصل بالحج لتزويد الحجاج بالمواد الغذائية والنقل والأردية والأشياء التذكارية . ولكن الحجاج أنفسهم يستغلون موسم الحج ليقوموا ببعض العمليات التجارية . والحكومة تجني من كل ذلك رسوما وضرائب . وموسم الحج يستغله البدو أيضا اقتصاديا لفائدتهم الخاصة .

وعلى كل حال ، فان بقاء شبه الجزيرة العربية محورا للحياة الدينية ، قد أتاح لهذه المنطقة دورا ايجابيا كان بعيدا عن الاستغلال السياسي ، حيث أن السلطة الدينية ــ الخليفة ــ انما كان مقرها دمشق أو بغداد أو القاهرة . وأما المدن الحجازية الرئيسية فهي لا تعدو كونها أماكن مقدسة .

والدور الآخر الايجابي لشبه الجزيرة العربية ، هو أهميتها فى تجارة العبيد الذين يستجلبون من الحبشة والصومال وبلاد الزنج . فان استيراد العبيد الى الموانيء العربية ــ تلك التجارة التي بدأت قبل الاسلام ــ قد استمر واتسع بحيث أنشىء فى مدينة زبيد سوق خاص للعبيد السود ، فى القرن التاسع الميلادي . وكذلك أصبحت المدينة مركزا لتعليم العبيد الذين يباعون بسعر مرتفع ، فنون الغناء والموسيقى والرقص ، وقد برز بعضهم فنالوا شهرة واسعة . بل ان بعض العبيد الصقالبة والهنود كانوا يرسلون أيضا الى هذه المدرسة ليتعلموا فن الغناء المدني الذي كانت له حظوة خاصة عند الخلفاء العباسيين . وهذا الغناء يرافقه نوع من الموسيقى انتشر فى مختلف أنحاء العالم الاسلامي ، ثم ذاع فى البلدان الغربية (الأروبية) أيضا .

وأخيرا ، فان أول ظهور الحصان العربي المولد من الحصان البربري والحصان الايراني ، انما وقع فى مرتفعات نجد حيث وجـد المنـاخ الملائـم .

وكذلك نجد أن دور شبه الجزيرة العربية فى العصر الاسلامي يتلخص فيما يلي :

ان شبه الجزيرة العربية لم تعد طريقا لتجارة المرور (الترانزيت) ، فهي لا تساهم فى تيار التبادل التجاري الدولي الا بالطرق الجانبية . وقد كانت لشبه الجزيرة تياراتها التجارية الخاصة والتي تسلك طرق الحجاج الذين يقصدون الأماكن المقدسة . وفى نفس الوقت كانت هذه المنطقة مركزا لتوزيع الرقيق وتربية العبيد وتعليمهم . وهي مركز لتربية الخيول العربية ذات الأنساب المحفوظة لخمسة أجيال .

دور مصـــر :

يقال عن مصر أنها « هبة النيل » . وقد يكون من الملائم أن نضيف أنها من صنع الله . ففي هذا البلد يبدو الاطار الجغرافي ذا أهمية خاصة .

فقد شهد وادي النيل قرونا متعاقبة عمل الفلاحين الذي لا يفتر ، وهم يشيدون ويقومون بصيانة نظام واسع للري يستلزم عبودية وسخرة جماعية وقواعد محكمة لتوزيع الماء وتجنيدا مستمرا لليد العاملة . ونظام التسخير بدأ فى العهد البيزنطي واستمر العمل به فى العهد الاسلامي . وبعض أوراق البردي تشتمل على عدد كبير من الرسائل التي تتعلـق بالسخرة ومصادرة اليد العاملة ، من الفلاحين الذين كانوا دائما على استعداد للتجنيد والاستخدام .

والمحصولان الرئيسيان فى مصر هما ، القمح والكتان . وفى العهـد الاسلامي ، كانت مصر ، وهي احدى أنبار العالم القديم ، تبعث بشحنات قمحها الى مكة والمدينة فى المرحلة الأولى ، ثم الى بغداد فيما بعد .

وأما الكتان المصري الذي أثنى عليه بلين (1) فى عهد الرومان ، فقد ظل يحتفظ بسمعته فى العهد الاسلامي . ونحن نلاحظ أن القطن الذي كان يزرع فى سورية ، لم تبدأ مصر فى زراعته الا فى القرن التاسع عشر الميلادي ، أي بعد بدء زراعة قصب السكر فى وادي النيل بوقت طويل .

وقد امتازت مصر فى العصور الوسطى العليا (كما هي الحال الآن) بكثافة السكان فى المناطق الواقعة على ضفاف نهر النيل . وقد وصف أحد الكتاب الذين استلفتت نظرهم هذه الظاهرة ، الشريط (الاخضر) الذي يمتد على جنبات النهر ، بأنه يشبه شارعا فى احدى المدن . فالى جانب المدن القديمة الموجودة فى هذه المنطقة بنيت مدن جديدة . وموقع القاهرة وحده يشتمل على عدد من المدن التي من أهمها : الفسطاط (القرن السابع م .) العسكر (القرن الثامن م .) القطايع (القرن التاسع م .) ، القاهرة (القرن العاشر م .) . وقد بلغت القاهرة أوج عظمتها فى القرن العاشر حينما بلغ عدد سكانها نصف مليون نسمة .

وكذلك توجد تجمعات سكنية مهمة على طول النهر ، من أهمها قوص وأسوان « حوالي مائة ألف نسمة » الواقعة عند الشلال الأول .

ونهر النيل طريق مهم للمواصلات ، والارض على جنباته ترتفع باستمرار من الدلتا حتى أسوان ، وتمر فيها طرق للنقل على ظهر الجمال والحمير . ولكن النهر نفسه كان يمتاز بنشاط ملاحي نادر ، حتى قيل أنه كان يوجد فيه من السفن عدد يماثل ما كان يوجد فى بغداد والبصرة مجتمعتين. والسفن التي كانت تجري فى النيل هي ، اما من السفن القديمة ذات

---

1 - Pline «الكبير» عالم طبيعي روماني ولد فى كوم Côme فى سنة 23 م . وضع كتابا فى العلوم الطبيعية يعتبر موسوعة فى علوم العصور القديمة ، وقد هلك اثناء ثورة البركان فيزوف فى سنة 79 م - تلك الثورة التي دفنت فيها مدينة هركليوم وبومبي . «المترجم»

الأشرعة المربعة ، أو من السفن الحديثة ذات الأشرعة المثلثة الأضلاع التي تسمى « اللاتينية » ؛ والتي بدأ استعمالها فى القرن التاسع الميلادي. وهذا النوع الأخير من السفن يسمح بالتقاط الريح من قريب ، وهو عامل مهم فى الملاحة النهرية .

والسفن التي تستعمل للملاحة فى نهر النيل ، مثل السفن الاسلامية فى البحر المتوسط وفى البحر الاحمر والخليج العربي والمحيط الهندي ؛ يتطلب بناؤها كميات كبيرة من الخشب وقد كان لدى مصر فى العصر البيزنطي داران لصناعة السفن ، احداهما فى الاسكندرية ؛ لصنع قطع أسطول البحر الابيض ، والاخرى فى قليزمة ، لصنع السفن التي تسير فى البحر الاحمر .

وأما فى العصر الاسلامي ، فقد كان لدى مصر ثمان دور لصناعة السفن . فالى جانب الدارين السابقتين . كانت توجد ثلاث دور فى الفسطاط « جزيرة الروضة ، والفسطاط والمكس فى الشمال » ، ودار فى دمياط ، ودار فى الرشيد وأخرى فى الصالحية على الذراع الشرقي لنهر النيل . وقد كانت الحاجة كبيرة الى الخشب لبناء السفن وللبناء والتشييد فى المدن وللاستهلاك الصناعي ، فى صناعة الزجاج والخزف وخصوصا لمراجل غلي عصير قصب السكر — وعملية تنقية السكر كانت تجري فى مصر ، البلد المشهور بنشاط الكيمياء فى العصر الهليني .

ونظرا للحاجة المتزايدة الى الخشب . فقد كانت مصر عاجزة عن تحقيق الاكتفاء الذاتي . وجميع الأشجار فى مصر ، بما فى ذلك أشجار النخيل كانت مسجلة . وقد خصص احتكار الدولة لبناء السفن كل جذع شجرة أو قطعة من الخشب تصلح لهذه الغاية . ومع ذلك ، فان البلد كان فى حاجة الى استيراد الخشب من الخارج. فأما الساج، فقد كان يستورد من

الهند عن طريق نشاط التهريب الذي كان يقوم به تجار البندقية من شواطيء بحر الأدرياتيك البعيدة .

والحضارة المصرية التي لا تملك ما يفي بحاجتها من الخشب كان يعوزها الحديد أيضا . ولسد حاجتها الى الاسلحة ، كانت مصر تستورد السيوف الهندية والسيوف الفرنكية التي تسمى « الفرنجية » . ونظرا لاعتماد مصر على الاتصالات مع البلدان الاخرى ، فقد كانت حضارتها مرهونة بالظروف . ولولا موارد مصر من الذهب لما عمرت حضارتها ، وذلك لأن الخشب والحديد كلاهما جوهري لكل حضارة تعتمد على المدن .

وأما سكان مصر ، فقد كان معضمهم من القبط (وهي تسمية اغريقية تعني مصري) . ولكن اسم البلد القديم هو « مصر » وبالعبـــرية « مصريم » . وفى العصور الوسطى كان يطلق اسم « بلاد مصر » على البلد كله ، و « مصر » على العاصمة أيضا .

والنماذج الفيزيقية لسكان مصر ثابتة ولا تكاد تتغير . ونحن لكي نتأكد من ذلك ، يكفي أن نقارن الأنواع الموجودة حاليا بالجثث المحنطة منذ عهد الفراعنة . ولغة مصر ، هي اللغة الهيروغليفية التي تطورت حتى أصبحت اللغة القبطية . وأما الحروف الهجائية ، فهي الحروف اليونانية التي حرفت أشكالها باضافة بعض الرموز . وسكان مصر يشكلون كتلة واحدة . والعنصر الاغريقي فيها كان يقيم خصوصا فى الاسكندرية ، وهي مدينة خارجية تبدو وكأنها ألصقت الصاقا بالأراضي المصرية . ولما استولى العرب على الاسكندرية فى سنة 643 م ، هربت منها حاميتها ومعظم الأسر الاغريقية ، وبذلك اختفى هذا العنصر « اليوناني » الاضافي . ولكنه . فى مقابل ذلك بقيت مستعمرات يهودية مهمة لم تندمج فى السكان ، ولم تكن تختلط بالأقباط ، فى مدينة الاسكندرية ، وفى بلبيس التي تقع على الذراع الشرقي للدلتا ، وهي منتهى الطريق الآتية من سوريـــة ، وفى

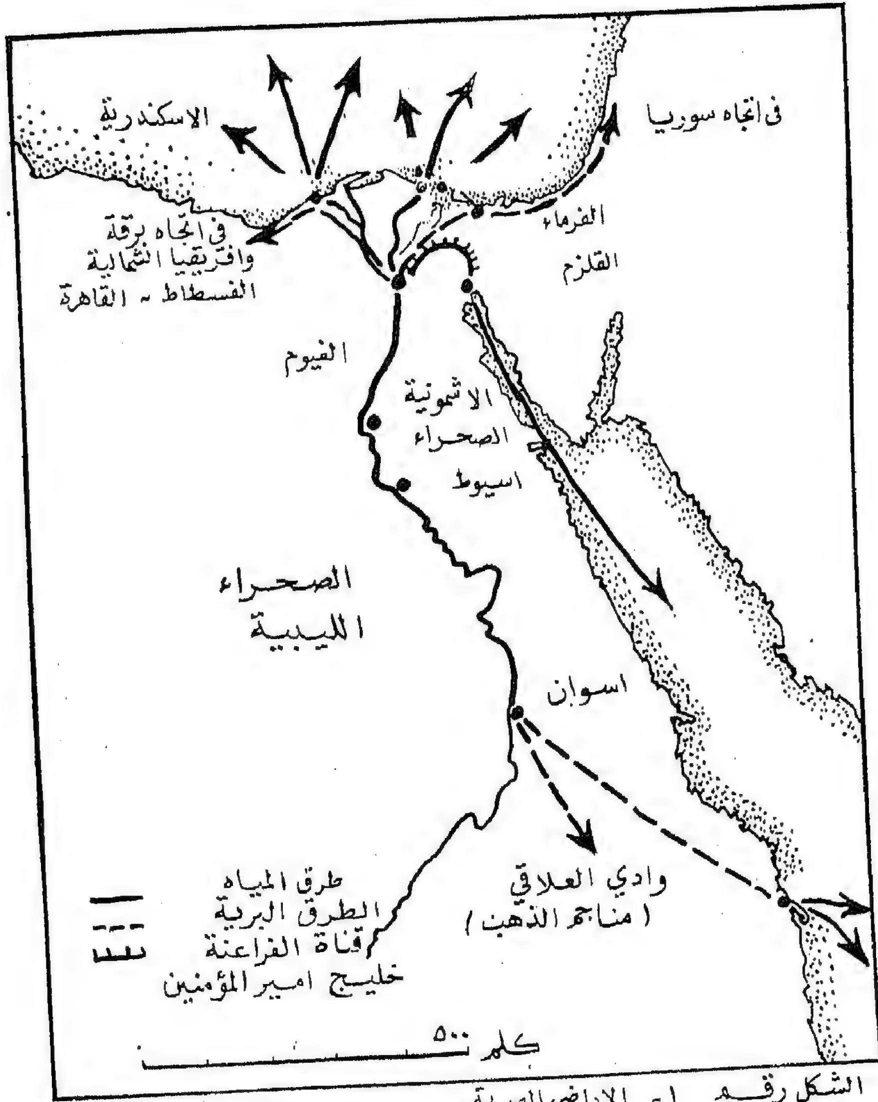
أسوان ، وفى جزيرة فى النيل تقع مقابل أسوان . وهي المنطقة التي تسافر منها القوافل فى اتجاه بلاد النوبة والحبشة والبحر الأحمر وفى اتجاه الفسطاط أيضا .

وكما حدث فى البلدان الأخرى المفتوحة ، لم يقع أي انقطاع فى نشاط سكان مصر الاقتصادي . وكذلك عرفت الحياة الدينية استمرارا ، لأن كثيرا من الفئات التي تعتنق الاسلام ، انما تقوم بذلك تهربا من دفع الجزية المفروضة على غير المسلمين ومع ذلك فان دخل الدولة من الجزية فى النصف الثاني من القرن السابع (فى عهد معاوية) ، لم يكن يقل عن خمسة ملايين دينار . وهذا الرقم هبط فى عهد هارون الرشيد ، فى أوائل القرن التاسع الميلادي ، الى أربعة ملايين دينار ، ليهبط من جديد بعد ذلك بقليل الى حوالي ثلاثة ملايين دينار فقط .

وكذلك ستتحول مصر فى غير عسر من المذهب السني الى الشيعة ، فى عهد الفاطميين .

والعنصر القبطي لم يكد يتأثر بالفتح العربي الذي قام به عدد صغير من الغزاة الذين أحسن السكان استقبالهم واعتبرهم ، كما كانت الحالة فى الشرق ، محررين للبلد وباعثين لنهضته .

كانت الشعوب الخاضعة لبيزنطة ثائرة ضد حكم القسطنطينية . وقد اتخذت هذه الثورة فى مصر ، ، مثلما كانت الحالة فى سورية صبغة دينية : كانت هرطقة المذهب القائل بوحدة طبيعة المسيح تتعارض مع المبادىء الأرثذوكسية التي تقوم عليها الكنيسة البيزنطية الرسمية ، وكانت عواطف أنصار هذا المذهب وطنية ، وتعتبرها بيزنطة سلبية . كتب ميشال دو سميريان فى هذا السياق يقول : « لم تكن فائدة صغيرة بالنسبة الينا أن نتخلص من قسوة الرومان وفظاظتهم ، ومن غضبهم وغيرتهم الوحشية



الشكل رقم ١ - الاراضى المصرية

علينا . لكي ننعم بالهدوء . والحق أنه لم تقع أية مقاومة « وطنية » فى مصر للخليفة. واما ثورة الأقباط فى سنة 829 — 830 ميلادية ضد المأمون، فقد كان سببها أمور تتعلق بالضرائب . ومن ثم ، فهي تعتبر من ضمن الحركات الاجتماعية الهامة التي تسببت عن الظروف الاقتصادية الجديدة والتي شهدها العالم الاسلامي فى ذلك العصر .

وكذلك دخلت مصر ، وهي بلد ذو حضارة قديمة لم يكد يعتـري العنصر البشري فيها أي تغيير ، تحت الحكم الاسلامي . وهي تعاني من النقص فى الخشب والحديد .

ولكن انتاجها الزراعي ذو اهمية عالمية ، ولا سيما من القمح وورق البردي والكتان . وقد حملت مصر الى العالم الاسلامي خصوصا تقنية النسيج وصناعة السجاد وصناعة ورق البردي الذي كان لا يزال مستعملا حتى تعميم استعمال الورق فى القرن التاسع الميلادي وآخيرا قدمت مصر الى العالم الاسلامي كميات كبيرة من الذهب الذي كان مخبأ فى قبور الفراعنة — ذلك الذهب الذي استخلص وأدخل فى دائرة النقد المتداول ، وسيضرب منه الدينار المصري الجميل الذي تساوي ثلاثة دنانير منه ، حسب ما يروي ناصري خسرو ، ثلاثة دنانير ونصف مـن دنانير نيسبور (2) .

بلاد ما بين النهرين وسورية :

ان المنطقة التي تمتد فى شكل قوس فى شمال الصحراء العربية والتي تشمل سورية وما بين النهرين ، هي التي تسمى « الهلال الخصيب » . وهذه المنطقة لا تتكون من أرض متجانسة ، بل هي عبارة عن مجموعة من الواحات التي تفصل بينها هضاب محصاة وسهوب جافة كثيرا ما تتحول الى صحراء قاحلة بين حافة هضاب وجبال الأناضـول (سلسلـة

---

2 — راجع :
NASIR, KHOSRAW, SAFERNAME, TRAD. SCHEFER, SAFER NAMEH. — Relation de voyage de Nasir Khosraw en Syrie, en Palestine, en Egypte, en Arabie et en Perse, pendant les années hégire, 437-444 (1035-1042), Paris 1888, p. 152.

الجبال التركية المشرفة على البحر الابيض ، وكتلة الجبال التي تمتد فى شرق تركيا) ، وحافة الهضاب والجبال الايرانية (زغروس ولورستان) والبحر الابيض (من جهة سوريا وفلسطين) . وأما الواحات ، فهي فى معظمها متوسطة الاتساع ولكنها خصبة الارض بفضـــل امكانيات الري المتوفرة فيها ، وهي تستلزم عملا كثيرا . ومتى انعدمت صيانة التربة فيها ، تحولت الارض بسرعة الى سهوب صحراوية (وهو ما يحدث فى أوقات اضطراب الامن) ، وحينئذ تصبح مسرحا ومرتعا للبدو الرحل .

وفى غضون الفترة التي ندرسها ، كانت المنطقة السفلى الواقعة بين النهرين كثيرة الخصب ، بفضل الاعمال الزراعية التي أنجزت قبل عهد الساسانيين . وقد اتسعت مساحة الاراضي الزراعية فيها بفضل المناطق التي وفرت لها وسائل الري والتجفيف حديثا ، ولا سيما الاراضي الواقعة على جوانب البطائح ، حيث ينصب نهر الفرات ، وفى جنب الكوفة ــ تلك الاراضي التي يكثر فيها القصب حاليا ، فالى هـــذه الاراضي والمستنقعات أبعدت قبائل الزط (الغجر) بحيواناتها ، التي تتكون خصوصا من الجاموس ، من ضفاف نهر السند (l'indus) وهناك أقاموا بعض الوقت حتى ثاروا على الحكم ونقلوا الى ثغـــور الأناضول السورية « القرن الثامن الميلادي . والى هذه المنطقة أيضا التجأ الزنج الذين قاموا بثورة وقاوموا السلطة فى مراكب مسطحة وفى أكواخ مخفية وسط غابة من القصب (3) .

3 ــ بدأت ثورة الزنج التي استغرقت نحو خمسة عشر عاما ، بقيادة رجل تظاهر بالدعوة الى آل البيت (محمد بن محمد بن عبد الرحيم) فى سنة 255 هـ . ــ وقد نجح هذا الخراساني فى كسب ثقة العبيد الزنج الذين التفوا حوله واختاروا مدينة البصرة مركزا لحركتهم بعد أن طاردوا واليها وأحرقوها واعملوا السيف فى أهلها . وكذلك فعلوا بمدينة واسط عندما احتلوها فى سنة 267 هـ ، ولم تتمكن جيوش الدولة العباسية من الصمود فى وجه طائفة الزنج الا سنة 267 هـ . حينما أنزل بهم أبو العباس الموفق الهزيمة الاولى . واخيرا تمكن الموفق من القضاء على ثورة الزنـج فى سنة 270 هـ . (راجع : الكامل لابن الأثير ، ج 70 ص 159) . (المترجم) .

وقد اعتمدت الحكومة فى الدولة العباسية سياسة للأعمار والتنمية الزراعية ، تقوم على نظرية أبي يوسف يعقوب ، أحد علماء الفقه والاصول فى العصر العباسي (4) . وهذه النظرية تمنح حق الملكية والاعفاء من الضرائب لكل رائد يستوطن الارض الموات ويحييها ، الامر الذي نجم عنه اتساع الاراضي المروية والمستصلحة، ولا سيما فى سواد العراق. وقد أخصبت هذه الارض ذات التربة السوداء والتي كانت تستغل لانتاج المواد الغذائية لسكان المدن ، بواسطة الطمي الذي يحمله النهر .

وكذلك عرفت المناطق السفلى الواقعة بين النهرين . والتي كانت مركز الخلافة العباسية ، ازدهارا مدنيا عظيما . وقد كانت بغداد والبصرة والكوفة وواسط وسامراء (5) ، التي كان سكانها يعدون بمئات الآلاف ، من أهم كبريات مدن هذه المنطقة . وكانت أرض سواد العراق ، بخصبها الطبيعي تشبه الارض المصرية ؛ وبفضل عمل الفلاحين والمزارعين وعمال الري المستمر فيها ، تمد هذه المدن جميعا بما تحتاج اليه من المواد الغذائية ، ولا سيما من التمر والقمح والشعير ، بل وأيضا بالأرز الذي كان يزرع فى المنطقة منذ عهد الساسانيين والذي ستدخل زراعته الى حوض البحر الابيض المتوسط فى العصر الاسلامي . ولكن هذه المنطقة ، على الرغم من خصبها ووفرة انتاجها ، كانت تستورد القمح من مصر ، والدقيق من سورية .

وكما ذكرنا ، فان الواحة الواقعة بين النهرين لا تشكل وحدة ، وانما هي تنقسم الى عدة مناطق ذات خصائص مختلفة . أولا توجد خوزستان

---

4 ـ هو يعقوب بن ابراهيم بن حبيب الانصاري الكوفي ، أبو يوسف (113–182 هـ) . صاحب الامام ابي حنيفة وتلميذه واول من نشر مذهبه . كان فقيها من حفاظ الحديث واول من وضع الكتب فى الأصول . وقد ولي القضاء أيام المهدي والهادي والرشيد ومات فى خلافته ببغداد . ومن اهم كتبه : « الخراج » و « الآثار » وهو مسند ابي حنيفة ، و « الرد على مالك بن أنس » . «المترجم»

5 ـ تقع سامراء التي تسمى أيضا « سر من رأى » على الضفة اليمنى لنهر دجلة على بعد 100 كيلومتر شمالي بغداد . وكان المعتصم العباسي هو الذي شيدها واتخذها عاصمة لملكه . وأهم آثارها اليوم ، قصر المتوكل . «المترجم»

التي تقع في الجنوب الشرقي لما بين النهرين والتي تشمل حوض قارون . حيث كان الساسانيون قد قاموا بتنفيد أعمال مهمة مثل حفر السدود وقنوات للري تصلح للملاحة أيضا . ومنذ نهاية عهد الساسانيين كانت هذه المنطقة تنتج كميات كبيرة من قصب السكر . تلك النبتة التي استجلبت من الهند والتي ستتوغل في الاتجاه الغربي في العصر الاسلامي. وقد كانت منطقة خوزستان أكبر مورد للسكر الى جميع بلدان المشرق الاسلامي . وكان هذا السكر يشمل مختلف الانواع . ومنها البني . والسكر المشوب الذي نعرفه حاليا . والسكر الشفاف الذي أمكن انتاجه بفضل التقدم التقني الذي حققته مصر . وأما اليد العاملة في مزارع قصب السكر . فقد كانت تتألف من العبيد الزنوج . الذين يستجلبون من شواطيء افريقية الشرقية وينقلون عن طريق جنوب شبه الجزيرة وعمان والشواطي الايرانية : مكران — كيرمان : ليصلوا الى خوزستان .

ويأتي بعد ذلك سواد العراق الذي يمتد بين البطائح وخط ينطلق من تكريت الى هيت . وهذه المنطقة عبارة عن حقول على مد البصر يغطيها القمح والشعير والأرز وأشجار النخيل .

وأخيرا تأتي المنطقة العليا لما بين النهرين (الجزيرة) التي تشمل سلسلة من الواحات على طول دجلة (الموصل وآمد وديار بكر) والخابور حتى منعطف نهر الفرات . وهذه المنطقة في الوقت الحاضر ، عبارة عن سهوب قاحلة يجوبها العرب الرحل طلبا للمراعي . ولكنها في العصر الاسلامي ، كانت عامرة بالسكان المقيمين .

والانتاج الذي اشتهرت به هذه المنطقة عند الجغرافيين العرب ، هو قطن الخابور الذي كان يصدر الى الموصل ، ثم الى بغداد ، حيث كان

يمزج بالحرير وتصنع منه الاقمشة البغدادية المشهورة ؛ أو الى أخلاط وغيرها من مراكز صناعة النسيج في أرمينيا .

ومزارع القطن كانت تروي بواسطة قنوات حفرت تحت الارض ، ونظام الري هذا مأخوذ عن آسيا الوسطى .

وبعد ما رفعت الحدود التي كانت تفصل بين الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الساسانية اللتين أصبحتا تشكلان العالم الاسلامي ، أمكن تكييف القطن وزراعته في الشمال ؛ ثم في جنوب سورية . وهذه المنطقة أصبحت في العصور الوسطى المورد الرئيسي للقطن لجميع بلاد البحر الأبيض المتوسط .

ومن منعطف الفرات حتى مرتفعات الأرض السورية ؛ تمتد سهوب ومراعي ، ولكن الأرض في الاتجاه الجنوبي تصبح صحراوية تدريجيا (بادية الشام) ، ولو أن تربية الحيوانات أمر ممكن دائما بالانتجاع بين جوانب بادية الشام (في الصيف) ووسط المنطقة (في الشتاء) . وتربى في هذه المنطقة ، خصوصا الجمال التي تستعمل للنقل .

وهذه المنطقة مركز مهم للاتصالات تنطلق منه شبكة من طرق المواصلات في شكل مروحة . فعند هذه المنطقة ينتهي طريق للملاحة البحرية من المحيط الهندي والملاحة النهرية عن طريق دجلة ثم الفرات ويتصل بسورية الشمالية ، والطريق البرية التي تربط ايران وبغداد ، مارة بمنعطف الفرات في سورية نفسها . (6)

وسورية ، مثل بلاد ما بين النهرين ؛ تتكون من عدد من الواحات الغنية الخصبة ، تتلقى كميات معتبرة من الطمي الذي تحمله الأمطار الغزيرة التي تحفر مجاري وتقتلع الأشجار ، وهي تهبط سيولا من كتل

---

6 - راجع الخرائط المرفقة بكتاب :
R. BUSSAUD, *Topographie Historique de la Syrie Antique et Médiévale*, Paris, 1927.



الشكل رقم ٣ ـ اراضى مابين النهرين

الحصى والصخر المرتفعة . ففي كيليس ، أصبح من الممكن زراعة المحاصيل الاستوائية ، بفضل توفر وسائل الري . وأهم هذه المزروعات هي قصب السكر والقطن . وفى البقاع تصلح زراعة القمح . وكذلك تزرع المحاصيل الاستوائية فى الغور ، فى الأردن . وأهم هذه المزروعات هي قصب السكر والقطن والأرز الذي أدخلت زراعته الى المنطقة فى العصر الاسلامي .

وأما واحة دمشق التي تروي منطقتها المياه التي تهبط من الجبال التي تفصل بين سورية ولبنان ، ومن حرمون (جبل الشيخ) فهي عبارة عن حديقة غناء واسعة الأرجاء (الغوطة) ، تختلط فيها أشجار الجوز بأشجار التين والزيتون وغيرها من أنواع الثمار . وقد كانت المربى التي تصنع فى دمشق تتمتع بسمعة عالمية فى العصور الوسطى . وكانت تصنع من الثمار الدمشقية وتحلى بالسكر السوري . وبالمثل ، كانت الشواطيء السورية عبارة عن واحات من الحدائق ، ولو أنها تمتد على مساحات محدودة ، وذلك لأن كتلا جبلية تهبط فجأة الى البحـــر . والشواطيء السورية عبارة عن شريط من السهول كثيرا ما تقطعها الجبال .

وهذه الشواطيء تنتشر فيها المراسي التي كان يتردد عليها البحارة الفنيقيون ثم البحارة الهلينيون والرومان والبيزنطيون ، وأخيرا البحارة المسلمون . ودور صناعة السفن ، تتلقى الخشب الذي تنتجه سورية الشمالية ولبنان . وهذه الشواطيء ، تشكل واجهة البحر الأبيض المتوسط للبلدان الواقعة على الخليج العربي .

ومن الناحية الديموغرافية يعتبر سكان سورية امتدادا لسكان بلادما بين النهرين ، وهم من العنصر السامي ، وذلك فيما يتصل باللغة والعادات والتقاليد واطار التفكير على السواء والسوريون يشكلون حافة العالم العربي ، والبوتقة التي انصهرت فيها العناصر السامية التي خرجت من شبه الجزيرة العربية فى عدة موجات ، كانت آخرها هي الغزو الذي وقع

فى القرن السابع الميلادي . ففي سورية تتعايش جنبا الى جنب فئات من السكان غير الآريين الذين جاءوا اليها حديثا من شبه الدائرة التي تشكلها الجبال الشمالية (آسيا الصغرى وأرمينية وايران) ؛ بل وتوجد فيها جميع العناصر التي توجد فى افريقية وآسيا . وذلك لأن سورية كانت مفتوحة وتشكل ممرا تشعر مختلف العناصر بانجذاب خاص الى مدنه الكبيرة ذات الحضارات القديمة ، والسكان ذوي المنشأ الاجنبي والمتعددي الاصول . وهؤلاء السكان يستعينون بالرقيق وبالجنود المرتزقة من مختلف الالوان واللغات ، من الاتراك والسود والصقالية . فالقاعدة اذا هي من الساميين ولكن تيارات عديدة جديدة من السكان اختلطت واندمجت فيهم مع مرور الزمن ، وقد زاد اختلاط العناصر ، خصوصا ، فى العهد الاسلامي .

ولكن اللغة ستظل العامل الأكبر فى هذا الاختلاط . وهنا لا بد من أن نلاحظ السهولة التي يمكن الانتقال بها من لغة سامية الى أخرى ، بسبب الاصل الثلاثي الصوامت الذي تحتفظ به الكلمة حتى حينما يكون النطق مختلفا .

والسوريون الذين كانت آفاق النشاط الشرقية مغلقة فى وجوههم فى العصور الوسطى بسبب « الحائط » الساساني ، تحولوا الى البلاد الغربية التي يسيطر عليها البرابرة . وقد استمر الامر على ذلك حتى استنزف الغرب احتياطه من الذهب . وهذا الشعب سيجد مجالا فسيحا لنشاطه الاقتصادي فى المناطق التي وحدها الاسلام . وهذه المجموعة من العناصر ستتجه الآن من جديد بنشاطها نحو بلاد ما بين النهرين وهنا ، كما هي الحالة فى المحيط الهندي ، سيدخل اليعاقبة والنساطرة فى منافسة. وكذلك التحم العالم الارميني بالخليج العربي والبحر الابيض المتوسط، وأصبح يمد فى اتجاه الغرب شبكة من العلاقات الاقتصادية والثقافية .

وضمن هذا التقارب سيحمل فى طياته منافسة واصطداما ، بل ونضالا خصوصا بين الجانب السوري وما بين النهرين فى المنطقة .

كانت دمشق عاصمة الخلفاء الأمويين . والمدينة تقع على حافة بادية الشام . ونظرا للثورات وحركات العضيان التي كانت تضطرب بها منطقة ما بين النهرين ، ولا سيما الكوفة والبصرة ، فقد رأى آخر خلفاء بني أمية ، مروان الثاني ، نقل العاصمة من دمشق الى حران ، فى المنطقة العليا بين النهرين .

ولما انتصر العباسيون ، لم يختاروا دمشق عاصمة لهم . فان نفوذ الايرانيين ، والقوات العسكرية الخراسانية ، والمستشارين الذين جاءوا من ايران الشرقية ، والبرامكة ، رجحوا كفة اختيار منطقة ما بين النهرين لاقامة أسس الدولة الجديدة . وهذه المنطقة التي تفضي ايران ، آرامية، ولكن التقاليد الايرانية قد استقرت فيها منذ عهد الساسانيين . وبعد محاولات لبناء عاصمة قام بها الخليفة العباسي الاول ، أبو العباس السفاح ، وكلها جرت فى منطقة الأنبار ، حيث ينصب نهر عيسى فى الفرات ، قام الخليفة العباسي الثاني ، المنصور ببناء بغداد على الطرف الآخر من نهر عيسى ، حيث ينتهي نهر عيسى الى دجلة . والارض التي بنيت عليها بغداد ، كانت حينئذ عبارة عن عدد من القرى ودير للنساطرة.

وأما سكان العاصمة الجديدة ، فقد جيء بهم من مختلف أنحاء المملكة، ولكن الاصل المتغلب فيهم آرامي . وعن طريق نهر عيسى ونهر الفرات، وعن الطريق التي تصل بالس بانطاكية ودمشق والقدس ، أمكن احداث وصلة بين مركزي العالم الاسلامي ، بلاد ما بين النهرين وسورية .

الفصل الثاني

العالـم الايرانـي

اذا خرجنا من العالم السامي الذي يتحدث اللغة العربية والآرامية ، تلك المنطقة التي شاهدت الانتصارات العربية ، واذا خرجنا من منطقة البرازخ التي شهدت فى جميع الأزمنة تنافسا بين طرق الخليج العربـي وطرق البحر الاحمر ، بدت لنا النجود الايرانية كما لو كانت عالما آخر ، يسكنه خلق آخرون يتحدثون لغة أخـرى ويعيشون فى اطار حضارة تختلف تماما عن الحضارة السائدة فى المنطقة السابقة .

تطـور دور ايــران

كانت ايران فى العهد الساساني تشكل وحدة مع ما بين النهرين . وأما عاصمة الساسانيين فقد كانت اكتزيفون التي تقع فى أرض آرامية . ولكن تيارات التبادل (الحروف الهجائية والالفاظ اللغوية والمهـارة التقنية والافكار) كان قويا بين المنطقتين .

والفتح العربي الذي سار على طول الطريق التي تربط ما بين النهرين بايران وآسيا الوسطى ، والذي طرد آخر الملوك الساسانيين ، كان أشبه ما يكون بنزهة ممتعة . فبعد احتلال ممرات ومضايق سلسلة جبال آسيا الغربية التي تشرف على ايران وما بين النهرين والخليج العربي ، تـم للعرب الاستيلاء على الواحات والمدن التي تمتد على طول طريق القوافل

التي تساير وادي ديالي ، والانتصار فى معركة نهاوند فى سنة 642 م وقتل يزدجر الثالث فى مرو ، فى سنة 652 م .

وقد شهدت الخلافة الاموية ، استقرار غزاة جدد يمثلون استعمارا حقيقيا للأرض من الجنود الذين كانوا يقيمون فى البداية فى أحياء تبنى بجانب المدن القديمة الأهلية ، وهي عبارة عن مدن صغيرة قائمة بنفسها ولها قلاعها ومساجدها وأسواقها الخاصة بها وكذلك تكونت مناطق سكنية مزدوجة : المدينة القديمة الأهلية التي تؤدي اليها أربعة أبواب (وتسمى بالفارسية : شهرستان)،وبجانبها مدينة من مدن الضواحي(تسمى بالفارسية : بيرون وبالعربية الربض) ، وهي مدينة الجنود الغزاة . وهذا الازدواج للمدن واضح ولاسيما فى خراسان وفى ماوراء النهر وفى مرو ، وبخاري وسمرقند . وهذا التصميم بلغ فى بعض الحالات ، مثلما فى بلخ ، حدا قامت معه مدينة ثانية منفصلة ، على مسافة بضع كيلو مترات من المدينة القديمة .

كان الأنصار الأوائل للدولة العباسية ومستشارو الخلفاء الأوائل ينتمون الى شمال شرقي ايران ، خراسان وما وراء النهر . وفى عهد بني العباس ، انتهت حركة استعمار الجنود للأرض وحل محلها اتجاه معاكس . فقد أصبحت ايران مركزا قوي النفوذ وذا تأثير خطير الشأن فى جميع أنحاء الشرق الاسلامي وقد رافق نفوذ الفرس السياسي انتعاش اللغة الفارسية والأدب الفارسي . ففي أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر وضع الفردوسي ، كتاب الملوك « الشهنامة » . بل أن الفرس كانوا يبذلون جهودا لنشر اللغة الفارسية بين الترك فى آسيا الوسطى وفى الهند . وهذه الجهود ستستمر حتى عهد كبار المنغول .

وقد ظهرت محاولات نشر النفوذ والثقافة الفارسية بين الغزاة السامبين ، خصوصا على مستوى المدن . فقد انتهى عهد المدن المزدوجة وأصبح الاتجاه الآن الى توحيد المدن التي كانت تعاني من ظاهرة الانفصال . وكذلك أصبحت « شهر ستان » كما تسمى المدينة الموحدة بالفارسية مقرا للحكومة ومركزا للادارة (قصر الحاكم والمكاتب الادارية) والنشاط الاقتصادي (الأسواق) والديني (المساجد الكبيرة) .

وفى ضواحي المدينة القديمة وعلى جنباتها ، كانت تبنى أحياء شعبية جديدة (بدلا من مدينة منفصلة) . وفى نفس الوقت أصبحت مقرا لأسر الأمراء التي تتمتع باستقلال نسبي عن بغداد ، بقصورها ومظاهر أبهتها ووسائلها لنشر النفوذ والثقافة الفارسية . وبذلك استقر نفوذ النخبة الايرانية وسيطرتها على طول طرق القوافل المؤدية الى الغرب والمؤدية الى الشرق والجنوب .

البلاد الايرانية :

ايران بلد واسع يتكون من صحراء مشبعة بالملح ومن سهوب قاحلة وجبال عارية ، بالاضافة الى بعض المناطق الخصبة التي تشبه واحات من الحدائق والحياة العمرانية . وبالقياس الى السهوب والصحراء ، تعتبر هذه الواحات جنات وارفة الظلال . فى قلب الواحة ، تقوم ، عادة ، مدينة كبيرة تزين جنباتها حدائق غناء ، تروي بنظام للري يتكون من قنوات مدت تحت الأرض ، وذلك تفاديا لتبخر الماء فيها تحت تأثير حرارة الشمس .

وقد شاهد العصر العباسي الذي كمل الأعمال الكبرى التي بداها الساسانيون ، نموا كبيرا فى المساحات الزراعية المروية ، الأمر الذي سمح بازدهار المدن الموجودة وبيناء مدن جديدة وهذا النظام الايراني

للري سينتقل عن طريق الصحراء والواحات ليصل الى جنوب الجزائر « فجاره » وجنوب المغرب الأقصى « خطاره » بل ان قبائل الطوارق التي وصل اليها هذا النظام سيسمونه « النظام الايراني » (1) .

وهذه الواحات تمتد عند أقدام الجبال الداخلية وسلسلة جبال آسيا الوسطى التي تقسم البلد الى منخفضين صحراويين . والمياه النازلة من الجبال تحبس بعناية لتنتفع بها مراكز العمران المجاورة ، وهي عبارة عن سلسلة من المدن التي تستخدم محطات لطرق القوافل . وفى هذه الطرق تسير جمال ذات سنامين ، تربى فى منطقة بلخ ، احدى عواصم خراسان ، والجياد الايرانية التي تحمل على متنها فرسانا مدججي السلاح من النوع الذي تمثله النقوش البارزة فى آثار الساسانيين . والمشتغلون بتربية الجمال ، ومعظمهم من الأكراد ، يحتلون حافات الهضبات التي تهبط الى ما بين النهرين . وكردستان ولورستان ، وهي أراضي ينتجعها البدو الرحل ، كانت دائما تحتفظ باستقلالها تجاه الدول الكبيرة والادارات البيروقراطية التي تحتل السهول المجاورة ، مثل قدماء ملوك الفرس والساسانيين والخلفاء . وقد كان هؤلاء الأقوام الذين يحمي من غائلتهم تنظيم الأمن العام فى السهول ، دائما مصدر تهديد بغزواتهم لهذه المنطقة . وكذلك نجد منطقة واسعة للرعي غير خاضعة للقانون ــ كما هي الحالة اليوم ــ تمتد بين سهول ما بين النهرين والهضاب الايرانية ، وتفصل بين البلدين .

وللنفوذ الى هذه المنطقة ، كانت توجد ثلاث ثغرات ، وهي منتهى طرق القوافل وتحرسها قوات الأمن العام.أولا ، توجد الطريق المؤدية الى أرمينيا مارة بوادي دجلة وبتلس Bitlis ثم بجزيرة ابن عمر ، الى

1 ــ راجع :

H. GABLOT : Dans l'ancien Iran. Les Techniques de l'eau et de la grande histoire Annales E.S.C., 1963, pp. 499-519.

أخلاط . وثانيا الطريق الكبرى المؤدية الى ايران من بغداد مارة بوادي ديالي ، وتصل الى كرمانشاه وهمذان ، ومن هناك تتجه الى زنجان وأذربيجان وأرمينيا ومدينة أطرابزنده ، أو الى أران ، ودربند (باب الأبواب) واتل . وأخيرا توجد الطريق التي تخترق « الجبال » وتصل الى الري (طهران) ومن هناك تتجه عن طريق خراسان نحو آسيا الوسطى .

وكذلك يوجد خط للسير يؤدي من بغداد الى خوزستان والى فارس (شيراز) .

ومن الجنوب الشرقي أيضا ، يحد ايران حاجز من السكان البدو وسكان الجبال العصاة،وهم البلوتش (سكان بلوخستان) والأفغان الذين نقلهم الساسانيون من آسيا الشرقية الى هذه المنطقة . وهنا أيضا ، لا تمتد الطرق التجارية ومراكز الحضارة والعمران ، الا فى شريط ضيق من الأرض تحرسه عدد من القلاع والحصون : بلخ وهراة ، وقندهار ، وغزنة ، وكابل .

وكذلك يجب أن نفرق فى ايران ، بين سكان أطراف الجبال والأخاديد الوسطى ، وهم من الرحل الذين يعتمدون فى معيشتهم على الرعي ، وسكان المنخفضات الصحراوية وخط الواحات الذي يمتد ، أما فى الداخل على حافات وسفوح الجبال ، أو فى الخارج (ايران الخارجية) : خوزستان ، وأران (الأراضي « رفيتية » التي تقع جنوب القوقاز) ، وطبرستان (الشواطيء الجنوبية لبحر قزوين) ، وأ الواحات الواقعة فى آسيا الوسطى : مرو ، وما وراء النهر ، وخوارزم (دلتا نهر أموداريا « جيحون » ، عند بحر الأرال) .

وكانت الدولة الساسانية قد أقامت فى ولايات الثغور أربع حكومات

مدنية أو عسكرية . وكانت هذه الولايات هي أذربيجان التي تمتد فى الشمال الغربي ، وفارس ، التي تقع فى الجنوب الغربي ، وسجستان ، فى الجنوب الشرقي ، وخراسان ، فى الشمال الشرقي . وهذه الولايات تتفق مع ثلاثة اتجاهات كبرى : فان باب أذربيجان ينفتح على أرمينيا والقوقاز ، وباب زغروس ينفتح على ما بين النهرين ، وباب قندهار يؤدي الى الهند ، وباب خراسان يوصل الى السهوب التورانية وآسيا الوسطى والصين .

وهذا التقسيم قد احتفظت به الدولة العباسية فى العصر الاسلامي .

أذربيجـــــان :

أذربيجان بلد جبلي يشكل استمرارا لأرمينيا ووصلة مع الهضاب الايرانية ، وهي منطقة جبلية جافة فى الداخل ، ولكنها توزع الرطوبة على المنخفضات والسهوب المجاورة التي تصبح خصبة بمجرد ما تتوفر لها وسائل الري . وأذربيجان تشكل أيضا معبرا تمر به الطرق التي تتجه نحو أرمينيا حتى أطرابزنده ، ثم الى همذان وبلاد ما وراء النهر . ودور أذربيجان التجاري كان دورا عظيما . وقد كانت أسواق ومعارض كبيرة تعقد فى تبريز . والى الشمال ، تقع برذعة ، فى أران ، وهي تشكل احدى الثغور المتقدمة للدفاع عن ايران فى الغرب ، بمضيق باب الأبواب .

وباب الأبواب ينفتح فى سور ذي فواصل من الرصاص المذاب بنيت لمنع غزوات شعوب الخزر والتوران .

جنوب بحر قــزوين :

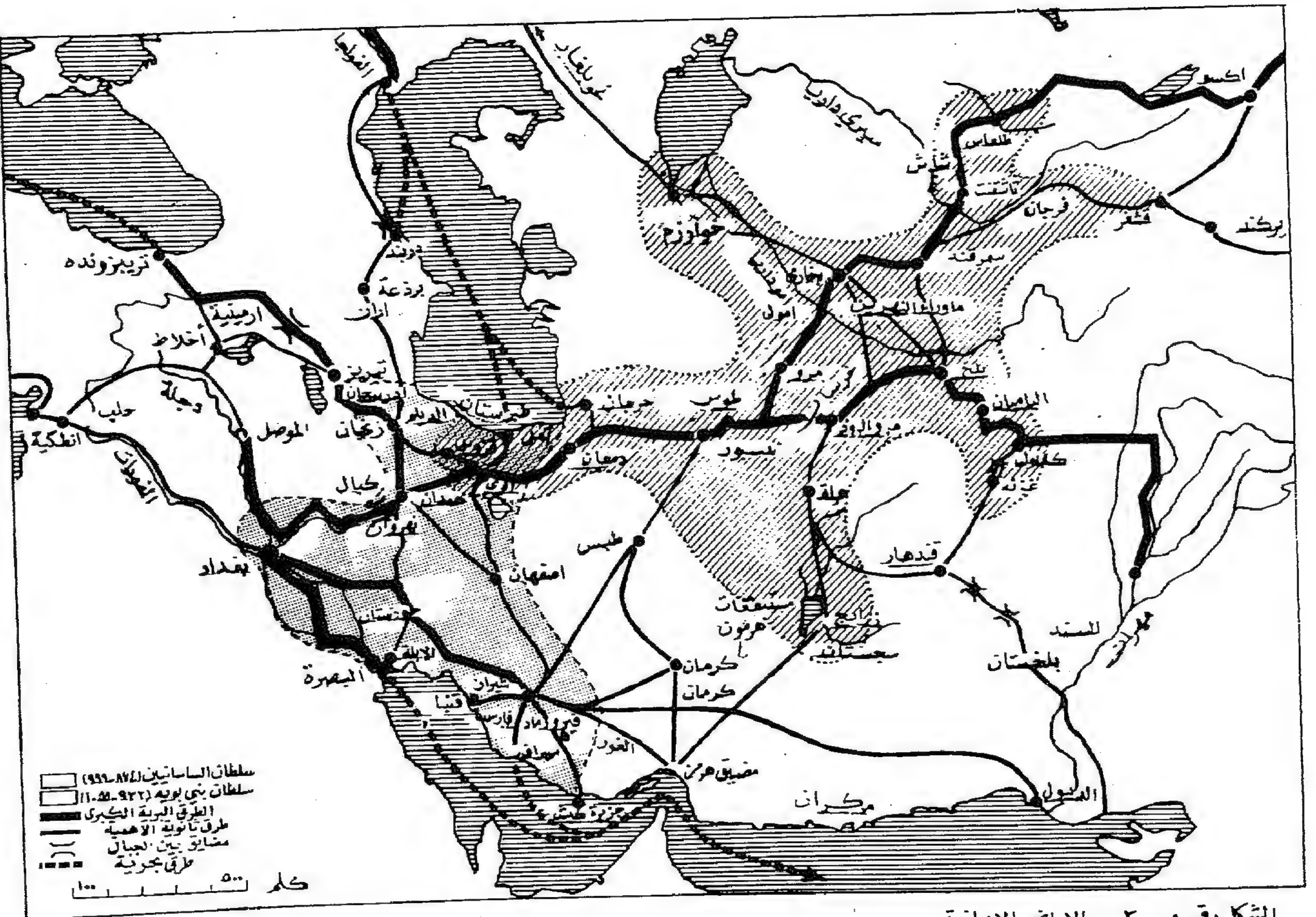
يفصل حاجز ضيق ولكنه مرتفع ايـران عن جنوب بحر قزوين ، وهو كتلة جبال البرز ، حيث يوجد بها بركان يقع على ارتفاع ما يقرب من 6000 متر عند ، دمافند (Demavend) وعند السفوح الجنوبية لجبل البرز ،

تنتشر واحات ، تستخدم محطـات عـلى الطريق التي تمـر بزنجان وقزوين والـري ودامجـان وبسطام . وأهم هذه الواحات هي الـري . وفى هذه المنطقة يجري نهر ، نهر كـزيل أوزن ، ينصب فى بحر قزوين ، بعد ما يخترق سلسلة جبال تسير موازية لها طريق تؤدي من الهضبات الى ميناء آمـل ، على بحر قزوين . والـري كانت مستودعا كبيرا للسلع التي تحملها القوافل التي تسير فى اتجاه خراسان وفى اتجاه بغداد وفى اتجاه فارس . وهذه المدينة المشهورة بصناعة الخزف تحتل مكانة مهمة فى عالم التجارة والثقافة .

وفى القرن الثالث عشر ، اختفت الـري وتضاءل دورها ، لتحل محلها طهران التي كانت احـدى ضواحيها . وقد لعبت الري دورا هاما ، خصوصا ، خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر،يشهد به ما وراء ابن خرداذبه ، فى منتصف القرن التاسع الميلادي . فالى الري كان التجار الروس ، أي الصقالبة والسكنديناويون ، يحملون السيوف والفراء . ولكن هؤلاء الروس ، أو المجوس ، كانوا يقومون أيضا بغارات نحو الجنوب للنهب والسلب .

وقد كانت برذعة ضحية لهذه الغارات مرتين فى النصف الاول من القرن العاشر ، فى سنة 913 م . وفى سنة 944 م .

وفى شمال البرز ، تمتد حافة ضيقة يكثر فيها الطمي ، على ضفاف بحر قزوين ، ولكنه لا يوجد فى هذه المنطقة سوى عدد صغير من المراسي المنيعة . وهذه المنطقة تمتاز بطقسها الحار والرطب وبهوائها الوخم ، بحيث كانت طبرستان تعرف ببلد الحمى . وهذه أيضا هي الحالة فى جيلان ومزندران والديلم . وفى الغابات الواسعة ذات النباتات الغزيرة التي تنتشر فى هذه المنطقة تعيش النمور والفهود .



الشكل رقم ٢ - الاراضى الايرانية

وأما الديلم ، فقد ظل عهودا طويلة مستودعا للاحتياطي من الرجال : العبيد والجنود المرتزقة وحرس الخليفة . ولم يستقر الاسلام فى الديلم الا فى أواخر القرن التاسع الميلادي ، وكان ذلك خصوصا بفضل الدعاة العلويين . ومنذ نهاية عهد الساسانيين ، أدخل الى الديلم عدد من المزروعات : الأرز ، والقطن وقصب السكر ، والبرتقال ، وشجر التوت « صناعة الحرير » . وقد شجع الخلفاء المسلمون هذه المزروعات التجارية والصناعية فعرفت ازدهارا كبيرا ، أدى بدوره الى ازدهار حياة المدن .

ـ ونحن نذكر بأن هذه المنطقة كانت مرحلة هامة فى انتشار تربية دودة الحرير من آسيا الوسطى نحو أذربيجان واران وأرمينية ، ولكن طريقا قد أوصل هذه التقنية الى سورية الشمالية أيضا ، تحت الامبراطور أجوستينيان الأول ، فى القرن السادس الميلادي . ومن سورية الشمالية، توغلت تقنية تربية دودة الحرير فى جميع المناطق الملائمة على ضفاف البحر الابيض المتوسط فى العصر الاسلامي .

خراسان :

تشتمل منطقة خراسان على عدد من الجبال التي تربط البرز بپامير Pamir ولكنها قليلة الارتفاع (أقل من 3000 متر) وبين تعرجات هذه الجبال ، نجد كثيرا من المنخفضات التي يسهل المرور منها ، ولاسيما ، على « طريق الحرير » المتجهة الى آسيا الوسطى ، والتي كانت أيضا الطريق التي سلكها كبار الغزاة الذين يأتون من الشرق (الأتراك والمنغول) . وخراسان تحمي ايران من الشرق ، كما تحميها أذربيجان من الغرب . وخراسان عرفت بالتنظيم العسكري (مرزبان) المحكم . فمن هذه المنطقة انطلقت حركة بني العباس فى القرن الثامن الميلادي ،بتأييد جيش

خراساني . وعند أقدام الجبال ، تنتشر المدن التي تحيط بها حقول وغياض خصبة تنتج الأرز والقطن ، وخصوصا الحبوب .

واما المنطقة الغربية من خراسان التي تقع فيها نيسبور وطوس (مشهد) . فقد كانت هـري جميع ايـران الشرقية . ومدن هذه المنطقة مهمة . ومن أهم هذه المدن التي لعبت أدوارا كبيرة ، حسبما تقول الرواية الايرانية التي رددها الفردوسي في الشهنامة ، بلـخ (بكتـر) ومـرو (مرجيان) وهـراة (أريـا) . ولكنه يجب أن نضيف الى هذه المدن الثلاث نيسبور ، أو « شبور الجديدة » .

وبلخ تقع مقابل مجرى نهرجيحون (أموداريا) وماوراء النهروعندأقدام الكتلة الجبلية التي تمتد بين بامير وكوان لوان (مضايق باميان وكابل وبشاور) . ومن هذه الممرات والمضايق يمكن الدخول الى الهند عن طريق قندهار وكابصا ، وهما مملكتان اغريقيتان بوذيتان ، يمتزج فيهما تأثير الثقافة الايرانية والثقافة الهندية .

ومن هذه المضايق تمر الطرق التجارية التي تربط ايـران من جهة وتوران والهنـد ، من جهة أخرى . وهذه الطرق هي التي سلكتها جيوش الغزاة والدعاة والمبشرون وتوغلت منها مختلف أنواع النفوذ ، ومنها دخلت البوذية من الهند الى ايـران ، وبها كان يمـر الحجاج الآتون من الصين ، مثل هيوان تسانج (629 ــ 645 م) .

وعند مضيق باميان ، كانت تقع تماثيل منحوتة من الحجر الصلد لبوذا .

وعلى هذه الطريق ، في بلخ ، كان يوجد دير بوذي كبير يكاد يكون مدينة مستقلة بنفسها ، يسمى « الدير الجديد » كان يشرف عليه كاهن كبير ، أو « برمكا » . وبعد الفتح الاسلامي ، اعتنق هذا الكاهن

الاسلام وحول ممتلكات ديره الى الدولة . وهذا هو أصل البرامكة الذين كانوا أعوانا ومستشارين لأوائل الخلفاء العباسيين .

وكذلك دخلت الى بغـداد العادات والتقاليد التي كانت سائدة فى شرق ايـران والهند والصين مع البرامكة وغيرهم من ذوي النفوذ من أبناء هذه المنطقة . وكان جعفر البرمكي أول من أدخل الورق رسميا فى مكاتب الدولة وأسس مصنعا لصنع الورق فى بغداد فى سنة 794 — 795 ميلادية ، فى عهد هارون الرشيد . وقد كان هذا المصنع نواة لسلسلة من مصانع الورق انتشرت فى مختلف أنحاء العالم الاسـلامي وكان أول ما ورد ذكر الورق فى مصر ، سنة 796 ميلادية .

ومـرو (ماريجان) عبارة عن واحة فى عرض الصحراء وهي مرحلة مهمة فى طريق القوافل التي تسير بين نهر أمو داريا وايـران . ومـرو فى هذه المنطقة تشبه فى وضعها تدمر فى سوريا .

وأما نهر جيحون (أموداريا) ، فكان يقطع فى تشارجوي (آمـل) فى اتجاه بخارى وسمرقند .

ونيسبور التي هي مدخل ايران مـن الشرق ، كمـا أن أذربيجـان مدخلها من الغرب ، كانت ، مثل المدينة الاخيرة ، مدينة تجارية كبيرة بل ان نيسبور ستصبح فى القرن الحادي عشر الميلادي ، بعد ما فقدت بغداد كثيرا من مكانتها ، أهم من بغداد نفسها ، من الناحية الاقتصادية وأكثر منها سكانا وأوفر عمرانا . وقد اتخذها السلاجقة عاصمة لهم . ولكن المنغول خربوا عمارتها وأصبحت اليوم عبارة عن قرية لا يزيد عدد سكانها عن عشرة آلاف نسمة .

وقد حل محل نيسبور مدينة مشهد (طوس) التي يوجد فيها ضريح الامام الثامن علي الرضا ، مزار الشيعة الايرانيين . والجبل الذي يمتد بين نيسبور ومشهد يحتوي على معادن مهمة : الفضة ، وخصوصا الرصاص .

وهذه المنطقة يخترقها عدد من الانهار التي تنزل من جبال الكتش الجرداء وتروي مناطق خصبة .

وأما هـراة (اسكندرية آسيا) (2) ، فهي مدينة تجارية كبيرة ، تقع على طرف مستديرة تمر ببلـخ ، ومـرو ، وهـراة ، وقندرهار ، وغزنة ، وتحيط بمنطقة الكتش الغربية لتهبط الى حوض كابل ووادي السنـد (L'indus) . وهذه المنطقة أيضا مهمة بمعادنها الحديدية التي تقع غير بعيد من هراة ، والتي كانت تستغل طبقا للطرق التقنية المعروفة فى الهند لصناعة الفولاذ ، وخصوصا لصنع أسلحة تصدر الى الخارج .

سجستـــان :

تشتمل سجستان على منطقتين مختلفتين : سفوح جبـال الكتش الجنوبية ، حيث تمر الطريق التي تصل بين قندهار وهراة ومرو وبلخ ، وهي منطقة مفضلة بطرق مواصلاتها الكبرى . فأما قندهار التي تروي تربتها المياه النازلة من الجبال ، فتنطلق منها الطريق التي تتجه الى الجنوب الشرقي ، لتصل الى الهند وتنتهي عند قنديبل المشهورة بتربية الجمال البكترية . والمنطقة الثانية ، هي الحوض الصحراوي الذي يحيط ببحيرة تستغل مياهها للري ، وحيث ينصب ذراع دلتا تتغير مراكز العمران فيها باستمرار . وفى هذه المنطقة موقع للحفريات أسفر التنقيب فيه على نتائج معتبرة والمنطقة خصبة بفضل شبكة واسعة من أعمال المياه . وهي مشهورة خصوصا بانتاج القمح بحيث تعتبر هذه الواحة مخزنا ومستودعا للحبوب لتموين المناطق الواقعة فى الجنوب الشرقي . وكذلك تسمح المراعي الواسعة الموجودة فيها بتربية الدرباني الهندي(3).

---

2 — وهراة هذه هي التي يعنيها الشاعر العربي حين يقول :

هـراة ارض خصبهـا واسـع يخـرج الا بعـد مـا يفلس
مـا احـد منهـا الى غيرهـا يخـرج الا بعـد مـا يفلـس

« المترجم »

3 — حيوان ثديي من الفصيلة البقرية على غاربة سنام واحد « المترجم » .

وقد كانت هذه البلاد تتمتع بكثير من الرخاء ، وكانت زرانج مركزا للعمران فيها . ولكن تيمورلنك خرب هذه المدينة فى سنة 1384 ميلادية وقضى على نظام الري فيها . وأثر ذلك ، أخذت حالة البلد تتدهور تدريجيا وهذا يدلنا على مدى ضعف الاسس التي يقوم عليها رخاء يعتمد قبل كل شيء على نظام للري يستلزم عملا منتظما جماعيا يجري تحت اشراف ومراقبة دقيقة .

مكـــــران :

تمتد منطقة مكـــران فى أقصى الجنوب على شواطىء بحر عمـــان ، وهو بلد صحراوي قاحل لا يكاد يصلح للحياة . فان سلسلة من قمـــم الجبال يصعب المرور فيها تعزل عن داخل البلد مكران ، وبعض موانىء صيد السمك التي تقع على شواطئه والتي هي مراكز صغيرة للملاحة بين الخليج العربي وشمال الهند . وأما واحات مكران الساحلية ، فينمو فيها النخيل والقطن . وهذه الواحات لعبت دورا مهما حيث كانت مرحلة لنقل زراعة قصب السكر من الهند الى ما بين النهرين . وفى داخل المنطقة ووراء حاجز الجبال ، تمر طريق تؤدي الى أسفل وادي السند ، وهي منطقة جافة لا يقصدها الا القليلون ويسكنها خلق لا يزالون على الطبيعة الاولى (البالوتش) . ومع ذلك ، فان الجيوش الاسلامية الاولى اجتازت هذه المنطقة فى طريقها لفتح وادي السند . وبعد فتح كرمان وسجستان 634 ـــ 644 م ، قام المسلمون بمحاولة غير مجدية لفتح ديبـــول . ولكن حملة مظفرة بقيادة محمد بن القاسم وجهها الحجاج بن يوسف ، سلكت طريق مكران وفتحت الديبول ثم صعدت مجرى السند مستقلة عن خلافة بغداد .

وفى سنة 872 م ، ضمت السنـــد الى ممتلكات يعقوب بن الليث الصفري (4) فى بلاد ما وراء النهر وخراسان وسجستان وكرمان . تلك الممتلكات التي كانت تشمل جميع ايران الشرقية وما وراء النهر والسند . وكل هذه الأراضي ، أصبحت الآن خاضعة لأسرة من الامراء تكاد تكون مستقلة عن خلافة بغـــداد .

كـرمــــــان :

تنخفض الثنايا الجبلية التي تشكل الطرف الجنوبي للهضاب الايرانية بحيث يسهل المرور عن طريقها الى الداخل : كرمـــان ، وهي عبارة عن منطقة يفصل بينها وبين عمـــان الذي يمثل زاوية لشبه الجزيرة العربية، مضيق هرمز الذي يشمل على عدد من الجزر والمراسي . وميناء كيش ، وهو أكبر ميناء على الخليج الفارسي ، ابتداء من القرن الحادي عشر ، ولا سيما بعد ما حل محل سيراف الذي دمره زلزال هائل فى أوائل هذا القرن . ومن هرمز ، تنطلق طرق تتجه الى البلاد الداخلية ، نحو شيراز وفارس ونحو كرمان وراء طابس ونيسبور ، الى زرانج ووراءها نحو هراة وبلخ . والقرن الحادي‌عشر الميلادي ، هو العصر الذهبي لهرمز ونيسبور . وقد كانت عدن فى سنة 1513 وهرمز من سنة 1515 نقاطـــا استراتيجية ومراكز تجارية مهمة للبرتغاليين فى المحيط الهندي .

ان كرمـــان (أو كراماني عند ابطليموس واسترابون) لا تزال تمثل واحات مرتبة عند سفوح جبال ذات تعاريج طويلة تغلق بانحراف الهضاب

---

4 – يعقوب بن الليث الصفار ، أبو يوسف : يعتبر من أشد أمراء الاسلام دهاء واعظمهم ملكا ، وقد كان فى صغره يعمل الصفر (النحاس) فى خراسان ويظهر الزهد ، ثم تطوع فى معركة الشراة ، فانضوى اليه جمع فظفر فى معركتهم ، وبعد ذلك اشتدت شوكته فغلب على سجستان (247 هـ) ، ثم امتلك هراة وبوشنج ، واعترضـــه الترك فقتل ملوكهم وشتت جموعهم فهابه أمير خراسان وغيره ، ثم امتلك كرمان وشيراز واستولى على فارس ، وكتب الى خليفة بغداد المعتز بالله يعرض عليه طاعته ولكنه انتهى به الأمر ، الى ان طمع فى بغداد فزحف اليها وصد عنهـــا « المترجم » .

الايرانية : واحات حارة الطقس ، تظلل فيها أشجار النخيل . مزروعات أهمها الأرز والحناء والنيلة . وحقول النخيل تمتد نحو الشمال حتى واحة طبس التي كانت تملك حينئذ مائة ألف نخلة . وأما تربية الجمال فيقوم بها السكان مستغلين فى ذلك المراعي التي تمتد من الصحراء (فى الشتاء) حتى المناطق التي يسود فيها جو أكثر اعتدالا فى الأرض المرتفعة (فى الربيع) والمعادن الموجودة فى جنبات الجبال ، كانت مصدرا لنشاط كبير فى مجال استخراج الحديد والرصاص والنحاس وتحويله وفى مجال الصناعات التقليدية ، وجذوع شجر التمر الهندي ، توفر الفحم الضروري للمراجل ولانتاج الفولاذ الهندي ــ مثلما هي الحالة فى هراة ، ونحن نجد ضمن الملاحظات التي سجلها السائح ماركوبولو . ملاحظات عن « الهندواني » ، أو الفولاذ الهندي الذي يصنع فى كرمان ويستعمل لصنع الاسلحة (5) .

وأما مصانع النسيج الواقعة فى كرمان فهي تستعمل الصوف الذي تنتجه قطعان الماشية وشعر الماعز الذي يربى محليا ويجري طبع قطع النسيج بالألوان ، بواسطة قطع من الخشب المنقوش ، على الطريقة الهندية ــ الصينية التي تتبع أيضا فى مراكز النسيج الكبرى المجاورة ؛ فى فارس .

فــــارس :

تمثل جبال فارس استمرارا لجبال زغروس ، ولكنها تنخفض وتصبح أكثر بساطة فى فارس فان أودية مستطيلة مغلقة تسايرها قمم جبال تقطعها مضائق مرتفعة . ويمكننا أن نميز ثلاث مناطق بوضوح فى فارس : المنطقة التي يشتد فيها قيظ ورطوبة لا تطاقان ويسود فيها وخم وتحيط بها رمال مشربة بالبترول يكثر فيها الوباء . وهذه المنطقة تملك

5 ــ راجع :
M.C. - Barbier de Meynard « *tableau littéraire du Khourassann et de la Transoxiane au IV siècle de l'Hégire, Journal Asiatique* 5ème série, II, 1853 et III, 1854.

بعض المراسي التي تجري معاملات تجارية عن طريقها فى الخليج العربي ، ولكنها تربطها طرق رديئة مع داخل البلد ، وهي : جزيرة كيش وسيراف وجنابة . فأما سيراف فقد كانت مستودعا كبيرا للتجارة بين بلاد ما بين النهرين والهند ، كما كانت مركزا مهما لصناعة السفن ، وخصوصا السفن التجارية الكبيرة . وتستعمل هذه الصناعة الساج الذي يستـورد من شواطيء الهند الغربية ، والذي تبني به قطع الأساطيل التي تمخر عباب الخليج العربي ، ومياه جنوب شبه الجزيرة العربية والبحر الاحمـر ، وبعض قطع الأسطول المصري فى البحر الابيض .

وقد شهدت سيراف أوج نشاطها فى القرن العاشر الميلادي ، بعد عهد البصرة ، وقبل عهد هرمز . ويتصل تحول المراكز البحرية (الموانىء) فى الخليج العربي ــ البصرة وابلة وعبدان وأخيرا سيراف وهرمز وجزيرة كيش ــ اتصالا قويا بالتقلبات السياسية والاقتصادية التي نجمت عن ظهور حركة القرامطة والنزاع بين السامانيين والبرلوك وتدهور مركز بغداد وازدياد عظمة نيسبور .

وتشرف على الشواطيء بلاد جبلية يسكنها قوم يشتغلون بتربية الخيل والجمال ويعملون فى النقل بواسطة القوافل ، كما يمارسون نشاط تربية الغنم الذي تمون مراكز النسيج فى فارس بصوفه .

وهنا أيضا يخضع انتجاع قطعان الغنم لمناطق الرعي ، لتقلبات المواسم بين أراضي الشواطيء التي تسود فيها الحرارة ومناطق فارس الأصلية المعتدلة الطقس .

وفارس يتكون من منخفضات مقفولة مرتفعة عن مستوى البحر ، وتمتاز ، بالمقارنة الى الهضاب ، بما تشتمل عليه واحاتها المروية من الغياض والحدائق الغناء . وغياض شيراز ، كثيرا ما تغنى بها شعراء فارس فى القرن الثالث عشر الميلادي .

وهذه الحدائق تنتج الخضروات والأزهار والفواكه ، وخصوصا العنب الذي يستخرج منه خمر كانت له شهرة عالمية . وقد نقلت نبتة هذا الكرم الى اسبانيا حيث تأقلمت فى التربة والجو ، وكانت الخمور التي تنتجها تحمل اسم شيراز بتحريف وتسمى « جيرز » Jerez.

وفى هذه المنطقة ازدهرت حضارات قديمة كانت تقوم على مدن مثل بيرز يبوليس وبازرجاد . ومنها أيضا خرجت الحركات الاولى التي وجهها الساسانيون فى العصور الوسطى والتي تستهدف نشر النفوذ الايراني فى مختلف الأصقاع . وأما الحركات التالية ، فقد كان موطنها خراسان فى ايران الشرقية ، وقد رافقت ظهور الدولة العباسية . ولكن هذه الحركات كانت تحمل تيارات ثقافية أجنبية ، هندية وصينية ، وبالتالي ، فقد كانت أقل نقاوة من الحركات الاولى .

ومنطقة فارس مشهورة خصوصا ، بصناعة النسيج . وكان انتاج فارس من الأقمشة مع انتاج خراسان والدلتا المصرية ، أهم انتاج فى العالم الاسلامي . وقد استمرت التقاليد الايرانية القديمة بعد الفتح الاسلامي ، خصوصا ، فى مجال التطريز بالابرة . وتنميق المنسوجات بقطع معدنية وبالأحجار الكريمة واللؤلؤ . ولكن ايران تلقت طرقا تقنية جديدة من مصر وأرمينيا فى العصر الاسلامي : فقد كانت تصنع هناك الأقمشة « الدبيقية » (من دبيق فى مصر) والسجاد الأرميني .

وقد كانت يحيط بشيراز عدد من المصانع الصغيرة للنسيج من أهمها : فسا ، ودار بجيرد ، وفيروزباد «غور» التي كانت تنتج أيضا ماء ورد ، يعرف بالغوري ، للتصدير الى مختلف أنحاء العالم .

الجبال :

والآن نعود الى النقطة التي بدأنا منها ، حافة جبال زغروس،عن طريق منطقة جبلية تمتد على 1000 كيلو متر طولا ، 200 كيلو متر عرضا ،

تتكون من أخاديد كبيرة متوازية ، وكانت فى العصر العباسي تحمل اسم « الجبال » . وهذه المنطقة يخترقها نهر واحد ، نهر ديالي ، الذي يجري بشكل مستقيم الانحدار بين سلسلة من الجبال ، والذي لعب دورا مهما فى المواصلات بين الهضاب الايرانية وسهول ما بين النهرين . وعند مصب هذا النهر الذي يشكل طريقا طبيعية للمواصلات ، تقع بغداد التي كانت بمثابة رأس جسر ايراني فى بلد ارامي ، تماما مثل اكتزيفون ، فى العهد الساساني ، ولكن بغداد كانت أكثر شمولا من عاصمة الساسانيين .

وهذه المدينة المستديرة ، تنفتح عن أربعة أبواب تدل أسماؤها على أربعة اتجاهات لعلاقات بغداد الخارجية : ففي الشمال الشرقي يقع باب خراسان ، وفى الجنوب الشرقي ينفتح باب البصرة ، وفى الجنوب الغربي باب الكوفة ، وفى الشمال الغربي باب سورية .

فأما طريق خراسان ، فقد كانت الطريق التي سلكها بنو العباس المظفرون . وهذه هي الطريق التاريخية القديمة التي تمر بكرمنشاه . وبهستون ، ونهاوند ، حيث خاض المسلمون معركة حاسمة ضد الجيوش الايرانية ، انتصروا فيها وفتحوا طريقهم الى همذان . وبعد كرمنشاه تخترق هذه الطريق مضيقا فى جبل زغا (3240 مترا) ، ثم تنحدر على حافات الجبل ، نحو همذان ، مارة بهضاب تنطلق منها الطرق المؤدية الى الري والى زنجان . وهذه المنطقة المهجورة تتكون من منحدرات كثيرة الحصى ، تشكل الحافة الداخلية للجبل . ومع ذلك ، فان بعض الواحات تنتشر هنا وهناك ، عند منابع الانهار والجداول التي تنزل من الجبل : همذان ، وأصفهان اللتان تربطهما طرق القوافل مع فارس فى الجنوب ومع الري فى الشمال ،وكلتاهما تقع على الطريق الكبيرة المؤدية الى خراسان والى ما بين النهرين .

ومهما يكن من أمر ، فان ولاية الجبال كانت ذات أهمية قصوى للمواصلات مع ايران فى العصر العباسي . وقد وصفلنا ابن خردذبة الذي

كان صاحب البريد فى الجبال ، فى عهد الخليفة المعتمد (870 ــ 892م) فى كتاب المسالك والممالك ، الطرق الكبيرة المؤدية الى بغداد بعناية ، مرحلة فمرحلــة .

وصاحب البريد ذو منصب مهم للغاية ، تتجمع لديه معلومات وافية : فهو الذي يشرف على المراسلات الرسمية ويجمع المعلومات عن غيره من موظفي الدولة ، وكان على اتصال مستمر مع الدواوين المركزية . وكتاب ابن خرداذبة الذي وضعه ليستعين به الموظفون الذين يقعــون تحــت اشرافه ، يسمح لنا بمتابعة خطوط المواصلات فى ذلك العصر بكل دقة .

التخــــوم والطــــرق

ملتقى الطرق فى آسيــا الوسطى :

يشكل ملتقى الطرق فى آسيا الوسطى الصورة الخلفيــة للحضــارة والاقتصاد فى العصر العباسي . فهذه الطرق المتشعبة تضفي أهمية خاصة على منطقة لم يكن لها أي دور فى نشر الاسلام وتعزيز جانبه ، وكل ما قامت به هو توسيع مجاله الاقتصادي .

ومدن هذه المنطقة وواحاتها التي تتوفر وسائل الري فيها والتي كانت مزدهرة فى خراسان وخوارزم فى عهد الساسانيين ، كان يسكنها أقوام من التجار الاثرياء الذين كانوا يستخدمون شبكة واسعة من العلاقات التجارية وكانوا يتحدثون لغة تجارية هي اللغة الصغدية . وقــد زاد استقرار الحكم الاسلامي نشاط هؤلاء التجار حدة واتساعا . وكذلك استقرت جماعات من التجار فى بلخ ، ومرو ، وبخــاري ، وسمرقنــد وكشغار . كما اتسع نطاق تنقل الاشخاص وتبادل السلع والافكــار والطرق التقنية . وقد تعايشت مختلف التيارات وألوان النفوذ جنبــا

الى جنب ، ثم اختلطت وانصهرت فى مدن الواحات الايرانية — وهي مناطق كانت دائما معرضة لغزوات التوران الرحل .

ولذلك بني سور طويل يمتد على مئات الكيلو مترات منذ عهد الساسانيين ، للدفاع عن هذه الواحات ، بما فى ذلك المساحات الزراعية ، بين بخارى وسمرقند وباب الأبواب (وهو يشبه سور جزيرة القرم الذي بني فى عهد الامبراطور أوجستينيان الأول) . ولكن مثل هذه الأسوار قليلة الجدوى فى مقاومة الغزوات الكبيرة .

وأما المسلمون ، فقد أقاموا مراكز منعزلة « رباط » متقدمة . كانت تستعمل للدفاع والهجوم معا . ومن هذه المراكز سينتشر الاسلام فى سهوب آسيا الوسطى عن طريق الغزو والفتح . وهذه الحملات ، تشبه تلك الحملات التي شنها التيتون على بلاد الصقالية . وقد ظلت فرغانة وقتا طويلا تحت سيطرة أسرة طانج التي أدخلت اليها الورق وفن النقش على الخشب ولكن معركة تالاس التي وقعت فى سنة 751 م.وضعت حدا للنفوذ الصيني فى المنطقة . وفى نفس الوقت تسربت اليها القبائل التركية التي ستسيطر عليها وتنشر فيها اللغة التركية تدريجيا .

— وباختصار ، فقد كانت آسيا الوسطى مسرحا لثلاث تيارات من النفوذ : النفوذ التقني الصيني ، والنفوذ الديني الاسلامي ، والنفوذ اللغوي التركي . وفى غضون الفترة التي تمتد بين القرن الثامن والقرن التاسع الميلادي ، استقر الاتراك فى منطقة تالاس وفى الشاش وفى فرغانا وفى كشغاريا . وفى القرن الحادي عشر ، سيغزون المناطق الواقعة وراء أمو داريا ، ثم يستولون على جميع ايران الشرقية ويتقدمون حتى سورية والاناضول ويؤسسون الدولة السلجوقية .

ولكن هؤلاء الأتراك قد أصبحوا ايرانيين . والحضارة التي كانوا يحملونها حتى أقصى التخوم الغربية لفتوحاتهم ، انما هي الحضارة

الايرانية التي تشتمل على عناصر تركية . وكذلك يمكن القول ، دون أية مجازفة بالخطا ، بأن الأتراك قد خلفوا الايرانيين فى حمل مشعل النفوذ والثقافة الايرانية الى الخارج .

كان هؤلاء الغزاة ، من الناحية الدينية ، من الشمانيين ومن أتباع مذهب ماني أو حتى من النساطرة . وقد التزموا جانب التسامح مع الديانات التي استقرت فى المدن الايرانية القديمة التي ظلت متمسكة بالبوذية والمزدكية والمانوية وعقيدة النساطرة واليهوية . ولكن السامانيين ، سيتولون ، ابتداء من منتصف القرن العاشر الميلادي ، نشر الدين الاسلامي بين هذه الملل والنحل .

جرت تحركات مهمة ومتعددة للشعوب فى المنطقة التي تمتد بين ايران والسهوب التركية . وهذه هي المنطقة التي تقلص عنها النفوذ الصيني أمام الاسلام ، بعد معركة تالاس . وكذلك تنقل التبت البوذيون فى اتجاه الشمال بينما اتجه الأتراك الى الجنوب . وقد تقدم المانويون ، والكرلوك الشمانيين ، والغز حتى وصلوا الى خوارزم . وهذه الشعوب التي لم تكن قد أسلمت بعد ، كانت تشكل احتياطيا كبيرا من العبيد . وقد كانت « بلاد الأتراك » مقصدا للنخاسين ، كما كان الذين يشنون غزوات من الرباطات يسبون كثيرا .

وفى نهاية القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر ، اعتنقت قبيلة الغز التي تقع أراضيها على نهر سيرداريا ، الاسلام ، وتأسست منها أول أسرة ملكية تركية مسلمة ـــ الغزنويون . وفى نهاية القرن الحادي عشر ، أسلمت قبيلة تركية أخرى قامت فيها سلطنة السلجوقيين الذين ملكوا خراسان بعد سقوط دولة السامانيين وكذلك قامت قبيلة أخرى ، القبشق ، (Kiptchaks) باحتلال جنوب روسيا (1054 م .) وطاردت البجناك (Petcheneques) حتى البلقان. وفى البلاد التي تمتد وراءهم سيحتل البولوفت (Polovtes) حافات الطرق المجاورة لانهار روسيا .

الطرق المؤدية الى السهوب الاروبية الاسيوية :

كانت العلاقات مع السهوب الأروبية ــ الآسيوية تجري خصوصا ، على طول نهر الفولجا الذي كان تحت سيطرة الخزر ، من ايتل الواقعة على شواطيء بحر قزوين ، وعلى طول نهر الدنيبر الذي كان تحت الزوس (كييف) . واذا صعدنا مجرى هذه الأنهار ، فسنصل الى الغابات الشمالية التي كان يعيش على حافاتها البلغار ، وهم شعب تركي لم يكن قد خرج تماما من حياة التنقل الى حياة الاستقرار . وكان البلغار يبنون مدنهم من الخشب عند ملتقى نهر كاما (Kama) بنهر الفولجا (Volga) فى أطراف الغابات . ولكنهم لم يكونوا يعيشون فى هذه المدن الا فى فصل الشتاء . وغير بعيد من هذه المنطقة ستقوم ، فيما بعد ، مدينة كازان (Kazan)

وأما بلغار (Bulgar) ، عاصمة بلغاريا ، فقد اعتنق أهلها الاسلام فى وقت مبكر .

ومثل البلغار ، كان البرطاس لم يخرجوا بعد من حياة التنقل الى الاستقرار . وقد انطلقت المحاولات الاولى لاسلامهم من الحي الاسلامي فى ايتل (التي تقع غير بعيد من المكان الذي قامت فيه استراخان فيما بعد) . وأما خاقان الخزر ، فقد اعتنق اليهودية . ومثل مدينة بلغار ، كانت مدينة البرطاس تقع عند ملتقى نهرين ، أوكا وكاما ، عند حافة الغابة . وهناك ستقوم فيما بعد مدينة نوفجرود (Oka)(Novgorod)

وفى داخل الغابات كان يعيش الفنلانديون ، والفنلاديون الأجوريون ، والسلاف ، وهي الشعوب التي تشكل ما يسميه العرب « بلاد الصقالبة ». وهذه البلاد تشكل احتياطيا كبيرا آخر للعبيد ، يمتد حتى الغابة الجرمانية والليريان (Illerienne) ومن هذه المنطقة تستورد ، الى جانب العبيد ، الفراء والعسل والجلود البلغارية الناعمة والتي تستعمل خصوصا

لصنع أحذية عالية الساق لركوب الخيل ، والمكاييل من شجر القيقب « الخلنج » .

ومن البرطاس ، تسير الطرق الموازية للأنهار ، مارة ببلغار وكييف لتنتهي الى اتل وشواطيء بحر قزوين ثم الى طبرستان والري وكذلك توجد طريق أخرى تربط سهوب البرطاس وبلغار مباشرة بخـوارزم وخراسان .

وتجدر الملاحظة بأن الطريقين كانتا متنافستين بنشاطهما التجاري .

علاقات العالم الاسلامي بالهند والصين :

تم فتح المسلمين للسند من الجنوب منذ سنة 712 م . ولكن التوغل فى الهند عن طريق ممرات الهندكتش ، انما وقع تدريجيا بعد معركة تالاس . وأما المنطقة الواقعة خلف بلخ وطخارستان الجبلية التي تسكنها أقوام بعيدة عن الحضارة ، فقد تم الاستيلاء عليها تدريجيا فى القرن التاسع ، على يد الفاطميين ثم على يد الصفاريين الذين استقروا فى نهاية الامر فى كابل . وهذه المدينة قد قامت بمجهود لنشر الاسلام بين سكان جبال كافرستان وهذه الشعوب التي عرفت بعصيانها ، كانت هي الاخرى مستودعا كبيرا للاحتياطي من العبيد . ولكنه مع مرور الزمن ، تمكن المسلمون من السيطرة على الاودية وطرق المواصلات والممرات المهمة ، مثل مضيق غزنة الذي يقع على الطريق بين كابل وقندهاز .

وكذلك استقر الأتراك فى هذه المنطقة ، وقام الغزنويون فى سنة 962 ميلادية ، بتأسيس أول دولة تركية مسلمة مستقلة فى ايران .

وفى غضون الفتـرة بين 1014 ــ 1025 ميلادية ، قـام السلاطين الغزنويون بفتح شمال الهند ونشر الاسلام فى تلك الأصقاع ولكنهم

سينسحبون منها حينما يدفعهم السلاجقة خارج آسيا الوسطى وايران الشرقية .

للسفر من ايران الى الصين ، كانت توجد طريقان : تتجه احداهما الى الشمال عن طريق تشقنت وتالاس وأقصو ، بينما تتجه الأخرى الى الجنوب ، عن طريق فرغانة ، وكاشغر ، وياركند وخوتان ، وتلتقي بالاولى عند طوان ــ هوانج (Touen-Houang) حيث تشكلان طريقا واحدا كبيرا يؤدي الى السور الكبير والى عاصمة مملكة طانج (Tang) وفى القرن الثامن الميلادي كانت غارات التبتيين (T'ou-Fan) المستمرة على الواحات التي تمر بها الطريق الشمالية مصدر تهديد للتبادل التجاري . ولكن معظم التبادل التجاري فى هذه الفترة ، كان يجري عن طريق البحر ، من الخليج العربي حتى قانطون ، حيث استقرت جماعات مهمة من التجار المسلمين واليهود منذ القرن الثامن الميلادي .

وفى القرن التاسع الميلادي ، عاد الأمن الى طرق التجار البرية فى هذه المنطقة . فان التبتين قد تعقلوا بعد ما اعتنقوا الديانة البوذية . وبين النظام الاسلامي والنظام الصيني ، قام الأتراك بدور مسيري القوافل وحماة الطرق التجارية ، وبذلك أمكن استئناف النشاط التجاري . وقد قدر المسعودي المدة التي يستغرقها السفر الى الصين بأربعة أشهر .

وفى هذه الحقبة بدأت الجماعات الاسلامية فى الاستقرار فى الصين .

أهمية شبكة الطرق : دولة السامانيين :

كانت الدولة الطاهرية (820 ــ 872) التي كانت تحتل كرمان والري ، والدولة الصفارية (867 ــ 903 م .) التي قامت على أنقاضها ، قد رسمت الخطوط الرئيسية لوحدة ايران الشرقية . فان يعقوب بن الليث الذي كان قد استولى على سجستان ، قد تمكن من اضافة مناطق

هراة ، وماوراء نهر جيحون ، وفارس الى ملكه ، قبل أن يمني بالفشل فى نهاية الأمر .

وفى هذه الأثناء ، كان السامانيون منهمكين فى النضال مع بني بويه (932 — 1055 م) . وهذه الخصومة المستمرة بين الدول الأربع ، ليس لها أهمية تذكر حتى من الناحية الاخبارية ، ولكنها كانت تستهدف السيطرة على محطات القوافل والطرق التجارية فى آسيا . وامارة السامانيين كانت حارسة الطرق التجارية ، كما كانت تجارة العبيد فيها ذات أهمية خاصة .

والسامانيون ينحدرون من أسرة ايرانية نبيلة . وكان سامان خوداة . هو مؤسس دولتهم وباني مدينة سامان التي تقع غير بعيد من بلخ . وقد كانت الدولة السامانية تسعى ، وراء الاسلام ، لاحياء مجد الساسانيين والارتباط بهم ، بينما كانت الدول التي تسيطر على المناطق الغربية ، من جهتها ، تعمل لربط نفسها بسلالة النبي (صلى الله عليه وسلم) . وبعد ما اعتنقوا الاسلام ، وضع السامانيون أنفسهم فى خدمة بني العباس . وفى سنة 820 ميلادية ، عين المأمون جميع الاخوة السامانيين (وكانوا أربعة) ولاة ، فى سمرقند ، وفرغانة ، والشاش وهراة . ولكنه لم يبق فى الحكم من بين أفراد الاسرة فى سنة 892 ميلادية ، سوى اسماعيل بن أحمد . وفى عهده ازدهرت عاصمة ملكه ، بخاري بحيث فاقت عظمتها سمرقند نفسها . وفى سنة 893 قام بحملة على الاتراك واستولى على تالاس . وفى سنة 900 دخل الى خراسان . وفى سنة 902 استولى على طبرستان (الري وقزوين) . ومن هناك انفتحت آمامه الطريق الى بحر قزوين والى بغداد .

وقد بلغت الدولة السامانية أوج عظمتها فى عهد نصر الثاني 913 — 942 م الذي امتد ملكه ، ليشمل تالاس ، وفرغانة ، وكشغارية فى

الشرق ، وخوارزم وبلغار فى الشمال ، والمنطقة التي تمتد من الري حتى بحر قزوين فى الغرب ، وما بين سجستان وقندهار فى الجنوب .

وفى عهد نوح الاول (943 — 954 م .) استكملت الدولة السمانية نشاطها التوسعي ثم أخذت فى الانحطاط والتدهور وكان نوح قد دخل فى نضال مع بني بويه للسيطرة على الري .

وأما دولة بني بويه ، فهي تنتسب أيضا الى الساسانيين . وقد اعتمدت هذه الدولة فى توسعها على الجنود المرتزقة الذين تجمعهم من الديلم ، وسعت هي الأخرى للسيطرة على طرق التجارة فى آسيار الوسطى . وقد استولى أحد أمراء الدولة على الري واصفهان وسيراف ثم احتل الجبال . وفى سنة 945 م ، دخل الى بغداد ، حيث أصبح خليفة ، وظل على الخلافة حتى سنة 1055 ميلادية ، لدى ظهور السلجوقيين .

وأما السامانييون ، فقد كان فقدهم للطرق التجارية الغربية سببا فى تدهور دولتهم . وفى سنة 977 ميلادية ، استعان الغزنويون ، وهم أسرة من الرؤساء المحليين ، بالجنود المرتزقة الأتراك ، فاستولوا على كابل وطبرستان . والغزنويون ليسوا ايرانيين ولكنهم أتراك تشبعوا بالثقافة والتقاليد الايرانية . وقد عملوا لحماية الكتاب الايرانيين وتشجيعهم كما ساروا على نهج السامانيين الثقافي .

وكذلك كانت الدولة الغزنوية دولة تسيطر على طرق التجارة . وبعدما استولوا على الممر الجبلي الذي يقع عند الكتش ، وعلى خراسان ، قاموا فى سنة 1030 م بغزو خوارزم وجرجان والري وطردوا منها بني بويه . وأخيرا ، احتل الغزنويون شمال الهند ، حيث توقف تقديمهم بعد ما قوي ضغط السلجوقين .

كان الأساس الذي تقوم عليه ثروة مدن السامانيين ، هو التجارة فى العبيد . وكانت تجارة العبيد رائجة فى الرقيق المستورد من بلاد الصقلب فى مرو ، ونيسبور ، والري ، وبلخ وبخارى ، وسمرقند وهراة ، عن

طريق خوارزم ، وفى الرقيق المستورد من الهند عن الطريق كابل . خصوصا ، وفى رقيق الأتراك الذي يدخله النخاسون عن طريق مراكز الحدود . ومعظم هؤلاء يعاد بيعهم للخصي أو للتدريب العسكري . وقد احتل العبيد فى الجيش وفى الحياة السياسية فى الدولة السامانية مراكز عالية ، واستمروا على ذلك حتى سقطت الدولة نتيجة لعصيان المماليك .

وعاد الملوك والأمراء فى اختيار حاشيتهم وحرسهم من بين العبيد الأتراك ، عادة ايرانية .

وقد كان الفضل بن يحي البرمكي ، من بين الذين ساهموا بصفة خاصة فى نشر هذه العادة التي سيكون من نتائجها انفتاح العالم الاسلامي تدريجيا للنفوذ التركي .

وفى عهد المأمون ، قدم أمير خراسان الطاهري اتاوة الى الخليفة هي عبارة عن 2،000 عبد تركي أدخلوا فى حرس المأمون ولكن العبيد الأتراك لم يحتلوا مراكز القيادة فى عهد المأمون ، وانما أتيحت لهم الفرصة ليصبحوا ضباطا فى خلافة المعتصم (833 — 842) . وعلى اثر الاضطرابات التي أشترك فيها 70،000 تركي فى بغداد ، قام الخليفة بانشاء سمراء فى 836 ميلادية ، سعيا للتخلص من نفوذهم . ولكن المعتصم لم يلبث أن أصبح لعبة فى يد الأتراك من جديد فى سمراء ، فعاد الى بغداد .

ان أحمد بن طولون ينحدر من سلالة عبد تركي جاء من بخارى . وقد كان المؤسس لدولة بني طولون فى مصر . وفى سنة 935 م ، قام الاخشيد بدوره ، وهو ابن عبد جاء من فرغانة ، بتأسيس دولة الاخشيديين فى مصر . والجدير بالتسجيل أن أهمية عبيد فرغانة فى حراسة

الملك ، لم تكن تقل فى عهد ملوك بيزنطة عما كانت عليه فى عصر خلفاء بغداد .

وابتداء من قيام الدولة السامانية ، سيقوى النفوذ التركي ويشتد . فالترك هم الذين يشكلون الحرس فى قصور بخارى . والنخاسون يقومون بشراء العبيد فى نطاق واسع على الحدود من القبائل المتنافسة . والغارات توجه من الرباطات ضد سكان المناطق المجاورة ، للسبي . والفرق بين العبد والجندي المرتزق غير واضح ، لأن العبد والجندي المرتزق كلاهما يرسل الى الغرب مع دفع التعرفة الجمركية عليهم عند اجتياز نهر جيحون . ففي السنة الأولى ، يحارب العبد راجلا ويعيش فى ثكنة . وفى السنة الثانية يعطيه القائد (الحاجب) فرسا . وفى السنة الثالثة يتلقى حزاما من نوع خاص ، وهو يساوي نيشان الامتياز . وحينما يصل الى السنة الخامسة يتلقى سرجا وأسلحة فاخرة . وفى السنة السادسة يمنح لباسا للاستعراض . وفى السنة السابعة يرقى الى مركز قائد خيمة ويمنح الحق فى حمل شارة مميزة « قلنسوة عالية من الفرو » . وباب الترقيات مفتوح أمام العبد بحيث يمكنه أن يصبح رئيس الحجاب ، أو رئيس حكومة . ولكن هذا التقدم نظري وكثيرا ما تقف فى طريقة المناوارت والمؤامرات .

ودولة السامانيين ظهرت فى مجتمع ايراني ــ تركي ، ولكن حضارتها ايرانية .

لقد كان القرن العاشر الساماني فى ايران الشرقية وفى البلاد الواقعة وراء نهر جيحون ، فترة تاريخية حاسمة فى النهضة الثقافية الايرانية وذلك فيما يتعلق باللغة والآداب والعلوم على السواء .

استمرار المضمون الحضاري الايراني :

ظهرت أول النصوص المعروفة والتي تدل على اكتمال اللغة الأدبية الايرانية فى خراسان . ولكن هذه اللغة ، الفارسية ، لم تكن لها قاعدة من اللغة العامية المحلية ، بل من اللهجة العامية المستعملة فى فارس والمنقولة الى خراسان . فى أية فترة من التاريخ وقع انتقال هذه اللهجة من فارس الى خراسان ؟

يقول كريستنسن (6) ان هذا الانتقال وقع منذ عهد الساسانيين . ولكن الأرجح هو أنه انما تم فى العصور الاولى لحكم المسلمين . وليس من شك فى أن طاهر بن الحسن (7) قد كان له دور فى اعتماد وتنمية اللغة الفارسية .

عهد نصر الثاني ، كان يعيش رودكي (8) ، أول شاعر فارسي لا نعرف شيئا عنه وحفظت له قطع من أعماله : كليلة ودمنة ، التي ترجمت عن الهندية بالنظم الفارسي . وهذا العمل سبق أن ترجم فى عهد كسرى

---

6 ــ راجع :

A. Christensen, l'Iran sous les Sassanides 2e éd. 1944, p. 44 et suiv.

7 ــ طاهر بن الحسين بن مصعب الخزاعي 150 ــ 207 هـ من كبار الوزراء والقواد وأوسعهم أدبا وحكمة واكثرهم شجاعة ، وهو الذي وطد الملك للمأمون العباسي ، ولد فى بوشنج « من أعمال خراسان » وسكن بغداد ، فاتصل بالمأمون فى صباه ، وكانت لأبيه منزلة عند الرشيد ، ولما مات الرشيد وولي الأمين ، كان المأمون فى مرو ، فانتدب طاهر للزحف الى بغداد ، فهاجمها وظفر بالأمين وقتله (198 هـ) وعقد البيعة للمأمون فولاه شرطة بغداد ، ثم ولاه خراسان (205 هـ) ولكن المأمون كان يضمر له غيظا فى نفسه لقتاله أخاه الأمين دون مشورته ، وربما شعر طاهر بذلك ، لأنه بمجرد ما استقر له الأمر فى خراسان ، قطع خطبة المأمون يوم الجمعة فقتله أحد رجاله فى تلك الليلة بمرور (المترجم) .

8 ــ هو جعفر رودكي ، ولد فى البنج «بالقرب من رودك سمرقند» وتوفي فيها «940 م» عاش فى بلاط نصر الساماني ، وقيل انه نظم 300000 بيت من الشعر «المترجم» .

أنو شروان الى الفارسية ، كما ترجمه ابن المقفع الى اللغة العربية فى أوائل العهد العباسي .

ولكنه ، اذا كانت قصائد من الشعر الغنائي قد نظمت فى عهد الطاهريين والصفاريين ، فان اللغة الفارسية لم تعرف الازدهار الا فى عصر السامانيين .

والمشكلة الأخرى التي تواجه الباحثين ، تتعلق بشكل الشعر الفارسي . فان أوزان الشعر الايراني تخضع لنفس القواعد التي يخضع لها الشعر العربي الجاهلي . فقالب الشعر الايرانى اذا ، عربي .

وفى عهد المنصور (بن نوح الساماني) (961 — 976 م) قام وزيره ، البلعمي (أبو علي بن الفضل) (9) بترجمة تاريخ الطبري بلغة طبرستان الفارسية التي تكتب بالاحرف العربية . وكانت هذه بداية النثر الفارسي .

وفى بخاري ، كان ابن سينا (10) يحرر كتبه العلمية والفلسفية الكبيرة باللغة العربية ــ واللغة العربية كانت دائما هي لغة العلم ، مثل اللاتينية فى أوروبا حتى القرن الثالث عشر الميلادي ولكن ابن سينا وضع أيضا ملخصا لأحد كتبه فى الفلسفة باللغة الفارسية .

9 ــ كان البلعمي وزيرا لعبد الملك بن نوح والمنصور بن نوح السامانيين ، وكان له من التآليف تلقيح البلاغة وكتاب « المقالات » وقد توفي فى خراسان فى سنة 329 هـ . «المترجم» .

10 ــ هو الحسين بن عبد الله علي « الرئيس » شرف الملك ، صاحب التصانيف العديدة فى الطب والمنطق والطبيعيات والالهيات ، أصله من بلخ ، وقد عاش خلال الفترة بين 370 ــ 428 هـ . والى جانب اشتغاله بالعلم ، تقلد ابن سينا الوزارة فى همدان ، ولكن الجيش ثار عليه ونهب العساكر بيته ، ومن أهم مؤلفاته التي يبلغ عددها نحو مائة كتاب : القانون « فى الطب » والشفاء ، والسياسة وأسرار الحكمة المشرقية ، ولسان العرب (عشر مجلدات) فى اللغة ، وقد كان الرئيس أيضا شاعرا ينظم الشعر الفلسفي الجيد «المترجم» .

وقد كان الامير الساماني، نوح الثاني، يشجع الشعر الملحمي الفارسي. وكذلك ترجمت تواريخ قديمة (وبعضها من الأساطير ولكنها تشتمل على معلومات مهمة) ، من اللغة الفهلوية الى اللغة الفارسية . وهذه الروايات ، هي التي أمر نوح الثاني . الشاعر دبيقي بنظمها شعرا . ولكن الشاعر اغتيل بعد شروعه فى هذا العمل بوقت قصير . وقد واصل هذا العمل الفردوسي الذي ولد فى وقت ما الفترة بين 932 ـ 934 م . فى ضواحي طوس (مدينة لم يبق منها اليوم الا آثارها التي تقع فى جهة مشهد) .

وقد تم التحرير الاول للشهنامة فى حوالي سنة 994 ميلادي ولكن التعديلات والزيادات التي أدخلت عليها جعلت العمل فى «كتاب الملوك» يستمر حتى سنة 1010 ميلادية . والسفر التام للشهنامة يحتوي على 50000 «ديستيك» (11) ، وهو ما يساوي ثمانية أضعاف حجم الالياذة .

ولكن العصر كان شديد الاضطراب . ولما انهارت الدولة السامانية . اتجه الفردوسي الى الرجل الجديد الذي وضعت الاقدار مقاليد الحضارة الايرانية فى يده ، السلطان محمود الغزنوي ، الذي أهدى اليه الشاعر هذا العمل الذي يشتمل على 100000 بيت من الشعر . ولكن محمود الغزنوي ، لم يتسع وقته للاستماع اليها كلها . ولما رأى الفردوسي قلة مكافأة السلطان ، أثر ذلك على نفسه ، فوضع مكان الاهداء والتمجيد لمحمود الغزنوي قصيدة هجاه فيها ثم لاذ بالفرار . وقد مات الشاعر . فى طوس مهجورا منسيا بين سنتي 1020 ــ 1025 ميلادية .

---

11 ــ بيتان متكاملا المعنى فى اللغة الفارسية «المترجم» .

وهذه القصة الأدبية لا تخلو من مغزى . فان تأثر الامراء الأتراك بالثقافة الايرانية، لم يكن الا سطحيا ، ومع ذلك، فان النفوذ الايراني سينتشر فى شمال الهند بفضل السلاطين الغزنويين .

ومن ثم ، يمكننا أن نميز عدة فترات فى التأثير الايراني : فان نخبة من الايرانيـــين نزحت الى الخارج قبل الفتح العربي وبعده . ونشاط هذه النخبة وأثرها لا يعكسه المؤرخون والجغرافيـــون المتأخرون الا بصورة غير وافية . فان جماعات ايرانية قد استقرت عـــلى الشواطيء الغربية للهند ، ولا سيما فى الجزرات وبومباي ، ابتداء من القرن الثامن الميلادي . وكذلك كان للايرانيين منشئات على سواحل افريقية الشرقية قبل الفتح العربي . وهذه المنشئات قويت بعد الفتح ، نتيجة لهجرة الايرانيين .

والحركة الثانية لهجرة النخبة الايرانية ، وقعت فى العصر العباسي . وهذه الهجرة وقعت عبر المملكة الاسلامية حتى الشواطيء السورية (غربا) حيث سينقلون معهم الفنون البحرية المنتشرة فى المحيط الهندي . والمؤرخ المشهور ، اليعقوبي ، والامير الرستمي (عبد الرحمن) الذي أسس دولة تيهرت فى أفريقية الشمالية ، كان كلاهما فارسيا .

وأما الهجرة الثانية ، فهي من عمل الأتراك المتأثرين بالنفوذ الايراني . مثل الغزنويين والسلجوقيين وهذه الهجرة ستمتد حتى تبلغ الأناضول .

الفصل الثالث

المغــرب الإسـلامــي

لم يقع أي انقطاع فى تيــار الحضارة فى البــلاد القديمة فى الشرق (ايران سورية وبلاد ما بين النهرين ومصر) ، بل اتصلت وشائج الحضارة البيزنطية الساسانية بالحضارة الاســلامية ، واستمرت المدن والمصانع والحرف والفنون كما كانت فى السابق . والشرق كان مستودعا لجميع القوى الحضارية المحركة : الاسلام واللغة العربية،والخصائص التي تميز الجنس السامي والعنصر الايراني « الاطارات الذهنية ، وطرق التفكير والطرق التقنية والافكار السائدة والأشكال الفنية» .

وأما بلاد المغرب (افريقية والمغرب وصقلية واسبانيا) التي ستتلقى هذا النفوذ : فهي بلاد خضعت لنفوذ البربر ويسود فيها نمط الحياة الزراعي ، وأسلوب معيشة البدو الرحل . والماضي الحضري الفنيقــي والروماني فيها أصبح منسيا ، ان لم تعف آثاره تماما . وتدهور المدن الذي نجم عن الأزمة التي واجهتها الامبراطورية البيزنطية ، زاد بسبب غزو البرابرة . ومع ذلك ، فان نواة من المدن ظلت قــائمة : قرطاجنة ، وفولوبيليس «فى شمال مكناس» ، وتيمس وسبتم ، وقادس ، وملكا ، وهيسباليس ، وقرطبة وطولطوم ، وسيزاريا أو جستا ، وبانورموس . ولكن هذه المدن التي تسير فى طريق التقهقر ، أصبحت تواجه ضغطا نتيجة لنمو الأرياف وانتشار الأساليب الريفية فى اسبانيا وصقلية .

وأما افريقية الشمالية ، قد كانت المدن فيها مهددة بانتشار حياة البدو الرحل واتساع نطاق المجالات التي يتردد عليها الجمالون . وسنرى ضيق

الرقعة التي شملها غزو الامبراطور جوستينيان وضعف الحكم البيزنطي وعدم استقراره فى هذه المناطق .

وبالمقارنة بالبــلاد القديمة التي استنزفت قواها بالاستغــلال الطويل لمواردها ، فان البلاد الجديدة ، أو التي استعــادت جدتها فى المغرب الاسلامي ، تنطوي على امكانيات اقتصادية جديدة وعلى موارد بشرية زاخرة ، وهي مصادر عظيمة للقوة . وهذه البلدان الجديدة ستستلفت نظر الشرقيين : الأمويون ، سيتجهون الى اسبانيا . والأدارسة ، الى المغرب الأقصى . والرستميــون الى المغرب الأوسط . والأغــالبة الى افريقية . والفاطميون الى المغرب الاوسط ، ثم الى افريقية . وجميع هذه الأحزاب والنحل ، قصدت الى المغرب الاسلامي الذي عرف الاستعمار منذ أحقاب بعيدة ، لتجرب حظها فيه .

وبلاطات هذه الدول والدويلات سيعج بالمغامرين من كــل نــوع وبالتجار والعلماء والأدبــاء الــذين تغريهم المــكافآت والــوظائف الشاغرة . وهذه هي الحالة خصوصا بالنسبة الى بلاط قرطبة الذي لم تكن توجد فيه عناصر محلية لتوفر له ازدهارا ثقافيا مستقــلا . وهؤلاء المهاجرون ، سيكونون رواد الحضارة الشرقية وسينقلون معهم الى المغرب العلم والمعرفة الشرقية .

أفريقية الشمالية :

شاهدت القرون السابقة للفتح الاسلامي تقهقر المدن أمــام زحف البدو الرحل . وهذا التدهور لم يتأثر باعادة فتح بيزنطة لأفريقيــة الشمالية فى عهد الامبراطور أجوستينيان . فان الاستعمار البيــزنطي الذي لم يكن يمتد الا ما يقرب من قرن « 533 — 647 م » لشمال افريقية والذي لم يشمل سوى رقعة ضيقة ، لم يكن من شأنه أن يوقف الاختناق المتزايد مع مرور الزمن لحياة المدن .

فقد كانت الأراضي المجاورة للمدن والأرياف التي تغذيها ، محاطة بالبربر الرحل ، وكانت الغزوات وحملات التأديب تتوالى . وأما الأرياف التي كانت خاضعة للسلطة العسكرية البيزنطية ، فقد كانت تنحصر في مناطق المواصلات ، التي تمتد بين كتل الجبال التي كان البربر المقيمون يعززون استقلالهم فيها . وكذلك نجد أن النفوذ البيزنطي لم يتوغل قط في الهضاب المرتفعة والمناطق الصحراوية حيث كانت القبائل الرحل تنتقل بكل حرية .

والى جانب تقلص المناطق التي يشملها نفوذ المدن ، كانت عملية التخلص من النفوذ الروماني تزداد اتساعا مع مرور الزمن وكان البربر يسترجعون ماضيهم شيئا فشيئا . وهذا هو نفس التطور الذي وقع في سورية ومصر ، حيث حلت أنماط الحياة الآرامية والقبطية محل النفوذ الهليني . والفرق بين هذين التطورين المتشابهين في الظاهر ، هو أنه ، بينما كان الماضي الحضاري الذي يقوم على المدن ، هو الذي انبعث في المشرق ، نجد أن الماضي الذي انبعث في شمال افريقية ، هو ذلك الذي كان يقوم على حياة البدو والانتجاع . والتغيير الوحيد الذي وقع ، هو ظهور الجمل الوحيد السنام .

وعملية التخلص من النفوذ الروماني التي بدأت منذ وقت بعيد ، لم يتمكن الغزو البيزنطي من وقفها . فان عددا متزايدا من البربر يتخلون عن اللغة اللاتينية وعن اللغة الفنيقية ، وخصوصا لغة المدن المكتوبة — ليعودوا الى اللغة البربرية واللغة الليبية القديمة ، التي تحتفظ بنقوش قديمة منها والتي لا صلة لها باللغات السامية واللغات الهندية الأروبية . واللغة الليبية القديمة لغة شفهية وليس لديها أدب مكتوب . وفي الوقت الذي استرجع فيه البربر لغتهم ، استعادوا أيضا عاداتهم وتقاليدهم القديمة (القانون) وهياكلهم الاجتماعية : الاطار القبلي ، الميل الى الديموقراطية والمساواة . وقد أدت روح

الاستقلال والتمسك بالتقاليد والاعتزاز المفرط بالفردية فى البربري . الى تمزيق البلاد وانقسامها الى جمهوريات جبلية صغيرة محافظة ، أو الى قبائل من الرحل .

ولكن سكان المدن ، استمروا مع ذلك ، على استعمال اللغة اللاتينية واللغة الفنيقية . وقد تمكنت اللغة الفنيقية من الاحتفاظ بمكانتها فى بعض المناطق فى افريقية . وهذا من العوامل التي ربما فسرت لنا انتصار العرب السريع فى المدن الشرقية . وأما اللاتينية فقد ظلت وقتا طويلا لغة المدن . فان آخر النقوش التي عثر عليها فى فولوبيليس ، يرجع عهدها الى القرن السابع الميلادي . والمؤرخ اليعقوبي (القرن التاسع الميلادي) يتحدث عن الأفارقة الذين يتحدثون اللسان « الافريقي » .

ولكن اللاتينية ستتطور الى لغة عامية رومانية (1) . وفى القرن الثاني عشر ، يخبرنا الأدريسي ، بأن سكان جفصة فى جنوب تونس يتحدثون لغة خاصة ، هي خليط من اللاتيني والأفريقي .

ولكن المدن استقبلت الفاتحين العرب بدون مقاومة تذكر . والمقاومة فى افريقية سيواجهها العرب فى الهضاب والجبال والصحاري .

وبعد الفتح الاسلامي ، ستعتمد المدن ومناطق المواصلات بين كتل الجبال اللغة العربية ، بينما تستمر جبال البربر وقبائل الصحراء على التحدث باللغة البربرية .

وفى هذه الأثناء ، أخذت الديانة المسيحية تتقلص مع تقلص المدن والنفوذ الروماني . وكذلك أصبحت الكنيسة الأفريقية التي لعبت دورا

---

1 ـ راجع :

T. LEWCKI. Une langue romaine oubliée de l'Afrique du Nord. (en français) ; ROCZNIK Orientalistyezni, XVIII, 1953, pp. 45 480.

كبيرا فى القرن الرابع الميلادي وفى عهد سانت أجستين البربري ، تعاني من الضعف والتمزق ، خصوصا نتيجة لاضطهاد الوندال الآريين للمسيحية . ومن جهة أخرى ، فان المسيحية لم تدخل قط الى بعض المناطق فى افريقية الشمالية . والنصوص البيزنطية التي يرجع عهدها الى القرن السادس الميلادي ، تحدثنا عن وجود كثير من القبائل التي لا تزال على الوثنية ، أو عادت الى الوثنية .

وللبربر ميل قوي الى التدين ، وجد ما يرضيه فى الطقوس الدينية السحرية التي تنطوي عليها الديانات الوثنية الافريقية التي كانت سائدة قبل أن يدخل الفنيقيون والرومان آلهتهم الى هذه البلاد . وكثير من الخصائص التي تميز الطقوس الوثنية التي تقوم على السحر فى بلاد البربر قد وصلت اليهم بدون شك من افريقية السوداء (وربما كان العكس صحيحا ؟) .

وفى العصور المتوغلة القدم ، كان البربر على اتصال بأفريقية السوداء التي تمتد فى جنوب جزيرة المغرب والتي انحسرت تدريجيا حتى السودان تحت ضغط الجمالين البربر . ولكن البربر سوف لايستعيدون دياناتهم الوثنية التي كانت منتشرة قبل المسيحية والاسلام فى صورتها الأصلية .

ومن جهة أخرى ، كانت توجد فى افريقية فى عصر الرومان ، جماعات مهمة من اليهود الذين كان أصلهم يرجع الى عناصر فنيقية ، أو متأثرة بالفينيقيين ، أو ممن اعتنقوا الديانة اليهودية من سكان المدن . وعن طريق المدن وهجرة القبائل التي تزايدت مقدرتها على الحركة منذ نهاية العصور القديمة ، تمكنت اليهودية من التوغل الى داخل بلاد البربر ، فى الهضاب والجبال والصحراء ، وخصوصا فى جراوة بالأوراس، ونفوسة ، فى جنوب تونس ، وبين كثير من قبائل الأطلس والقبائل التي تنتقل فى جنوب المغرب الأقصى . وكذلك يمكننا اقتفاء أثر انتشار

اليهودية عبر الصحراء . والرواية الاسلامية تخبرنا بأن هؤلاء اليهود كانوا ، منذ أقدم العصور يمارسون التجارة ويزاولون الفنون التقليدية .

ولما اختفت المسيحية من شمال افريقية ، ظلت اليهودية محتفظة بوضعها فى هذه البلاد ، وأخذت تربط نفسها بعلاقات من جديد مع المراكز التي كانت خاضعة للبيعة الرسمية فى المشرق ــ تلك المراكز التي كانت مراكز التجارة العالمية أيضا .

وقد كانت طرق انتشار اليهودية فى القرن التاسع الميلادي تمر بالجماعات المستقرة فى الهند والصين ثم بشعب الخزر الذي اعتنق اليهودية ، ومنعطفات نهر الفولجا وبالجماعة اليهودية التي تقيم فى شمال الصحراء الكبرى .

وأما الجماهير الوثنية ، فستعتنق الاسلام تدريجيا . وقد كانت مراكز العمران الباقية ، هي المراكز التي ينتشر منها الاسلام واللغة العربية ، كما كانت الحال عند انتشار التأثير الفنيقي والروماني فى العصور القديمة . وفى مرحلة تالية ، سينتشر الاسلام من مدن جديدة ومدن قديمة انبعثت ، بحيث يبلغ أوجه خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر ، عندما وصل الى قمم الجبال . ولكن البربر سيرتدون عدة مرات (على الاقل عشرين مرة فى رأي ابن خلدون) ، خصوصا فى غضون القرنين التاليين للفتح الاسلامي . والاسلام فى افريقية له طابع خاص ، ويتميز بانفتاحه لاستقبال بعض المذاهب الجانبية ، مثل مذهب الخوارج الذي يتعارض مع مذهب أهل السنة الذي تعتنقه الحكومات ، ولكنه يتفق مع مزاج فئات معينة من البربر ، مثل بني ميزاب . بل ان مذهب أهل السنة نفسه ، قد لقي مقاومة طويلة بين جماهير البربر ، وسينفتح لكثير من الخرافات ، مثل الاعتقاد فى الاولياء والمرابطين وفيما يسمى بالبركة .

وهكذا نجد المعتقدات الوثنية البربرية القديمة تظهر بشيء من القوة ، خلال الفترة بين القرن الرابع والقرن السابع الميلادي . كما نلاحظ ضحل تأثير الرومان والمسيحية فى افريقية الشمالية . وكذلك نلاحظ بطء انتشار الاسلام الذي كان تأثيره عميقا فى بعض المناطق حيث تأقلم مع المعتقدات الافريقية القديمة .

وكذلك عجز الاحتلال البيزنطي عن وقف التقهقر الاقتصادي الذي كانت تعاني منه افريقية الشمالية نتيجة لتناقص المساحات المزروعة (الزيتون والقمح والدوالي) من جهة ، ولاختناق التبادل التجاري ، من جهة اخرى . وقد فشل البيزنطيون حيث سينجح المسلمون الذين سيعكسون هذا الاتجاه الى الانحطاط والتدهور الاقتصادي ، خصوصا بادخالهم شمال افريقية من جديد فى التيارات الاقتصادية العالمية .

لقد شهدت افريقية الشمالية انبعاث الماضي البربري الذي لم يكن ينطوي الا على قليل من الحضارة والتمدن ، كما شهدت تدهورا اقتصاديا. ولكن المغرب كان يملك مصدرين للقوة : الغنى بالرجال . فقد شهد المشرق فى المراحل الاولى من النضال ، تدفق العبيد على هذه المنطقة . ولكنه بعد اعتناق كثير من المناطق المفتوحة للدين الاسلامي ــ الامر الذي أدى الى تناقص موارد العبيد ــ اتجهت الأنظار الى بلاد البربر التي تحتوي على احتياطي كبير من الجنود الذين سيتم على يدهم فتح اسبانيا وصقلية (فى عهد الأغالبة) ، ومصر (فى عهد الفاطميين) . وبواسطة البربر أيضا تم استعمار الصحراء حتى بلاد السودان .

هل كان التوسع الديموغرافي الذي شهده المغرب فى العصور الوسطى العليا نتيجة لما يسمى « عهد السلام الروماني » ؟ من الصعب تأكيد ذلك ، حيث أن هذه الظاهرة نشاهدها أيضا فى العصر الحاضر . وعلى كل حال ، فان افريقية الشمالية كانت خلال الفترة بين القرن الثامن

والقرن الثاني عشر الميلادي موردا معتبرا للقوة العسكرية ، مثل الديلم في المشرق .

والقوة الاخرى التي لم تكن مستغلة في المغرب وسيحولها الاسلام الى حقيقة هي : انفتاح عالم البربر على الصحراء الكبرى وبلاد السودان . فعن طريق التبادل التجاري بين المغرب وبلاد السودان سيدفق الذهب والعبيد السود في اتجاه البحر الابيض المتوسط والمشرق . فالذهب سيكون مصدرا لقوة تجارية ، بينما يشكل العبيد السود يدا عاملة في الزراعة ، كما أن الخصائص العسكرية التي يتسم بها هؤلاء العبيد . ستعزز قوة افريقية الشمالية البربرية من الناحية العسكرية .

البلاد المغربية :

تحتل جزيرة المغرب موقعا جغرافيا ذا قيمة عظيمة بين المشرق الاسلامي وأسبانيا الاسلامية ، ثم بين صحراء السودان والبحر الابيض المتوسط . والمناطق الثلاث التي يتكون منها المغرب والتي بسط عليها المسلمون الذين جاءوا من المشرق سلطانهم ، هي افريقية والمغرب الاوسط ، مضافا اليها حافات الصحراء ، والمغرب الاقصى .

وافريقية (africa proconsularis) تسيطر بموقعها على مضيق طليلة. وهي مركز فنيقي قديم ونقطة استراتيجية معتبرة استغلها الوندال ثم البيزنطيون من بعدهم . وقد كانت مدنها ، ولا سيما قرطجنة ، مأهولة بالمشارقة ، وأهم المزروعات فيها هي الزيتون والقمح والكروم . والمغرب الاقصى الذي تمتد أراضيه في الشمال الغربي للصحراء ، يسيطر بموقعه على مضيق جبل طارق وعلى المدن التي تقع على العدوتين : تينجس ، وسبتم ، وليكسوس ، وعلى الضفة المقابلة ، مالقه وقادس وهيسباليس ، التي كانت مأهولة بجماعات من المشارقة واليهود . وفي الداخل ستكون فولوبيليس (أوليلي) أول عاصمة للادارسة ، قبل فاس (نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن الميلادي) .

فأما افريقية وحافات الصحراء فى المغرب ، وهما منطقتان تملكان مراكز حضارية قديمة ، فنيقية رومانية ، وتشكلان ممرا الى ايطاليا واسبانيا فقد انتشر الاسـلام واللغة العربية فيهما بسرعة .

ولكن الحالة لم تكن كذلك فيما يتعلق بالمنطقة الصحراوية التي تمتد عند أقدام الأطلس (وهي منطقة واسعة) من الشرق الى الغـرب ، حيث تلتقي الطرق التي تمر عبر الصحراء ، وحيث تتوالى محطات القوافل الشمالية فى شبكة العلاقات السودانية الصحراوية وهذه المنطقة كانت أيضا ملجأ فى الصحراء للبربر الرحل الذين يأتون من الهضاب المرتفعة . وقد كان منعهم من الدخول الى هذه المنطقة ، عملية مهمـة فى خطـط الفاتحين العرب . وبالفعل ، فان عقبة بن نافع قاد عدة حملات فى المنطقة من الجريد الى غدامس (سيدموس القديمة) ثم الى السوس الأقصى ، فى اتجاه وادي درعة والطرق التي تمتد على ضفاف المحيط الأطلسي . وقد جاء فى احدى الروايات ، أن عقبة بن نافع ، لما بلغ المحيط الأطلسي ، دفع بفرسه الى البحر ، ثم أعلن أسفه لعدم امكانه التوغل الى أبعد من ذلـك .

والوضع الطبيعي للمغرب ، يشتمل ـ فى الوسط ـ على أشرطـة منضدة تتجه من الشرق الى الغرب ، ومن البحر الأبيض المتوسط شمالا ، الى الصحراء الكبرى جنوبا : الساحل الذي تقطعه سلسلة من الجبال ، الأطلس التلي ، والهضاب المرتفعة ، والأطلس الصحراوي ، والصحراء . وقد كانت السهول الساحلية دائما مزدهرة بالعمران فى افريقية والمغرب الأقصى .
الساحلية دائما مزدهرة بالعمـران فى افريقيـة والمغـرب الأقصى .
وهذا الوضع يفسر لنا الصعوبات التي واجهتها الغزوات التي اتخذت هذه الواجهة هدفا وانقضت عليه ، مثل الرومان والفرنسيين ، والسهولة التي فتح بها الغزاة الذين جاؤوا من الشرق ، مثل العرب ، الذين سلكوا هذه الأشرطة الطبيعية التي تمر بين الجبال وعند أقدامها .

توجد طريقان كبيرتان فى المنطقة : تمتد الاولى فى الهضاب المرتفعة وتمر بالجريد لتعرج على الأوراس وتنفذ الى الحضنة ثم الى تـازا . والشمال الغربي للمغرب الأقصى . وبعد اخضاع المناطق الجبلية فى وسط افريقية ، وبناء القيروان ، اتصلت طريق أخرى ، تمر بحوض الحضنة بهذه الطريق ، فى تيهرت .

وأما الطريق الثانية ، طريق القصور « جمع قصر » ، فهي تكمل من الجريد ، الطريق الآتية من مصر عبر برقة وطرابلس الغرب . وهي تمتد محاذية للمشارف الجنوبية للأطلس الصحراوي حتى المناطق الجنوبيـة الغربية من المغرب الأقصى . ونحن ندرك بسهولة أهمية هذه المنخفضات التي تقطع سلاسل الجبال المتجهة من الشرق الى الغرب ، وتسمح بمرور الطرق التي تمتد من الشمال الى الجنوب وتلتقي عندها طرق القصور وطريق الهضاب العليا وشواطيء البحر الأبيض المتوسط .

وهذه المناطق التي تمتد فيها شبكة خطوط المواصـلات ، مناطـق مأهولة وتنتشر فيها المدن ، ولا سيما ساحل افريقية ومنخفضات الحضنة « تيهرت ، وورجلة وسدارته وبني مزاب » والممرات الجبلية التي تقطع الأطلس فى المغرب ، مثل تيزي تتلغمت (فاس وسجلماسة) ، وتيزي تتلويت (أغمات ، مراكش ـ سجلماسة) ، وتيزي نتيست (فاس ، مراكش فى اتجاه سوس الداخلية ونولمطة) .

ومنطقة الجريد من جهة ، وسدراته وورجلة وبني مزاب ، من جهـة آخرى ، وسجلماسة ونولمطة ، أخيرا ، تشكل ثلاث مجموعات لمحطات الشمال لطرق القوافل المتجهة الى الصحراء الكبرى والسودان ، وهذه المدن ، هي التي تستقبل الذهب والعبيد السود ، وفيها توزع هذه السلع فى اتجاه البحر الأبيض المتوسط والمشرق .

وانشاء هذه المدن التي تلتقي عندها طرق المواصلات تم فى غضون الفترة التي تمتد بين منتصف القرن الثامن ومنتصف القرن الحادي عشر الميلادي . وهي تشكل عنصرا مهما فى حركة التوسع فى انشاء المدن التي شهدتها بلاد البربر فى تلك الفترة .

وأما شبكة المواصلات التي تمتد فى الشرق والوسط والمغرب ، فقد كانت هدفا أساسيا للسيطرة عليها فى النزاع بين الأدارسة والرستميين والأغالبة فى القرن التاسع الميلادي ، والنضال بين الأدارسة والفاطميين ، فى القرن العاشر ، والنضال بين الفاطميين والأمويين والصراع بين صنهاجة وزناته ، فى القرن الحادي عشر . وأخيرا لغزو قبائل بني هلال ونضالهم فى شرق بني مزاب وفى الوسط ، ولسيطرة المرابطين فى الغرب فى القرن الحادي عشر الميلادي .

وكذلك نرى ، أن افريقية الشمالية تحتل موقعا استراتيجيا جوهريا فى العالم الاسلامي . فهذه المنطقة غنية بآفاقها المفتوحة نحو المستقبل وباتصالاتها الحضارية . فهي ملتقى للتيارات الآتية من الشرق ومن اسبانيا وصقلية والعالم الغربي الذي يسيطر عليه البرابرة ، والسودان ، من جهة ، وبين العالم المتحضر والعالم الجديد من جهة أخرى . وقد شهد المغرب تحت الحكم الاسلامي توسعا ديموغرافيا كما شهد حركة مهمة لانشاء المدن ، وعرف ازدهارا اقتصاديا وتجاريا جديدا .

الشكل رقــم ٤ ـ الاراضي المغربية تحت الدول الاسلامية

الواجهة الصحراوية :

فى سنة 761 ، قام عبد الرحمن بن رستم (2) بانشاء مدينة تيهرت وأعلن استقلاله عن الخليفة وقد كانت مملكة الخوارج ، أو الاباضيين ، الرستمية تمتد على جميع أراضي المغرب الأوسط لتشمل جبل نفوسة وجزيرة جربة ، بل وحتى طرابلس الغرب . وفى الجنوب الغربي ، فى سجلماسة التي أسست فى سنة 757 م . كان بنو مدرار الذين ينتمون الى الصفرية ، من الخوارج ، يوسعون نفوذهم حتى بلغوا السوس الأقصى . والدولتان الخارجيتان تجمع بينهما صلات عائلية ، ومن ثم ، فقد كانتا تشكلان أمبراطورية تسيطر على جميع الطرق الآتيـة مـن الجنوب . وكذلك كانت زناتة منهمكة فى حركة التجارة الكبيرة وتستخدم شبكة المواصلات التي تربط افريقية الشمالية وبلاد السودان . وأما مدينة تيهرت ، فقد عرفت ازدهارا كبيرا وسميت « البصرة الصغيرة » .

وبعد قضاء الفاطميين على الدولة الرستمية ، تراجع أئمة الخوارج والتجأوا الى مزاب .

وأما زناته ، فقد كانوا يرتبطون بعلاقات حسنة مع الأمويين خلفـاء قرطبة ، وتحالفوا معهم ضد صنهاجة ، أعوان الفاطميين ، فى النضال من أجل السيطرة على محطات طرق القوافل .

وفى النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي ، استولى الفاطميون على سجلماسة ، وبذلك تمكنوا من السيطرة على الطرق المؤدية الى

2 ـ عبد الرحمن بن رستم بن بهرام ، أول من ملك من الرستميين ، فارسي الأصل ، وقد كان من فقهاء الاباضية بأفريقية معروفا بالزهد والتواضع ، وله كتاب «التفسير» ، ولما تغلب أبو الخطاب على افريقية استخلفه على القيروان ، واثر زحف ابن الأشعث على القيروان وقتله أبا الخطاب (سنة 44 هـ) فر عبد الرحمن بن رستم بأهله وما خف من ماله الى الغرب ولحقت به جماعات من الاباضية فنزلوا بتيهرت التي كانت غيضة بين ثلاثة انهار وفيها آثار عمران قديم ، فبنى اصحابه بها مسجدا واختطوا مساكنهم « سنة 161 هـ » وبايعوه بالاقامة بها الى ان توفي فى سنة 171 هـ « المترجم » .

السودان . وبفضل ما تجمع لديهم من الذهب والعبيد : ملؤوا خزائن الحرب ومولوا جيشا كفيلا بتحقيق خططهم العسكرية : غزو مصر . وفى سنة 915 م بنوا مدينة المهدية ، التي ستحل محل القيروان . وقد بسطوا سلطانهم على جميع أفريقية الشمالية فيما عدا المنطقة الواقعة فى الشمال الغربي والتي كانت خاضعة للأدارسة ولكنهم واجهوا فى سنة 944 م ، خطرا كبيرا ، نتيجة لثورة أبي يزيد الخارجي ، الذي كان مسيرا للقوافل وينتمي الى منطقة الجريد . على أن الفاطميين تمكنوا من قمع هذه الثورة ، واستعادوا سيطرتهم على جميع الطرق التي تمتد فى الشمال .

وفى منتصف القرن العاشر كان يسك فى مدينة سجلماسة 400ر000 دينار من الذهب سنويا .

وفى سنة 972 م ، قاد جوهر الصقلي جيشا عن طريق الواحات لغزو مصر التي انتشرت فيها دعوة العبيديين . وكانت القوة التي اعتمد عليها هي رجال كتامة ، والجنود المرتزقة السود ، والذهب الآتي من السودان .

ومنذ ذلك التاريخ ، ترك الفاطميون افريقية الشمالية لبني زيري وبني حماد . وفى هذه الأثناء ، وجه الأمويون أعوانهم من زناتة للاستيلاء على محطات القوافل الغربية ، فاحتلوا ، فيما احتلوه سجلماسة . وأما الأدارسة الذين تحالفوا مع صنهاجة ، فقد فقدوا مدينة طنجة ، فى الوقت الذي بسط فيه خلفاء قرطبة نفوذهم على المغرب الأقصى ، بواسطة أعوانهم من زناته .

وكذلك تكونت كتلتان سياستان كبيرتان فى افريقية الشمالية : الأمويون الذين يسيطرون على محطات القوافل فى الغرب ، والفاطميون الذين يشمل حكمهم المحطات الواقعة فى الوسط وفى الشرق . وقد كانت

الحرب عوانا ومستمرة فى البر والبحر بين صنهاجة وزناتة . ولما وجد الأباضيون فى سدراته وورجلة أنفسهم بين نارين (فى القرن الحادي عشر الميلادي) هربوا الى مزاب .

ومنذ الآن سينقسم التيار الذي يتدفق منه الذهب من السودان الى قسمين ، يتجه أحدهما الى قرطبة ، والآخر الى القاهرة ، وفى قرطبة سيغذي ذهب السودان بيوت السك ـ سك الدينار ـ ويكون مصدرا لثراء القصور وتدفع منه تكاليف بناء مسجد قرطبة ومدينة الزهراء ، ويساهم فى حماية العلوم والفنون : فان ذهب السودان هو عمدة الحضارة الأندلسية العظيمة وسندها فى القرن الحادي عشر . وفى القاهرة ، سيكون الذهب الآتي من النوبة والحبشة والذي اختلط بالذهب المستخلص من قبور الفراعنة ، مصدرا لثروة الخلفاء الفاطميين . وقد تمكن ناصري خسرو ، الذي زار القاهرة فى ذلك العهد من مشاهدة الدينار المصري والاعجاب به . وهذه الدنانير هي التي كانت تمول توسع الفاطميين فى اتجاه المحيط الهندي ، وحياة البذخ التي كانت سائدة فى قصورهم ، ونشاط البناء (بناء المدن والقصور والمساجد والأسواق) الذي بلغ أوجه فى عصرهم .

وفى منتصف القرن الحادي عشر ، اضطر الغزو الهلالي بني زيري فى افريقية الى الالتجاء الى المهدية ، وبني حماد الى الالتجاء الى بجاية ، وذلك فى الوقت الذي كان المرابطون فى المغرب يشيدون فيه امبراطوريتهم التي تمتد من الصحراء الى أسبانيا . وأما بنو مزاب ، فقد شرعوا منذ ذلك الوقت فى ممارسة نشاطهم فى تجارة التجزئة وأخذوا يستقرون فى التل ويندمجون فى تيار التجارة مع السودان .

وفى غضون القرن الثاني عشر والثالث عشر الميلادي ، انفصلت بلاد البربر نهائيا عن المشرق بسبب الغزو الهلالي والنورماندي وأصبحت

كثير من المناطق مسرحا لغارات المسيحيين أو لنشاطهم التجاري . وكذلك كانت سفن جنوه تقصد المرسى الكبير فى وهران لتنقل منها الذهب . وفى القرن الثالث عشر والرابع عشر ، قام البندقيون فى تونس باحياء الطرق الشرقية . وفى القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر ، سيقوم الجنويون بممارسة التجارة بطرق القوافل التي تمر بالصحراء الغربية ، قبل أن يقوم الدييبيون (Diepois) ثم البرتغاليون بالسيطرة على التجارة فى الذهب عن طريق البحر .

الواجهة البحرية :

ينبغي أن نستحضر دائما فى أذهاننا المخطط العام لوضع افريقية الشمالية الذي يتكون من أشرطة تتجه من الشرق الى الغرب ومن امتداد فى طرفيها : فى الشرق ، ساحل افريقية ، وفى المغرب السهول التي تشرف على المحيط الأطلسي . ومن هاتين النقطتين يعبر فى بضع ساعات الى صقلية والى أسبانيا . وقيمة هذا الوضع وأهمية هاتين المنطقتين اقتصاديا ، شيء معترف به منذ القدم . ومدن ضفتي خليج صقلية وجبل طارق ، كانت ترتبط فيما بينها بروابط تجارية نشيطة .

وقد كان طرفا أفريقية الشمالية فى الشرق والغرب ، قاعدة لانطلاق الغزو الاسلامي للغرب الذي يقع تحت سيطرة البرابرة ، وكانت هاتان المنطقتان مركزين لبناء السفن ، بفضل الغابات التي تكسو الجبال الشاطئية من الشرق حتى جبال الريف فى المغرب الأقصى . وكذلك كانت المنطقتان ملتقى لتيارات النفوذ الآتي من الشواطىء الشرقية للبحر الأبيض وينتشر نحو المغرب وهي فى نفس الوقت ، مستودع توزع منه منتجات السودان : فساحل افريقية ينقل هذه المنتجات الى الشرق الاسلامي وصقلية . ومضيق جبل طارق تنقل عن طريقه المنتجات الى اسبانيا وما وراءها من بلاد الأفرنج (امبراطورية شرلمان) التي ظلت بمعزل عن موجة الفتح الاسلامي .

والمنطقتان يسود فيهما نشاط بحري ممتاز . فكلتاهما كانت منطقة مهمة لصيد السمك . وعلى عكس الوضع السائد عند بقية شواطىء المغرب حيث يشتد عمق البحر فجأة ، فان شواطىء المضيقين غنية بالسمك الذي يقدد ويملح ، بفضل الملح المستخرج من البحر ومن مناجم البر ، ويصدر الى الخارج .

ومن جهة أخرى ، فان العبور سهل الى العدوة الأخرى : من مدينة المجوس الى النقطة الشمالية من رأس بون نحو صقلية ، ومن قصر المجوس ، بين طنجة وسبتة نحو طريفة والجزيرة الخضراء على العدوة المقابلة .

ففي هذه المناطق ، كان يعيش صيادوا السمك البربر والتجار الشرقيون الذين يشكلون جماعات أعدتها العادات المتوارثة للقيام بدور مهم بمجرد ما تسمح الظروف بذلك ، أي حينما ينفتح أفق واسع للتجارة بظهور العالم الاسلامي .

والطريق البحرية التي تربط المشرق الاسلامي وصقلية عن طريق سرت ، والتي تربط الشواطيء الشمالية للمغرب باسبانيا ، عن طريق مضيق جبل طارق ، ذات تكوين مزدوج . فهي ، أولا ، تمثل علاقات مباشرة فقد أنشئت على هذه الشواطيء موانيء جهزت بأحواض وأرصفة وفنارات وبسلسلة من مصانع السفن وورش التصليح ، مثل الاسكندرية والمهدية وتونس وبجاية . وكانت السفن الكبيرة ترسو فيها وتفرغ حمولات كبيرة . وحركة النقل البحري ، ستشهد نشاطا واسعا ، خصوصا في غضون الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي . وهذه الفترة بعينها هي التي شهدت بناء السفن الكبيرة الحجم لنقل السلع . وقد استمر صنع السفن على الطريقة المعروفة في البحر الابيض المتوسط ولا سيما السفينة المزودة بساريتين ذات الأشرعة « اللاتينية » . ولكن

صناعة السفن قد استفادت من وصول الطرق التقنية المعروفة فى المحيط الهندي . ولكن البحارة كانوا يمارسون أيضا ملاحة الشواطيء ، من مرسى الى مرسى . والمراسي ، فى بعض الحالات ، لا تتعدى كونها مرفأ تلجأ اليه السفن لتجنب الرياح .

ولكنه ، كان يوجد ، الى جانب السفن الكبيرة الحمولة سفن أصغر وقوارب تواصل النشاط الملاحي القديم على الشواطيء .

وهاتان الشبكتان من خطوط المواصلات البحرية تكمل ، احداهما الاخرى .

وكذلك نجد أن كل مدينة على ساحل المغرب ، تقابلها مدينة على الشواطيء الاسبانية الواجهة .

تم فتح افريقية فى النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي ، ولكنه كان من المحتم ضمان سلامة الحاميات وتأمين البلد ضد تهديد الهجمات من الخارج وغارات الاسطول البيزنطي . وكذلك أصلحت الحصون والقلاع الموجودة فى الداخل ، كما وضعت ترتيبات على طول الشواطيء للدفاع عنها ضد محاولات نزول « الرومي » فيها .

كانت سلسلة من الرباطات (3) تمتد من سورية حتى المغرب بالاقصى ، وخصوصا على الساحل التونسي . وهذه الربط عبارة عن مراكز للمراقبة والاشارات ، ولكنها فى نفس الوقت ، قلاع صغيرة للدفاع عن الشواطيء ولحماية النشاط البحري . والحامية تتكون من أشخاص أتقياء ، يسمون مرابطين ، كرسوا حياتهم للعبادة وللدفاع عن بلاد الاسلام ضد الكفار .

---

3 ـ رابط رباطا ومرابطة الجيش : لازم التخوم ، والمرابط ، كلمة يرجع أصلها الى المرابطين (الملثمين) الذين كانوا يرابطون فى الساقية الحمراء ، ولكن معناها اتسع فى مرحلة تالية بحيث أصبحت تنطبق على جماعات من الزهاد والعلماء والأتقياء الذين يوقفون حياتهم على العبادة والجهاد ، وهؤلاء هم الذين انتشروا فى داخل بلاد المغرب بعدما زالت فعالية نظام الرباطات على الشاطىء وكونوا الزوايا التي لا يزال بعضها موجودا حتى الآن (المترجم) .

والرباطات تستخدم قاعدة لحملات للغزو ، فى الوقت الذي تقوم فيه بدور مراكز المقاومة ومؤسسات لنشر الاسـلام ــ وهو الدور الذي قامت به الرباطات فى آسيا الوسطى ، وعلى ثغور الأناضول ، وتخوم اسبانيا . وهي منشآت ذات طابع مزدوج ، ديني وعسكري ، يدافع عنها جنود ، هم فى نفس الوقت ، من الزهاد المتفرغين لعبادة الله .

والرباطات ، هي أصل النظام الديني العسكري الذي ابتدعه المسيحيون فى العصور الوسطى فى الاراضي المقدسة فى فلسطين وفى اسبانيا ، وقت استعادة المسيحيين لشبه جزيرة الاندلس . ومن أهم الربط التي تقع فى هذه المنطقة ، تلك التي كانت فى الاسكندرية ، وسفاقس ، ومنستير ، وسوس ، وتونس ، والرباط (فى مقابل مدينة سلى) . وسلسلة الربط تمتد حتى شواطيء افريقية الغربية .

واثنان من الرباطات المشهورة التي حفظت آثارها ودرست ، يقعان فى تونس (4) أحدهما فى منستير ، بني فى العصر العباسي وجرى توسيعه أولا فى القرن التاسع وثانيا فى أوائل القرن الحادي عشر الميلادي . والثاني يقع فى سوسة وبني فى عهد يزيد بن حاتم الوالي العباسي ، فى الربع الاخير من القرن الثامن الميلادي ، ثم كمل فى سنة 821 م ، بتشييد برج للمراقبة عليه ، وكان ذلك فى عهد الامير الأغلبي الثالث . وهو يتكون من مربع من البنايات التي تحيط بفناء مركزي ، ومحصن بأبراج ذات فتح . وهذا هو التصميم العادي للحصون البيزنطية مع ادخـال عـدد من التحسينات عليه . وباب الرباط مزود بوسائل الدفاع من سياج ، وشرف لرمي الحجارة والسوائل المحرقة على المهاجمين ، والدبابيس المتتالية .

4 ــ راجـع : A. Lazine, deux Ribats du Sahel Tunisien, cahiers de Tunisie, IV, 1965, pp. 279-288. pl.

والتي ترتب عند المدخل الخ . وهذه الوسائل الدفاعية التي كانت معروفة بين النهرين ، هي التي أخذها عن المسلمين الصليبيون . وهذه التحصينات معززة بمتكا يتخذ شكل نصف دائرة ، وبرج مربع يقع عند الزاوية ومزود بمرقب مستدير له عدة طبقات . والبرج والمتكأ ، كلاهما موجود في الآثار الشرقية القديمة . انه لمن الممكن الافتراض بأن مهندسا معماريا عارفا بأساليب البناء الايرانية ومطلعا على طراز الربط السائد في آسيا الوسطى ، قد أثر على اختيار الولاة العباسيين والأغالب لهذا الاسلوب الفني .

ومثلما نرى مدن القوافل مرتبة على طول طريق القصور ، نجد سلسلة من المراسي منتشرة على طول شواطيء شمال افريقية وتشكل خطا من المدن النامية مع شبكة العلاقات العامة . وهذه المراسي بعضها أنشيء حديثا والبعض الآخر كان موانيء ومراكز بحرية بعثت في العصر الاسلامي. وهذه الفئة الاخيرة ، كانت في بعض الاحيان تحتفظ باسمها الفنيقي أو الروماني .

وهكذا نمت تونس . فبعد استيلاء حسان « بن النعمان » (5) في سنة 694 ميلادية على قرطجنة ، أهملت عاصمة الفنيقيين وأصبحت خرابا بلقعا تستعمل محجرا . وأما المركز المدني الجديد فسينمو في موقع تينس Tynes ، التي هي احدى ضواحي قرطجنة . وعن طريق القناة التي أمر حسان بحفرها عبر البحيرة ، اتصلت المدينة بالبحر وأصبح لها ميناء .

---

5 ـ حسان بن النعمان بن عدي الازدي الغساني (مات بعد 86 هـ) من اولاد ملوك غسان ، قائد محنك وسياسي بارع مشهور في الفتوحات الاسلامية ، ولي افريقية في زمن معاوية ثم عين عاملا على مصر في أيام عبد الملك بن مروان ، ولما اضطربت افريقية بعد مقتل زهير البلوي (76 هـ) أمره عبد الملك بالزحف عليها على رأس أربعين ألف مقاتل ، وبعد وقائع مع الروم في قرطجنة ومع الكاهنة البربرية في قابس وجبل أوراس دانت له افريقية كلها ، وبعد أن عم الاسلام المغرب ، اقام بالقيروان حيث دون الدواوين وولى الولاة ، وقد اعتزل الاعمال في أول عهد الوليد بن عبد الملك . «المترجم» .

وكذلك احتجز عدة آلاف من الأقباط المتخصصين في بناء السفن ونقلوا من مصر عائلاتهم للعمل في دار صناعة تونس . وقبل نقل الأقباط للعمل في تونس ، كان عمال آخرون متخصصون « ناخوضة » قد نقلوا لنفس الغرض من الخليج العربي الى سورية . وبعد ذلك ، جاء دور العمال السوريون والمصريون والافريقيون نقلوا الى شواطىء اسبانيا للعمل في امارة قرطبة : المرية .

وهكذا نرى رجالا يمرون من الشرق الى الغرب ينقلون معهم الفنون والطرق التقنية ، وكثير منهم من الايرانيين واليونان الذين يلبسون ثيابا عربية . وعن طريق هؤلاء الفنيين ينتقل ألفاظ تقنية الى العربية ، ومنها الى اللغات الرومانية التي ستؤثر بدروها في اللغات الجرمانية .

وفي عهد الفاطميين ، سيبني عبيد الله مدينة المهدية على شواطىء افريقية « 915 م » ليلجأ اليها هربا من القيروان التي كانت ملتقى لمختلف التيارات ولم يكن من بين سكانها سوى عدد قليل ممن يعطفون على عقيدة الشيعة . وستشيد المدينة الجديدة في شبه جزيرة صخرية تتوغل بعيدا في البحر ويسهل الدفاع عنها . وتشتمل المدينة على مسجد بني في وسطها ، وقصرين للمهدي وابنه ، وعلى دار المحاسبة . والمدينة محاطة بأسوار تخترقها أبواب من حديد . وكذلك حفر فيها 360 صهريجا كبيرا في الصخر الصلد ، وزودت بالآت لرفع الماء لسد حاجات المدينة . وأما زويلة ، احدى ضواحي المدينة ، فستقام فيها أسواق مبنية بالحجر المقصوب ، ومباني للسكان .

وميناء المهدية الذي يمتد على طول شبه الجزيرة يتكون من حوض ذي شكل قائم الزاويا ، حفر في الصخر ويمتد على 26 مترا في 57 مترا ، مع ممر يبلغ عرضه حوالي 15 مترا . ويقول أبو عبيد البكري ، ان ميناء المهدية كان مجهزا لاستقبال ثلاثين سفينة . والميناء منيع وتحميه

أسوار المدينة التي ينفتح فيها باب من الماء ، تحت قوس ضخم تمر فيه السفن . وهذا الباب مزود بسلاسل تمنع مرور السفن متى شدت .

وستكون المهدية ملجأ لبني زيري فى سنة 1057 ميلادية ، عندما اضطروا الى التخلي عن القيروان تحت ضغط العربان الهلاليين .

وهذه المراكز البحرية الافريقية ، كانت تقوم ، بتبادل تجاري نشيط البلدان الشرقية الواقعة على شواطىء البحر الأبيض ومع صقلية وآسبانيا . وقد كانت تونس أول ميناء تقلع منه السفن مباشرة فى اتجاه طرطوشة (Tortose) الواقعة على دلتا نهر ابرة (Ebre) نهر سرقسطة .

وأما قابس ، فهي ميناء الجريد . ومبدأ الطريق المؤدية الى السودان . وقد كانت سفاقس والمهدية وسوسة . الموانىء التي يصدر منها الزيت الذي تنتجه غابات الزيتون المنتشرة على الساحل التونسي .

ومن هذه الموانىء ، ومن ميناء تونس تصدر الى بلدان المشرق منتجات البلد (القمح والزيت والمرجان الذي تنتجه مرسى الخرز) . ومن المناطق الخلفية : تصدر افريقية الصوف والجلد والشمع والجياد . وقد كانت افريقية الشمالية ، مع سورية ، مصدرا لتزويد سلاح فرسان سلاطين مصر بالخيل حتى حملة سانت لويس وبعد ذلك .

وفى نفس الوقت كانت افريقية مركزا لتجارة المرور (الترانزيت) فى المنتجات السودانية : المنسوجات ، والعاج ، واللؤلؤ ، وسلع الترف ، ومنتجات الغرب المسيحي : العبيد الصقالية ، والفراء ، والسيوف .

وكذلك بعثت الحياة فى موانىء قديمة كانت ترصع شواطىء البحر الأبيض المتوسط فى تونس والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى : بنزرت ومرسى الخرز والقل (Hippo, Diarytnus, Bizerte) حيث يستخرج المرجان وقد كان أسطول خاص يقوم بعمليات صيد المرجان . وكانت السفن تزود بشبكات تربط بصلبان من الخشب مطلية بالحديد . والمرجان الأحمر ، رمز للحظ السعيد . وتصدر منه كميات معتبرة الى بلدان المحيط الهندي التي لا تعرف الا المرجان الأبيض .

وأما مدينة بونه (Hippône, Bône) فقد كانت تصدر الحديد الذي يستخرج من جبل ايدوغ الذي يقع غير بعيد منها .

وسواحل بلاد القبائل الصغرى ، كانت تصدر الخشب بواسطة الملاحة الساحلية الى أحواض بناء السفن فى افريقية وسكيكدة ، ولكن بجاية كانت تستعمل المواد التي تنتجها الجبال المجاورة لها لبناء السفن : الخشب والحديد والقار والشمع .

ومدينة الجزائر التي بناها بلكين بن زيري فى سنة 946 ، ستصبح سوقا مهمة للقبائل التي تقصدها من الداخل ، وشرشال (Ceasarea) ميناء آخر يقع غير بعيد منها .

كانت عصابات من المغامرين الأندلسيين الذين يقصدون بلاد البربر للتجارة ، يضربون خيامهم هنا ويبنون حصنا أو مدينة صغيرة هناك . وقد كانت مدينة تنس التي بنيت فى 870 — 876 م ، مما خلفه هؤلاء الأندلسيون . وكذلك بنيت مدينة وهران بنفس الطريقة . فقد توثقت علاقات تجارية بين بعض المغامرين الأندلسيين وقبائل البربر فى حوالي سنة 902 — 903 ميلادية ، وكان من نتائجها قيام هذه المدينة التي سيحرقها البربر فى سنة 910 ، ثم أعيد بناؤها فى السنة التالية ، وظلت

تتمتع بعهد من الرخاء حتى سنة 954 ، حينما دمرها بنو يفرن ، ثم أعيد بناؤها بعد ذلك ببضع سنوات .

وأخيرا ، فقد بعثت على ضفاف بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) فى المغرب الأقصى الموانىء القديمة : سبتم وتينجس،وأنشئت موانىء جديدة مثل قصر مصمودة . وعلى شواطىء المحيط الأطلسي ، تقع أزيلة « أصيلا » ، فى القرن التاسع الميلادي ، وشميش (Lixus, Larache) وسلى ، والرباط ، وهي أقصى حدود الأراضي المغربية التي كانت تحت سيطرة الرومان .

وفيما وراء ذلك ، شهد العصر الاسلامي بناء موانىء أسفى ، ومزغان « الجديدة » ، وأجادير وماسة . وقد ظهرت هذه الموانىء نتيجة لازدياد أهمية محطات القوافل التجارية التي تربط الشمال بالسودان . وهذه الموانىء المغربية كانت تقوم بدور نشيط فى التجارة مع موانىء شبه جزيرة الأندلس الواقعة على الضفاف الجنوبية للمحيط الأطلسي : قادش (Gadès) ، ومصب نهر قرطبة (Guadalquivir) (الوادي الأعظم) والسفن النهرية تصعد حتى اشبيلية وقرطبة) وشلطيش (Al-cacer Do sal) ، وقصر أبي دانس (Saltes) وموانىء الغرب .

وفى اتجاه هذه الموانىء الأندلسية كانت تصدر الحبوب والمواشي والصوف والجلد والشمع والعسل الذي تنتجه البلاد الداخلية الواقعة وراء شواطىء المحيط الأطلسي . وكذلك توسق عن طريق هذه الموانىء المعادن : الحديد والفضة والنحاس الذي يستخرج من جبال الأطلس المغربية .

طرق الهضبات العليا :

وقع أول غزو لأفريقية فى سنة 647 ميلادية . وكما رأينا فان المدن التي كانت تدافع عنها حاميات بيزنطية تم اخضاعها بسرعة . وقد استقبل سكان المدن الفاتحين استقبالا حسنا ، حيث كان سلطان هؤلاء قويا وتنظيمهم الاداري للمدن فعالا ، وحمايتهم ضد البربر الرحل مكفولة . وأما العناصر التي أبدت مقاومة ، للفتح الاسلامي ، فهي العناصر الداخلية ، من سكان الجبال والبربر الذين يستنجعون فى الهضاب العليا .

وقد كانت القيروان التي أسسها عقبة بن نافع فى سنة 670 ، فى وسط السهوب ، وراء الساحل التونسي ، بمثابة رأس جسر ، أو رباط . واسم القيروان نفسه ، معناه « محطة الابدال » أو « مكان التجمع للدفاع عن مدينة » (6) وموقع القيروان عند منتهى الطريق الكبيرة الآتية من مصر ، يسمح بالهجوم والتراجع . وقد تمكن البربر أثناء الثورة الكبيرة التي قام بها الخوارج فى القرن الثامن الميلادي من الاستيلاء على مدينة القيروان عدة مرات ومن تدمير تحصيناتها . وفى سنة 772 ميلادية ، استعاد يزيد بن حاتم (7) المدينة عقب انتصاره على الخوارج ، فأعاد بناء مسجدها وأسوارها التي بنيت بالطوب

---

6 — لم اعثر فى ابحاثي على ما يسمح لي بمتابعة المؤلف وتأكيد ملاحظاته بشأن هذا الاشتقاق ، وكل ما أعرفه هو أن الكلمة (قيروان ج قيروانات) فارسية معربة ، معناها : الجماعة من الخيل (معظم الكتيبة) ، أو القافلة ، ولربما كان المعنى الذي عزاه استاذنا للكلمة من معانيها الأصلية فى الفارسية ، وعلى كل حال ، فأنا أنقل نص تفسيره حرفيا « المترجم » .

7 — هو يزيد بن حاتم بن قبضة بن المهلب بن ابي صفره الأزدي ، أبو خالد « توفي فى سنة 170 هـ » من أمراء العباسيين ، ولي مصر فى سنة 144 هـ ، فى عهد المنصور واقام بها نيفا وسبع سنين ، وصرفه المنصور فى سنة 152 ، ثم ولي افريقية الشمالية فى سنة 154 هـ واستقر واليا عليها خمس عشرة سنة . قاتل خلال ولايته الخوارج وقضى على كثير من الفتن . وقد كان يزيد بن حاتم مشهورا بالدهاء والشجاعة والكرم ، وفيه يقول ربيعة الرقي :

لشتان ما بين اليزيدين فى الندى — يزيد سليم والأغر بن حاتم

المكوي ، ويبلغ عرضها أثناعشر ذراعا ، أي حوالي خمسة أمتار ، ثم أمر ببناء سوق خاصة لكل حرفة من الحرف ؛ ومن ثم : فهو يعتبر بحق الباني الثاني للمدينة .

ولما خضعت جميع مناطق المغرب (أو على الاقل مناطق المواصلات التي تمتد بين كتل الجبال) للحكم الاسلامي ، أصبحت القيروان القاعدة التي تنطلق منها الطريق المتجهة الى الهضاب العليا ، من الساحل التونسي مارة بشمال جبل أوراس الى شط الحضنة ، وتتفرع عنها طرق تتجه الى بجاية وبسكرة وورجلة من جهة ، والى الهضاب العليا الغربية مارة بمضيق تازا حتى الامتداد الثاني لسهول المغرب الأقصى .

وقد شهدت القيروان فى عصر الأغالبة (800ـ909 م) ، وهم أسرة شرقية من ولاة بني العباس أصبحوا يتمتعون باستقلال يكاد يكون تاما عن الخلافة ، شهدت فى هذا العصر وفى عصر الفاطميين توسعا وازدهارا كبيرا . وفى القرن التاسع والقرن العاشر الميلادي ستنشأ ثلاث مدن تابعة للقيروان وهي العباسية ورقادة وصبرة المنصورية .

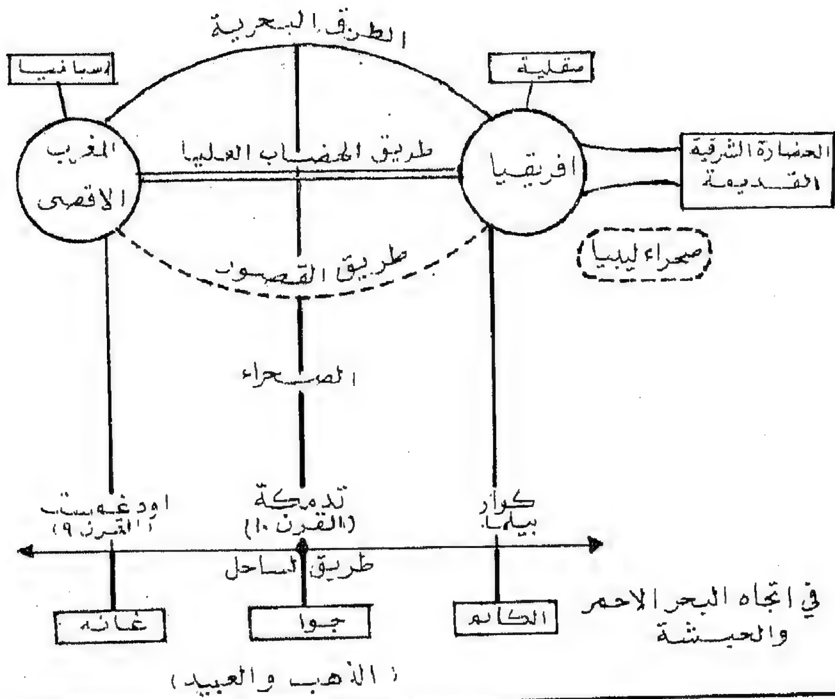
ومثل الفسطاط ـ القاهرة ، ومثل قرطبة ، فان أهمية القيروان ، تعود الى هذا التوسع العمراني الذي كان يسانده ازدهار التجارة وتصميم القيروان وعظمة تحصيناتها تدل على قوة تأثير الفن الايراني والفن السائد بين النهرين فى الحضارة العباسية .

وقد جذبت مظاهر العظمة والثراء التي كانت تسود بلاط القيروان وقصور المدن المحيطة بها ، الى هذه المدن أفواجا من الأدباء والعلماء والفقهاء الذين سيضعون مدارس ومذاهب ، وسيتتلمذ لهم البربر ، كما تتلمذوا من قبل على علماء الرومان .

ومن القيروان ، سينتشر النفوذ الديني واللغوي والفني والأدبي ، والعادات والتقاليد والاطارات الفكرية . حول المدينة فى المرحلة الأولى ، ثم الى داخل البلاد ، فى مرحلة تالية ، بواسطة الطريق المـؤدية الى الهضاب العليا ، بمجرد ما تحطمت مقاومة البربر وانسحبت بقاياهم الى الجبال المنيعة ، حيث لا تزال اللغة البربرية الأصلية مستعملة . وعلى طول هذه الطريق التي تقطعها طرق آتية من الجنوب (من محطـات تجارة القوافل عبر الصحراء) ستنشأ مدن جديدة .

ولكن ما هي النقاط التي تلتقي عندها طرق التجارة فى هذا المخطط الواسع فى المغرب الأوسط ؟

أولا ، توجد تيهرت فى غرب وادي شلف على سفوح جبال تشرف على الطرق المؤدية الى الهضاب العليا ، وتيهرت التي أنشئت فى سنة 761 م ، ستظل حتى سنة 908 م مقرا للدولة الرستمية الفارسية وعاصمة الخوارج من البربر الذين سيحتفظون بعلاقات مع الخوارج المقيمين على شواطىء الخليج العربي . وقد ازدهرت تجارة تيهرت ، وكانت مقصدا لعدد كبير من رجال العلم والأدب والفقه من المشارقة . وكذلك حصلت مكتبة الرستميين على ثروة جديدة من الكتب التي اشتريت فى المشرق ، وخصوصا من الكتب التي تعالج التنجيم والفلك .



الشكل رقم ٥ - طريق التجارة والنفوذ في افريقيا الشمالية (القرن ٨ - ١١)

ولما بحث الرستميون عن ملجأ يأوون اليه ، وجدوا هذا الملجأ أولا في ورجلة ثم في سدراته ثم في مزاب ، على طول الطريق المتجهة من الشمال الى الجنوب .

وفي نهاية القرن الثامن الميلادي ، كانت طبنة الواقعة على شط الحضنة والتي حصنها الولاة العباسيون تتمتع بسكانة مرموقة . وفي سنة 927 م.، قام عبيد الله الخليفة الفاطمي بانشاء مدينة المسيلة ، في مكان يقع في شمال طبنة .

وكذلك قام أمراء صنهاجة ، أعوان الفاطميين وحلفاؤهم على المغرب بعد رحيلهم الى القاهرة ، بانشاء سلسلة من المدن . ومنذ سنة 935 م . أي قبل رحيل الفاطميين ، قام زيري بن مناد ببناء مدينة أشير ، على سفوح جبال الحضنة . وقد وجد زيري بن مناد ما يحتاج اليه من العمال والنجار والصناع محليا ، ولكنه طلب الى الخليفة الفاطمي أن يبعث اليه بمهندس معماري ليجري العمل في بناء أشير تحت اشرافه فأجاب بلاط الفاطميين طلبه . وقد شهدت أشير ازدهارا سريعا فيما بعد .

وكذلك قام ابنه بلكين بن زيري (بناء على أوامر أبيه) بانشاء مدينة المدية على الهضبة الواقعة شرقي نهر الشلف ، مليانة ، على ضفة النهر اليمني ، ومدينة الجزائر ، وهي مراكز تنتشر على الطرق المتجهة الى البحر .

وفي سنة 1007 ميلادية ، أنشأ حماد بن بلكين قلعة بني حماد ، على سفوح جبل « تقربست » يرتفع في شمال الحضنة ، واتخذها عاصمة لملك بني حماد . وقد بقي من قلعة بني حماد آثار مهمة ، من بينها آثار قصر مشابه لقصر سر من رأى ، وهو تصميم سنجده أيضا في أحد قصور اشبيلية . وقد اتسع عمران القلعة وزاد عدد سكانها بسرعة .

وكان التجار والعلماء والفنانون ، يشكلون فئات معتبرة من سكان القلعة التي اشتهرت منسوجاتها فى جميع أنحاء المغرب ، وكانت القلعة مقصدا للقوافل الآتية من مختلف البلاد ، وكانت علاقات عاصمة بني حماد التجارية قوية خصوصا مع مصر وسورية والعراق ، وقد استفادت القلعة فى النصف الثاني من القرن الحادي عشر من خراب القيروان نتيجة لغزو بني هلال لأفريقية ، وحلت محلها . وهجر اليها كثير من العلماء والفنانين والأعيان من افريقية طلبا للأمن والاستقرار . وقد استمرت تقوم بدورها التاريخي حتى تعرضت بدورها للاختناق نتيجة للغزو الهلالي ، وحتى وجد بنو حماد ملجأ لهم فى مدينة بجاية .

وفى غربي مملكتي بني زيري وبني حماد الصنهاجيتين ، تمتد مناطق نفوذ زناته ، التي تشمل القسم الغربي من ولاية وهران والمغرب الاقصى. ومدن زناته الرئيسية هي ، تلمسان (Pomaria) قديما) ، ووجدة التي أنشأها أحد زعماء زناتة فى سنة 994 ميلادية . على الطريق المتجهة الى الغرب والتي تربط تازا بفاس .

وفى سنة 788 م . وصل الى المغرب حيث التجأ الى أوليلي (Volubibis) أدريس « بن عبد الله » . أحد أبناء الأشراف من سلالة الرسول صلى الله عليه وسلم . وهناك استجار بقبيلة أوربة . وأما أخوه الذي لحق به فيما بعد ، فقد سار الى تلمسان . وقد قام كلاهما بانشاء امارة ، أحدهما فى تلمسان والآخر فى فاس . وبعد ذلك قام الأدارسة بدور مهم فى انشاء المدن وبعث المدن القديمة . فأما أدارسة تلمسان ، فقد حققوا كثيرا من الرخاء والازدهار لهذه المدينة التي يقول اليعقوبي أنها كانت فى القرن التاسع الميلادي ، مكتظة بالسكان وعامرة بالقصور والمنازل العامرة ، ويحيط بها سوران مبنيان بالحجر . وكذلك أنشئوا ميناء أرشغول (فى جزيرة أرشغون) وهنين ، وعدد من مراكز العمران الصغيرة التي تبلور فيها النشاط الاقتصادي .

وهي كلها تحمل اسم مؤسسيها الذي يأتي بعد كلمة ســوق : سوق ابراهيم ، سوق حمزة ، الخ .

وأما ادريس الأول ، فقد غادر خرائب اوليلي الرومانية لكي يضع أسس عاصمة ملكه ، مدينة فاس (أ) التي ستقوم بدور فلوبيليس كما حلت تونس محل قرطجنة . وقد اختــار ادريس الأول موقع المدينة بعناية على الطريق التي تمتد من تلمسان غربا ، وتفضي جنــوبا الى سجلماسة ، فى منطقة خصبة يتوفر فيها الخشب والحجر للبناء . وكذلك توجد عيون ثرة فى المنطقة (8) وفى سنة 789 ، قامت مدينة فاس على الضفة اليمنى لوادي فاس الذي يسمى الآن نهر سبو . وقد كانت فاس فى البداية مدينة بربرية ، تتكون من خليط من الخيام والمنازل المرتجلة ، ومن المراعي ، كما تشتمل على مسجد ، وربما كان فيها أيضا متجر جماعي . وتحمي كل ذلك فى شكل أسوار جــذوع الشجــر وحواجز القصب . وبعبارة أخرى ، فان المدينة كانت متواضعة . ولكن أدريس الأول كان يقيم فيها ، حينما يبتعد عن أو ليلى . ومات أدريس الأول فى سنة 791 ميلادية .

وفى سنة 805 ، انضم الى ابنه أدريس (الثاني) بن أدريس الذي ولد بعد وفاته والذي رباه العبيد الذين أعتقهم ، نحو خمسمائة من المشارقة الذين أغراهم صيت الشريف وخيرات هذا البلد الجديد . وكذلك قصد الى المملكة أقوام آخرون من افريقية . ومن هؤلاء شكل أدريس الثاني جيشا

(أ) اعتمد استاذنا الراحل هنا نظرية للمستشرق ليفي بروفنسال تتناقض مع الرواية التقليدية القائلة بأن ادريس الثاني هو باني مدينة فاس . وقد تصديت فى الفصل الذي خصصته لمدينة فاس فى كتابي دولة الادارسة ملوك فاس وتلمسان وقرطبة لاعادة جمع النصوص القديمة التي تتصل بالموضوع ولتحليلها . وقد أوضحت أن الادلة التي استند عليها ليفي بروفنسال (وهي عبارة عن درهم قديم) غير كافية لابطال الرواية التاريخية التي تكاد تكون محل اجماع . (المترجم)

8 ــ راجــع : E. Lévi-Provinçal, *La Fondation de Fès :* in « Annales » de l'Institut d'Etudes Orientales d'Alger, IV, 1838.

وحاشية على الطريقة الشرقية . وفى سنة 808 م ، أسست فاس الجديدة على الضفة الغربية للنهر . وهذه المدينة ، ستكون عاصمة الدولة .

والى جانب المسجد والقصر والأسواق ، اشتملت المدينة الجديدة على بيت لضرب السكة تسمى «العالية» بدأت تصدر النقود منذ سنة 810 م . .

وفى وقت متأخر ، سينشأ حي فى فاس يسمى ، حي القرويين (عدوة القرويين) .

وأما المدينة ، فستظل مقرا للبربر ، وتحتفظ بسظهرها الريفي .

وأثر قيام احدى ضواحي المدينة (ربض) قرطبة بثورة ، فى سنة 814 ، هاجر عدد كبير من العائلات الأندلسية الى مصر « الأسكندرية » ثم الى جزيرة كريت . وقد استقبل أدريس الثاني 8000 عائلة من هؤلاء المهاجرين وأنزلهم فى فاس ، على الضفة اليمنى للنهر (عدوة الأندلسيين) .

وكذلك عرف جنوب المغرب الأقصى توسعا فى المدن فقامت اغمات ونفيس على الممرات الجبلية المؤدية الى السوس الأقصى « ايغلي » ، والى سجلماسة « تافيلالت » ، كما أنشأ المرابطون مراكش فى سنة 1077 ميلادية ، عقب وصولهم الى موقعها قادمين من ربط الصحراء عن طرق القوافل .

وكانت مراكش فى بداية عهدها عبارة عن خليط من الخيم والمنازل ، ثم بنيت أسوار حولها . وقد نمت هذه المدينة وتطورت ، على الطريقة التي نمت بها مدينة فاس ، من مخيم الى مدينة شرقية عظيمة القدر .

وفيما بعد ، أطلق على البلد كله اسم عاصمته الجنوبية الكبيرة .

الانــدلس

تشتمل شبه جزيرة الأندلس على سهول ساحلية ، وهي المنطقة التي استقر فيها الحكم الاسلامي فى البداية : سهول الشرق (Campus) (Juncarius) وهي منطقة حديثة الاستغلال ولم تفقد خصبها . وبعدها تأتي الهضاب الداخلية ، وهي سهوب وأراضي زراعية يسهل التنقل فيها . وأخيرا تأتي المناطق الجبلية التي تقع خارج نطاق العمل المباشر . والبلد مقسم الى ولايات متباينة الخصائص .

فأما الجهات الشمالية الغربية من شبه جزيرة الأندلس فقد كانت تسكنها شعوب من الأستور والكانتابر والفاسكون ، وهي لم تخضع قط للقوط ولا للمسلمين . وقد كانت دائما ملتجأ وملاذا وفيما بعد ، ستشكل مملكة الاستروليوني التي ستصبح قاعدة لعمل المسيحيين لاسترجاع الأندلس الى حكمهم .

وفى شمال بلاد الأندلس ، تمتد ولايات الثغور التي كانت محصنة بسلسلة من القلاع وتشن منها غارات على البلاد المجاورة والمدن الواقعة خلف هذه المنطقة ، وهي قواعد بلاد الثغور : الثغر الأعلى ، وقاعدته سرقسطة ، والثغر الأوسط ، وقاعدته مدينة سـالم (Medinaceli) والثغر الأدنى ، وقاعدته قورية (Coria) ، وطرق المواصلات تقطع منطقه الغارات فى نقاط معينة . والطريق الوسطى الكبيرة تمر بسرقسطة وطليطلة وتمضي حتى تصل الى قرطبة واشبيلية ، حيث تلتقي بطريق الملاحة النهرية فى النهر الأعظم ومن قرطبة ينطلق عدد من الطرق وتتخذ شبكة المواصلات شكل نجم : فطريق نهر ابرة (Ebra) تنطلق من طرطوشة مارة بسرقسطة وتطيلة (Tudèle) حتى ممر فيتوريا الجبلي . وأما الطرق البحرية الرئيسية ، فتمتد على الشواطىء الشرقيـة من نربونه (Narbonne) حتى المرية (Almeria) والنهر الأعظم ، وعلى

الشـاطىء الغربي الأردالس (Castro Urdiales) على خليـج بسكـونية (Golfe de Gascone) حتى قصر أبي دانس (Alcacer do sal) ونهر قرطبة .



الشكل رقم 7 - الاراضي الاسبانية

خلاصة التاثير الاسباني :

اذا استثنينا العنصر البسكوني (Basque) ، فان أسبانيا كانت مأهولة لدى وصول المسلمين اليها بعناصر اسبانية قديمة ، امتزجت بعناصر جرمانية وشرقية «السوريين واليهود» .

والسكان الذين ينتمون الى أصل سلتي أسباني والذين تأثروا بعض الشيء بالرومان ثم تخلصوا من هذا الأثر ، كانوا موزعين فى مناطق صحراوية أو شبه صحراوية .

والمناطق الشرقية التي تتكون من مستنقعات ومن ألسنة البحر كانت أهميتها تنحصر فى الطرق الشاطئية التي تمر بها . ولكن الطريق الرئيسية كانت تمر فى الداخل فى العصر الاسلامي .

وأما المناطق الغربية ، فقد كانت ضحلة السكان ، وتغطيها غابات الصنوبر . وكذلك الأمر فيما يتعلق بالمناطق الجبلية . وعلى عكس ما شاهدناه فى بلاد البربر ، فان أسبانيا لم تعرف توسعا ديموغرافيا قبل الفتح الاسلامي . وكذلك أخذ الأسبان ، اثر الاضطرابات والتقهقر الاقتصادي الذي مر به البلد ، عقب انتهاء الامبراطورية الرومانية يعودون الى التقاليد السلتيه والاسبانية التي كانت سائدة قبل الرومان .

وعملية التحول ستشهد تطورا سريعا بعد وصول عصابات القوط الذين كانوا لا يزالون فى المرحلة البدائية فى التنظيم الاقتصادي والاجتماعي . والمجتمع الاسباني القديم كان يقوم على أساس من علاقات التضامن والوئام التي تربط الرجل بالرجل . وعبارات التضامن القومي والولاء التي يستعملها المؤرخون اللاتينيون عندما يصفون غزو الرومان لأسبانيا ، هي نفسها التي يرددونها حينما يتحدثون عن المجتمع

الجرماني . وبعد مرور وقت من الزمن ، أخذت مستويات المعيشة ونوع الحياة السائدة فى مجتمع الغزاة والمجتمع الاسباني يتعادل تدريجيا . والتكتل على أساس الأسرة ، تلك الخلية الأولى والمهمة فى المجتمع الجرماني ، هو أيضا أساس المجتمع الاسباني . وكذلك تسود فى القبيلة الجرمانية والاسبانية نزعة الى الانفراد والاستقلال . وهذا التكوين الاجتماعي محكم التقسيم ولكنه ينقصه التنظيم ، تماما مثل التكوين السائد فى المجتمع البربري ، فى المغرب . وهذه الظاهرة ، تفسر لنا انقسام البلد فيما بعد وتفتت الحكم فيه فى العهد الذي يعرف باسم ملوك الطوائف (Reyes de Taifas)

كان الوضع السائد فى أسبانيا قبل الفتح الاسلامي يتسم بالتقهقر والانحطاط الاقتصادي والاتجاه الى احياء العادات والتقاليد التي كانت منتشرة قبل الاحتلال الروماني وتضعضع اطار الدولة واستقرار السيطرة الجرمانية . وقد كان يمكن أن يتخذ العمل للتخلص من النفوذ الروماني شكلا أعمق ، لولا وجود الكنيسة التي كانت تهيمن على التقاليد الدينية واللغة اللاتينية . ومنذ البداية ، كانت الكنيسة الاسبانية تتمتع بالنفوذ والثروة ، وكان رجالها ينتمون الى طبقة الملاك، كما كانت هبات اتباعها تزيد من سعة أملاكها باستمرار . وكذلك كان تخلي ملوك القوط عن المذهب الأرياني (9) واعتناقهم المذهب الكاثوليكي مصدرا لقوة جديدة مكنت الأساقفة من تعزيز مراكزهم ، ولا سيما فى العاصمة ، طليطلة ، التي كان أسقفها يتمتع بمكانة خاصة

---

9 — مذهب ينكر الوهية المسيح عليه السلام « المترجم » .

فى عهد الخلفاء . ففي عهد الحكم الثاني (10) قام الملك ليون أردون الرابع بزيارة قرطبة ، وكان مطران طليطلة من بين الأعيان المسيحيين الذين عينوا لاستقباله وتعريفه المراسيم المتبعة فى بلاط الخليفة .

وهذه القوة والنفوذ الذي تتمتع به الكنيسة الأسبانية ، يفسر لنا بقاء جماعة مهمة من المسيحيين تمارس نشاطا كبيرا ، بل وتشاغب كثيرا ، خصوصا فى طليطلة وقرطبة واشبيلية . وقد ظلت المدن مراكز للمحافظة على نفوذ الرومان والمسيحيين كما كانت فيما بعد مراكز لنشر الاسلام والثقافة الشرقية . وكان المسيحيون يتمتعون بوضع الذمي ثيود مير ، باسم منطقة مرسية (Murcie) . وبموجب هذه النصوص الذي تضمنه لهم فى بعض الحالات معاهدات الصلح ، مثل التي وقعها يتعهد الغزاة المسلمون باحترام ديانة المغلوبين وكنائسهم . والواقع أن التسامح الديني كان يشمل الجميع ، وذلك فيما عدا المرتدين المسلمين أو المسيحيين الذين يريدون الاستشهاد .

و «المستعربو» (Mozarabes) يشكلون جماعات يترأسها شخص يختارونه بأنفسهم ويكون مسئولا على حفظ النظام وجباية الضرائب على الأسس المعمول بها فى الشرق : القمس الذي يمثل

10 — الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله (المستنصر) 302 — 366 هـ ، خليفة اموي أندلسي . ولد بقرطبة وولي الخلافة بعد أبيه (سنة 350 هـ) وكان دودون بن الفونس ، ملك الاسبان ، قد طمع فى ملكه واعد العدة للاغارة على قرطبة ، ولكن المستنصر سبقه وغزا الاسبان بنفسه فعاقدوه على السلم ، واشترط على « كنت » برشلونة وسائر امراء الكتلان دك حصونهم القريبة من ثغوره وعاهدوه على ألا يمالئوا عليه أحدا من ملوك المسيحيين الذين يدخلون فى حرب معه ، وقد قوي المستنصر وكثرت فتوحاته ، وكانت زيارة أردون المذكور له فى قرطبة للاستجار به ، وكذلك جاءته بيعة وطاعة قوامس (Comtes) جليقة وسمورة ، وخطب بدعوته ملوك زناته فى المغرب الاقصى ، وكان عالما بالدين ملما بالأدب والتاريخ ضليعا فى معرفة الانساب جماعا للكتب محبا للعلماء ، وقيل أن مكتبته بلغت أربعمائة ألف مجلد ، قال ابن حزم ان ولايته اتصلت خمسة عشر عاما « فى هدوء وعلو » . وقال ابن حيان : « وباسمه طرز ابو علي البغدادي القالبي كتاب الأماني وعليه وفد فأحمد وفادته » . (المترجم) .

الجماعة ، والأسقف يقوم بجمع الجزية . وللمسيحيين قاضي يحكم فى الاحوال الشخصية (قاضي النصارى) كما كانت لهم طقوس دينية خاصة (طقوس المستعربين) .

وكذلك يفسر لنا اتحاد الكنيسة القوي ، المحافظة على اللغة اللاتينية التي ستتطور الى لغة رومانية (الاسبانية) تشتمل على كثير من الكلمات العربية ، ولا سيما فى المجال التقني .

وتقويم قرطبة (11) فى سنة 961 م مكتوب باللغة العربية واللغة اللاتينية . والكنيسة ، ستحافظ على جميع الخصائص الأساسية التي تميزها منذ عهد القوط حتى استرجاع المسيحيين الأندلس . وأما علاقاتها مع الدول المسيحية الواقعة فى الشمال ، فقد كانت تزداد قوة مع مرور الزمن حتى نهاية القرن العاشر الميلادي .

الشرقيون :

والعنصر الآخر المهم من عناصر سكان أسبانيا فى عهد القوط ، هو العنصر الشرقي الذي سيشتد ويقوى فى العصر الاسلامي ، وهذا العنصر يتكون أساسيا من التجار اليهود والسوريون وكان يتركز فى مناطق المرور الكبرى : فى الجنوب الغربي ، والشمال الشرقي من شبه جزيرة الأندلس ، وفى الجنوب ، غير بعيد من مضيق جبل طارق ، فى ممتلكات قرطجنة القديمة ، حيث كان الناس لا يزالون يتحدثون اللغة الفنيقية حتى فى القرن الثاني الميلادي ، وحول ملكة ، التي لاحظ استرابون طابعها الفنيقي ، وعلى ساحل قادس وفى قرطجنة (12) ، وفى المستعمرات الداخلية ، بين مالقه (Malaga) وقرطبة والبيرة (Elvira)

11 – راجع : E.D.R. Dozy, le calendrier de l'année 961, texte arabe et ancienne traduction latine, leyde, 1873 éd. et trad. par Ch. Pellat. Leyde, 1961.

12 – ميناء أسباني يقع فى ولاية مرسية على البحر الابيض المتوسط أسس هده المدينة الفنيقيون فى سنة 223 ق .م (المترجم) .

التي كانت تسمى « غرناطة اليهود » . واعتناق المهاجرين الشرقيين للديانة اليهودية ، يعتبر من الحوادث الهامة فى التاريخ القديم للبحر الأبيض المتوسط . وفى الشمال الشرقي ، تجمع الشرقيون عند ممرات جبال البرت (Pyrénées) التي تفضي من أسبانيا الى بلاد الفرنجة . وقد انتشروا على طرفي الجبل ، فى سبتمانيا وقسطلون . وعن طريق طرطوشة ، وسرقسطة ، وطليطلة ، وطركونة ، وبرشلونة ونربونة ، كان اليهود (الراذانيون) يمرون الى مدينة ليون سالكين نهر الرون (Rhône) ثم الى نهر الراين . (Rhin).

كان العنصر اليهودي فى مملكة القوط غير مندمج فى السكان الأسبان والجرمانيين . وقد كان وضع اليهود فى عهد الملوك الآريين محتملا . ولكن هذا الوضع تغير فى عهد الملوك الكاثوليك ، ولا سيما فى عهد ركارد ، حين كان اليهود يتعرضون للاضطهاد . ومن هنا ، فلا عجب أن نرى اليهود ، ولا سيما تلك الجماعات التي تقيم فى الجنوب ، يستقبلون الفاتحين المسلمين استقبالا حارا . بل ان بعض الروايات تذهب الى أبعد عن ذلك ، وتتهم اليهود بالتواطؤ مع المسلمين . وكذلك عهد الفاتحون المسلمون الى اليهود بمهمة حراسة المدن التي فتحوها فى الأندلس . وابتداء من القرن الثامن الميلادي ، كانت هجرة اليهود الشرقيين الى الأندلس مستمرة . وأكبر الجماعات اليهودية فى أسبانيا المسلمة ، كانت تقطن فى قرطبة ، المركز الاقتصادي والسياسي ، حيث كانت توجد بيعة (القرن العاشر والقرن الحادي عشر الميلادي) .

وقد لعب اليهود مثل الطبيب حاسدي بن شبروط الذي كان وزيرا لعبد الرحمن الثالث أدوارا هامة فى بلاط الخلفاء (13) وكذلك قاموا بتنظيم مملكة غرناطة فى القرن الثاني عشر الميلادي .

والعنصر اليهودي ، أو المتهود ، سيسهل العلاقات بين الشرق وأسبانيا الاسلامية ، ولا سيما حينما تكون العلاقات بين نظم سياسية متعارضة (مثل الأمويين والفاطميين) ، كما سيسهل العلاقات بين أسبانيا الاسلامية والبلدان المسيحية الواقعة فى الشمال (14) وكذلك تكونت شبكة من الجماعات اليهودية على طول وادي الرون والبلاد الواقعة عليه ، كانت تقوم بنشاط واسع النطاق فى تجارة العبيد ، فى المنطقة التي تمتد بين نهر الألب ، وبلاد الأندلس ، ومن جهة أخرى ، فان شبكة تتكون من اليهود تمتد من أسبانيا حتى المغرب الأقصى ، وتشمل السوس الأقصى والصحراء والسودان ، وتعمل فى التجارة فى الذهب والعبيد السود ، دون أن يقطع نشاطها ما يجري فى هذه البلاد من النضال والمنافسة السياسية . والرسالة التي وجهها حاسدي بن شبروط ، وزير عبد الرحمن الثالث ، الى ملك الخزر ، وهم شعب اعتنق الديانة اليهودية وتمتد أراضيه على ضفاف الفولجا ، تلقي ضوءا ساطعا على العلاقات بين جماعة يهودية وجماعة أخرى ، تقع كل منهما على الطرق الكبرى التى تسير فيها التجارة العالمية (15) .

---

13 ـ يمكننا أن نذكر فى هذا السياق أيضا يوسف بن نغزالة الذي سلم اليه باديس مقاليد الحكم فى مملكة غرناطة . وقد حل محل أبيه اسماعيل بن نغزالة ، وزير حبوس ثم باديس ، فرفعه باديس فوق سائر كتابه ووزرائه وفوض اليه أمر تعيين الولاة والمتصرفين ، الذين كان يعين معظمهم من اليهود . وقد اشتهر يوسف بالمكر والدهاء ، ودماثة الخلق والتضلع فى الآداب العربية والعبرية ، كما درس الرياضة والفلك والهندسة ، ولما توفي يوسف ، ندب باديس ابنه يوسف للاضطلاع بمنصبه . (المترجم) .

14 – راجع M. Lombard : La route de la meuse et les relations lointaines des pays Mosans entre le VIII^e et le XI^e siècle dans l'art Mosan, recueil de travaux pub. par P. Francastel. Paris, 1953, pp. 9.28.

15 – راجع : « Lettres en Hàgàn des Khazàr « vers 958 » éd. et trad. E. Carmoly. Itinéraires de terre sainte de XIII^e, XIV^e, XV^e, XVI^e, XVII^e siècle. Bruxelles, 1847, p. 38.

ولكن دور اليهود فى التاريخ الاسلامي ، لا ينحصر فى العلاقات التجارية . فان مدارس اليهود فى قرطبة وطليطلة كانت تتلقى تيارات التفكير الآتية من بلاد ما بين النهرين . وكانت توجد فى قرطبة مدرسة للتلمود ذات شهرة واسعة . والى جانب تضلعهم فى العلوم والآداب العبرية ، كان لأحبار اليهود علم واسع بالأدب العربي القديم . وكان منهم الأطباء والعلماء ولا سيما فى الفلك والتنجيم . وقد كان «موسى» ابن ميمون القرطبي (16) على رأس هذه المدرسة فى القرن الثاني عشر الميلادي .

وكذلك عرفت طليطلة ، وهي مدينة كبيرة للمستعربين المسيحيين نشاطا ثقافيا يهوديا واسعا . وقد كان يوجد فى هذه المدينة التي تختلط العناصر المسيحية واليهودية ، مركز للترجمة من العربية الى العبرية ومن العبرية الى اللاتينية . وعند استرجاع المسيحيين للأندلس «1085 م» ، مرت الأعمال التي ترجمت الى الغرب المسيحي . وكذلك مرت أعمال أرسطو وغيرها من نماذج التفكير اليوناني التي ترجمت الى اللغة السريانية ثم الى العربية والعبرية واللاتينية ، بمراحل وطرق واضحة المعالم : الأديرة السريانية التي تقع فى شمال سورية وفيما بين النهرين ، ومكاتب المأمون للترجمة فى بغداد ، ثم الى مصر وأفريقية الشمالية والأندلس : قرطبة ، وطليطلة

---

16 – موسى بن ميمون بن يوسف بن اسحاق أبو عمران القرطبي ، هكذا سماه ابن أبي أصيبعة ومن أخذوا عنه ، واما بروكلمان ، فيسميه « موسى ابن عبيد الله بن ميمون » . طبيب وفيلسوف يهودي ، ولد وتعلم فى قرطبة « 529 – 601 هـ » وقد تظاهر بالاسلام ثم عاد الى يهوديته ، وبعد ما تنقل مع ابيه فى الاندلس قصد الى القاهرة حيث أقام 37 عاما (من سنة 567 هـ) حيث أصبح رئيسا روحيا لليهود . والجدير بالذكر أن ابن ميمون اشتغل وقتا طبيبا فى البلاط الأيوبي ، وقد وضع عددا من الكتب بالعربية والعبرية ، من أهمها كتاب « دلالة الحائر فى الفلسفة » (ثلاثة أجزاء) و « الفصول » فى الطب ، ويعرف بفصول القرطبي وكلاهما ترجم الى اللاتينية وطبع بها ، وشرح أسماء « العقار » و « المقالة فى تدبير الصحة الافضلية » ، ورسالة فى « البواسير » و « مقالة فى الربو » ، وتوفي ابن ميمون فى القاهرة ودفن فى طبرية (فلسطين) . « المترجم » .

والمراكز اليهودية اللأنجدوك ، لتصل فى القرن الثالث عشر الى جامعة السربون .

الغــزاة : البربر والعرب

كان الفتح الاسلامي للأندلس سريعا سريعا (711—714 م)ولم يكن له أي رد فعل يذكر بين سكان الأرياف . فبعد انهيار القوط عسكريا فى معركة ريو برباط Rio-Barbate فى سنة 711 م ، استسلمت المدن المحاصرة الواحدة تلو الأخرى وكلف اليهود بمهمة حفظ الأمن فيها . ومنذ سنة 714 م ، وصلت الجيوش الاسلامية الى ولاية سبتمانيا ، وبعد حركة استكشاف فى طريف ، قاد طارق بن زياد (17) جيشا من البربر لا يزيد عدده عن 7000 مقاتلا . وفى السنة التالية (712م) خرج موسى بن نصير والي المغرب بنفسه الى أسبانيا على رأس جيش تعداده ، 10ر000 جندي وكلهم من العرب . وهؤلاء الجنود الفاتحون سيبقون كلهم فى أسبانيا ، وهذا الفوج من المستوطنين العرب والبربر الـذين يبلغ عددهم 17ر000 نسمة ، كلهم من الرجال ومن العساكر ، ولكن هجرة مهمة من البربر الذين أغرتهم ثروة البلد الذي افتتح ، ستقتفي أثرهم خلال القرن الثامن الميلادي ، وستستمر حركة الهجـرة بدون انقطاع حتى نهاية العصور الوسطى . وهذه الهجرة هي التي سـمحت باستمرار مملكة غرناطة حتى القرن الخامس عشر الميلادي . والمسألة

17 — طارق بن زياد « الليثي بالولاء » . اصله من البربر أسلم على يد موسى بن نصير وكان من أشد رجاله . ولما تم لموسى فتح طنجة ، ولى عليها طارقا فأقام بها الـى أوائل سنة 92 هـ ، حينما جهز موسى جيشا معظمه من البربر لغـزو الاندلـس ، بقيادة طارق وقد افتتح طارق على التوالي : جبل طارق وحصن قرطجنة ثم قاتل الملك رودريك Rodric نقتله طارق ، وافتتح اشبيلية واستجة ثـم ارسـل مـن استولى على قرطبة ومالقة ، واحتل طليطلة (عاصمة الاندلس) ثم عبر وادي الحجارة واستولى على عدة مدن ، منها مدينة سالم ، وقد عزله موسى بن نصير عقابا له على توغله فى الفتح ثم أعاده الوليد بن عبد الملك ، وواصل فتوحاته فصعد من طليطلة شرقا الى منابع نهر التاج ، واستعان بموسى على فتح سرقسطة فأفتتحاها واحتل طرطوشة وبلنسية وشاطبة ودانية واستدعاه الوليد الى الشام وقصدها مع موسى فى سنة 96 هـ ، وبعد هذا التاريخ ، ينسدل ستار كثيف من النسيان على شخصية هذا البطل البربري العظيم . (المترجم)

الأساسية ، هي : أن عدد البربريين المهاجرين المسلمين الى أسبانيا عدد مرتفع ، بحيث يشكل الأغلبية الساحقة .

وفى سنة 741 م ، قام البربر بثورة فى أسبانيا ضد الرؤساء العرب ، وكانت هذه الثورة نتيجة لثورة البربر فى المغرب وظهور قوة صنهاجة . وهؤلاء البربر ، كانوا يحتفظون بعلاقات مع اخوانهم فى افريقية . وكانوا يعملون لتحقيق هدف واحد وهو الاستقلال فى ظل الفوضى . وكذلك كان البربر ينتخبون رئيسا لهم ويقومون بحلق رؤوسهم ، لتمييز أنفسهم عن أعدائهم . ولكن العرب الذين استقر لهم الأمر فى أسبانيا ويتلقون تعزيزات من الجنود السوريين ومن بلاد البربر ، سيقضون على هذه الثورة . وبعد الهزيمة المنكرة التي مني بها البربر ، وجهت الجيوش السورية الى المناطق الجنوبية ، فاحتل جنود دمشق ألبيرة وجنود الأردن ، مالقة ، والفلسطينيون ، سيدونه ، وجنود حمص، اشبيلة ، وجنود قنسرين ، جيان . وهؤلاء السوريون هم الذين سيدخلون تربية دودة الحرير ، ونسج الحرير فى هذه المنطقة .

كان العرب الذين يحتقرون الأعمال الزراعية يقيمون فى المدن ويعيشون من الضرائب التي يدفعها المزارعون .

وفى الأسماء الجغرافية للأماكن ، نجد الأسماء العربية منتشرة خصوصا فى السهول الشرقية . وأغلب أسماء الأماكن تبدأ ببني : بني فايو ، قرب بلنسية ، (Valence) وبني قاسم ، قرب قسطلون (Castellon) وبني غانم الخ .

ولكن البربر الذين هاجروا الى الاندلس ، فى مجموعهم فضلوا الاستقرار فى الارياف ، ولم يختر البقاء فى المدن منهم سوى عدد صغير . وأما سكان جبال المغرب الاقصى الذين انتقلوا الى الاندلس ، فلم يكن فى وسعهم الاستقرار الا فى الجبال الاسبانية : سلسلة الجبال التي تمتد

من الجنوب الى الشرق ، وسييرانيا دو رولد ، وسييرا نفادا ، وفى الشـــمال فى سهـــول وادي النهر الأعظـــم ، وسييرادا المادن ، ووادي الرملة (Guadarrama) .

وقد كانت جميع المستعمرات البربرية تقع خارج سهول الاوديـــة الاندلسية الواسعة . وفى كل مكان تسهل فيه الاقامة للبربر ، كانوا يشكلون جماعات من الجبليين ويطلقون أسماء قبائلهم على تلك المواقع . وهكذا أطلق اسم جزولة على الجبال التي تمتد بين غرناطة والبحر ، وأصبحت تحمل اسم « سييرا لوس جزول » . ومعظم المناطق التي تمتد فى الجنوب والشرق فى اسبانيا ، خارج السهول ، كانت مأهولة بالبربر . وقد كان البربر يمارسون تربية الحيوانات بصفة جماعية ، « المشتى » ، كما كانوا يعتمدون على زراعة الأشجار ، وخصوصا ، الزيتون .

والمنطقة الشرقية كانت أكثر المناطق تأثرا بالنفوذ العربي . فان ابن سعيد المغربي ، (من القرن الثالث عشر الميلادي) ، يذكر أن سكان المناطق الجبلية يرتدون العمامة الافريقية ، ولكن سكان قرطبة والمناطق الشرقية يضعون على رؤوسهم القلنســـوة ، وهي غطاء طويل للرأس أصلـــه ايراني (18) .

وازدهار سهول وادي النهر الاعظم فى العصر الاسلامي ، انما كان استمرارا للنمو الهائل الذي شهدته هذه المنطقة فى عهد الرومان . ولكن العمل الاصيل الذي قام به المسلمون والمنجزات التي حققوها ، انما تقع فى مناطق كانت شبه صحراوية عمروها واستصلحوا أرضها ، خصوصا فى الشرق والغرب . ويضاف الى ذلك التنظيم الزراعي الذي يعرف باسم المشتـــى (Mesta) واستغلال شرق الاندلس الذي يقوم على تجديد

18 — نقله المقري فى ازهار الرياض «137/1» عن ابي سعيد المغربي .

الزراعة وتعميم الري ، الامر الذي سمح للعرب بادخال محاصيل شرقية الى الاندلس ، مثل الأرز ، والقطن وقصب السكر ، والبرتقال ، والموز . وكذلك أدخل العرب الى الاندلس صناعة الحرير التي ستظل اسبانيا عهدا طويلا ، البلد الوحيد الذي يمارسها فى الغرب . وقد أقام المسلمون مركزا مدنيا مهما فى المريـة .

وأما استثمار غرب الاندلس ، فهو يقوم على تحويل مناطق غابات الزان الى أراضي للمنتجات الاستوائية . وكذلك أصبحت حقول الزيتون تمتد فى منطقة واسعة « الشرف » فى غرب اشبيلية ، ومن منجزات المسلمين أيضا انشاء دار ثانية لصناعة السفن الحربية فى قصر أبي دانس ، غير بعيد من منجم الملح الواقع فى استوبال ، وبناء مصايد السمك ، وتوسيع نطاق التجارة بالطرق البحرية ، الامر الذي أصبح ممكنا بفضل أحواض واسعة لبناء السفن كانت تستعمل الخشب الذي تنتجه الغابات المجاورة .

وأخيرا ، فقد حمل البربر من الشمال الى اسبانيا ، طريقة التربية الجمـاعية للغنـم : حراسة القطعان ورعيها واتباع طرق واضحة فى الاستنجاع ، المشتى الذي أخذ شكل «مستاس» ، باللغة الاسبانية وهذه الطريقة الجماعية ، يجري العمل بها فى الهضاب الداخلية وفى الجبال التي تحيط بالمناطق التي كانت فى عهد الرومان صحراوية قاحلة . وبعد استعادة المسيحيين الاندلس ، سيحافظون على هذه الطريقة فى تربية الحيوانات ويجعلون منها تنظيما « وطنيا » ناجحا . وقد كسبت اسبانيا ثروة طائلة من انتاج الصوف فأدخل نوع الغنم المسمى « الميرينو » ذي الصوف الناعم والمرن « والذي نجد اسمه فى نصوص اسبانية ترجع الى القرن الثاني عشر الميلادي» ، بصورة اقتصادية مفيدة ، ليعيش جنبا الى جنب مع النوع المسمى « الشورو » ذي الشعر المتصلب . ومن جهة أخرى ، فقد انتشرت تربية الخيول . وقد نتج عن تهجين السلالة الاسبانية بالفرس

البربري سلالة تسمى « جينيت » من (زناتة) . والأرجح أن الاهتمام بتربية الخيول كان له أثر فى ادخال أنواع جديدة من العلف ، ولاسيما « الفلفا » الذي هو من أصل فارسي والذي لا يزال يحتفظ باسمه العربي فى اللغة الاسبانية .

التأثير الشرقي فى اسبانيا : امـارة قرطبـة :

شهدت الفترة التي تمتد بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي ازدهارا كبيرا فى العمران وبناء المدن فى العالم الاسلامي ، وخصوصا فى احياء المدن القديمة وبعث النشاط فيها . وقائمة هذه المدن فى اسبانيا أكبر منها فى شمال أفريقية وذلك لأن حركة الأعمار وبناء المدن فى اسبانيا فى العصر الفنيقي والعصر الروماني ، اذا لم تكن أوسع مما كانت فى شمال افريقية ، فقد كانت بالتأكيد أكثر كثافة . وزيادة على ذلك ، فان القوط الرحل ، انتهى الامر بهم الى الاستقرار فى المدن .

وقد مرت المدن الاسبانية فى العصر الاسلامي بفترة من النمو والازدهار ، لا يمكن مقارنتها بما عرفته فى عهد الامبراطورية الرومانية . وأهم المدن وأكثرها ازدهارا هي اشبيلية وقرطبة والمركزان الكبيران اللذان يقعان فى وادي النهر الاعظم ، هما مالقة وقادس ، وهما ميناءان على مضيق جبل طارق . وتأتي بعدهما طليطلة وسرقسطة . ولكنه الى جانب هذه المراكز التي قام المسلمون باحيائها وبعث النشاط فيها ، لا يوجد سوى مركزين من انشـائهم . وكلا هاذين المركز ميناء ، أحدهما على البحر الابيض المتوسط ، والآخر على المحيط الاطلسي : المريـة التي بنيت فى سنة 756 ميلادية ، وقصر أبي دانس الذي يقع على بحيرة شاطئية ، والذي أنشيء فى نفس الفترة .

كانت قرطبة ، وهي مدينة عظيمة ، خصوصا ، مركزا بلاطيا . وعبد الرحمن الأول (19) الذي اتخذ قرطبة عاصمة لامارة مستقلة فى سنة 756 ميلادية أمير أموي شرقي التجأ الى الاندلس . كما التجأ الرستميون الى المغرب الاوسط ، والادارسة الى المغرب الاقصى ، هربا من اضطهاد بني العباس .

وقد كان عبد الرحمن الاول الذي عرف بشدة الحنين الى سوريا والوفاء لذكريات أجداده ، كان هو وخلفاؤه ، ولا سيما عبد الرحمن الثاني ، يسعون لخلق الجو الشرقي الذي فقدوه فى المشرق ويتحسرون عليه . وكذلك أطلقوا اسم الرصافة على احدى ضواحي قرطبة التي تقع فيها قصورهم ، كما فى سورية . وقد كان الامراء الامويون يقلدون طراز الحياة السائدة فى بغداد ، مقر الخلافة المنافسة لهم ، ومركز اشعاع حضاري واسع النطاق . وفى قرطبة سيفد عليهم الادباء والمفكرون والعلماء والفقهاء والشعراء والفنانون من مختلف بلاد المشرق وهؤلاء سيلقون فى بلاطهم الترحيب والحماية وسعة الرزق .

ذكر ابن بسام فى مقطوعة نثرية ساخرة ، أن حاشية أمراء الامويين كانوا دائما يترصدون التغييرات التي تطرأ فى حياة القصور فى المشرق

19 ـ عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، الملقب بصقر قريش ، ويعرف بالداخل : مؤسس الدولة الأموية فى الأندلس ويمكن وضعه فى مصف أعظم الساسة وملوك العالم . ولد فى دمشق ونشأ يتيما فى بيت الخلفاء . ولما انقرض ملك بني أمية فى الشام وتعقب العباسيون رجالهم بالاضطهاد والفتك ، أفلت هو من يدهم وأقام فى قرية على الفرات ، ولما أوشك أعداؤه على الظفر به ، التجأ الى الادغال حتى أمن ثم قصد المغرب ووصل الى مكناسة ، حيث لحق به مولاه « بدر » بمال وجواهر حملها اليه من اخته « أم الأصبغ » ، وفي منازل نفزوة كان يكاتب أنصار الأمويين فى الأندلس ثم بعث اليهم بمولاه بدر . فاجابوه ثم حملوه الى الأندلس حيث بايعوه ، وقد نزل ، أولا في المنكب(Almunicor) فى سنة 138 هـ ، ثم انتقل الى اشبيلية ومنها الى قرطبة فقتلهم والى الاندلس (يوسف بن عبد الرحمن الفهري) ، فظفر صقر قريش ودخل قرطبة حيث بنى قصرا وعدة مساجد ولما استقر له الامر ، قطع دعوة العباسيين ، وقد كان عبد الرحمن الاول ، كما وصفه ابن الاثير ، حازما سريع النهضة ؛ لا يخلد الى راحة شجاعا كمقداما ، « المترجم » .

ليقلدوها . ويقول هؤلاء اذا سمعوا نعيق الغراب أو طنين الذباب يأتي من سورية أو العراق ، خروا ساجدين ، كما لو كانوا أمام صنم معبود .

أصبحت قرطبـة ذات ثراء عظيم ، خصوصا بفضل ذهب السودان الذي يسمح لها بشراء العبيد الصقـالبة الذين يجـري توزيعهم فيها وتوجيههم الى مختلف أنحاء العالم الاسلامي ، في مقابل الدنانير الذهبية الشرقية . وكذلك تكون في هذا الطرف من العالم الاسلامي ، مثلما تكون في الطرف الآخر في امارة السامانيين ، سوق واسعة نشيطة للتبادل التجاري . وبذلك أصبحت قرطبـة ، مثل امارة السامانيين . مركزا هاما مقصودا من العلماء والادباء . وقد تبلور ميل الامويين في قرطبة الى اعتماد الاساليب والتقاليد الشرقية ، خصوصا ، اثر وصول المغني والموسيقار زرياب من بغداد في سنة 845 ميلادية (320 هـ) . حيث حمل معه أحدث التطورات في الفن . وكان زرياب تلميذا لاسحاق الموصلي المغني والموسيقار المعروف باتقانه للغناء المدني . وقد قدمت مع زرياب فرقة من القيان «بنات زرياب» اللائي سيقمن بتدريب البلاط والمجتمع القرطبي على ألوان جديدة من الموسيقى وعلى العزف على العود وغيره من الآلات ، وخصوصا على الغناء المدني الذي اشتق منه التعبير الاسباني: (Cant jondo)

وفي نفس الوقت ، ظهرت أساليب شرقية جديدة للطهي على أساس الأرز والسكر والتوابل ، في بلاط قرطبة ، وفي صناعة الحلويات حيث أدخل الماسبان والنوغا . وكذلك أخذ الغرب المسيحي يتعلم الفنون الشرقية عن طريق قرطبة .

ومع هذه الفنون ، أخذ المجتمع القرطبي يستعمل الاواني المصنوعة من الزجاج الشفاف المسمى « العراقي » (والذي تذكر النصوص التي بين أيدينا ، أن الغرب المسيحي كان يستعمله منذ القرن العاشر الميلادي) ، والأثاث المغطى بالجلد الناعم والمنقوش والمطرز بالذهب طبقا لطريقة

وصلت الى قرطبة عن طريق القصور التي تحدثنا عنها . والجلد القرطبي كان يستعمل أيضا لتغطية الحيطان الداخلية فى المنازل ، وقد اقتبس القرطبيون أيضا طراز الملابس الشرقية الفاخرة التي تفصل من أقمشة ذات خطوط عريضة ، قلدت فيها المنسوجات الفارسية ، وأردية مصنوعة من قماش شفاف ، كان يستورد من خراسان أو من مصر ، ولكنه أصبح يصنع فى الاندلس .

وقد سجل تقويم قرطبة (961 م) أنه بحلول شهر أكتوبر وميل الطقس الى البرودة ، تخلى الناس عن الملابس البيضاء وأخذوا يستعملون بدلا منها ملابس مصنوعة من الصوف ذات لون غامق . ويعزى اعتماد هذا الزي الى زرياب المغني . وقد كان عبد الرحمن الثاني أول من أدخل الى اسبانيا « الطراز » ، وهو عبارة عن مشغل فى القصر يعمل لانتاج الاقمشة الفاخرة لسد حاجات القصور فقط . وهذا المشغل الذي يكتب عليه اسم الامير له ادارة وتنظيم معقد ، بحيث يشكل مصلحة حكومية مهمة على رأسها « صاحب الطراز » ، الذي هو من كبار موظفي القصر .

وهذا التجديد فى أساليب الحياة ينتقل من القصور الى الأثرياء ليعم المدينة كلها .

وفيما بعد ، ظهر تيار جديد للتأثير الشرقي ليضاعف الأثر الذي تركه المهاجرون الاوائل من السوريين والجماعات اليهودية التي كانت على اتصال بمراكز الحضارة فى بلاد ما بين النهرين . فقد اتجهت الى بلاد الاندلس عدة أمواج من النفوذ الشرقي : السامي والايراني . وهذا التأثير سيغير نمط الحياة الاجتماعية فى المدن وسيكون امتزاج مختلف عناصر هذا التأثير أساسا لما يسمى « الحضارة الاندلسية » .

تمتد اسبانيا الاسلامية بين شواطيء افريقية والغرب المسيحي الذي يسيطر عليه البرابرة : مملكة الاسبان التى تقع فى شمال شبه

الجزيرة ، وبلاد الفرنجة ، والامبراطورية الكرولانجية ، ومملكة الكابتان (20) وهي ما يسميه العرب « الأرض الكبيرة » ، أي اليابسة فى مقابل الجزر : قبرص ، وشبه جزيرة الاندلس .

وفى الجنوب ، كانت الموانيء تؤمن المواصلات عبر جبل طارق ، وفى الشمال ، تقطع الطرق والممرات جبال البريني (Pyrénées) الى بلاد الفرنجة بينما كانت الملاحة المحاذية للشواطيء تربط المرية ببرشلونة ونربونة .

والتجارة الاسبانية مع افريقية تنصب أساسا على الذهب الآتي من السودان ، والعبيد السود الذين يستجلبون من سواحل السودان (فى المناطق التي تمتد من السينغال حتى التشاد) ، والصمغ الذي يستخرج من افريقية الغربية . وهذه السلع ، تدفع الاندلس فى مقابلها بضاعة زهيدة القيمة ، كما تصدر الزئبق الذي يستعمل مع معدن آخر « أملغام » لاستغلال الذهب .

ومن الغرب المسيحي ، كانت ترد على الأندلس العبيد الصقالبة الذين ينقلهم من منطقة من نهر الألب ، عبر ألمانيا وفرنسا ، تجار معظمهم من اليهود ، وخصوصا ، الفراء التي تنتجها الغابات الشمالية الكبيرة . ويضاف الى ذلك السيوف المعروفة بالافرنجية التي كانت الامبراطورية الكرولانجية تصدر كميات كبيرة منها . وفى مقابل ذلك ، كانت الاندلس تقدم بعض الكماليات التي من بينها الاقمشة التي تسمى اسبانيسكا (Spanisca) ، وخصوصا النقود المضروبة من الفضة والذهب : الدرهم الذي كان يضرب فى قرطبة . فى الوقت الذي كان فيه ذهب السودان يتجه الى امبراطورية الفاطميين ، والدينار الذي يأتي من الشرق الاسلامي ولكنه فى مرحلة تالية ، حينما حصل أمـراء قرطبة على حصة من ذهب

---

20 ـ اسرة من الملوك ، حكمت فرانسا خلال الفترة بين 987–1328 م ، اسسها هوج كابت Hugnes Capet الذي تحمل اسمه ، «المترجم» .

السودان ، بفضل عملائهم وأعوانهم من زناتة فى المغرب الاقصى ، أخذوا يضربون النقود الذهبية فى قرطبة . وأما انتصار الخلفاء الامويين فى قرطبة على خصومهم الادارسة فى فاس الذين كانوا يقفون حجر عثرة فى طريق انتشار نفوذهم فى المغرب ، فقد وقع فى سنة 974 ميلادية .

وهكذا كان ازدياد الاستهلاك فى المدن الكبيرة فى مملكة قرطبة ، سببا فى ظهور تيارات تجارية هامة وانفتاح شبكة من الطرق تمتد نحو الجنوب والشمال معا . ونحن نلاحظ فى هذا السياق أن هذه الطرق التي سلكها غزاة اسبانيا فى القرن الحادي عشر الميلادي . والبرابرة الذين تيقظوا لأهمية التجارة ، قد استخدموا ، هم الآخرون طرق التبادل التجاري .

ومن جهة الشمال ، نشاهد توسع الدويلات الاسبانية التي يؤيدها الفرسان النورمانديون والبورجونيون ، وطائفة « كلوني » (L'ordre de cluny) الدينية (21) . وهذه الحركة هي التي تسمى « اعادة فتح الأندلس» (من وجهة نظر الأسبان المسيحيين) و «الحروب الصليبية الغربية » (من وجهة نظر الغرب المسيحي) .

ومن جهة الجنوب ، تعرضت الاندلس لغزوا البربر المرابطين الذين خرجوا من ساحل النيجر وصعدوا حتى سجلماسة ، وعن طريق المغرب الأقصى ، وصلوا الى الأندلس .

ومهما يكن من شيء ، فان حركة اعادة فتح الأندلس ، سيكون من نتائجها وقوع جزء مهم من بلاد الاسلام تحت سيطرة المسيحيين ، كما

---

21 ـ كان غليوم المعروف بالتقي (Guillaume le pieux) دوق داكيتان ، قد انشا فى سنة 910 ميلادية ديرا فى كلوني (قاعدة الصوم واللوار) للرهبان البنيديكتان (Bénédictins) انطلقت منه حركة اصلاحية امتدت الى جميع البلدان المسيحية فى القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر . « المترجم » .

سيحدث ذلك فى سورية نتيجة لحملات الصليبيين وفى المرحلة الأولى . أدى تعصب بارونات الشمال وغرائزهم فى السلب والنهب ، الى تخريب جزء مهم من حضارة الاسلام العظيمة . ولكنهم فى مرحلة تالية ، أخذوا يتعلمون هذه الحضارة ويدركون معناها . فان العمال والصناع والفنانين سيواصلون أعمالهم تحت سيطرة « الكفار » ، وبذلك تعزز تأثير الاسلام وسهل توغل هذا التأثير فى جميع بلاد الغرب المسيحي .

وقد استمر الحي اليهودي (Juderias) وحي المسلمين (Morisias) كلاهما على ممارسة نشاطه دون أن يتأثر بالاوضاع الجديدة .

ومن جهة أخرى ، فان المرابطين قد أثروا تأثيرا سلبيا فى نمو حضارة الأندلس بانسجام . فان تعصب رعاة الجمال الغزاة الذين جاءوا من الصحراء ، حملهم على تخريب حياة القصور واحراق المكتبات . ولكنهم سرعان ما أدركوا خطأهم وانضووا هم أيضا ، تحت لواء هذه الحضارة التي ستنتشر عبر مضيق جبل طارق الى المغرب ، بل الى السودان ، بفضل توحيد الأندلس بهذه المناطق تحت راية المرابطين .

وفى هذه الأثناء ، تحول المعسكر البربري الذي يقع فى جنوب المغرب الأقصى ، الى مدينة مراكش العظيمة فى 1077 م . وفى القرن الثاني عشر ، أنشئت مدينة تمبكتو (22) . وهذا هو عصر « المرابطين » الذين يتجولوا فى كل اتجاه .

صقليـــة :

وبعد هذه النظرة الى آثار الفتح الاسلامي ، فى اسبانيا نحول أنظارنا الى جبهة أخرى لتوسع البربر : جزيرة صقلية التي تحتل مكانا مركزيا

---

22 — مدينة فى جمهورية مالي (8700 نسمة) ومركز تجاري على نهر النيجر . خرج منها كثير من العلماء والفقهاء الذين من بينهم أحمد بابا التمبكتي 1555 — 1622 م الفقيه المالكي الذي الف نيفا وأربعين كتابا . « المترجم » .

بين حوضي البحر الأبيض المتوسط (الشرقي والغربي) . فأما قواعد الانطلاق لغزو الجزيرة ، فقد كانت موانيء رأس بون : تونس ، نابل ، اقليبية ، سوسة . والبربر الذين تأثروا بالفنيقيين ويعيشون فى هذه المنطقة ، كانوا يمارسون صيد السمك والتجارة والقرصنة . وكان هؤلاء السكان يمدون بالبحريين من المغرب ، أو يحصلون عليه بشن غارات على شواطيء صقلية وايطاليا الجنوبية ، وأحيانا على شواطيء ألمانيا ، أيضا .

ومنذ القرن الثامن الميلادي ، كان سكان هذه المنطقة يقومون بغارات على شواطيء صقلية وعلى جبال اسبرومونت (Aspromonte) وسيلا ، ذات الغابات الكثيفة فى ايطاليا ، للحصول على الخشب . ولكن الأسطول البيزنطي الذي تقع قواعده فى صقلية ، كان يشن غارات من حين لآخر على شواطيء افريقية التي لم تكن حاميات الربط دائما كافية للدفاع عنها. ومن هنا ، واجه المسلمون ضرورة الاستيلاء على جزيرة صقلية كلية. وفى سنة 700 ميلادية 81هـ ، احتل المسلمون جزيرة قوصرة (Pantelaria) وبعد ذلك بثلاث سنوات ، وقعت المحاولات الأولى للاستقرار على شواطيء صقلية . ولكن الحملة المنتصرة التي وجهها زيادة الله الأغلبي(23) للاستيلاء على صقلية ستقوم بهذه المهمة بعد ذلك بأكثر من قرن (827—831م) . وقد تم الاستيلاء على بلرم فى سنة 827 م ، ثم سرقوسة فى سنة 878م. وهاتان المدينتان تمثلان طرفي الجزيرة التي كانت فى القديم مسرحا للنضال بين الاستعمار اليوناني (مع سرقوسة فى مقابل أرض

---

23 ـ زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب بن سالم ، أبو محمد (788 ـ 838) رابع الاغالبة ، ولي بعد وفاة اخيه عبد الله «201 هـ» وجاءه تقليد الولاية من المامون العباسي ، وثبت على دعائه له ايام وثوب ابراهيم بن المهدي على الخلافة ، وقد ضعف شأنه فى اواخر العقد الاول من القرن الثالث حتى لم يبق على طاعته فى سنة 209 هـ ، فى افريقية ، سوى قابس والساحل وطرابلس وقبائل نفزاوة . ولكن هذه القبيلة وضعت نفسها تحت خدمته بدون تحفظ ومكنته من تجهيز اسطول عظيم «212 هـ» سيره لفتح صقلية التي استولى على معظم حصونها . توفي فى القيروان ، وقد كان فصيحا اديبا واسع الاطلاع ، وكان أول من سمي زيادة الله من بني الاغلب .

اليونان) والاستعمار القرطجني (مع بلرم فى مقابل قرطجنة) وكذلك كانت سيراقوسة المدينة الرئيسية فى صقلية فى عهد بيزنطة . ولكن بلرم ، ستحل محل سرقوسة فى العصر الاسلامي ، كما حلت تونس محل قرطجنة الفنيقية .

وفى أوائل القرن التاسع الميلادي ، كانت صقلية البيزنطية متأثرة كثيرا بالنفوذ الهليني . واذا كان الشعب الصقلي يتحدث اللغة اللاتينية ، فان لغة الكتابة الوحيدة فى الجزيرة كانت هي اليونانية . وأما الكنيسة الصقلية ، فقد ألحقت بكنيسة القسطنطينية ، بينما كانت الأديرة فى الجزيرة تسير على نظام سانت بازيل (24) . ولكن الفنون الجميلة ، والفن المعماري ، وبصفة خاصة «الفسيفساء» ، أخذت عن البيزنطيين . وهذه الفنون ، سيتبناها أمراء صقلية جنبا الى جنب مع الفنون الاسلامية . وفى عهد الأغالبة وعصر الفاطميين ، شهدت صقلية ازدهارا كبيرا فى المباني ، ولكن يد الدهر لم تبق على شيء منها ، اذا استثنينا قصر فوارة (Favara) فى بلرم . وكل ما بقي اليوم من المباني التي تمثل الطراز الاسلامي ، انما يرجع عهده الى عصر النورماند ، مثل القبة « العزيزة » . والفن السائد فى هذا الأثر ، يشتمل على كثير من الزخاريف والنقوش الكتابية التي تمثل أنماطا مأخوذة عن افريقية ومصر وبغداد . ولكن صقلية فىذلك العصر (تحت النورمانديين) ، كانت عبارة عن قطعة من العالم الاسلامي ، تحت سيطرة المسيحيين ، حيث كانت الطرق التقنية والانتاج ، ولا سيما الانتاج الفني ، مستمرا كما كانت الحالة فى الأندلس ، بعد انتقال السيادة الى المسيحيين .

كانت جزيرة صقلية وشبه جزيرة الأندلس موئلا لحضارات قديمة تركبت عليها حضارة جديدة . وهذا التزاوج بين الحضارات ، سيسهل انتشار الطرق التقنية الصناعية والتأثير الفني ، ويسمح بايجاد تركيب

---

24 — أبو الكنيسة الاغريقية ولد فى قيصرية (Césarée) «329–379م» مؤلف كتاب « الرسائل » ويعتبر من كبار مؤسسي نظام الاديرة فى المسيحية . (المترجم) .

حضـاري جـديد . والغـزو المسـيحي فى الغـرب سيلعب نفس الدور الذي لعبه الفتح الاسلامي : فهذا الغزو لأرض قـامت عليهـا حضارات شرقية ، سيكون وسيلة للغزاة لنقل عناصر من هذه الحضارات الى الغرب المسيحي الذي يسيطر عليه البرابرة ، وهم قوم ظلوا حتى ذلك الوقت بدون اتصال مباشر بهذه الحضارات . وبهذه الطريقة انتشرت الطرق التقنية الزراعية والصناعية : طرق الري فى منطقة بلرم ومزروعات جديدة . مثل القطن ، وقصب السكر ، والأرز . والبرتقال ، ودودة الحرير ، وصناعات نسج الحرير ، والقطن ، وصناعات الخزف والزجاج ، الـخ .

وكذلك يجب أن نشير الى الازدهار الذي عرفته المدن فى جزيـرة صقلية . فقد كان المسلمون هم الذين جعلوا بلرم نهائيا عاصمة الجزيرة . وبلرم اليوم ، يبلغ عدد سكانها 400ر000 نسمة ، بينما نجد أن عـدد سكان سرقوسة لا يتجاوز 40ر000 نسمة . وفى القرن العاشر الميلادي ، يقدر ابن حوقل (25) عدد سكان بلرم بـ 300ر000 نسمة . وقد كانت بلرم من أعظم مدن الاسلام ، خصوصا بعدد مساجدها ، ولم يكن يفوقها فى هذا المجال سوى قرطبة . وكما يلاحظ الكتاب العرب ، فان سرعة نمو المدينتين متشابهة .

وكذلك كانت الموانيء الواقعة على الشواطيء المقابلة للبحر التيرهيني (Mer Tyrhénienne) (26) ، أمالفي (Amali) سلرن (Salerne) نابلي (Naples) وجايت (Gaète) ، من الناحية الاقتصادية تابعة لصقلية ، التي كانت بدورها قطعة مهمة من امبراطورية الفاطميين . فان

25 ـ راجع : M. Amari, Description de Palerme au milieu du X° siècle de l'ère vulgaire, par Ibn Hawcal, Paris, 1845.

26 ـ المنطقة الغربية للبحر الابيض المتوسط التي تمتد بين شبه جزيرة ايطاليا وجزيرة كورسيكا ، وجزيرة سردينيا ، وجزيرة صقلية . (المترجم) .

نقود الفاطميين كانت متداولة فى جميع مدن ايطاليا الجنوبية : كان الدينار الفاطمي عملة متداولة فى جميع أنحاء ايطاليا . وكانت هذه هي الحالة ، خصوصا ، بالنسبة الى ربع الدينار الاسلامي الذي كان يقلد . وهذه الظاهرة ـــ ظاهرة تقليد النقود الاسلامية ، نلاحظها أيضـــا فى ممالـــك المسيحيين الواقعة فى شمال اسبانيا ، ولا سيما ، فى ولاية برشلونة التي كانت فى القرن الحادي عشر الميلادي ، تقلد نقود الذهب التي كـــانت تصدرها الممالك الاسلامية فى الجنوب .

ولما ضم النورمانديون هذه القطعة من العالم الاسلامي (صقلية) الى ممالك المسيحيين (1061 ــ 1089) ، لم يكن من نتائج ذلك ارتخاء فى علاقات التبادل التجاري ، بل على العكس ، فان هذه العلاقات ستشتد وتقوى . وكذلك نجد أن تقنية تربية دودة الحرير ، وصناعة الحرير ، قد انتقلت الى مدن ايطاليا الشمالية (اللـــوك ـــ (Leca) البندقية ـــ (Venise) وهذا التيـــار سيتعزز فى نفس الوقت بتيار آخـــر يأتي مباشرة من أمارات الفرنجة فى سورية ـــ تلك الامارات التي قامت نتيجة للحروب الصليبية . وينبغي أن نضيف أن جزيرة صقلية ، مثل اسبانيا ، قد اغترفت ، منذ بداية العصر الاسلامي ، من مختلف العلوم ، مثل الطب والفلسفة وعلم الفلك والتنجيم الخ .

وهذا الاتجاه نحو العلم والمعرفة ، سيستمر فى عهد النورمانديين ، فى بلاط فردريك الثاني . وقد كانت صقلية ، مثل أسبانيا ، من المنافذ الرئيسية التي توغل منها التأثير الشرقي فى الغرب المسيحي . وكذلك ساهمت كل من قبرص وأسبانيا فى حركة النهضة فى ايطاليا فى القـــرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر الميلادي ، وهي فترة عرفت فيها هذه البلاد ازدهارا ثقافيا معتبرا .

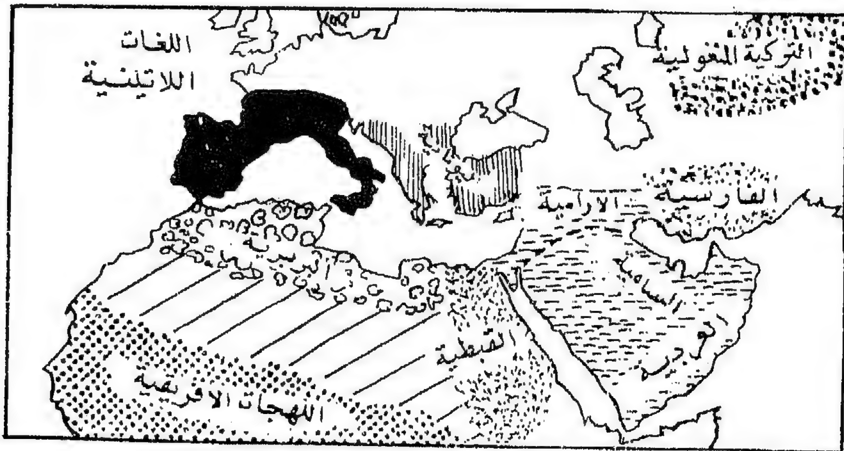
الفصل الرابع

الوضـع اللغـوي

العامية والعربية الفصحى :

قلنا ان العالم الاسلامي كان عبارة عن بوتقة انصهرت فيهـا عناصر مختلفة ، كان بعضها أجنبيا عن البعض الآخر ، وضعت جنبا الى جنب ، ثم ، أدمجت ، وذلك فى الوقت الذي استمر فيه تأثير تقاليد قديمـة . ودرس الوضع اللغوي ، عن طريق المشكلة اللغوية والحروف الهجائية ، سيسمح لنا بتحديد الجانب الأساسي لهذه الظاهرة .

كان الوضع قبل الفتح الاسلامي ، على وجه التقريب ، كما يلي :



الشكل رقـم ٧-١ الحالة اللغوية قبل الفتح الاسلامي

كان يوجد فى مقابل مجموعة اللغات السامية ، اللغات الهنديـة ـ الأروبية ، واللغات التركية ـ المنغولية (أو لغـات المناطق التي تمتد

بين جبال الآرال والألطاي) ولغات افريقية السوداء : ومنطقة اللغـة القبطية ، ومنطقة اللغة البربرية .

وقد كان من نتائج التوسع الاسلامي فى العالم القديم انتشار اللغـة العربية التي ستنقسم على نفسها بوصفها لغة الحديث الى فئتين أساسيتين من اللهجات ، لهجات المغرب ، ولهجات المشرق . وعلى أطراف العالم الاسلامي ، تسود لغات تجارية مركبة من عناصر متعددة : اللغة الصدغية فى آسيا الوسطى ، والسواحلية ، على شواطيء افريقية الشرقية ، ولغة أزر (Azer) فى السودان ، وأخيرا ، لغات الافرنج فى منطقة البحـر الأبيض المتوسط .

اللهجات العامية الساميـة :

يسود فى المنطقة السامية غير العربية النظام التركيبي اللغوي الأرامي . فان اللغة الآرامية قد « ابتلعت » فى القرن الرابع قبل الميلاد ـــ عـلى الأقل ، على مستوى اللغة العامية ـــ جميع اللغات السامية السائدة فى المنطقة ، وذلك فيما عدا اللغة العربية .

وقد كانت اللغات الرسمية السائدة قبل الفتح الاسلامي فى المنطقة : هي : اللغة البيزنطية فى سورية ، واللغة الفهلوية فى منطقة ما بين النهرين الخاضعة للساسانيين . ولكن الآرامية كانت لغة حية ويتحدثها الجميع .

وللغة الآرامية لهجتان : اللهجة الآرامية السائدة فى المناطق الغربيـة الواقعة تحت بيزنطة ، وهي لغة الحديث والكتابة ، وبها كتب التلمود فى فلسطين خلال الفترة التي تمتد بين القرن الرابع والقـرن الســادس الميلادي . واللهجة الآرامية السائدة فى المناطـق الشرقيـة فى مملكـة الساسانيين ، وهي تشتمل على لهجتين فرعيتين : اللهجة البابلونية ، وهي لغة الحديث والكتابة ، وكان يستعملها اليهود،وبها كتب تلمود بابل خلال

الفترة بين القرن الخامس والقرن السادس الميلادي . واللهجة السريانية الأديسية (1) التي كانت لغة الكتابة وستصبح لغة الآداب الدينية لجميع الكنائس المسيحية ، اليعقوبية والنسطورية ، من فلسطين حتى ما بين النهرين والفرس . وقد كانت فترة ازدهار اللغة السريانية ، هي التي تمتد بين القرن الرابع والقرن الرابع عشر الميلادي .

وفى عهد الغزو العربي ، كانت الوضعية اللغوية كما يلي :

فان لهجات المدينة ومكة التي كان يستعملها الفاتحون ، قد أصبحت هي لغة القرآن (2) واللغة العربية المكتوبة . وأما الشعوب المغلوبة على أمرها فى سورية وما بين النهرين ، فقد كانت تتحدث اللغة الآرامية (الغربية والشرقية) وتكتبها . أو تكتب اللغة السريانية ، بحروفها النسطورية أو بحروفها اليعقوبية .

وجميع هذه اللغات متجاورة وحروفها الصامتة متشابهة . ولمقاومة ميوعة لغة الحديث بذلت محاولات عديدة لوضع علاقات صوتية ، بقصد تثبيت النصوص المقدسة فى اللغة العبرية ، فى مركز الدراسات اللغوية فى طبرية الذي كان يأوي علماء النحو والصرف وأحبار اليهود . وهؤلاء العلماء ذهبوا بعيدا فى بحثهم عن الوثائق وبلغوا ما بين النهرين حيث

---

1 ـ نسبة الى أديس (Edessé) ، مدينة ومحطة للقوافل فى جنوب مابين النهرين، انتشرت المسيحية فيها فى وقت مبكر ، كما أصبحت من أهم مراكز الصليبيين بعد استيلائهم على مدينة القدس ، وقد استرجعها الترك فى سنة 1144 ميلادية . (المترجم) .

2 ـ الواقع أنه اذا كانت لهجات مكة والمدينة هي الأساس الذي تقوم عليه لغة القرآن ـ كما يقول استاذنا المؤلف ، فان من المعلوم أن اختلاف اللغات واللهجات العربية ، قد نجم عنه اختلاف القراءات فى القرآن . واللهجات « أو الروايات » الأساسية سبع . وقد روي عن ابن عباس (ض.ع.) أنه قال : « نزل القرآن على سبع لغات ، منها خمس بلغة العجز من هوازان ، وهم الذين يقال لهم عليا هوازان وهم خمس قبائل أو أربع ، منها سعد بن بكر ، وجشم بن بكر ، ونصر بن معاوية وثقيف » ، وتبعا لذلك ، فان قراءات القرآن ، يمكن دراستها من هذه الناحية ، ناحية كونها تمثل بعض لهجات قبائل العرب . (المترجم) .

تسببوا في اختلاط لهجتين ظلت كل منهما منفصلة عن الأخرى . حتى ذلك العهد : الآرامية الشرقية والآرامية الغربية . وبذلك ظهرت لغة للحديث هي خليط بين اللهجتين .

وهذا الاتجاه الى الجمع والخلط والتركيب انما سمح به توحيد العالم الاسلامي ، بل الأولى أن تقول انه كان قوام هذه الوحدة .

وفي نفس الوقت ، وفي نفس الاتجاه ، ولنفس الغرض ، حاول الكتاب السريانيون استنباط طرق لتثبيت نطق الكلمات في النصوص المقدسة، فوضع اليعقوبيون (نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن الميلادي) حركات اغريقية تركب فوق السطر أو تحته ، بينما وضع النسطوريون (ابتداء من القرن الثامن) حركات هي عبارة عن نقط تركب فوق أسطر أو تحته . وفي نفس الفترة أيضا جرى عمل مماثل لضبط وتشكيل حروف الآيات القرآنية ، فوضعت الفتحة والكسرة والضمة التي تركب تحت الحروف أو فوقها (3) .

وأما اللهجة الآرامية العامية التي كانت لغة الحديث في سورية وبين النهرين ، فقد اختفت في حوالي سنة 800 ميلادية ، على أقصى تقدير . وقد أخذت عناصرها وحلت محلها لغة سامية أخرى : اللغة العربية .

---

3 ــ يجدر بنا الاشارة هنا الى أن الكتابة في العصور الاولى كانت ، فيما عدا القرآن ، غير منقوطة ولا مشكولة ، ومن هنا دخول ما يسمى بالتصحيف الى اللغة في المراحل التالية . والتصحيف ، كما يقول أبو العلاء المعري ، هو ان يأخذ الرجل اللفظ من قراءته في صحيفة ، ولم يكن سمعه من الرجال ، فيغيره عن الصواب . وقد وقع في التصحيف ، كما قال صاحب المزهر ، جماعة من الأجلاء من أئمة اللغة وأئمة الحديث، مثل الخليل والأصمعي ، وقد طعن في الخليل الذي أورد في كتاب العين « بغاث » ؛ وهو يوم كان فيه حرب الاوس والخزرج) بالغين المعجمة ، وليس « بعاث » بالعين المهملة ، كما هو ، لانه يوم مشهور لا يصح أن يخطىء فيه . والخوف من وقوع التصحيف ، يفسر لنا حرص المؤلفين الأوائل على ذكر النقاط والحركات للكلمات التي هي مظنة للالتباس ، فيقولون ، مثلا : بالخاء المعجمة وبالكسر ، الخ . (المترجم) .

واللغة الآرامية والسريانية ، أصبحتا لغتين مقدستين ، لا تستعملان بعد الآن الا للكتابة .

واللغة العبرية بدورها لم تعد تدرس الا بوصفها لغة ميتة ومقدسة فى محافل أحبار اليهود فى فلسطين ، وفيما بين النهرين . وهكذا تم رسم التلمود فى شكليه القدسي (نسبة الى مدينة القدس) والبابلي (نسبة الى بابل) . وأما التلمود نفسه ، فينقسم الى قسمين : الشرائع . «ميشنة» التي حررت باللغة العبرية وتم تحريرها فى القرن الثاني الميلادي . والهوامش « جمار » التي وضعت على نصوص الشرائع ، وتم تحريرها باللغة الآرامية أو الغربية أو الشرقية ، طبقا للنصين المختلفين من التلمود.

وبذلك أصبح المتدينون بالديانة اليهودية منقسمين ، كما نرى ، ومضطرين الى الازدواج اللغوي .

كان لسورية فى العالم الاغريقي اللاتيني ، أربع لغات : لغة الحديث (العامية) الآرامية ، ولغة مكتوبة يستعملها المسيحيون اليعقوبيون ، (السريانية) ، ولغة أخرى مكتوبة ، وهي العبرية التي تدرس فى مدارس فلسطين ، وأخيرا ، الاغريقية التي تستعمل فى الشؤون الادارية والخارجية .

ومن الناحية الأخرى ، كانت بلاد ما بين النهرين التابعة للساسانيين ، تستعمل نفس اللغات ، مع تحفظ واحد ، هو أن الفهلوية لغة الفرس ، هي التي تقوم بدور اللغة الاغريقية فى الشئون الادارية الخارجية . أضف الى ذلك ، أن اللغة العبرية واللغة السريانية كان لكل منهما هنا خصائص معينة . فان الثقافة اليهودية فى هذه المنطقة عرفت ازدهارا وانتشارا واسعا ، وكان «راش جالوث» (رئيس المنفى) من الشخصيات التي تحتل مكان الصدارة فى بلاط العباسيين .

وأما اللغة السريانية ، فتمثلها الكنيسة النسطورية . وهنا أيضا ، نجد أن رئيس الجماعة النسطورية . الكاثوليكية فى استزفون سيلعب دورا لا يستهان به فى بغداد .

وأهمية اللغة السريانية تتجاوز الاطار الاقليمي ، حيث أن التـأثير المتبادل بين التفكير اليوناني والتفكير الفارسي ، سيقع عن طريق هذه اللغة . واللغة السريانية ، وهي لغة مكتوبة نبيلة ولغة الثقافة ، هي التي ستسمح بامتزاج خطير الشأن بين الافكار والالفاظ . وعن طريق السريانية ستتركب فى هذه البوتقة اللغوية حضارة من عناصر مختلفة تقوم خصوصا على أساس الاتصالات بين الحضارات والقارات ، تلك الاتصالات التي تشكل احدى المميزات الثقافية الواضحة لشعوب الشرق القديمة .

واذا حولنا أنظارنا الآن ، ونحن دائما فى المنطقة السامية ، الى منطقة اللغة العربية ، فماذا نجد يا ترى ؟

تنقسم مجموع اللهجات السائدة بين السكان فى شبه الجزيرة العربية الى ثلاث فئات ، ستوحدها رسالة القرآن ابتداء من القـرن السابـع الميـلادي .

أولا ، توجد اللهجة السائدة فى الجنوب العربي والتي تنقسم بدورها الى حميرية وسبئية ويمنية . وهذه اللهجة تغطي الجنوب الغربي من شبه الجزيرة وهو ما يعرف باليمـن السعيدة ، مع ميناء عـدن (Athana) الذي يقع فى منطقة ذات أهمية حيوية فى العلاقات التجارية ، حيث يشكل ملتقى لطرق التجارة البحرية فى المحيط الهندي ، مع نظام طرق القوافـل المنتشرة فى غرب شبه الجيزرة ، والطرق التجارية المتجهة من مكة (المكرمة) الى بلاد ما بين النهرين من جهة ، والى موانيء البحر الأبيض المتوسط من جهة أخرى . واللهجة العامية السائدة فى هذه المنطقة نجد نماذج منقوشة

محفوظة منها تمثل الفترة التي تمتد بين القرن الثامن قبل الميلاد والقرن السادس الميلادي .

واللهجة العمانية ، هي لهجة الشواطيء الجنوبية الشرقية التي كانت هي الأخرى مركزا مهما للعلاقات البحرية ، حيث تسيطر على مدخل الخليج العربي . وبحكم هذا الوضع الجغرافي ، لا نستغرب من أن نجد هذه اللهجة مشربة باللغة الفارسية ومتأثرة بنفوذ القوم الذين يقعون على الشواطيء المقابلة .

وأما اللهجة النبطية التي كانت لهجة الحديث فى الشمال ، فهي ترتبط بآثار البتراء (سلع) (4) مدينة القوافل الكبيرة التي كانت مزدهرة فى القرون الأولى التي أعقبت ميلاد المسيح . وهذه اللهجة ، وصلت الينا نقوش منها يرجع تاريخها الى الفترة التي تمتد بين القرن الأول والقرن السادس بعد الميلاد .

وأخيرا ، فان وسط شبه الجزيرة العربية تسود فيه لهجة سكان المدن الحجازية ، ولا سيما ، مكة ، وهي مركز مهم لتجارة القوافل التي تسير بين السبئيين فى الجنوب ، والنبطيين فى الشمال ، أو لهجات البدو الرحل فى نجد ، وهم مشهورون بنشاط تربية الجمال ، وهذه اللهجات غير مكتوبة . والشعر الجاهلي الذي نظم بها ، لم يسجل الا بعد ظهور الاسلام ، وعلى أساس روايات شفهية . ومن اللغة الشعرية المشتركة بين مناطق وسط شبه الجزيرة العربية ، تتكون لغة القرآن فى معظمها . وهذه

---

4 — موضع بالاردن ، كان عاصمة لدولة النبط فى العصر الهليني « القرن 2 — 6 ب.م» ينفذ اليها من مدخل جبلي ضيق يدعى « الشق » . وقد شهدت المدينة ازدهارا كبيرا بفضل موقعها على طرق القوافل بين شبه الجزيرة العربية والشواطيء السورية احتلها تراجان سنة 106 ميلادية ، ثم اصبحت مركز أسقفية مسيحية حتى الفتح الاسلامي . وهي تحتوي على آثار منها قصر ، ودير ، ومسلات ، وقبور : « المترجم ».

هي لغة الآداب والتراث العربي القديم وهي التي ستغلب على مختلف اللهجات ، وتنتشر فى جميع أنحاء الجزيرة العربية .

وهكذا نجد أن العالم السامي يقوم على قوتين لغويتين : اللغة الآرامية فى سورية وما بين النهرين ، واللغة العربية ، فى شبه الجزيرة العربية والعلاقة بين اللغتين ، من جهة أخرى ، وثيقة . حيث أن لهما هياكل متشابهة . ثلاثية الصوامت ، وتجمع بينهما أمالات صوتية غير مسجلة . وحروف أبجدية متحدة أساسيا ، مأخوذة من الحروف الهجائية الفنيقية .

ومن المجابهة التي وقعت بين اللغتين ، خرجت اللغة العربية منتصرة بفضل الفتوحات الاسلامية . ومنذ وقت مبكر ، (فى أوائل القرن التاسع الميلادي) ، تحول العالم الآرامي ، الذي وجد فى التقارب بين اللغتين معينا ، الى التحدث باللغة العربية فى سورية وما بين النهرين .

ولكن اللغة الآرامية ، لم تكن الضحية الوحيدة التي طردتها اللغة العربية من معقلها . فان تعريب الدواوين الذي بدأ منذ القرن الثامن الميلادي ، قد طرد اللغة الاغريقية والفهلوية أيضا . وأما اللغة السريانية التي تجمدت وأصبحت لغة الكتابة والأدب فقط ، فانها لم تعد فى نهاية القرن العاشر الا لغة علمية ، يكتب المؤلفون المسيحيون بها وباللغة العربية بدون تمييز . ومع ذلك ، فان اللغة السريانية لم تمت كلية ، بل على العكس ، ستشهد بعض التوسع والانتشار ، بفضل البعثات التبشيرية النسطورية التي كانت تجوب آسيا الوسطى والصين .

اللهجات العامية غير السامية :

والآن لنلقي نظرة ، ونحن دائما فى سياق الفتح الاسلامي . على المناطق اللغوية غير السامية .

تنحدر اللغة القبطية ، وهي لهجة وادي النيل ، من اللغــة المصريــة القديمة . وهي تسجل بأحرف اغريقية مكيفة . وفى وادي النيل أيضا . ستختفي اللغة القبطية واللغة الاغريقية ، وتحل محلها اللغة العربية ، ولو أن هذه العملية جرت بسرعة أقل مما شاهدناه من اختفاء الآراميــة فى سورية وبين النهرين . والتواريخ التالية ستسمح لنا بتكوين فكرة دقيقة عن تقلص اللغة القبطية والاغريقية واختفائها فى مصر .

تم فتح مصر خلال الفترة بين 639—641 ميلادية.ونحن نلاحظ أن أول ورق بردي مكتوب بلغتين (العربية والاغريقية) يرجع تاريخه الى سنة 693م ، وآخر ورق بردي باللغتين ، بتاريخ 719 ميلادية . ومع ذلك فان آخر ورق بردي باللغة الأغريقية يرجع الى سنة 700 م . ولكن اول ورق بردي مكتوب كله باللغة العربية ، مؤرخ فى سنة 709 ميلادية .

وكذلك يمكننا أن نستخلص دلالات آخرى من مصادر أدبية ومنقوشة. فنحن نقرأ أن البطريق ميشل (728—752 ميلادية) لا يعرف اللغة العربية ، وأن الخليفة المأمون كان يرافقه مترجم أثناء زيارته لمصر فى سنة 832 ميلادية . وفى مقابل ذلك يوجد ما يحمل على الاعتقاد ، بأن رجال الكنيسة كانوا يعرفون اللغة العربية فى القرن التاسع الميلادي ، لأننــا نجد أن نصبا تذكاريا مسيحيا بتاريخ 909 ميلادية ، مكتــوب باللغــة العربيــة .

صحيح أن شعرا شعبيا قبطيا كان لا يزال ينشد فى أواخــر القــرن التاسع . ولكنه ابتداء من القرن العاشر كان رجال الكنيســة القبطيــة يكتبون باللغة العربية حينما يريدون أن يتأكدوا من أن ما كتبوه يمكن فهمه . ومع ذلك ، فان اللغة القبطية ظلت وقتا طويلا أكثر من مجــرد لغة دينية . بل أننا نجد أن المثقفين من رجال الكنيسة القبطية فى القرن الثالث عشر كانوا يعرفون هذه اللغة . وكذلك كان البطارقة فى هــذه

الفترة يكتبون القبطية والعربية . وآخر النقوش التي وصلت الينا باللغة القبطية ، يرجع تاريخها الى القرن الثالث عشر . ولكن هذه القبطيـة كانت لغة الكتابة والعلم . وأما لهجة الحديث اليومي ، فقد اختفت بسرعة أكثر . وقد حلت اللغة العربية محل اللغة القبطية فى القرن العاشر الميلادي وهذا معناه أن اللغة القبطية عاشت نحو قرن من الزمن ، بعد ما اختفت اللغة الآرامية ، وأصبح العالم الآرامي عالما عربيا .

واذا كانت الوضعية اللغوية قد شهدت ، بالطريقة التي وصفناها ، انتصار اللغة العربية فى المناطق المركزية فى الامبراطورية الاسلامية ، فان الأمور لم تجر على هذا المنوال فى طرفي العالم الاسلامي ، حيث استمرت كتلتان من اللغات على قيد الحياة ، على الرغم من توغل التعريب فى المدن والادارات وفى أوساط المثقفين ، ونعني بذلك اللغة الفارسية فى المشرق . واللغة البربرية فى الغرب

ونحن هنا سنقتصر على الحديث على اللهجة الفارسية المتوسطة التي خرجت من لهجة قديمة . وهذه اللهجة المتوسطة هي الفهلوية التي تنحدر منها مباشرة اللغة الايرانية الحديثة والتي ظلت زمنا تستعمل الى جانب اللغة العربية .

من المؤكد أن النفوذ الذي كان الفرس يتمتعون به فى العصر العباسي . كانوا يمارسونه عن طريق اللغة العربية.ولكن النفوذ الذي مارسه الفرس فى العالم الاسلامي فى القرن العاشر والقرن الحادي عشر ، و لاسيما فى عهد الدولة السامانية فى خراسان ، وبعدها فى عهد السلاطين الغزنويين ، كانوا يمارسونه عن طريق اللغة والثقافة الفارسية . ونحن نعرف أن واحدا من أعظم الآثار الأدبية الفارسية ، شهنامة الفردوسي ، وضعت فى هذا العهد : 990 — 1020 ميلادية .

وفيما يتعلق باللغة البربرية ، فقد كانت لغة الحديث فى المناطق الخلفية التي تمتد من وادي النيل وبرقة حتى أقصى المغرب . من جهة . والى ساحل النيجر (السودان) من جهة أخرى . فان اللغة العربية فى هـذه المنطقة انما توغلت أولا وقبل كل شيء فى المدن . وهذه اللغة التي هي لغة الدين والحضارة المدنية ستتقدم بخطي بطيئة فى الجبال والهضاب البربرية . وبالتالي ، فان اللغة العربية انما تغطي المناطق التي كانت تابعة لقرطجنة، والفيلسوف البربري، سانت أجستين، بل وبروكوب (Procope) أيضا (فى القرن الرابع الميلادي) ، يخبرنا بأن اللغة الفنيقية كانت لاتزال شائعة فى المناطق المجاورة للمراكز التي كانت تابعة لقرطجنة ثم وقعت تحت سيطرة الرومان . وهذا قد يكون من العوامل التي تفسر لنا سرعة انتشار اللغة العربية فى المدن الرومانية فى افريقية الشمالية : هذا ، على الأقل ، هو الفرض الذي اقترحه جزيل (S. Gsell) .

ومهما يكن من شيء ، فان التغيير السريع الذي وقع من اللاتينية الى العربية ، يمكن تعليله بحاجة المراكز المدنية الى الاعتماد على لغة حقيقية للكتابة ، وهي لغة الادارة والتبادل التجاري التي لا يمكن مقارنتها باللغة البربرية غير المكتوبة .

ومن جهة أخرى ، فقد لوحظ توغل اللغة العربية فى جبال بلاد القبائل الصغرى (بلاد كتامة) فى غضون الفترة التي تمتد بين القرن التاسع والقرن الحادي عشر الميلادي ، ذلك التوغل الذي لابد من ربطه بحركة الفاطميين ونشاطهم فى تلك المنطقة . وكذلك أدى غزو بني هلال فى القرن الحادي عشر للمغرب الى انتشار اللغة العربية فى افريقية ، ثم فى الهضاب العليا المرتفعة فى الجزائر ، فى غضون الفترة التي تمتد بين القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر .

ولكن هذه العملية كانت بطيئة . ولم تكن تشمل فى الحقيقة سوى المدن والأراضي التي تحيط بالمدن مباشرة .

ما هي الوضعية اللغوية فى اسبانيا وفى الطرف الغربي للعالم الاسلامي ؟

كانت اللغة اللاتينية لا تزال تحتفظ بمكانتها ، وكانت تتطور الى لغة رومانية ستصبح بدورها أصل لهجة الحديث فى شبه جزيرة الأندلس . وكذلك نشاهد ، بعد الفتح الاسلامي تأثيرا لغويا للبربر ، ولا سيما فى المناطق الجبلية التي تمتد من الجنوب الى الشرق والتي تقطنها عناصر من البربر الذين هاجروا من افريقية الشمالية . وفى نفس الوقت ، كانت الجماعة اليهودية التي تقيم فى الأندلس تستعمل اللغة الآرامية . ويضاف الى كل ذلك العنصر الجديد ، اللغة العربية .

ففيما يتعلق باللهجة العربية العامية ، اقترح فرض يقول بوجود كتلة من اللهجات العامية الغربية التي تشمل سكان المدن فى اسبانيا الاسلامية وسكان المدن فى المغرب ومالطة وصقلية (5) . وهذه العربية «الغربية» تعرف ، فيما يقال ، باسم « الغربية » التي حرفت باللغة الاسبانية الى (Algarbia) ومنها اشتقت الكلمة الفرنسية (Charabia) (6) . والى جانب هذه اللهجة العامية ، توجد ، بطبيعة الحال اللغة العربية الفصحى ، لغة الآداب والفلسفة فى جميع أرجاء العالم الاسلامي . وهذه أيضا هي لغة الدين والادارة والتجارة والحضارة . وهي ستلعب فى الأندلس نفس الدور الذي لعبته اللغة اللاتينية من قبل ، فى العالم الغربي المسيحي ، أو اللغة الاغريقية فى العالم البيزنطي .

5 — راجع : Colin, Un document nouveau sur l'arabe dialectical d'Occident en XII[e] siècle, Hisperis, XII, 1931, pp. 1-32.

6 — معناه بالفرنسية : لغة غريبة ، غير مفهومة . «المترجم» .

لغة التجـارة :

ولكن اللغة العربية سوف لا تقنع بتأمين تفوقها المطلق فى داخـل الامبراطورية الاسلامية (7) ، حيث أنها سوف تخترق الحدود مع التجار اليهود من نربونه ، أو مع التجار البربر الذين يعملون فى بلاد افريقية الغربية (السودان) ، بل الى مناطق التبادل التجاري العربية — ايران على المحيط الهندي ، وفى أندونوسيا والهند الصينية ، والصين الجنوبية (والمعروف أن مدينة قانطون كانت تأوي مستعمرة كبيرة من التجار الذين ينتمون الى مختلف أنحاء العالم الاسلامي) . وكذلك انتشرت اللغة العربية فى اتجاه الشمال ، حتى بلغت الأنهار الروسية الكبيرة ، ودخلت مدنا مثل اتل ، وبلغار ، وكييف . والقسنطينية نفسها ، ستشتمل على مسجد يضم جماعة المسلمين الذين يعيشون فيها .

بقى الآن ، أن نبين وضع اللغات التي تتكون من عدة عناصر والتي نمت على هامش العالم الاسلامي . وهذه اللغات التي ولدت فى نفس الفترة ولكنها ستتطور مع مرور الزمن ويكون لها خطرها هي .

السواحلي الذي كان يستعمل فى مراسي المحيط الهندي على شواطيء افريقية الشرقية . وهي لغة افريقية تحتوي على كثير من الألفاظ المأخوذة من اللغة العربيـة

— لغة آزر (Azer) ، وهي لغة المناطق التجارية حيث كانت تجري المعاملات فى الذهب والعبيد ، على سواحل السودان (عـلى المحيـط الأطلسي) . وهي تشتمل على كثير من الألفاظ المأخوذة من اللغة العربية

---

7 — ورد فى كلام يهودي كان يكتب من مدينة القيروان ، وكان قد تجول فى العراق وفى الاندلس وافريقية الشمالية ، قوله : انه يعتذر لعدم كتابته باللغة العبرية ولالتجائه الى الكتابة بالعربية ، حيث أنه مستعجل وليس لديه وقت . واللغة العربية اكثر ملاءمة له . اراجع : I. Goldziher Mélanges Judo — Arabes XXIIIe Revue des Etudes Juives, L, 1905, pp. 182-188

واللغة البربرية ، واللهجات السودانية (وخصوصا ، الصونكي والصونغاي) .

ــ اللغة الصغدية التي كانت لغة التجارة منذ عصر الساسانيين ، وهي لغة ايرانية تشربت كثيرا من الألفاظ المأخوذة من اللغات المجاورة .

ــ لغة الفرنك التي كانت منتشرة على ضفاف البحر الأبيض الأروبية وهي لغة عاشت طويلا ، حيث أن آخر رجل كان يتحدثها مات فى منتصف القرن التاسع عشر ، فى راجوز (Raguse).

وكذلك لعبت لغة قريبة من اللغة الماليزية (كانت لهجة الحديث فى موانيء جزر المحيط الهندي) دورا يشبه الدور الذي لعبته لغة الفرنك ، ولكن فى وقت متأخر .

فهذه اللغات التي نمت فى أطراف العالم الاسلامي . تبدو غير ذات بال على الخريطة ، ولكنها فى الحقيقة ذات أهمية بالغة . فهي تمثل بوتقات تتحول فيها المصطلحات التقنية ، وتعابير البحريين والألفاظ المستعملة فى التجارة ، ثم تنتقل الى اللغات المجاورة . وأهمية هذه اللغات تستحق التنوية حيث أنها ساهمت فى نقل المصطلحات التقنية من العالم الاسلامي الى اللاغة الرومانية (8) .

وهذه النظرة المتفحصة فى اللغات العامية المستعملة فى داخل العالم الاسلامي وفى أطرافه ، تسمح لنا بحصر الموضوع . تقديم تعريف ملائم لكلمة « مسلم » . والتمييز بين العالم العربي و' م الذي اعتمد اللغة العربية .

8 ــ لغة مشتقة من اللاتينية ، وتقدمت تاريخيا اللغة الفرنسية . «المترجم» .

وفى المكان الأول ، ينبغي أن نستبعد تعبير « العالم العربي » فى هذه الفترة . فقد طالما قيل أن العنصر العربي الحقيقي ليس له أهمية ضئيلة حيث أنه « أغرق » فى بحر من السكان هم أكبر عددا وأعمق حضارة وأكثر تمدنا منه . وأما تعبير العالم الذي اعتمد اللغة العربية ، فهو أكثر دقة ، ولو أنه لا يرضينا تماما . فان أطراف هذا العالم كانت فى تطور دائب . وهي لا تشكل كتلة واضحة المعالم . فان المدن التي تقع فيه كانت دائما فى نضال مع الأرياف . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فان لغتين قد تمكنتا من الاحتفاظ بمركزهما وتجددتا فى العالم الاسلامي ، كما رأينا وهما اللغة الفارسية واللغة البربرية ، وكلتاهما ستعيش طويلا .

واذا ، فان التعبير الملائم الذي ينبغي أن نأخذ به ، هو : « العالم الاسلامي » .

فهذا التعبير ليس أفضل ما نبحث عنه ، ولكنه أحسن من غيره،شريطة الاتفاق على مضمون هذا المصطلح . وهنا أيضا نجد أنفسنا فى فضاء دائم التطور . وفى هذا المجال أيضا ، نجد أن نقاط الارتكاز هي المدن ، والعلاقات بين المدن . فمن المدن ينتشر النفوذ الثقافي والحضاري الى العالم الريفي والى مجالات البدو الرحل . وخارج المدن انما ينتشر الاسلام ببطء ، فى بعض الحالات : فان بعض المناطق فى جبال البربر ، مثلا لم تتقبل الاسلام ، بشريعته والعادات التي ينطوي عليها ، الا فى وقت متأخر ، فى القرن التاسع عشر ، تحت ضغوط خارجية .

والاعتراض الآخر الذي يتبادر الى الذهن ، فى سياق اعتماد هذا التعبير ، هو أن العالم الاسلامي فى غضون الفترة بين القرن الثامن والقرن الثاني عشر الميلادي ، لم يكن بعد يشمل اندونوسيا والهند الواقعة على نهر الكنج . وأخيرا فان أقليات مهمة أفلتت من الاسلام ، كانت تعيش فى داخل الخلافة الاسلامية . وهؤلاء ينتمون الى مختلف

الملل والنحل ، مثل المسيحيين ، واليهود ، والزنادقة ، والمزدكيين ، والوثنيين ، والبوذيين والملحدين .

والواقع أن الأصلح والأدق هو أن نتحدث عن « العالم الذي يشمله الحكم الاسلامي » ولكن اختيارنا نهائيا لتعبير « العالم الاسلامي » ، يقوم على اعتبار أن مضمونه مشابه لتعبير « العالم الهليني » و « العالم الروماني » . وبعبارة أخرى ، فنحن نتحدث عن شعوب مختلفة تستظل بعلم حضارة مشتركة ، أو تعيش فى شبكة من العلاقات التي تربط المدن والتي تشكل أساس هذه الحضارة التركيبية . وكذلك نجد أن العالم الاسلامي يتسم بالخصائص التالية :

مجال نسيج اقتصادي ، أولا وقبل كل شيء ، ثم هو بعد ذلك مسرح لحضارة ذات أصول متباينة ، تعود الى الحضارات الهلينية والسامية والايرانية والهندية ، وبطبيعة الحال ، الى الحضارة العربية وهذه الحضارة التركيبية ، كما يشهد بذلك فنها الذي يتكون هو الآخر من عناصر متعددة : فارسية وتنتمي الى ما بين النهرين وبيزنطة ، بل وقوطية أيضا . وميزة الاسلام وفضله الاكبر هو أنه تمكن من صهر جميع هذه العناصر ثم اعادة تركيبها فى حضارة واحدة متناسقة ، لا يكاد الانسان يتعرف على العناصر الأصلية فيها .

فان تحفة فنية اسلامية ، مثلا ، كثيرا ما يخفي أصلها والمنطقة التي استخرجها منها على المنقبون . اذا كانت لا تحمل نقوشا واضحة مفهومة وبالتالي ، فنحن لا نعرف ما اذا كانت هذه التحفة قد جاءت من الهند ، أو من اسبانيا ، أو من مصر ، أو من آسيا الوسطى .

واللغة العربية لها نفس الميزة : الطابع الكوني . فهي فى نفس الوقت لغة الدين ، ولغة الادارة ، ولغة التجارة ، ولغة الحضارة .

وهذا العالم الاسلامي الذي هو عالم تركيبي ، مثل العالم الهليني والعالم الروماني ، يقدم شيئا أكبر مما قدمه هذان العالمان : أبعادا جديدة . وهو أوسع منهما ، لأنه يجمع فى أحضانه العالمين السابقين له .
ولو ركبنا فكريا تخوم أمبراطورية الاسكندر الكبير وتخوم أمبراطوريات الرومان والخلفاء المسلمين ، لوصلنا حتما الى النتيجة التالية : أن العناصر البشرية فى الخلافة قد أخذت من العالم الهليني والعالم الروماني . وهذه العناصر ، هي الشعوب الشرقية وشعوب البحر الابيض المتوسط .

وفيما يتعلق بالناحية الجغرافية ، فان الخلافة الاسلامية تضم الشرق الاوسط وحوض البحر الابيض الشرقي ، وهي منطقة العالم الهليني . ولكن الخلافة تضم أيضا الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط ، وهي منطقة الرومان سابقا .

وعالم الخلافة العباسية ذو آفاق أكثر انفتاحا من العالم الهليني فى اتجاه المحيط الهندي ، والهند ، وآسيا الوسطى والصين . ومن جهة أخرى ، فهو ينفتح على المحيط الاطلسي ، وعلى الشمال الغربي ، مثل العالم الروماني .

ولكن العالم الاسلامي يضيف الى مجموع امتداد العالم الهليني والعالم الروماني ، فتحاته على منطقة الانهار الروسية الكبيرة ، وعلى الطرق المتجهة الى بحر قزوين والى بحر البلطيق ، وعلى طرق القوافل التي تمر عبر الصحراء فى اتجاه السودان وافريقية الوسطى .

وظهور الامبراطورية الاسلامية كان من نتائجه الاساسية اتساع آفاق التجارة الدولية ، وقيام نظام اقتصادي أوسع وأكثر تنوعا وأشد قـوة

القسم الثاني

قوة نظام النقد الإسلامي وتقدم العمران في المدن

الفصل الخامس

مشكلات النقد

كان بحثنا حتى الآن مركزا على الناحية الجغرافية ، على أساس درس كل اقليم على انفراد . ولكنه الآن يتحتم علينا أن ندرس بعض النواحي الاساسية التي كانت سببا في قوة العالم الاسلامي وعظمته . وسنبدأ أولا بدرس المحرك الرئيسي المولد لهذه القوة ونعني بذلك نظام النقد ؛ ثم نبحث مسألة ازدهار العمران في المدن والغليان الاجتماعي الذي يكون نتيجة للاضطراب الاقتصادي .

الحالة النقدية
غداة الفتح الاسلامي

نبدأ أولا ، بدرس المحرك الرئيسي المولد لهذه القوة ونعني بذلك نظام النقد (1) ، ثم نبحث مسألة ازدهار العمران في المدن والغليان الاجتماعي الذي يكون نتيجة للاضطراب الاقتصادي .

فان ذهب العالم المسيحي الغربي الذي يسيطر عليه البرابرة : قد استنزف كله تقريبا ، وأصبح هذا العالم لا يعتمد الا على ما ينتجه من معدن الفضة لصك النقود . وهذه النقود الفضية ؛ هي في معظم الحالات

1 ـ للمزيد من التفاصيل عن المسائل التي يعالجها هذا الفصل ، راجع :
M. Lombard, Les bases monétaires d'une suprématie économique : L'or musulman du VIIIe au XIe siècle. Annales E.S.C. II, 1947, pp. 143-160 et Etudes d'Economie Mediévale, I. - Monaie et Histoire d'Alexandre à Mohammed, éd. Mouton et co., Paris, 1971.

من نوع رديء . ونحن نعرف من هذه النقود . مثلا ، « التريان »(Triens) الميروفنجي المضروب من النحاس والمطلي بطبقة خفيفة جدا من الفضة . وهو ذو وزن خفيف وقيمته ضئيلة للغاية . والبلد نفسه قد هجرته تيارات التجارة العالمية

وتجارة الاستيراد ، مثل التجارة فى الكماليات وسلع الترف ، محتكرة فى يد الشرقيين « السوريين » الذين استنزفوا احتياطي الغرب المسيحي من الذهب . وبسبب ما يسلكه من الذهب القليل الذي هو النقد الاساسي، الذي يستعمل فى التبادل التجاري فى منطقة البحر الابيض . وقد أصبح الغرب المسيحي مجالا تسود فيه أشكال الحياة الريفية . وفى نفس الوقت الذي يخضع فيه لنظام اقتصادي مغلق على نفسه ، كان تدهور العمران فى المدن فى الغرب يسير بسرعة .

ومن ناحية أخرى ، عرفت الامبراطورية البيزنطية صعوبات جدية مرجعها الى انقطاع تموينها بالذهب .

وانقطاع معدن الذهب عن بيزنطة مـر بمرحلتين : تضاؤل الكميات الواردة ، ثم قلة انتظام وصول الذهب الجديد أو الذهب المستخرج من المناجم . فان برابرة الشمال قد قطعوا الطرق المؤدية من بيزطة الى سهوب البونت (Pont) (2) وبحر قزوين بينما قطع البليميون فى مصر العليا طريق الجنوب المؤدية الى المناطق المنتجة للذهب فى افريقية السوداء.

---

2 ـ مملكة قديمة تمتد أراضيها من الشمال الى الشرق فى آسيا الصغرى ، على البحر الأسود ، أعلن استقلالها عن امبراطورية الفرس فى سنة 301 ق . م . وقد عرفت هذه المملكة عهدا من الازدهار والقوة خصوصا تحت الملك ميتريادات Méthriodate وبعد فترة طويلة من النضال مع الرومان سقطت فى أيديهم فى سنة 63 ميلادية . (المترجم) .

و فى نفس الوقت ، حيل بين بيزنطة وبين النفوذ الى المحيط الهندي الذي يسيطر الساسانيون على طرق التجارة فيه .

وقد زاد من فقر بيزنطة فى الذهب ، ميل الناس ، ولاسيما رجال الكنيسة (أديرة سورية ومصر والقسطنطينية) ، الى اكتناز الذهب ، مما نجم عنه حبس كميات كبيرة من المعدن الثمين ، ومنعها من التداول فى الاسواق فى صورة نقود . ومما زاد من خطورة النقص الذي تعانيه بيزنطة ، أن هذا النقص وقع فى نفس الوقت الذي اختفت فيه تيارات النقـود الذهبية المضروبة والآتية من الغرب المسيحي (الواقع تحت سيطرة البرابرة) . وهذا الاختفاء كما رأينا ، مرجعه الى استنزاف المشارقة لاحتياطي الغرب من الذهب . وقد أدى مجموع هذه الظواهر الى فرض قيود متزايدة الشدة على تداول العملة المضروبة من الذهب .

ومع ذلك ، فان ولايات بيزنطة الشرقية ، سورية ومصر (وهي بلاد اشتهرت بدورها فى تجارة المرور (الترانزيت) بين الغرب المسيحي ومملكة الساسانيين) تملك احتياطيا كبيرا من الذهب . وبفضل هذا الاحتياطي ، تمكنت بيزنطة من مواجهة أزماتها النقدية وتوفير الذهب لضرب عملتها ، الدينـار (Dinarios)، التي لا تزال الوسيلة الوحيدة للتبادل التجاري على ضفاف البحر الابيض ، والتي هي أهم أوراق المساومة الديبلوماسية فى يـد بيزنطة .

ومع ذلك ، فان الامبراطورية البيزنطية تعاني ضيقا كبيرا فى مجال النقد : فالتجارة مع العالم ، أصيبت بالركود ، أولا ، ثم بالتقلص وأخيرا ، أصبحت تجارة بيزنطة منحصرة فى مجال ضيق لا يكاد يتجاوز حوض البحـر الابيض المتوسط الشرقي : الاسكندرية انطاكيـة ــ القسطنطينية ــ الاسكندرية .

والى جانب المدن التي لا تزال تحتفظ بمكانتها العمرانية كانت الامبراطورية تعاني من حركة واسعة للاقطاع ؛ كما تدل على ذلك أوراق بردى (القرنين السادس والسابع الميلادي) ؛ ومن انتشار الملكيات الزراعية الكبيرة التي كانت مراسم الامبراطورية تقاومها .

وفى مقابل بيزنطة ؛ نجد أن أمبراطورية الساسانيين لا تضرب نقود الذهب ، لأن النقد المتداول فيها هو الدرهم(الدراخم) المضروب من الفضة .

ولكن احتياطي الساسانيين الكبير من الذهب كان مجمدا فى شكل حلي للزينة وأثاث مكدس فى قصور الملوك ومنازل الاثرياء . وكذلك كان الشرق الساساني يبدو وكأنه كنز حقيقي من الذهب .

وعلى أساس نظام النقد الذي يقوم على الفضة ، والذي يسيطر على الاسواق الكبيرة فى الشرق الاوسط والمحيط الهندي مع نقاط فى آسيا الوسطى والانهار الروسية الكبيرة ، عرفت هذه المناطق نشاطا اقتصاديا واسع النطاق ، نجم عنه ازدهار كبير فى عمران المدن . وكذلك كان الطابع الريفي والاقطاعي يسيل فى هذه المناطق الى الاختفاء ويحل محله نفوذ المدن والحركة التجارية .

وقد كان وضع النبلاء والاقطاعيين الذين يعيشون على دخلهم من استغلال الارض ، يتدهور تدريجيا ، مع مرور الوقت واتساع نطاق التبادل التجاري مع البلاد الواقعة على المحيط الهندي ، وعلى البحر الاحمر ، وآسيا الصغرى ومناطق الانهار الروسية الكبيرة .

وزيادة على ذلك ، فان الساسانيين يسيطرون ، بوصفهم وسطاء بحكم الضرورة ، على طرق تموين بيزنطة بالتحف الثمينة الآتية من آسيا .

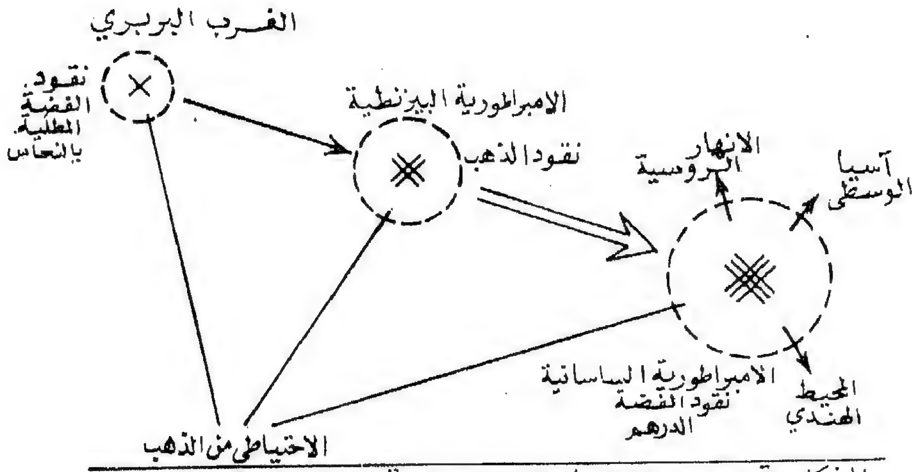
وكذلك نرى مجموعة اكتزيفون ـ أبلة (اللتين حلتا محل سلوقيـة وأبولوجوس الهلينيتين) على الخليج قد أعدت مجمـوعة بغـداد ـ البصرة . لتقوم بالدور التجاري الخطير الشأن الذي قامت به فى العصر الاسلامي .

وهذه السيطرة الاقتصادية التي يمارسها الساسانيون فى ملكهم ، تنعكس آثارها فى مجال الفن ، بازدهار أنماط من الصيغ التقنية فى العمارة والايقونيات والزخرف ، فى ايران وما بين النهرين . وهذه الأنماط ستنتشر فى الاتجاه الشرقي (كهوف أجانتا فى الهنـد ، وجدرانيات خوطان وكوتشا وتورفا فى آسيا الوسطى) ، وفى الاتجاه الشمالي (الصياغة والتجارة فى المصوغات بين شعوب السهوب) ، وفى الاتجاه الغربي (خصوصا المنسوجات البيزنطية) .

ومتى حصرنا بدقة هذه المناطق النقدية الثلاث ، فسيبقى أمامنا أن نحدد معنى تيارات التبادل القائمة بينها . وهذه التيارات ، فى نهاية التحليل ، تتجه من الغرب الى الشرق : فان الغرب المسيحي الذي يسيطر عليه البرابرة يستنزف احتياطيه من الذهب لفائدة بيزنطة التي تفقد ما تكسبه من الذهب لفائدة الساسانيين فى الشرق .

وهكذا نلاحظ ، قبل الفتوحات الاسلامية حركة تتجه فى خط مستقيم من الغرب الى الشرق وتستنزف موارد الذهب من غرب البحر الابيض المتوسط ، لفائدة الشرق وشواطيء المحيط الهندي . والذهب الذي تدور حوله هذه الحركة سينتهي فى آخر المطاف الى صناديق الكنازين الساسانيين والهنود .

وفى بداية القرن السابع الميلادي ، نشاهد اختلالا فى التوازن يزداد خطورة مع مرور الزمن ، بين حجم مجموع الذهب المكتنز ، والكميات



الشكل رقم ٨ ـ مخطط عام للتيارات النقدية غداة الفتوحات الاسلامية

المتداولة منه فى صورة نقد . فان ممالك البرابرة التي استنزفت احتياطيها من الذهب ، كما قلنا ، أو أوشكت ، تعاني من نقص شديد فى معدن الذهب لسك النقود . وبينما يتناقص الذهب المتداول فى صورة نقود فى الامبراطورية البيزنطية ، على الرغم من وجود احتياطي مهم (غير نقدي) فى بعض ولاياتها ، نجد أن الامبراطورية الساسانية ، لا تملك فيه كميات عظيمة من معدن الذهب المكتنز .

وهذا الاتجاه سيؤدي الى تقييد حجم الذهب المتداول فى صورة نقود ، والى تقلص جغرافي لمنطقة معيار الذهب واتساع منطقة معيار الفضة .

وقد انحصرت منطقة الذهب المتداول ، بحيث لا تكاد تتجاوز الحوض الشرقي للبحر الابيض المتوسط والاراضي التي يمتد عليها سلطان بيزنطة . وبذلك أصبحت منطقة معيار الذهب محاصرة بين منطقة معيار الفضة فى الغرب المسيحي ، ومنطقة معيار الفضة الساسانية التي تتسع تدريجيا فى الاتجاه الشرقي . والاسباب الثلاثة التي أدت الى هذه الحالة

هي : اكتناز الذهب ، وضعف الانتاج وعدم انتظام ورود الذهب ، وأخيرا ، تنقل الذهب فى خط مستقيم وفى اتجاه واحد ، من الغرب الى الشرق وهو اتجاه يفرضه توازن الميزان التجاري على التيارات النقدية

والفتوحات العربية وظهور العالم الاسلامي ، سيؤثران على الحقائق الثلاث المذكورة ويغيران خريطة العالم النقدية .

معادن النقد فى العالم الاسلامي :

والحقيقتان الأساسيتان فى هذا الموضوع . هما . تدفق الذهب الذي يستعمل لضرب الدينار الاسلامي ، واستغلال الموارد الكبيرة من الفضة التي تستخدم لضرب الدرهم (Drachem) من جهة ، والنحاس والقصدير، وهما المعدنان اللذان تضرب منهما قطع النقد الصغيرة (الفلس أو (Phollis) البيزنطي) ، من جهة أخرى .

فأما تدفق الذهب الى العالم الاسلامي ، فهو يكتسي ثلاثة أشكال : وضع الذهب المكتنز فى دائرة التداول من جديد ، ووصول ذهب جديد، والتقدم التقني فى معالجة الذهب .

وادخال الذهب المكتنز من جديد فى دورة التبادل التجاري مرجعه الأسلاب والغنائم التي أخذت من قصور الساسانيين أولا ، ثم فى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان الأموي (685—705م) ، من الكنائس الثرية فى سورية وما بين النهرين . وهذا الخليفة الذي واصل التعريب وادخال اللغة العربية الى الادارة بحزم ، وسيقوم بضرب الدينار الاسلامي ، هو الذي ألغى امتيازات القساوسة التي كانوا يعفون بموجبها من الجزية . فان كل واحد من القساوسة سيدفع منذ الآن دينارا ذهبيا واحدا . وأما ممتلكاتهم فقد أحصيت وأخضعت للضريبة العقارية ـــ الخراج .

وهكذا كانت الكنائس والاديرة فى العالم الاسلامي تقوم خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن التاسع ، بدور الاحتياطي من المعدن الثمين الذي يلجأ اليه الخليفة فى وقت الضائقة ، تماما مثل المعابد القديمة التي التجأ اليها الامبراطور قسطنطين من قبل .

واذا لاحظنا أن التدابير الأولى التي اتخذها الخلفاء الأمويون لاخراج الذهب من خزائن الكنيسة ، ترجع الى حوالي سنة 700 ميلادية ، وأن الاجراءات الأولى التي اتخذها الأباطرة الأيسوريون المجددون (Iconoclastes) (3) فى بيزنطة ، يعود تاريخها الى سنة — 726 ميلادية ، وأن قيام الامبراطور شارل مارتل بالاستيلاء على أموال الكنيسة فى الغرب وقع فى سنة 730 — 731 ميلادية ، فسيتأكد لدينا أننا أمام حركة انتشرت من الشرق الى الغرب ، ومن العالم الاسلامي فى اتجاه بيزنطة ، ثم الى الغرب المسيحي ، وهي حركة وضعت حدا لدورة كنز الذهب .

وفى مرحلة تالية ، اكتشف الذهب المكتنز فى قبور الفراعنة فى مصر . فان الفتح الاسلامي قد وضع حدا لعملية كنز الذهب أثناء تشييع جنازات الموتى فى مصر . وبعد ذلك ، تتحدث النصوص التي بين أيدينا عن عمليات عديدة لاكتشاف الذهب كان يقوم بها الباحثون عن الكنوز فى القبور ، والذين كان يطلق عليهم اسم « أصحاب المطالب » . وأصحاب المطالب ، كانوا يحترفون البحث فى القبور ويدفعون خمس ما يكتشفونه من الذهب الى الدولة ، وكانوا يعملون بتعاون وثيق مع دار السك . ونفس الحالة ، هي التي نجدها فى أمريكا اللاتينية فيما بعد : فى عهد المغامرين الغزاة الاسبان ، حينما كانت عصابات متخصصة من سراق

3 — الايسوريون نسبة الى ايسوري (Isaurie) بلد فى آسيا الصغرى يقع على السواحل الجنوبية. وترجمة كلمة (Iconoclaste) بكلمة « مجددين » ترجمة لغوية . والكلمة فى السياق الديني أطلقت على طائفة فى الامبراطورية البيزنطية فى القرن الثامن الميلادي ، وصفت بالهرطقة ، وكانت تحطم الايقونات والصور المقدسة . (المترجم) .

القبور ، تبحث عن الذهب فى قبور الأسر البيروفية (الجواكا) . وهي أيضا تشبه الحالة التي كانت سائدة فى الغرب المسيحي فى العصور الوسطى ، ولو أن سراق القبور فى أروبا ، كانوا بائسين بالقياس الى زملائهم من المصريين والأسبان .

ولكن لنعد الى ذهب الفراعنة . فنحن نعرف أن مجموع كميات الذهب التي استخرجت من قبر توت عنخ أمون وحده ، تزن مئات القناطر وتمثل ضعفي رصيد بنك مصر من الذهب . ولكن توت عنخ أمون لم يكن فى الحقيقة سوى ملك متواضع بالقياس الى كثير من ملوك الفراعنة . فمن ذا الذي يستطيع تقدير قيمة مجموع الذهب الذي استخرج من قبور الفراعنة التي انتهكت حرمتها !

فاذا كانت مكتشفات الذهب فى عصرنا هذا تكتنز ، واذا كنا قد خرجنا من عصر اكتناز الذهب خلال عمليات تشييع الجنازة ، الى عصر الاكتناز العلمي (ذلك الاكتناز الذي يمثله متحف القاهرة للعاديات) فان الذهب المكتشف فى العصور الوسطى ، على خلاف الحالة السائدة الآن ، كان يوضع من جديد فى دائرة النقد المتداول : لأن هذا الذهب يضرب نقودا .

والشكل الثاني الذي اتخذه تدفق الذهب الى العالم الاسلامي هو وصول الذهب المستخرج حديثا اليه ، وهذا الذهب يأتي من استغلال مناجم الذهب فى الممتلكات الاسلامية بعدما اتسعت رقعتها . وهذه المناجم ملك للمسلمين ، باحدى الطريقتين : فاما أنهم يملكون أرضها ومواقعها فعلا ، أو هم يسيطرون على الطرق التي يسلكها الذهب الآتي من الخارج . وبذلك كان المسلمون يسيطرون بطريقة مباشرة أو غير مباشرة على معادن الذهب فى غرب شبه الجزيرة العربية والقوقاز وأرمينيا وجبال الآرال والألطاي التي تتموذ منها قبائل الترك الرحل ،

ومناجم التبت ودكان التي ينقل الذهب المستخرج منها الى المناطق التجارية الواقعة على نهر مهران ، أو على شواطىء ملابار : ومناجم افريقية الشرقية التي كانت مصدر ثروة سفالة (سفالة الذهب): ومناجم النوبة ، وأخيرا مناجم وادي العلاقي التي يتحدث عنها اليعقوبي والتي تنتج ذهبا ينقل منها الى أسوان .

ومن جهة أخرى ، فقد سيطر المسلمون على مورد جديد للذهب هو أهم من كل ما ذكر ، وكان يشكل التيار الرئيسي الذي يمون شواطىء البحر الأبيض بالذهب الحديث الاستخراج خلال الفترة بين القرن التاسع والقرن الخامس عشر ، ونعني بذلك : ذهب السودان . واستخراج الذهب من هذه المناجم يقوم به ملتقطوا الذهب من السود . وهؤلاء لا يزالون يمارسون نشاطهم حتى يومنا هذا . وأما نقل الذهب الملتقط ، فهي مسألة تتصل بالتجارة التي كان يقوم الجمالون من البربر ، عبر الصحراء ، ابتداء من مراكز الايداع فى منطقة السنيغال ــ النيجر ، حتى محطات القوافل الكبرى على حافات الصحراء فى الشمال . وقد كانت نولمطة وسجلماسة وورجلة والجريد ، كلها موانىء مغربية (فى الصحراء) للذهب . وسجلماسة التي أسست فى موقع تافيلالت فى سنة 757 ميلادية ، كان لها دور خاص فى توصيل الذهب من « بلاد السودان » التي تسمى أيضا « بلاد التبر » الى الشمال .

والعامل الثالث الذي يسهل تدفق الذهب الى العالم الاسلامي ، هو التقدم التقني الذي تحقق فى معالجة المعدن الخام للذهب بتعميم استعمال الملغمة (وهي كلمة نقلت الى اللاتينية من العربية التي أخذتها عن الأغريقية) أي « مزج المعادن » وهذه الطريقة على كل حال ، تستعجل الزئبق (الزاؤوق Azoquey = Azoque بالاسبانية) الذي يستخرج من أسبانيا ، وفى مدينة المادن (المعدن) الاسبانية ، كان

يشتغل ألف عامل فى صناعة الزئبق الذي كان يلعب دورا مهما فى العصر الاسلامي ، يشبه الدور الذي سيكون له فيما بعد فى أمريكا اللاتينية لاستخراج الذهب . وقد كان الزئبق الاسباني يصدر الى المغرب الأقصى والسودان وإلى مصر والنوبة وما بين النهرين والى آسيا الوسطى وشواطىء المحيط الهندي : وبعبارة أخرى ، الى البلدان التي تنتج الذهب .

ومن هذا التقدم التقني بقي فى اللغات الأوروبية الى يومنا هذا اسم آلة تستعمل لغسل الذهب ، وهيَ : « البطيحة » بالفرنسية (Batée) بالأسبانية » (Batéa) .

والى جانب موارد الذهب ، توفرت لدى العالم الاسلامي أيضا موارد من الفضة .

والمناطق التي كانت تنتج الفضة فى العصر الاسلامي هي نفس المناطق التي كانت تنتج هذا المعدن فى العصور القديمة ، وفى المكان الأول ، أسبانيا الجنوبية ، طرطوشة القديمة ، التي كان الفنيقيون يترددون عليها ثم احتلها الرومان ، قبل المسلمين . والمسلمون هم الذين وضعوا حدا لاضطرابات البرابرة التي أدت الى انخفاض الانتاج ثم الى توقف استغلال المناجم .

وقد نجم عن مجيء المسلمين الى هذه المنطقة استئناف النشاط بقوة لاستخراج الفضة . وكذلك كانت مناجم الفضة الواقعة فى جبال الأطلس فى المغرب الأقصى والتي كان يستغلها الأهالي ، تنتج كثيرا من هذا المعدن للتصدير فى عهد الفينيقيين . وقد ظلت هذه المناجم نشيطة حتى فى القرن السادس عشر الميلادي .

وأهم من ذلك ، هي مجموعة المناجم التي تقع فى أرمينيا وايران الجنوبية وآسيا الوسطى ، وهي مناطق مشهورة بما تحتوي عليه تربتها

من معدن الفضة فى عهد الساسانيين الذين كانوا يستغلونها للحصول على الفضة لضرب الدرهم .

وأكبر المراكز المنجمية فى هذه الأصقاع هي : « معدن بن جاهير » الذي يقع فى جبال كابل والذي كان يشغل عشرة آلاف عامل ، ومعدن الشاش فيما وراء النهر فى شمال فرغانة . وقطع النقود الفضية التي ضربت فى عهد هارون الرشيد وفى عهد الدولة الصفارية (القرن العاشر الميلادي) تحمل اشارات الى معدن بن جاهير ومعدن الشاش ، وهي اشارات تؤكد ما كان معروفا من وجود دور لضرب السكة بنيت قريبا من المعدنين .

وأخيرا ، فان المناطق الجبلية التي تمتد فى شمال سورية تحتوي على منجم مشهور للفضة كان يستغله الفنيقيون وتصدر منتجاته من معدن الفضة الى مصر الفرعونية .

فالعالم الاسلامي يشتمل خصوصا على منطقتين كبيرتين لانتاج معدن الفضة : اسبانيا فى أقصى الغرب ، وآسيا الوسطى وشمال ايران ، فى أقصى المشرق . وهاتان المنطقتان كانتا تمونان على التوالي ، دور الضرب فى الغرب المسيحي ، وفى الشرق الاسلامي حيث يسك الدرهم « ج . دراهم » .

وفيما يتعلق بالنحاس والقصدير ، يكفي لكي ندرك أهميتها فى العالم الاسلامي أن نستحضر فى أذهاننا الأعمال الفنية العديدة التي أبقى عليها الزمن والمصنوعة من البرونز أو الصفر (النحاس والزنك) . ومناجم النحاس تمون دور الضرب لسك قطع النقد ذات القيمة الصغيرة (الفلس ـ ج . فلوس) للاستعمال المحلي وهذا المعدن يستخرج من جزيرة قبرص . وخصوصا فى منجم أرغاني (أرغاني معدن) الذي يقع فى أعمال ما بين النهرين ، والذي يوفر فى أيامنا هذه المادة الخام لجميع الصناع البدويين فى الشرق ، وينقل الى البصرة ويصدر الى دمشق . وكذلك تشترك

افريقية الشمالية بسهم وافر في انتاج النحاس بانتاج جبال كتامة في منطقة البابور في بلاد القبائل (الجزائر) — تلك القبيلة التي آوت العبيديين وناصرتهم . وأما المغرب الأقصى ، فقد كان يساهم بانتاج المناطق الوسطى الواقعة على ضفاف نهر أم الربيع التي تحول كثيرا من هذا الانتاج الى مدينة فاس وتصدر كميات الى سجلماسة ، ومن هنا الى بلاد السودان . ومناجم السوس الأقصى تصدر النحاس الى بلاد السودان .

وأما اسبانيا ، فقد كانت معروفة منذ العصور القديمة بانتاجها الوفير من معدن النحاس ، وكذلك كانت مناجم القوقاز وآسيا الوسطى تمون صناع النحاس الأتراك .

وفيما يتعلق بالقصدير الذي يتحول الى برونز بضم النحاس اليه ، فهو يأتي من موردين بعيدين ، وبالتالي ، فهو معدن ذو صلة وثيقة بتطور التجارة العالمية : جزر قسيتريد (Cassitérides) (4) وهي الجزر التي أعطت اسمها العربي لمعدن القصدير ، ومن بلاد كله ، أي من شبه جزيرة ماليزيا والقصدير الذي يأتي من البلاد الأخيرة يحمل اسم « القلعي » بالعربيـــة .

وأما القصدير الذي تنتجه بريطانيا ، فهو يصل الى الأندلس عن طريق المحيط ، كما يصل الى البلدان الاسلامية الواقعة على ضفاف البحـــر الأبيض المتوسط عن طريق الجول (Gaule) ونربونة ، والى البلدان الاسلامية في الشرق ، عن طريق حلب والبندقية .

والقصدير الماليزي يدخل الى البلدان الاسلامية عن طريق الخليج ، ضمن تيارا التبادل التجاري بين البلدان العربية وايران في منطقة المحيط الهندي والبحر الأحمر .

---

4 — اسم قديم لأرخبيل يتكون على وجه التقريب من جزر السيلي (Scilly) الحالية . « المترجم » .

الضرب وتداول النقـد

كان تدفق الذهب ووفرة معدن الفضة . بالاضافـة الـى النحـاس والقصدير عاملا ينطوي على امكانيات واسعة لضرب النقود فى العالم الاسلامي . وتبعا لذلك . فقد تعددت دور الضرب وأصبح ضرب نقود الذهب لا مركزيا حيث كانت السلطات تمارسه فى جميع المدن الكبيرة فى العالم الاسلامي . وبعد انقسام الخلافة الاسلامية كان جميع ملوك مختلف الدول يضربون النقود . الأمر الذي نجم عنه تدفق كميات كبيرة من نقود الذهب والفضة على الأسواق . ولكن النقود الاسلامية لم تكن مهمة من حيث الكم فقط . بل خصوصا من حيث الكيف . نظرا للعناية البالغة التي كان يضرب بها الدينار الاسلامي ــ وشأنه فى ذلك شـأن العملات التي لها سيطرة على الأسواق الدولية .

ومايروْيه ابن خرداذبه (حوالي 850 ميلادية) يؤكد ما هو معروف عن أهمية حجم النقود المتداولة واتساع نطاق انتشارها حتى أن نقود الذهب والفضة كانت متداولة فى أصغر القرى وأبعدها عن مراكز العمران. والخراج يجبي بالنقود . وتكاليف بناء قصور الخلفاء تقدر بالنقود ــ وهي أمور تشهد بازدهار العمران فى المدن .

وتداول النقد الذي شمل جميع أنحاء العالم الاسلامي . سيمـس مناطق من المجالات الاقتصادية المجاورة .

وقطع النقود الاسلامية النموذجية لم تظهر فى بداية الفتح الاسلامي . فان الفتوحات الأولى ؛ لم تشهد تغييرا فى نموذج العملة المتداولـة . فالدرهم الساساني ظل متداولا فى الولايات الشرقية . بينما كان الدينار البيزنطي مستعملا فى الولايات الاسلامية الغربية . ودور الضرب الاسلامية الأولى ، كانت تقتصر على سك هذين النموذجين . وقد استمر الأمر على ذلك حتى عصر الخليفة عبد الملك الأموي . وأما سبب هذا التأخير فى

احلال عملة اسلامية محل العملات القديمة ؛ فينبغي أن نبحث عنه في الطابع التقليدي المحافظ للتبادل التجاري ؛ وفي الأهمية التي يعلقها عالم التجارة على وسائل التبادل ، وعدم ثقته بل ونفوره من التجديد في مجال النقد .

ولذلك نجد أن تغيير العملة لم يقع الا حينما اقتضته الضرورة التي نجمت عن التغييرات الجذرية التي طرأت على النظام الاقتصادي نفسه .

فهذا التأخر في ظهور العملة الاسلامية ، اذا ، يأخذ الى الاعتبار تطور العلاقات الاقتصادية الدولية . واذا كان الدينار البيزنطي والدرهم الساساني قد استمر كل منهما على القيام بدور العملة المتداولة في التجارة العالمية حتى نهاية القرن السابع الميلادي (الاصلاح النقدي الذي أدخله الخليفة عبد الملك الاموي وقع في سنة 696 — 697 ميلادية) ؛ فذلك لان دائرة المعاملات التجارية القديمة ، كانت مستمرة في العالم البيزنطي من جهة وفي العالم الساساني من جهة أخرى .

ولكنه ابتداء من القرن السابع ، ظهرت وحدة اقتصادية ، وهي وحدة العالم الاسلامي الذي أصبح يضم الكتلتين الاقتصاديتين القديمتين . وبذلك توفرت الشروط الضرورية لقيام عملة موحدة تجمع في أحضانها الدرهم الساساني المضروب من الفضة ، والدينار البيزنطي المضروب من الذهب .

ونحن في امكاننا أن نحدد المراحل التي مر بها هذا التطور . فان الخليفة علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ، قد قام بالمحاولة الأولى في هذا الاتجاه في سنة 660 ميلادية ، في البصرة ، حيث أصدر العملة الأولى التي اتخذت شكل درهم اسلامي عليه نقوش بالخط الكوفي . ولكن هذه المحاولة منيت بالفشل . وبعد ذلك بأربعين سنة ، أعيدت هذه التجربة وأسفر التجديد على نجاح .

ففي غضون هذه الفترة ، اذا ، وقعت تغييرات جذرية فى الأحـوال الاقتصادية وظروف تداول العملة . فان العملة الاسلامية فشلت فى المرحلة الأولى ، ثم نجحت بعد ذلك ، حينما صمدت أمام امتحان عسير ، وهو مواجهتها فى الأسواق لأنواع العملة التي كانت لها السيادة من قبل .

وأول عملية نقدية تحققت فى العالم الاسلامي ، وقعت فى عهد عمر بن الخطاب (634 ــ 644 ميلادية) ، حينما تم تنظيم وزن نقود الفضة . فبينما كانت نقود الذهب تقوم على نظام واحد ثابت ، فاذا بنقود الفضة كانت تقوم على ثلاثة أنظمة مختلفة : الدرهم البغلي (الفارسي) والدرهم الرومي الذي تجري المعاملات بواسطته مع بيزنطة ، والدرهم الطبري ، الذي كانت منطقته فى آسيا الوسطى . ورغبة فى خلق مجال موحد من نقود الفضة ، حدد وزن الدرهم فى المتوسط بـ 14 قـيراط (من الاغريقية (Keration) ، أي 396 جرام .

ونحن نلاحظ أن تحديد وزن الدرهم القانوني قد تم على أسـاس نظام ورث عن اليونان، وهو القيراط ، وليس على أساس « الدانق » (5) الفارسي . وهذا التدبير معناه السعي لربط نقود الفضة الجديدة بنظام الذهب الذي هو نفسه من أصل يوناني .

وأما النقود الاسلامية الحقيقية ، فهي انما ظهرت نتيجة للاصلاح الذي أدخله عبد الملك بن مروان (6) (74ــ75 هـ ــ 693ــ695 م) بسك

---

5 ــ يساوي سدس الدرهم الفارسي . «المترجم» .

6 ــ عبد الملك بن مروان بن الحكم القرشي ، ابو الوليد (26 ــ 86 هـ) من أعظم خلفاء الاسلام واشدهم دهاء وأكثرهم حنكة . نشأ فى المدينة فقيها واسع العلم ، متعبدا ، ناسكا . استعمله معاوية على المدينة وهو ابن 16 سنة ، ثم انتقلت اليه الخلافة بموت أبيه (سنة 65 هـ) ، فكان قوي الهيبة ، اجتمعت عليه كلمة المسلمين ، بعد مقتل مصعب وعبد الله ابني الزبير فى حربهما مع الحجاج بن يوسف الثقفي ، ونقلت فى أيامه الدواوين من الفارسية والرومية الى العربية وضبطت الحروف بالنقط والحركات ، وهو كما يقول المؤلف ، أول من سك الدنانير فى الاسلام . « المترجم » .

دينار الذهب فى دمشق ومنذ ذلك التاريخ ظهر نظام العملة الاسلامية : ففي سنة (75 ــ 76 هـ ــ 694 ــ 695 م) . سك أحد ولاة العراق درهم الفضة من النوع الاسلامي ــ فى البصرة . وقد انتشرت هذه الحركة فى مختلف الولايات الاسلامية ؛ فقام عبد العزيز بن مروان (7) والي مصر فى سنة (77 هـ ــ 696 ــ 697 م) . بسك الدنانير فى الفسطاط .

والدينار الاسلامي الذي ظهر نتيجة لعملية اصلاح نظام النقد يحمل نقوشا مستديرة الشكل وتاريخ صدور القطعة والبسملة . وابتداءا من خلافة المأمون (813 ــ 833 م) العباسي ؛ سيحمل الدينار الاسلامي أيضا اسم المدينة التي سك فيها . وفى وسط وجه القطعة تقرأ عبارة دينية كتبت فى ثلاثة أسطر ، وفى الظهر ، كتابة مستديرة بالثناء على النبي (صلى الله عليه وسلم) ؛ وفى الوسط على ثلاثة أسطر عبارة دينية .

وقطعة الدرهم تضرب على نفس الطريقة وبنفس النقوش ولكنها أوسع أبعادا حيث أن قطعة الفضة أغلظ وأوسع رقعة .

وأما الفلس ، فهو يحمل نقوشا مختلفة ، حيث أن هذه القطعة ذات أهمية محلية وثانوية ، وليست خاضعة لحق الملكية وتقوم بسكها سلطة محلية . ومن جهة أخرى ، نلاحظ أنه لا توجد أية علاقة بين النقود المضروبة من البرونز ونقود الذهب والفضة .

---

7 ــ وقع التباس فى الأصل مرجعه ، بدون شك ، سوء التحرير ، حيث ذكر باسم عبد العزيز أبي عبد الملك . والأصوب ماذكرنا . وهو عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن امية ، ابو الاصبغ (وهو ابو الخليفة ، عمر بن عبد العزيز) . ولي مصر لابيه استقلالا (سنة 65 هـ) وسكن حلوان ، حيث بنا الدور والمساجد وغرس كرما ونخيلا . كان يقظا شجاعا جوادا فكانت تنصب حول داره كل يوم ألف قصعة للاكلين وتحمل مائة قصعة على العجل الى قبائل مصر . توفي بحلو سنة 85 هـ (المترجم) .

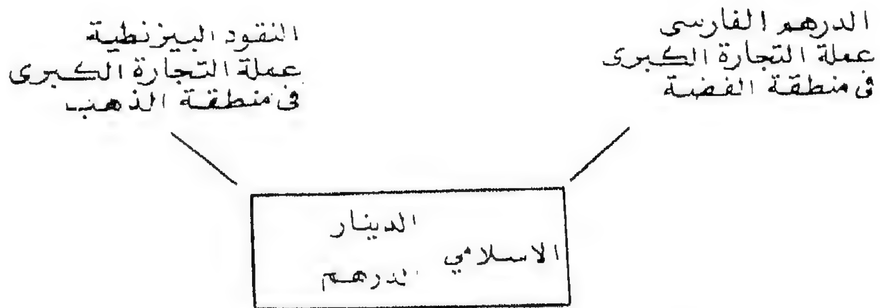
ونموذج العملة الذي صدر بهذا الشكل ، تميـزه نقوش بالخـط الكوفي . وعدم وجود صورة على القطعة . وأما الدينار الذي ضرب فى عهد المعتصم العباسي ويمثل الخليفة وهو جالس على عرش ، على غرار الساسانيين ، فهو استثناء من القاعدة .

وكذلك يعنى بتحديد وزن القطعة الجديدة بحيث تكون موازيـة ومماثلة للقطعة المتداولة فى الخارج فأما وزن الدرهـم المضروب من الفضة ، فقد ظل على الأساس الذي حدده عمر بن الخطاب . وأما وزن الدينار الذهبي ، فهو يحدد على أساس متوسط وزن عدد من القطع المتداولة فى بيزنطة . والمعروف أن دينار الذهب المتداول فى القسطنطينية ، يزن 25،4 جرام ولكنه نظرا لأن القطع التي يحدد وزن القطعة الاسلامية على أساسها ، هي قطع مر على تداولها وقت من الزمن ، وبالتـالي ، فقدت قليلا أو كثيرا من وزنها من الذهب ، فان القطعة الاسـلاميـة التي تضرب من الذهب الخالص أقل قليلا ، من حيث الوزن ، من قطعة الذهب البيزنطية .

ونظرا لأن القطعة الخفيفة الوزن ، تطرد القطع الثقيلة من الأسواق ، فان الفرق البسيط فى الوزن بين القطعة البيزنطية والقطعة الاسلاميـة المتنافستين ، كان من العوامل التي أدت الى انتشار الدينار الاسلامـي الجديد بسرعة فى مختلف أنحاء العالم الاسلامي . وأما قطع النقـد البيزنطية القديمة ، فقد سحبت من الأسواق تدريجيا وأرغم الصرافون ومبدلو العملة على تسليم ما لديهم منها ، والقطع التي تصل الى أيديهم وتحويلها الى السلطات الرسمية التي تصهرها وتعيد سكها .

وخارج حدود الخلافة الاسلامية أيضا ، سينتشر الدينار عملة الخليفة العظيمة ، ويتسع نطاق تداوله ، ولاسيما فى البلاد التي ينافسه فيها الدينار البيزنطي : فى روسيا الجنوبية ، وفى الغرب المسيحي الخاضع لسيطرة البرابرة .

وهكذا ، فان الدينار البيزنطي والدرهم الساساني اللذين كانا رمزين لنظامين نقديين منفصلين ، سيرتبط أحدهما بالآخر عن طريق الدينار والدرهم الاسلامي كما فى المخطط التالي :



نقود التجارة الكبرى ـ نظامان مرتبطان للنقد .

عملة التجارة العالمية : منطقتان نقديتان مرتبطتان .

وعلى أساس 20 درهم لدينار واحد (النظام الثنائي المعدن الذي سيسود فى البلاد الواقعة على شواطىء البحر الأبيض) تحقق تدريجيا اندماج النظامين النقديين البيزنطي والساساني . وانتصر نظام معيار الذهب . وسيتسع نطاق تبادل العملة المضروبة من الذهب فى الاتجاه الشرقي ، فى أراضي الساسانيين قديما ، وفى اتجاه الغرب المسيحي وأسبانيا فى نفس الوقت .

بقي علينا الآن أن نحدد مراحل اتساع نطاق نظام الذهب وسيادته فى داخل العالم الاسلامي نفسه .

كان اتساع نطاق سك النقود الذهبية مرهونا بتدفق معدن الذهب الذي جاء الى العالم الاسلامي فى أمواج متعاقبة . بدأت بالغنائم والأسلاب ، ثم بادخال الذهب المكتنز الى دائرة التبادل فى صورة نقود.

وأخيرا وصول الذهب الجديد من مختلف أنحاء العالم ، ولا سيما من السودان .

ونتيجة لتدفق الذهب ، كانت قيمة الذهب ، وبالتالي ، القيمة الشرائية للنقد ، تتجه الى الانخفاض . ونظرا لأن الناس لا يكتنزون النقد الذي تنحط قيمته تدريجيا ، فقد اتجهوا الى الاستثمار في مختلف القطاعات الاقتصادية التي تضمن عائدا مرتفعا لرؤوس الأموال المستثمرة . ومن ثم ، فلا غرابة في أن نشاهد حركة واسعة النطاق تستهدف الحصول على الثروة وتنميتها في العالم الاسلامي ، ولا سيما بين التجار ، عقب الفتوحات الاسلامية .

ولكن ، لنتوقف لحظات عند موارد الذهب في السودان . فان هذا الذهب الذي يغذي التيارات الرئيسية للتموين بالمعدن الثمين منذ نهاية القرن الثامن ، وخصوصا ، منذ القرن التاسع الميلادي يصل الى المغرب كما رأينا ، عن طريق عدد من المدن الصغيرة التي تقع على طرق الصحراء : والواقع أن كل تاريخ افريقية الشمالية وتاريخ الدول التي قامت فيها ، كان يدور حول العمل للسيطرة على المحطات التي تقصدها القوافل ويحمل اليها معدن الذهب . وهذا الذهب ، لا يبقى في المغرب ، وانما هو يمر به فقط ، تماما كما حدث في القرن السادس عشر والسابع عشر الميلادي بالنسبة الى الفضة والذهب اللذين كانت تنتجهما أمريكا ويشحنان الى قادس ، ثم يوزعان على مراكز التجارة والصناعة والبنوك والمراكز المحركة للاقتصاد .

وهكذا يتجه ذهب السودان الى مناطق الانتاج الكبيرة التي تعمل للانتاج لتجارة التصدير . فهو يتجه الى مصر التي تنتج القمح والأقمشة ، والى منطقة ما بين النهرين التي تنتج قصب السكر والأقمشة ، وهو يتجه أيضا الى مراكز تجارة المرور التي تتلقى سلعا تأتيها من البلدان

الواقعة خارج العالم الاسلامي : اسبانيا التي تتلقى العبيد وغير ذلك من السلع التي يشتد الاقبال عليها فى الغرب المسيحي . وأسواق مصر وسوريا وما بين النهرين التي تتلقى منتجات آسيا ، ولا سيما التوابل ؛ ومراكز التجارة فى آسيا الوسطى ، سمرقند ، وبخارى ، وخوارزم ؛ التي تسيطر على الطرق المؤدية الى منطقة الأنهار الروسية ، والى بلاد الأتراك والى الصين والهند .

وأخيرا ، فان ذهب السودان يتجه أيضا الى المراكز السياسية الهامة ؛ والى بلاط الملوك والأمراء ، مثل بلاط بني طولون ، أمراء مصر ، الذين كانوا يدفعون فى القرن التاسع الميلادي الى الخليفة العباسي اتاوة مقدارها 300ر000 دينار سنويا .

ولكن ذهب السودان لم يوزع بالتساوي بين مختلف المناطق . فان المناطق التي تقع بعيدا عن الطرق الكبيرة للتبادل التجاري ، لا تتلقى سوى كميات ضئيلة منه . والذهب انما يتجمع فى المراكز التجارية والمصرفية ، وفى أسواق المدن الكبيرة وفى قصور الملوك . فهذه المراكز هي التي تتولى سك الذهب والفضة ، وبدرجة ثانوية ، النحاس وتقوم باعادة توزيع هذه المعادن فى شكل « محول » . وهذه التيارات النقدية هي التي تبعث النشاط والحياة ، بواسطة ذهب السودان ، فى الاقتصاد الاسلامي ، وأما بلاد المغرب التي يمر بها ذهب السودان ، فدورها ينحصر فى اعادة توزيعه الى مختلف المراكز الاقتصادية .



ولتقدير مدى انتشار تداول النقود الذهبية فى العالم الاسلامي ، توجد لدينا خمسة مصادر للمعلومات : أولها ، بطبيعة الحال ، قطع النقود المحفوظة فى متاحف القاهرة ، ودمشق ، وبغداد والمتحف البريطاني ، وفى مقصورة الميداليات فى المكتبة الوطنية بباريس ، الخ .

وهذه القطع تسمح لنا بتحديد أماكن السك ودور الضرب ورسمها على خريطة . فهذه المواقع ، هي : أولا . دمشق في عهد الأمويين ؛ ثم بغداد . وابتداء من سنة 763 م . . في عهد المأمون العباسي (813ـ 833 م) . نجد أن عملية سك النقود أصبحت لا مركزية . وبعد سنة 827 م . ، أصبح ضرب النقود يجري في جميع المدن الرئيسية ، في المشرق والمغرب .

وبتوحيد طرق سك النقود ، تأكد اندماج معياري النقد . معيار الذهب ، « أهل الذهب » ، ومعيار الفضة ، أو « أهل الورق » كما كان يسمى .

والمصدر الآخر الذي نستقي منه معلوماتنا ، هو تقدير قيمة مجموع الضرائب التي كانت تدفع في عهد الدولة العباسية .

كان تقدير ميزانية الخليفة في عهد بني العباس ، حتى نهاية القرن التاسع الميلادي ، يعبر عنه بالدينار للغرب وبالدرهم للشرق . ولكنه في بداية القرن العاشر ، أصبح التعبير عن تقديرات الميزانية يجري كله بالدينار ، وهو دليل على توحيد النظام النقدي نهائيا على الصعيد الاداري .

مراكز المرور — مراكز الانتاج الواسع — المراكز التي تتلقى الذهب

الشكل رقم 9 ـ ذهب السودان

واسبانيا الاسلامية ، تقدم لنا مثالا آخر للتوسع فى استعمال النقد المضروب من الذهب . فان الأمويين فى قرطبة انما كانوا يضربون النقود من الفضة فقط ، حتى القرن التاسع الميلادي . ولكنهم بعد ذلك أخذوا يسكون النقود الذهبية وهو تدبير يرمز لما بلغته الدولة الأموية من القوة والعظمة التي ستتأكد فى القرن العاشر ، باعتمادهم لقب الخليفة « أمير المؤمنين » .

ومن جهة أخرى ، فقد عرفت اسبانيا المسلمة حركة قوية لتدفق قطع النقد الذهبية الآتية من المشرق . وبعض هذا الذهب يتخذ طريقه الى الغرب المسيحي فى مقابل العبيد الذين يستوردون من هذه البلاد ، والذين يعاد تصديرهم الى المشرق ، وهي تجارة تؤمن للاندلس دور منطقة العبور « الترانزيت » .

وأخيرا ، فقد كانت الأندلس تتلقى ذهب السودان وكان ملوكها يتدخلون عبر البحر فى المغرب ليضمنوا لأنفسهم السيطرة على محطات القوافل الشمالية فى التجارة عبر الصحراء .

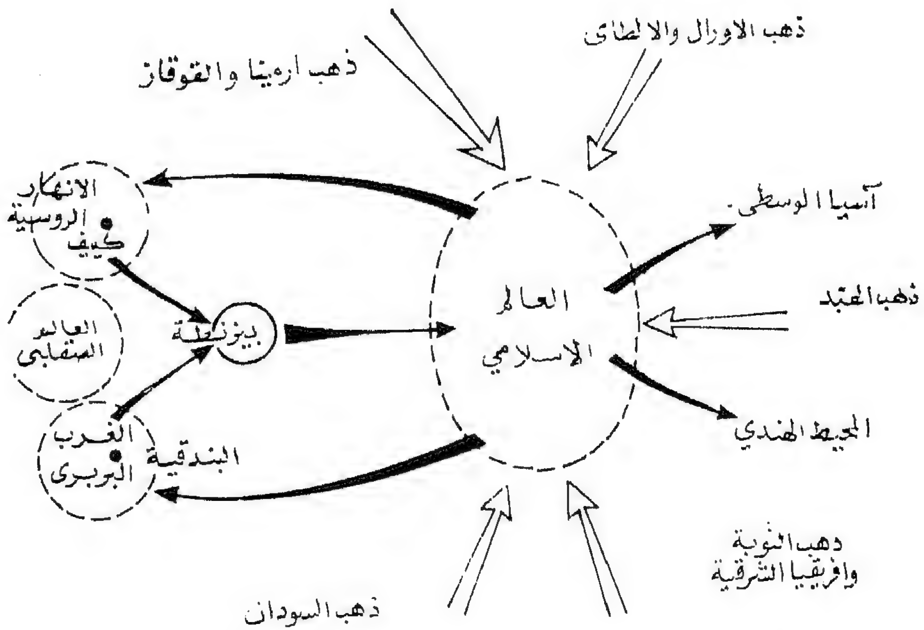
وهذا الذهب الذي يسك فى قرطبة . أو فى مدينة الزهراء كان يغذي بالنقود الذهبية الغرب المسيحي الذي يقوم نظامه النقدي على معدن الفضة .

ومن الأدلة الأخرى التي تشير الى اتساع نطاق استعمال النقود الذهبية ، قيام الفاطميين بضرب النقود الذهبية . فان الفاطميين الذين جمعوا ثروة طائلة فى القرن العاشر الميلادي ، بفضل ما وصل اليهم من الذهب الآتي من السودان الذي يحتكرونه ، سيكونون رصيدا هاما يسمح لهم بتحقيق خططهم لغزو مصر التي أخذت تميل الى دعوتهم ، نتيجة لسياسة نشيطة تقوم على الدينار . وقد ضاعف الفاطميون نشاطهم

لضرب نقود الذهب فكانت تخرج من دورهم للضرب كميات كبيرة من الدنانير التي ستنتشر فى امبراطوريتهم من سورية الى صقلية . والفاطميون هم الذين خلقوا ربع الدينار الذهبي .

وأخيرا ، فان المعلومات والارقام التي نستقيها من المؤرخين والجغرافيين العرب ، تسمح لنا بتقدير الوضع فيما يتعلق بتداول نقود الذهب فى العالم الاسلامي . ونحن هنا نقتصر على سرد بعض الامثلة التي تدل على ضخامة حجم الذهب المتداول . ففي الاندلس اكتشف لدى وفاة عبد الرحمن الثالث (8) فى سنة 961 ميلادية أن خزائنه تحتوي على 5 ملايين دينار ، أي 250 قنطار من الذهب المضروب . وفى عهد خلفه ، الحكم الثاني « 961 — 976 م » ، بلغ دخل بيت المال 40 مليون دينار . وفى مصر اكتشف لدى وفاة الوزير ، الافضل (القرن الحادي عشر الميلادي) أن خزينته تحتوي على 6 ملايين دينار ، وهو ما يمثل 300 قنطار من الذهب المسكوك . وفى بغداد ، كان دخل بيت المال فى كل سنة فى عهد الخليفة هارون الرشيد (786—809 م) 7ر500 قنطار من الذهب المضروب نقودا ، أي مليارا ونصف مليار دينار . وقد قدم الخليفة الواثق (842 — 847 م .) هدية الى التجار فى حي الكرخ (بغداد) الذي هدمته النيران ، تمثل مبلغ 500ر000 دينار ، وهو ما يساوي 25 قنطار من الذهب .

8 .ـ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن الحكم الربضي بن هشام بن عبد الرحمن الداخل (277—350هـ) أبو المطرف المرواني ، أول من تلقب بالخلافة الامويين فى الاندلس نشأ يتيما وبويع بعد وفاة جده (سنة 300) هـ ، وكان عاقلا طموحا انصرف الى اخماد الفتن فاستقر له الملك خصوصا بعد ظهور ضعف المقتدر العباسي فى العراق . وقد بويع بالخلافة فى سنة 316 هـ . وتلقب بالناصر . وصفه ابن قشدة بأنه « من أعظم أمراء بني أمية فى الأندلس ، كان كبير القدر كثير المحاسن محبا للعمران مولعا بالفتح » . حكم الناصر مدة خمسين سنة وستة أشهر . «المترجم» .



الشكل رقم ١٠ - مخطط عام لاتجاه التيارات النقدية بعد الفتوحات الاسلامية

وهذه الأرقام التي نسردها،من بين غيرها ، والتي نستقيها من المؤرخين والجغرافيين العرب الذين كانوا مطلعين على الوثائق والارشيفات فى العصور التي كانوا يعيشون فيها ، تدلنا على مدى اتساع نطاق تداول الذهب فى العالم الاسلامي . وحتى لو لم نقبل هذه الارقام ونعتبرها دقيقة (وحتى الاحصاءات فى عصرنا كثيرا ما يقتضي الامر النظر اليها باحتراز) ، فهي ، على الاقل ، تعطينا فكرة واضحة فى الموضوع ، وتبرر الانطباع السائد فى أذهاننا بعظمة حجم النقود المضروبة من الذهب فى مختلف أنحاء العالم الاسلامي . وضخامة هذا الحجم تتضح لنا خصوصا ، متى أخذنا الى الاعتبار عدد السكان بالقياس الى كميات الذهب المتداول . وهذا العدد كان فى ذلك الوقت أقل كثيرا من عدد سكان البلدان الاسلامية فى الوقت الحاضر .

وفى الختام ، يمكننا أن نقول بأن العالم الاسلامي ، يتميز فى تاريخ النقد البشري ، بتدفق المعدن الثمين اليه ، ذلك التدفق الذي درسنا مصادره والطريقة التي كان يقع بها . وبفضل وفرة هذا المعدن الذي يتمتع بحظوة خاصة فى مراكز العمران الكبيرة المزدهرة ، فقد تمكنت هذه المراكز من الحصول على جميع المنتجات التي تحتاج اليها ، بما فى ذلك المنتجات التي تأتي من الاقطار البعيدة . والحاجة الى المنتجات كانت قوية ، لأنها ترتبط ارتباطا وثيقا بارتقاء بعض الطبقات السلم الاجتماعي . وكذلك ظهرت تيارات نقدية جديدة فى العالم الاسلامـي وخارج حدوده ، على طول طرق التجارة التي تنطلق منه .

والمسألة الآن لم تعد ، كما كانت الحالة قبل الفتح الاسلامي ، مسألة تنقل الذهب فى اتجاه واحد وفى خط مستقيم ، ولكن الوضع فى العالم الاسـلامي يقوم على مخطط جديد وعلى دائرة تجارية ونقدية حقيقية .

* * *

الفصل السادس

ازدهار العمران في المدن ومطالب الاستهلاك

كان العالم الاســلامي ، خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر ، مسرحا لحركة هائلة من العمران فى المدن . وقد بدأت هذه الحركة بانشاء مدن سرعان ما أصبح بعضها أكبر مدن العالم (1) . فاذا قيل فى ساوبولو أنها أسرع مدن العالم نموا (60.000 نسمة فى سنة 1888 م) و 2 مليون نسمة فى سنة 1950 » ، فماذا نقول نحن فى بغداد التي زاد عدد سكانها فى ظرف سنوات أقل، أي من سنة762 حتى سنة800 ميلادية، من بضع مئات (وموقع المدينة قبل الفتح الاسلامي ، كان عبارة عن قصر محصن للساسانيين محاطا ببعض الاديرة التابعة لطائفة النساطوة) ، ليبلغ مليوني نسمة ؟ .

والى جانب هذه المدن المستحدثة والتي احتفظ معظمها بمركز المدن الكبيرة حتى يومنا هذا ، كان النشاط والحياة تنبعث من جديد فى مراكز عمرانية قديمة سرعان ما ازداد عدد سكانها واتسعت آفاق عمرانها لتبلغ درجة من النمو لم تعرفها حتى ذلك الحين .

---

1 ــ للمزيد من التفاصيل فى هذا الموضوع ، راجع :
M. Lombard, l'Evolution urbaine pendant le Haut Moyen Age. Annales E.S.C., XII, 1957, pp. 7-22.

وهكذا ظهرت شبكة واسعة من المدن أصبحت ، بفضل الصلة التي قامت بين مدينة وأخرى ، تشكل ما يشبه العظام فى هيكل العالم الاسلامي . وهذه المدن ، هي التي ستقوم فيها شبكة التيارات الكبرى للحضارة الاسلامية . وهذه الظاهرة ذات أهمية خطيرة لم تسلط عليها الأضواء حتى الآن . وحركة تعمير المدن فى العالم الاسلامي ، تتجاوز بكثير حركة تعمير المدن التي عرفتها الامبراطورية الرومانية ، ويمكن ترتيبها على مستوى الحركة المماثلة التي عرفها العصر الهليني والتي عرفتها أروبا الغربية – على الاقل فى البداية .

وهنا نجد من الضروري تحديد الوضع وتوضيح الاتجاه الذي اتخذته حركة تعمير المدن ، قبل ظهور العالم الاسلامي وبعد ذلك .

كانت توجد فى النصف الأول من القرن السابع الميلادي ، كما كانت الحالة فى النقد والعملة ، ثلاث مناطق يجري فيها نشاط متشابه السرعة لتعمير المدن . فالمنطقة الأولى تتكون من الغرب المسيحي الذي يسيطر عليه البرابرة . فهذه المنطقة تتميز بجمود فى تداول النقد ، وبالعزلة عن بقية أنحاء العالم ، وبجفاف شرايين التجارة ، وانقطاع شبكة الطرق التجارية ، وتسخير الفلاحين فى الأرياف وسيطرة أساليب الحياة الريفية فى البلاد ، بعدما حلت محل أساليب الحياة المدنية . وقد اختفت المدينة القديمة فى الغرب المسيحي تحت وطأة الأزمات الاقتصادية والغزو والعبث بالأمن العام . وهذه الفترة التي شهدت انتصار الملكيات الكبيرة وساد الاقتصاد فيها الطابع الريفي ، ستصبح المدن أثناءها مجرد حصون وملاجىء ضيقة يأوي الناس اليها للدفاع عن أنفسهم . فان البربرية وأشكال الحياة الريفية ، تنتشر بحيث تشمل

جميع أنحاء الغرب المسيحي تقريبا . وكانت هذه الفترة أيضا ، هي الفترة التي انتشرت فيها أساليب حياة البدو الرحل فى أفريقية الشمالية .

وأما منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط البيزنطي ، فمن أبرز خصائص الوضع الذي يسود فيها الضيق المتزايد الذي يتسم به تداول النقد ، وتقلص التبادل التجاري الذي ضاقت دائرته وأصبحت لا تتعدى نطاق المدن الثلاث : الاسكندرية ، وأنطاكيا ، والقسطنطينية، وانكماش سوق الخدم من العبيد ، وأخيرا تمتاز بجمود النشاط فى المدن ثم تدهور هذا النشاط . والجمود والتصلب الذي يعاني منه الاقتصاد المصري ، كما تدل على ذلك أوراق بردى ، سرعان ما مس سورية وآسية الصغرى التي سينتشر فيها أيضا نمط الحياة الريفية وقد انحصر النشاط فى هذه المنطقة فى المدن الكبيرة التي أسست فى العصر الهليني ، مثل الاسكندرية وأنطاكيا ، أو فى بعض المدن التي أسسها قسطنطين ، مثل القسطنطينية . والحقيقة أن هذه المدن ، هي أشبه ما تكون بجزر منتشرة فى بحر الحياة الريفية .

وأما امبراطورية الساسانيين التي شهدت تداولا نشيطا للنقد الذي يقوم على أساس الدرهم الفضي ، وكدست رصيدا كبيرا من الذهب وتوفرت فيها اليد العاملة واعتمدت نظاما للتجارة مفتوحا على المحيط الهندي ، فقد شهدت تقلص نفوذ كبار ملاك الأرض « الدهقان » وتدعيم الازدهار العمراني فى المدن الكثيرة التي أنشئت حديثا .

وكثير من هذه المدن الحديثة ينتهي اسمها بكلمة « أباد » التي تنطبق على أرض معمورة مزدهرة العمران .

وهكذا نرى أن سرعة النشاط وحدة حركة تعمير المدن يتناقض كلما سرنا من الغرب الى الشرق ، بحكم تضاؤل رؤوس الأموال من الذهب ، وندرة اليد العاملة التي تتكون خصوصا من العبيد ، وتقلص العلاقات التجارية العامة .

وبقيام العالم الاسلامي (فى القرن السابع وأوائل القرن الثامن الميلادي) ،ستقوم كتلة متراصة واسعة ، وسوق تجارية تمتد بين آسيا الوسطى والمحيط الهندي ، وبين السودان والغرب المسيحي الذي يسيطر عليه البرابرة ، والأنهار الروسية الكبيرة ، وهذا الامتداد الذي يقوم على أنقاض المناطق الثلاث السابقة ويوجد بينهما : الامبراطورية الساسانية والممتلكات البيزنطية فى سورية ومصر ، وغربي البحر الأبيض المتوسط البربري ، يتسم انوضع فيه بالخصائص التالية : تدفق الذهب عليه ، واتساع سوق الرقيق فيه (الرقيق التركي والافريقي والصقلبي) ، وامتداد شبكة واسعة من طرق التجارة الكبيرة ، من الصين شرقا حتى أسبانيا غربا ، ومن افريقية السوداء جنوبا حتى آسيا الوسطى شمالا ، وهذه العوامل ، ستكون أساسا لازدهار العمران ، عمران المدن الذي شهده العالم الاسلامي .

ففي الامبراطورية الساسانية القديمة (ما بين النهرين وايران) ستستمر حركة العمران فى المدن تلك الحركة التي بدأت فى عهد الساسانيين . ومدينة بغداد وسر من رأى ، هي أعظم وأشهر المدن التي تمخضت عنها هذه الحركة .

وأما ولايات الامبراطورية البيزنطية القديمة (سورية ومصر) فستشهد انطلاقا لحركة عمران المدن ، توقفت فى العهد السابق . ومن هنا ، ازدهار دمشق ومدينة الفسطاط ، أو القاهرة القديمة .

وفى ممالك البرابرة سابقا ، فى غـربي البحـر الأبيض (افريقيـة الشمالية وأسبانيا) ، سيدخل المسلمـون نظـام المدن الكبيرة مثـل القيروان وفاس وقرطبة ، وهذه المدن ذات قيمة رمزية فى حركة العمران المدنية التي تنتشر من الشرق الى الغرب .

حركة العمران المدنية بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميـلادي

ففي كل واحدة من هذه المناطق القديمة الثلاث : الشرق الساساني ، سورية ومصر ، ممالك البرابرة فى الغرب ، سنحاول اعطاء صورة اجمالية واضحة بقدر الامكان ، ثم نسلط الأضواء على مدينة تتخذها مثالا لحركة العمران فى المنطقة والمدن التي اخترناها ، هي : بغـداد ، والفسطـاط « مصر القديمة » ، وقرطبة .

أمبراطوريـة الساسانيـين :

تشمل هذه المنطقة ما بين النهرين وايران . فبلاد ما بين النهرين ، كانت مهدا لحضارة قديمة و « مكانا للمدن » ، كان نبض حياة المدن فيه ، فى جميع الأوقات ، مرتبطا بنظام الري فى أرض « سواد العراق » الخصبة، وباتساع نطاق عمليات تجفيف المستنقعات « البطائح » فى منطقة تسمح بزراعة المحاصيل التجارية .

وهذه المحاصيل ، التي ستسمح باكتظاظ المدن بالسكان ، هي القمح والشعير والذرة والأرز ، التي انتقلت زراعتها منذ أحقاب طويلة من الدلتا الهندية الى منطقة المستنقعات فى أسفل نهر الفرات . وأما قصب السكر ،

فقد انتقلت زراعته فى وقت متأخر ، فى عهد الساسانيين (القرن السادس الميلادي) من الهند الى خوزستان ، أي الى سوزيان القديمة ، ثم الى منطقة قارون فى جهة توستار (Tustar).

وأما أشجار النخيل التي أصلها من الخليج العربي ، فانها لم تصلح زراعتها فى المكان الذي تقع فيه بغداد ، الا بعد أن قام بستاني من البصرة بتكييفها لمناخ المنطقة .

وأشجار البرتقال انما أدخلت زراعتها الى البصرة وعمان من الهند . وفيما بعد ، أصبحت تزرع فى منطقة بغداد أيضا .

وأهمية الموارد الاقتصادية الزراعية ، تثبتها بوضوح النصوص العربية التي تتصل ببناء مدينة بغداد .

وقد كان من نتائج انتشار هذه المزروعات المتنوعة ، الالتجاء الى الخبراء والتقنيين ليقوموا بأعمال المياه ، والى المتخصصين فى فلاحة الحدائق ، ولا سيما فى تكييف المزروعات الجديدة للمناخ والتربة .

واذا كان من الضروري توفير الغذاء للشعب ، فان توفير الملبس لا يقل أهمية عن الغذاء . والمواد الأولية للنسيج ، كان يوفرها سواد العراق ، من الكتان والقطن الذي جاء من شواطىء الهند وصلحت زراعته فى أعالي ما بين النهرين ، وفى حوض الخابور الكبير . وزراعة القطن ترتبط بزراعة قصب السكر ، من حيث أن كلا المحصولين يتطلب يدا عاملة وفيرة ، خصوصا ، من العبيد السود « الزنوج » الذين يستوردون من شواطيء افريقية الشرقية . وهذا الارتباط المثلث الزوايا ، سنشهده فيما بعد على ضفاف البحر الأبيض المتوسط ، ثم فى جزر أمريكا .

وأخيرا ، يقتضي الأمر بناء المساكن . ومادة البناء الأساسية ، هي الطين الذي يجفف بحرارة الشمس ويكوى فى الأفران (2) وقد كانت لدى بغداد موارد كبيرة ومتنوعة من الطين . ومن الطين (غير المكوية) بنيت أسوار المدينـــة .

وأما قنوات المياه والمجاري ، فتستعمل لبنائها الطين المكوية .

والطين المكوية المطلية بالدهن الصيني اللامع ، وبالميناء ، تصنع منه أواني الفخار والخزف ، وطلاء الحيطان ذي الألوان الزاهيـــة الـــذي اشتهرت به بلاد ما بين النهرين . ولكن الطين مادة غير متينة ، والمدن القديمة التي بنيت بالطين ، أصبحت الآن خرابا بلقعا .

وأما الخشب ، فهو نادر فى هذه المنطقة . وأمـــا السفـــن التي تسير فى دجلة والفرات ، فهي تشبه سلات مصنوعة من أغصان مفتولة مطلية بالقار الذي يستخرج من منطقة الكرك . وكذلك يقتضي الأمر استيراد الخشب (من أرمينية وسورية) الذي ينقل بواسطة تعويمه على مسطح خشبي يسحب ويكسر لدى وصوله الى مقصده . وحتى وقتنا هذا ، لا تزال هذه المسطحات التي تسمى كلك(Kellek) بالأرمينية تستعمل للهبوط حتى أسفل ما بين النهرين .

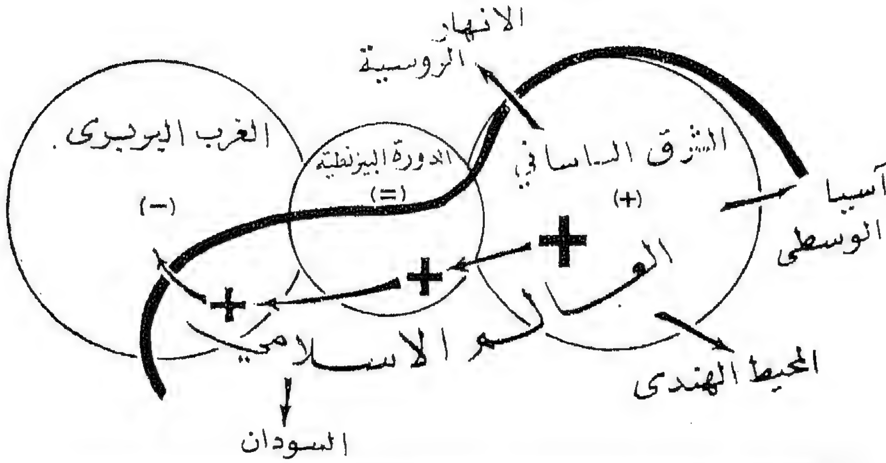
ولكن أنواعا أخرى من الخشب ولا سيما الساج ، تصل الى ما بين النهرين والى جميع المدن الواقعة على الخليج والبحر الأحمر ، من شواطيء ملبـــار .

وهكذا نجد أن منطقة ما بين النهرين مزدهرة المدن ، وتعيش على تراث من التقاليد القديمة ، ولها طريقة خاصة بها للحياة ولتذوق الفنون ،

---

2 ـ راجع : الهامش اسفله عن مباني مدينة بغداد . «المترجم» .

وتملك طرقا تقنية متقدمة ــ وهي كلها أمور ذات صلة بالحياة فى المدن . فكيف يكون تأثير العرب فى كل ذلك ، يا ترى ؟



الشكل رقم ١١ - تطور المدن قبل ظهور العالم الاسلامي وبعده

جاء العرب الى ما بين النهرين من الجنوب الغربي ، وعن طريق الصحراء التي تمتد حتى نهر الفرات . والعرب سيشيدون مدنهم الأولى على الضفة الغربية للنهر ــ الضفة « العربية » ــ . وهذه المدن تعتمد على الصحراء : حيث تنطلق طرق الحجاج التي تؤدي الى مكة والمدينة ، عند منتهى مناطق الرعي ، والسهوب والمناطق الزراعية التي تروى بمياه النهر وقنواته.

وهذه المدن الأولى ، كانت فى مبدأ الأمر ، عبارة عن معسكرات محصنة . ولكنها سرعان ما تصبح مراكز جاذبية ، ومدنا كبيرة غاصة بالسكان . فعلى مقربة من الحيرة ، عاصمة اللخميين (3) القديمة ، وقبل

3 ــ بنو لخم ، أو المناذرة ، من قبائل العرب ، أصلهم من اليمن ، رحل بعضهم الى شمالي جزيرة العرب وسورية وفلسطين والعراق . أسسوا الدولة اللخمية فى الحيرة ، وقد عاشت هذه الدولة فى حروب متواصلة مع الغساسنة ، اعتنقوا المسيحية ثم دخلوا فى الاسلام بعد الفتح العربي واشتركوا فى معارك اليرموك ، وصفين ، وحملة يزيد بن معاوية على الحجاز . « المترجم »

القادسية (4) ، ستبنى مدينة الكوفة . وعند البداية البحرية لما بين النهرين على شواطيء البحر ، وعند مدخل اليابسة التي تفصل البطائح عن ساحل الخليج ، ستقوم مدينة البصرة .

شيدت كل من مدينة الكوفة ومدينة البصرة فى مواقع كانت القرى والأديرة ومعابد النار منتشرة فيها ، ولكن هذه المنطقة لم تقم حتى الآن بأي دور سياسي أو اقتصادي يذكر .

والمدينتان اللتان شيدتا بعد دخول القوات العربية الى ما بين النهرين مباشرة ، فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، فى سنة (637 — 639 م) . ستشهدان ازدهارا سريعا قوامه عناصر السكان المختلطة من العرب والموالي والذميين . وبعد بنائها بثلاثين سنة فقط ، سيبلغ عدد سكان الكوفة أكثر من 100,000 نسمة ، وسكان البصرة ، أكثر 200,000 نسمة . وهذا نمو نادر المثال فى تاريخ تعمير المدن .

ستبلغ البصرة أوج عظمتها فى العصر العباسي . فقد كانت البصرة مستودعا كبيرا للتجارة مع المحيط الهندي ، وهي فى نفس الوقت ميناء بغداد .

وتخدم البصرة عدد من القنوات المهمة التي تربط ضواحيها بالنهر . وعلى مقربة من باب البصرة الغربي يقع « مربض » محطة القوافل التي تتجه الى السهوب العربية . وضفة النهر ، كانت مركزا للأعمال التجارية ومحورا لحياة ثقافية تدور حول المسجد ومكتبات المدينة العديدة .

---

4 — موقع بالعراق غربي النجف على بعد 18 كيلومترا من الكوفة ، فيه وقعت المعركة الحاسمة (سنة 15 هـ) بين الجيش العربي بقيادة سعد بن أبي وقاص والجيش الفارسي بقيادة رستم ، وبعد هذه الموقعة انفتحت أبواب الامبراطورية الساسانية أمام المسلمين . (المترجم)

وفى منتصف الطريق بين الكوفة والبصرة ، شيدت مدينة واسط (ومن هذا الوضع فى الوسط اشتق اسم المدينة) فى سنة 695 ميلادية .

وكان الحجاج بن يوسف الذي أنشأ واسط يستهدف تركيز سيطرته على الكوفة والبصرة . وعلى كل حال ، فان واسط هي المدينة الكبيرة الثالثة التي شيدت بين النهرين فى النصف الثاني من القرن السابع الميلادي .

ولما قامت الدولة العباسية التي توجت حركة بدأت فى حوالي سنة 750 م . فى خراسان معقل التقاليد الايرانية ، تركت دمشق المعروفة بولائها للأمويين ، خصوم بني العباس ، لتبني عاصمة جديدة ، فى الشرق . وقد وجد العباسيون فى العراق بلدا غنيا بالموارد الطبيعية والتقاليد المدنية ، حيث كان هذا البلد واسطة لنقل التأثير بين العالم السامي والعالم الايراني . وهكذا أصبحت بلاد ما بين النهرين ، من جديد ، مركزا للسياسة والحضارة .

ولما استقر الأمر لأبي العباس السفاح ، لم يختر الكوفة أو البصرة ليتخذها عاصمة له ، حيث أن نفوذ العلويين كان قد توغل فى كلتا المدينتين الكبيرتين وانما نزل على ضفة نهر الفرات ، وبالتحديد ، فى الهاشمية ، قرب الأنبار (كلمة فارسية من أصل اغريقي معناها : مستودع الحبوب) ، حيث تنفصل قناة تجري فيها السفن ، نهر عيسى ، تصل الفرات بدجلة .

ولكن الخليفة العباسي الثاني ، المنصور (5) سيختار الطرف الآخر من نهر عيسى ، عند انفصاله عن دجلة ، لاقامة عاصمته ، بغداد .

---

5 ـ عبد الله بن محمد بن علي بن العباس ، أبو جعفر المنصور «95ـ158 هـ» ثاني خلفاء بني العباس ، كان أول من عني بالعلوم من ملوك العرب ، كان عارفا بالفقه والأدب ، متطلعا فى الفلسفة والفلك ، ولي الخلافة بعد وفاة أخيه ، السفاح ، سنة 136 هـ ، والى جانب بغداد كان أيضا بانى « المصيصة » و « الرافقة » . وفى أيامه شرع العرب يطلبون علوم اليونان والفرس ، وقد عمل أول أسطول فى الاسلام فى عهده ، ولكنه يؤخذ عليه قتله لابي مسلم الخراساني « 137 هـ » . «المترجم» .

وأهمية نهر عيسى ، هو أنه كان ملتقى للتيارات التجارية الكبرى بين أعالي الفرات وأسفل دجلة . وذلك لأن الفرات ، بعد ما يمر بالأنبار ، يتحول تدريجيا الى مستنقعات ، حتى يصل الى البطائح ، حيث تنتشر مياهه بشكل يعوق الملاحة فيه . وبالتالي ، فان أسفل دجلة ، هو أفضل للملاحة (6) .

تقع بغداد عند ملتقى ثلاثة طرق للملاحة النهرية وطريقين يمتدان فى اليابسة . وطرق الملاحة النهرية تؤدي الى الشمال فى أعالي دجلة ، الى الموصل والى أرمينيا ، والى الشمال الغربي بواسطة نهر عيسى والفرات ، الى سورية ، والى الجنوب الشرقي ، عن طريق أسفل دجلة ، الى الخليج والى المحيط الهندي . وأما الطرق البرية فتؤدي الى الشمال الشرقي ، الى ايران ، وآسيا الوسطى ، والصين ، والى الجنوب الغربي . نحو شبه الجزيرة العربية والأماكن المقدسة فى الحجاز .

وموقع بغداد ، مثل موقع البصرة ، كان مأهولا قبل الاسلام فقد كان يوجد فيه قصر محصن فى عهد الساسانيين ، وجسر من القوارب يمتد على نهر دجلة وكذلك كانت تقوم فى هذا الموقع قرية تتكون من أديرة مسيحية .

واسم بغداد يذكر بأصلها . فالأرجح أن هذا الاسم من أصل ايراني ، « بغ داد » ، أي « هبة الله » . وأما اسم حيها التجاري الكرخ ، فهو من أصل أرميني « كركا » ، أي ، السوق . وبغداد قبل الاسلام ، لم يكن لها سوى دور محلي ، مثل كثير من المراكز القديمة التي كانت مأهولة ومنشيء بغداد الحقيقي ، هو المنصور العباسي الذي سيطلق عليها اسم « مدينة السلام » .

---

6 ـ راجع الخريطة فى آخر الكتاب .

بدأ العمل فى بناء بغداد فى سنة (154 هـ ــ 762 م) وقد جمع العمال من مختلف المناطق ــ كان يعمل فى وقت واحد 100،000 عامل ــ وكذلك الفنانون والصناع . وهؤلاء العمال والصناع ، هم السكــان الأوائل للمدينة الجديدة (7) .

وفى ظرف أربع سنوات ، تم تشييد مدينة مستديرة بانتظام حــول قصر الخليفة والمسجد الرئيسي ، وتحيط بها أسوار . وبين هذه الأسوار تنتشر منازل الأفراد ومنازل المقربين من الخليفة . وقد حصنت المدينة بمتراس مزود بــ 360 برجا . وتقطع المدينة أربعة شوارع كبيرة تتجه من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي ، ومن الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي .

ومداخل المدينة عبارة عن أربعة أبواب أحيطت بعــدة تحصينــات وخصوصا بخندق جلب اليه الماء من نهر عيسى ومن دجلة . والتصميم الدائري المعتمد لبناء بغداد تصميم مستوحي من الفن الشرقي لتخطيط المدن ويذكرنا بتصميم مدينة شهرستان (يزدجر ؟) وهو يختلف عن التصميم الهليني القائم الزوايا . وهذا الشكل الدائري أيضا يجعلنــا نفكر فى التحصينات المستديرة التي تحاط بها مدن آسيا الوسطى ، وفى التصميمات المستديرة فى مدن البرث . ففي مقابل مدينة سيلوسـي ، وهي مدينة هلينية ذات تصميم قائم الزوايا نجــد مدينة اكتزيفون ، ذات التصميم المستدير .

ولكن المدينة المستديرة التي بناها المنصور ، والتي نظمت فيها المتاجر تحت صفوف من الأقواس على طول الشوارع الأربعة المتقاطعة ، سرعان

7 ـ تعرض ابن سعيد المغربي « القرن السابع الهجري » للدر المواد المستعملة فى مباني بغداد فقال ان معظمها مبني بالقصب والطوب ، والكبس والجبس يفسدها هواء المدينة فلا يكاد للحظ يقع عليها فى جميع مبانيها ، والرخام ينشق من الحر . « المترجم » .

ما اتضح صغرها وضيقها . وهذا الضيق اضطر المدينة الى التوسع فى اتجاهين : نحو الجنوب الى حيث تمتد ضاحية الكرخ ، الذي تقع فيه المتاجر ، وحيث يمارس الصناع نشاطهم ، وفى الاتجاه الشرقي ، وراء النهر الذي أقيم عليه جسر من القوارب لعبوره

قصور بني العباس

١- قصر المنصور
٢- قصور الدولة الطاهرية
٣- قصر الخلد (الامين)
٤- قصر زبيدة
٥- قصر الرصافة
٦- قصور البرامكة
٧- قصور المعتصم
٨- قصر الفردوس
٩- قصر الحسنى
١٠- قصر التاج
١١- قصور الامين
١٢- قصور المعتضد

الشكل رقم ١٢- بغداد

وفى هذه المنطقة ،بني الحي السكني الذي تتوجه قصر الخليفة « دار الخلافة » . وهذه الحركة لتوسيع المدينة الى ضفة النهر الشرقية ، وقعت ابتداءا من سنة 768 ميلادية .

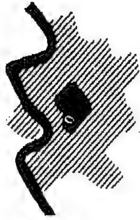
وبعد ذلك بثلاثين أو أربعين سنة ، فى عهد هارون الرشيد والمأمون ، ستمتد الرقعة التي تشغلها مدينة بغداد على عشر كيلو مترات طولا فى تسع كيلو مترات عرضا ، وهو ما يساوي تقريبا حدود مدينة باريس حاليا بشوارعها الخارجية . وهكذا أصبحت بغداد فى ذلك العصر ، أعظم مدن العالم .

وفى سنة 836 ميلادية ، ترك الخليفة المعتصم العباسي (833 — 842م) بغداد ، وانتقل الى سر من رأى ، التي تقع على مسيرة ثلاثة أيام ، ليتخذها مقرا له ، وهذه الحركة — هجرة ملك لعاصمته وخلق مدينة من القصور — تذكرنا بوضع فرساي من باريس .

وهذا التحول عن بغداد يفسره رغبة الخليفة فى الابتعاد عن الضغوط والاضطرابات التي يحدثها الحرس الذي يتكون من الأتراك ، وعن الصخب والجلبة التي تسود فى أسواق المدينة وقد ظلت سر من راى مقر الحكومة خلال خمس وخمسين سنة (836 — 892 م) .

وفى جوار قصر الخليفة ، ستقوم فى سر من رأى مدينة مكتظة بالسكان . وفى سنة 892 ميلادية ، قرر الخليفة المعتمد ، للتخلص من ضغط الحرس التركي ، العودة الى بغداد ، الأمر الذي أدى الى توسيع المدينة الى الضفة الشرقية للنهر .

وبداية تدهور مدينة بغداد ، تعود الى نهاية القرن العاشر الميلادي . وهذا التدهور سيتأكد فى القرن الحادي عشر ، تحت السلجوقيين الأتراك ولكن وضع بغداد سينهار نهائيا أثر استيلاء هولاكو عليها فى سنة 1258 ميلادية .



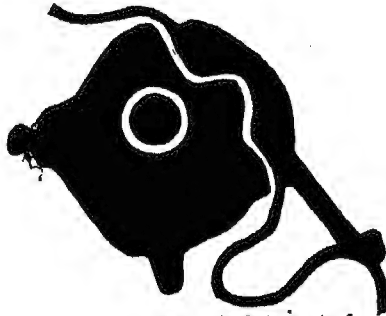
روما عاصمة الامبراطورية
(بالاسود: روما
في القرنين ٩ و١٠)



القسطنطينية
في القرنين ٩ و١٠



باريس في نهاية القرن ١٩
(بالاسود: باريس في القرنين ٩ و١٠)



بغداد في القرنين ٩ و١٠

الشكل رقم ١٣ - المساحة المقارنة لروما والقسطنطينية وباريس وبغداد
خلال الفترة بين القرنين ٩ و١٠

ولكن حركة بناء المدن وتعميرها لا يقتصر فى بلاد ما بين النهرين على مجموعة بغداد ـــ سر من رأى حيث أنها ستشمل أيضا المدن الموجودة فى عصر الساسانيين ، والتي ستشهد اتساعا فى الرقعة ونمــوا اقتصاديــا وبشريا . فمن المدن التي شملتها هذه الحركة فى خوزستان (عربستان حاليا) ، هو بلد قديم اشتهر بسدوده الكبيرة وبوسائل الري التي سمحت بانتشار زراعة قصب السكر والقطن فيه ، تستر ، وسوس ، والأهواز .

وفى أعالي ما بين النهرين التي اشتهرت بزراعة القطن ، وفى حوض الخابور الكبير ، نجد أن من المراكز التي شملتهـا حركة تعمير المدن ، مدينة الموصل التي عرفت بمنسوجاتها الحريرية والقطنية الفاخرة (التي أخذت منها كلمة موسلين (Mousslinc) باللغات الأروبية) ، وبصناعة النحاس التي تستعمل المعدن الذي يستخرج من أرغانا ، فى أعالي دجلة .

والى جانب بلاد ما بين النهرين ، كانت أمبراطورية الساسانيين تشمل أيضا ايران ، وهي بلاد ذات اتصال بمختلف الممالك . فايران على اتصال ببلاد الطوران (8) ، بلاد السهوب التي يجوبها الرحل من قبائل الآرال والآلطاي التركية . فهذا العالم لا يعرف المدن ، اذا استثنينا مدن الآخرين التي يحلم الطورانيون فى نهبها واحتلالها فالترك الرحل يواجهون المدن الايرانية تماما كما يواجه العرب الرحل المدن السورية ومدن ما بين النهرين وهنا أيضا سيسبق تسرب الأتراك مرحلة الغزوات التي ستبدأ فى القرن الحادي عشر الميلاد ي .

واذا توغلنا فى الاتجاه الشرقي ، فسنجد أن ايران على اتصال ، عن طريق سلسلة من الواحات ، بالحضارة الصينية : ففي هذه المنطقة يمر « طريق الحرير» الذي يفضي الى مناطق يقطنها سكان مقيمون يعيشون على الزراعة .

ومن جهة الجنوب الشرقي ، تتصل ايران ، عن طـريق ممـر بامير (Pamir) الجبلي والهند والكتش ، بالهنـد ، وهي ذات حضـارة قوامها سكان يعيشون على الزراعة .

وأبرز خطوط الخريطة الايرانية ، ليست هي الأنهار ومجاري المياه ، كما هي الحالة فى بلاد ما وراء النهر ، بل هي طرق القوافل التي تربط

8 — اسم أطلقه الجغرافيون العرب على مقاطعة فى بلوخستان . «المترجم» .

هذا البلد بآسيا الوسطى والتي تخترق أطراف البلد . والفتح العربي الايراني ، سيكتسي طابعا خاصا يختلف عن الطابع الذي نلاحظه فى مناطق أخرى . فبينما نجد العرب فى بلاد ما بين النهرين يمتزجون بسرعة بالسكان الساميين أو المتأثرين بالمقومات السامية والذين يتحدثون اللغة الآرامية ، نلاحظ أن ايران ، ستقاوم النفوذ العربي الأسلامي بتراثها الديني القديم : عبادة النار ، وديانة زراد شترا التي كانت متأثرة بالبوذية والمانوية .

ونحن قد رأينا ، كيف أن البرامكة الذين شغلوا مناصب الوزارة تحت الخلفاء العباسيين الأوائل ، ينتمون الى أسرة من الأمراء فى بلخ ، وكانوا يخدمون ديرا كبيرا للبوذيين يقع فى « نوبهار » « أو الدير الجديد » ، وهو اسم من اللغة السنسكريتية مشتق من فهارا (Vihara) « دير » ، وكانوا يسمون « برمك » ، أي الكهنة .

وهذا التحليل لوضع ايران القديم يسمح لنا بأن نفهم كيف أن ايران ، لما اعتنقت الاسلام ، اتخذ الاسلام فيها شكلا خاصا ، وهو مذهب الشيعة . واذا كان كثير من الكتاب باللغة العربية من أصل فارسي ، فان هذه الظاهرة لم تحل دون بقاء اللغة الفارسية على قيد الحياة ، ثم انبعاثها خلال القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر .

كان الغزاة العرب فى مبدأ الأمر ينزلون فى أحياء جديدة تقام بجانب المدينة القديمة . وهكذا ألحق بالمدينة (شهر ستان بالفارسية) ، ربض (بيروم الفارسية) ، يشتمل على حصن ومسجد وسوق وقد نشأت مدن مزدوجة وفى بعض الحالات تعايشت مدينتان متوازيتان احداهما قديمة والأخرى حديثة ، لا تبعد احداهما عن الأخرى الا ببضع كيلو مترات (مثل بلخ وبروقانا وبخارى وسمرقند) .

وفى مرحلة تالية ، (فى عهد العباسيين) ستندمج هذه المدن المتوازية فى مدينة واحدة وتصبح « شهرستان » مركزا السلطة وتشتمل ، هي الأخرى ، على مسجد كبير وسوق . وهذا معناه ، تحول العرب الغزاة نحو المراكز المدنية الفارسية الأصلية .

ونمو العمران فى المدن ، يفترض توفر وسائل الري (مثل الطرق التقنية المعقدة التي تمثلها قنوات الري التي تشق تحت الأرض) . ومن جهة أخرى ، فان تنظيم الدفاع ضد غارات الأتراك الرحل يتطلب انشاء مراكز عسكرية ، « الربط » وبناء أسوار حول المدن الكبيرة وضواحيها المزروعة لحمايتها ولحماية قرى المزارعين . وهكذا نجد أسوارا محصنة على مئات الكيلو مترات تمتد بين بخارى وسمرقند وبلخ ــ تلك الأسوار التي تذكرنا بأسوار هي أقوى وأعظم ، بناها الصينيون لصد غزوات نفس الطورانيين الأتراك .

واتساع العمران فى ايران ، كما فى غيرها من البلاد ، يرتبط بازدهار التجارة فى العصر الاسلامي ، تلك التجارة التي كان يمارسها كبار التجار الذين يكسبون ثروات طائلة من تسيير القوافل .

والمدن المزدهرة العمران ، هي المدن ذات المواقع الملائمة للتجارة : فان سمرقند مدينة تدين بازدهارها لموقعها الذي تسيطر منه على ملتقى طرق القوافل الآتية من الهند ومن ايران . وبروثولد (Berthold) ، يقدر عدد سكان سمرقند فى عهد السامانيين (القرن التاسع والقرن العاشر الميلادي) بحوالي نصف مليون نسمة (9) . وقد كان بناء سمرقند شامخا عظيما حيث كانت تحيط بها أربعة أسوار تضم على التوالي : جميع منطقــة الواحات المزروعة (الحائط الطويل) ، والضواحي والمدينة (الحائط

9 ــ راجع : Turkestan down to the Mongol invasion, 2e éd. London 1928 (Gibb memoria series. New ser. V), p. 22.

الأكبر الذي ينفتح منه بابان) ، وقلب المدينة (شهرستان) ، الذي تنفذ اليه أربعة أبواب وأخيرا ، مركز المدينة ، أو القلعة . وهذا التصميم يذكرنا بتصميم مدينة بغداد . وتمد المدينة بالماء شبكة معقدة من القنوات . وأما شوارع المدينة فهي مفروشة بالحجر ، ومزينة بالفوارات والأحواض المصنوعة من النحاس ، مما يشهد بقرب مناجم النحاس من المدينة وبعبقرية الفنانين الذين يعملون فى هذا المعدن .

وفى المدينة حدائق عمومية ، تقوم فيها أشجار السرو التي يقول ابن حوقل انها تشذب بطرق فنية لتمثل أشكالا غريبة : الجياد ، والثيران ، والجمال والحيوانات الوحشية التي يواجه أحدها الآخر ويحترس منه ثم يدخل فى قتال معه .

وهذه موضوعات فنية تذكرنا بطراز الفن السائد فى السهوب .

ممتلكات بيزنطة القديمة :

تشمل الممتلكات البيزنطية التي فتحها المسلمون : سورية ومصر .

لنبدأ أولا ، بسورية . يمكن تقسيم المدن السورية الى ثلاث فئات :

أولا ، المدن الداخلية التي كانت فى حالة تدهور فى العهد البيزنطي ، والتي ستبعث وتدب فيها الحياة فى العصر الاسلامي ،بفضل الدور الذي تقوم به كمحور للاتصالات مع بلاد ما بين النهرين .

وثانيا ، الموانيء التي احتفظت بنشاطها فى عهد بيزنطة ، وستشهد حدة فى هذا النشاط فى العهد الاسلامي .

وأخيرا ، المدن الواقعة على الحدود السيليسية والتي تسيطر على ممرات جبال طوروس ، وستدخل ، باستقرار الأوضاع على الحدود ،

فى عهد من السلام : فأما المدن التي تهدمت نتيجة لهجمات البيزنطيين المضادة ، فسيعاد بناؤها فى العصر العباسي ، وذلـك فى الوقـت الذي أنشئت فيه حصون جديدة فى المنطقة .

تعتبر دمشق نموذجا لطراز المدن الداخلية ، التي تمثل واحات على ضفاف نهر بردي الذي ينبع فى سهول الزبداني . وهي عبارة عن سوق يجري فيها التبادل التجاري بين البدو الذين يجوبون السهوب الصحراوية (بادية الشام) . ودمشق مدينة آرامية قديمة أصبحت توأما لمستعمرة بناها اليونان فى العصر الهليني ، وقد كانت تمون الجيوش الرومانيـة بالقمح .

وفى عهد بيزنطة انحط وضع دمشق وتدهور عمرانها ، حتى كـان البدو ينتجعون ضواحيها . ولكن المدينة تبعث وتسري فيها الحياة من جديد ، حينما وقع اختيار بني أمية عليها لتكون عاصمة لملكهم . وقد كان دور دمشق الأساسي ، مثل الكوفة ، السيطـرة على الحضر دون قطع العلاقة مع البادية . وكذلك كان خلفـاء بني أميـة يحرصون على الاستمتاع بما توفره المدن من وسائل الراحة وألوان التسلية التقليدية التي توفرها الصحراء ، مثل الصيد .

أقيم المسجد الكبير ، والى جانبه قصر الملك « الخضراء » فى قلب المدينة القديمة التي لن تلبث أن تحاط بعدد من الأحياء والضواحي التى ستصبح مسرحا لنشاط كبير .

وكان خلفاء بني أمية قد عمدوا الى اعادة اشتقاق القنوات من بردى وتحويلها ، والى اعادة توزيع الحقوق فى الماء فى جميع هذه الواحـة . وهذه السياسة ، كان من نتائجها زيادة المساحات المزروعة وظهور قرى جديدة انتشرت فيها زراعة البقول .

وفى أوائل القرن الميلادي ، أضيفت بنايات عظيمة جديدة الى المسجد الأصلي الذي أصبح يعرف بجامع الأمويين . وقد استخدمت فى حركة البناء يد عاملة إستجلبت من مختلف المناطق ، كما استعملت الفسيفساء المحلية والفسيفساء المستوردة من بيزنطة .

وكذلك نجد أن عصر ازدهار دمشق هو العصر الذي كانت فيه عاصمة الخلافة — خلافة بني أمية . ولما استولى عليها العباسيون فى سنة 750 ميلادية ، هدموا أسوارها واعتدوا على حرمة قبور بني أمية . وأثر ذلك تدهورت دمشق وانحطت الى مستوى مدن الريف . ومع ذلك ، فهي ستظل مدينة خاصة بالسكان ومركز النشاط للانتاج الزراعي وللصناعات اليدوية . وسيظل برقوق دمشق وعنبها ومشمشها ، فواكه ذات شهرة خاصة . وكذلك المربى التي كانت تصنع من هذه الفواكه وتصدر الى الأقطار البعيدة . ونفس الشهرة سيتمتع بها الفولاذ والنحاس المعمول فى دمشق (الدمشقى) ، وكذلك الأقمشة الدمشقية التي تصنع من الحرير والقطن .

والى جانب دمشق ، ينبغي أن نذكر مدينة القدس ، التي هي مركز ديني وتعيش خصوصا على نشاط الحج ، حيث كان يقصدها اليهود والمسلمون والمسيحيون . وكذلك ينبغي الا ننسى الاشارة الى حمص وحماة الواقعتين فى وادي العاصي ، وخصوصا الى انطاكية وحلب .

ومن أهم موانيء سورية ، ميناء السويدية وميناء انطاكية واللاذقية وأما الموانيء الفنيقية القديمة : طرابلس ، وجبيل ، وصيدا ، وصور ، وعكا ، فستبعث فيها الحياة ويسري فيها النشاط فى العصر الاسلامي . وستبنى لها أرصفة جديدة وحواجز لصد الأمواج . وقد شهدت تقنية البناء والتشييد تحت مياه البحر تقدما كبيرا يشهد به وصف الجغرافى العربي ، المقدسي ، عند وصفه لميناء عكة فى القرن التاسع الميلادي .

وأما المدن الواقعة على الحدود السليسية ، فهي تعرف باسم «الثغور». وحراسة ممرات طوروس التي تتطلب حملات عسكرية متوالية كان العامل الاساسي فى قيام هذه المدن والحصون ، تدمر ثم تبنى ويجلوا عنها السكان ثم تعمر من جديد . فهذه المدن مراكز كبيرة للاستهلاك ، لأن أسواقها التي تمون الجيوش ، فى حاجة دائمة الى الرجال والخيل والمواد الغذائية والملابس والاسلحة ومواد البناء . والميزة الاخرى التي تميز هذه المدن : اختلاط العناصر فيها . فقد كان يتعايش فيها جنبا الى جنب زنوج وصقالبة وايرانيون وأرمينيون وغير هؤلاء من الاجناس . وحياة الحضر فى طرسوس وأطنه ومصيصة ، تكتسي طابعا خاصا . وهنا أيضا ينبغي أن نسجل حركة مهمة للتوسع العمراني ، استمرت على الاقل ، حتى النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي ، وهي الفترة التي كان الامبراطور نيسفور فوكا (Nicephore phocas) يشن فيها حملاته فى هذه المنطقة .

وفى مصر التي تشكل الجزء الثاني من الممتلكات البيزنطية نستطيع أن نتتبع ، بفضل أوراق البردى ، تفاصيل التطورات التي تلت الفتح الاسلامي لهذا البلد . ففي المرحلة الاولى نشاهد بطأ فى عملية امتداد أساليب الحياة الريفية الى المدن ــ تلك العملية التي بدأت فى أواخر العهد البيزنطي . وفى المرحلة التالية نلاحظ توقف هذه العملية .

فان الفتح الاسلامي سيحل نظاما اقتصاديا يقوم على تبادل تجاري واسع النطاق ، محل نظام اقتصادي لم يصبح بعد ريفيا خالصا ، ولو أنه يتجه الى ذلك . وهذا التغيير فى النظام الاقتصادي الذي تشهد به المعلومات المستقاة من الجغرافيين والسياح ، سيرافقه ، بطبيعة الحال ، ازدهار العمران فى المدن ــ ذلك الازدهار الذي نستطيع اعادة تركيبه بفضل الآثار التي اكتشفها المنقبون ، وبتحليل الوضع الطبوغرافى الذي تحتله مدينة الفسطاط (القاهرة القديمة) التي بنيت على فترات متعاقبة .

كانت تحتل موقع الفسطاط قبل العصر الاسلامي ، مدينة صغيرة اغريقية رومانية تسمى بابليون : وموقع هذه المدينة ، هو الحي الذي يحمل فى الوقت الحاضر اسم « قصر الشام » فى القاهرة القديمة . واسم بابليون ، مشتق من اسم محلي مصري أهمله العرب ، ولكن الاقباط ظلوا يستعملونه . والكلمة تهجأ بطرق مختلفة « بابليون ، وبابلوان ، وبابللونية » فى الوثائق الاروبية القديمة التي تذكر القاهرة بهذا الاسم .

ومهما يكن من شيء ، فان بابليون مصر ، عبارة عن قلعة وموقع استراتيجي عند انفتاح دلتا النيل ، فهي تسيطر على الطرق المؤدية الى سورية ، والطريق المؤدية الى الغرب نحو افريقية والمغرب والتي تتجنب مروحة الدلتا التي تعوق المسافرين بأذرعها الكثيرة والقنوات العديدة التي تتفرع عنها . وعلى العكس مما يصادفه المسافر من الصعوبات اذا أخذ طريق الدلتا ، فهو هنا يقطع عند جزيرة الروضة ، نهر النيل عن طريق جسرين مصنوعين من القوارب . ومن جهة أخرى ، فان قناة تنطلق من هذا الموقع فى اتجاه البحر الاحمر اتخذت أسماء متعددة فى مختلف العهود كانت تسمى نهر تراجان (Trajani Amnis) عند الرومان ، وتسمى « خليج أمير المؤمنين » فى العصر الاسلامي .

والى جانب هذه الطرق ، ينبغي أن نضيف طريقا نهريا فى النيل يمتد من الشمال الى الجنوب ، ويربط مصر العليا بالدلتا

وموقع القاهرة ، على التحديد ، يتكون من ضفة منخفضة يشملها الطمي وهي عبارة عن سهول تمتد حتى جبل المقطم الذي يسمى جبل يشكور . وكانت توجد فى هذه السهول بعض المستنقعات « بركة » التي جففت فيما بعد ، وأصبحت مناطق صالحة لانتاج البقول .

والقاهرة ، من الناحية التاريخية ، عبارة عن عدة مدن متتالية فبعد بابليون ، أنشئت مدينة الفسطاط ، التي تولدت عن الفتح الاسلامي .

بنى عمرو بن العاص (10) قائد الجيش الاسلامي الذي فتح مصر مدينة الفسطاط فى سنة 641 ميلادية وقد اتخذت هذه المدينة التي تقع فى شمالي المدينة القديمة فى مبدأ الامر شكل معسكر . وكلمة الفسطاط كلمة معربة من فوساطون(Byz-Fossaton) فوساطم(Latin-Fassatum) ومعناها : خيمة عسكرية ، أو على الأرجح ، خندق دفاعي . وتاريخ الفسطاط ، شاهد واضح الدلالة على تطور معسكر وتحوله الى مدينة .

ظلت الادارة العامة والأعمال الكتابية باللغة اليونانية التي يقوم بها الأقباط ، حتى القرن الثامن الميلادي ، فى بابليون . ولكنه فى عهد عبد الملك ، وقع تغيير حاسم ، بادخال اللغة العربية الى الادارة وبظهور النقود الاسلامية . وكذلك قام مركز مدني اشتمل على مباني عمومية فى الفسطاط . وكذلك بني مستودع ودار للصناعة وميناء وغير ذلك من المنشئات التي تشهد بانتشار نمط الحياة السائد على ضفاف النهر وتعزز القاعدة الأولى التي بناها عمرو بن العاص والتي كانت تشتمل على مسجد كبير (مسجد عمرو) ، وقصر الحكومة « دار الامارة » ، وسوق .

وفى سنة 749 ــ 750 ميلادية ، بنيت مدينة جديدة فى شمالي الفسطاط أنشأها قواد بني العباس الذين يلاحقون آخر خلفاء بني أمية . وهذه المدينة التي تسمى « العسكر » تشتمل ، هي الاخرى ، على قصر الحكومة ومسجد بني بجانب سوق .

---

10 ــ عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي ، ابو عبد الله (50 ق هـ ــ 43 هـ) أحد كبار القواد ودهاتهم ، كان شديدا على الاسلام فى الجاهلية وبعد ما اسلم فى هدنة الحديبية ، ولاه النبي صلى الله عليه وسلم امرة جيش « ذات السلاسل » ، ثم استعمله على عمان ، وقد كان من أمراء الجيوش فى الجهاد بالشام فى عهد عمر ، وهو الذي افتتح قنسرين وصالح أهل حلب ومنبج وانطاكية ، ولاه عمر فلسطين ، ثم مصر التي افتتحها ، وعزله عثمان ، ولما وقعت الفتنة بين علي ومعاوية ، وقف فى جانب معاوية . ولما انتصر معاوية ولاه مصر فى سنة 38 هـ . «المترجم» .

الشكل رقم ١٤ - الفسطاط - القاهرة

وفى سنة 872 ميلادية ، قام ابن طولون الذي كان واليا لبني العباس اسميا ، ولكنه مؤسس مملكة محلية مستقلة ، ببناء قصر عظيم عند قدم جبل المقطم ، ثم فى سنة 875 م ، بتشييد مسجد كبير على جبل يشكر ، وهذا المسجد بني بأسلوب معماري متأثر بالفن الذي يسود مباني سمراء الذي كان هو الآخر متأثرا بالفن الزيجوري القديم الذي كان سائدا فيما بين النهرين .

وكذلك بني ابن طولون ملعبا للخيل « ميدان » تمارس فيه لعبة رياضة على متن الخيل بمضارب طويلة وكرة خشبية (البولو) .

وقد كمل هذه المنشئات العمرانية باجراءات بتوزيع الاراضي بين ضباط الجيش والحاشية . ومن هذه الاجراءات بقيت لدينا كلمة « القطاعي » ، أي التنازل عن قطع الارض للمدينة الجديدة .

وأخيرا ، ظهرت القاهرة فى عهد الفاطميين الذين غزوا مصر من شمال افريقية عن طريق الواحات .

وقد شيدوا المدينة الجديدة فى شمال المنشئات القائمة ، فبنوا جامع الأزهر (فى سنة 972 م) ، وأطلقوا عليها الاسم الذي تحمله اليوم « القاهرة » . وفى غضون السنوات التالية ، ستشهد المدينة نموا وازدهارا كبيرا ، خصوصا بما اشتملت عليه من المباني الرسمية . وستشهد القاهرة أعظم عهودها خلال الفترة بين القرن العاشر والقرن الحادي عشر الميلادي ، وهي الفترة التي وسعت فيها مبانيها حتى أصبحت تتصل بالقطاعي ، وكان سكان المدينة حينئذ يبلغ عددهم نحو 500.000 نسمة .

ولكنه ابتداء من النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، أخذت الحياة العمرانية فى المدينة تتدهور ، اثر الاضطرابات التي وقعت فى عهد المستنصر (1035 — 1094 م) وكانت المجاعة التي وقعت فى القاهرة

فى سنة 1054 م . ونهب الجنود قصور الفاطميين فى سنة 1060 م . من الحوادث الحاسمة فى تاريخ انحطاط القـاهرة . وبعد ذلك ظهر ما يعرف باسم « الخراب » . أي تحول مناطق عامرة الى صحراء ، وأخذت الشقة التي تفصل بين القاهرة والفسطاط تزداد اتساعا مع مرور الزمن ، حتى وقع حريق فى سنة 1168 م ، خرب الفسطاط . ومنذ ذلك الحين تركز مصير المدينة فى القاهرة الحقيقية ، عاصمة البلاد .

ممالك الغرب الخاضعة للبرابرة :

تشمل هذه الممالك ، افريقية الشمالية واسبانيا وصقلية .

شهدت افريقية الشمالية التي تشكل الجزء الاول من هذه المنطقة خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي ، توفر الشروط العامة الضرورية لقيام حركة مهمة لتجديد العمران فى المدن . وقد عرفت هذه الفترة ازدهارا كبيرا يقوم خصوصا ، على تجارة العبور (الترانزيت) بين الاطراف الغربية للامبراطورية والشرق الاسلامي وبين اسبانيا وصقلية البربر للصحراء ، وفتح اسبانيا ، وفتح جزيرة صقلية فى عهد الأغالبة ، والمملكة الاسلامية والسودان والصحراء ، وعلى تجارة المرور (الترانزيت) عبر الصحراء . وفى مقابل ما تتلقاه افريقية الشمالية من السلع ، كانت تضمن توغل أنماط الحياة المدنية من شمال الصحـراء (سجلماسـة وورجلة ، ومزاب) حتى ضفاف نهر النيجر .

وقيام مدن مثل فاس والقيروان ، يتصل اتصالا وثيقا بهذه الواجهة الجنوبية لتجارة المغرب ، وبازدهار محطات القوافل التي تقع على طرق الذهب والعبيد .

بعد نجاح غزو افريقية الشمالية ، على الرغم من مقاومة البربر فى الداخل ، أنشأ عقبـة بن نافع مدينة القيروان فى سنة 670 ميلادية . وكان تخطيط المدينة على أساس كونها مدينة دفاعية ، كما يدل على ذلك

اسمها . وقد قامت القيروان فى موقع استراتيجي هام ، عند مدخل الصحراء ، وعلى طرف السهوب و « الشطوط » التي تمتد فى جنوب تونس .

والقيروان تسيطر ــ مثل الكوفة ، ودمشق ، والفسطاط ــ على طريق كبيرة تمر بالواحات ويمكنها متى أرادت حمايتها أو قطعها وطريق الواحات هنا ، هي التي تمتد الى مصر .

استولى الخوارج خلال الثورة التي قاموا بها فى منتصف القرن الثامن على القيروان عدة مرات وهدموا أسوارها . وفى سنة 772 م ، أعيد بناء السور الذي يحيط بالمدينة ، كما أعيد بناء مسجدها . واعادة بناء المنشئات المهمة فى المدينة كان ، كما يقول المؤرخون ، مقدمة للتوسع الكبير الذي ستشهده فى عهد الأغالبة « 800 ــ 909 م » . ففي هذا العصر سيقام عدد من الخزانات والصهاريج التي يمدها بالماء خط من القنوات يمتد على 25 كيلومتر . وكذلك أعاد الأغالبة بناء مسجد القيروان الذي أصبح ضيقا ــ وهو دليل ، كما هي الحالة فى دمشق وقرطبة ، على كثرة سكان المدينة . وفى نفس الوقت ، أنشئت فى ضواحي المدينة كثير من مراكز العمران ، وهي عبارة عن سلسلة من المدن المجهزة للسكن والقصور التي سرعان ما زودت بأسواق وأصبحت عامرة .

وفى سنة 800 ــ 801 م ، بني فى الجهة الجنوبية الشرقية « القصر القديم » أو « العباسية » ــ باسم الخليفة العباسي ــ حيث استقبل سفراء شرلمان . وهي عبارة عن مدينة جديدة كبيرة أحيطت بأسوار وكان لها خمسة أبواب وجهزت بالحمامات والفنادق والاسواق ، وشيد فيها مسجد على غرار مسجد سر من رأى ، وزودت بملعب للرياضة على متن الخيل . وعلى الرغم من أن الامراء هجروها فى سنة 877 م ، فان العباسية ظلت مدينة عامرة .

وفى سنة 876 — 877 م ، شيدت مدينة جديدة ، رقادة ، فى الجنوب الغربي من القيروان ، التي يبلغ قطرها أكثر من عشر كيلو مترات . وقد جهزت المدينة بفضاء واسع من الحدائق والاجنة والميادين العمومية .

ولما سقطت دولة الأغالبة عقب استيلاء الفاطميين على القيروان ، قام جيرانها من سكان القيروان بنهبها حسدا لها وغيرة منها .

وفى سنة 948 — 949 ميلادية ، أنشأ الفاطميون مدينة ثالثة فى شرق القيروان ، وهي صبرة المنصورية ، باسم المنصور الفاطمي ، اثر وقوع ثورة فى مدينة القيروان . وكان لهذه المدينة خمسة أبواب ، وكان دخل كل باب منها 26 ألف درهم من الرسوم والمكوس فى اليوم .

وكما حدث فى سر من رأى ، فقد ترك الخليفة عاصمته المضطربة ليلجأ الى مدينة فى الضواحي ، التي كانت فى بداية الامر مدينة قصور ، ولكنها لم تلبث هي الاخرى ، أن أصبحت مدينة تجارية . ولكن صبرة ستندمج فى مرحلة تالية فى القيروان ويشملها سور هذه المدينة الذي وسع محيطه . وهذا مثال لتعدد المدن نتيجة لتضخم العاصمة ، ثم ضم مدينة الضواحي الى المدينة الرئيسية ، كما حدث للفسطاط ولقرطبة .

ومدينة فاس ، مثال بارز لادخال حضارة تعتمد على المدن من النوع الشرقي ، الى مجتمع بربري يقوم على نمط الحياة السائد فى الارياف . وهذه المدينة التي تمتاز بأسوارها وأحيائها وصناعتها وبوجود طبقة حضرية فيها « الفاسي » تضم سكانا ينتمون الى أصلين مختلفين : المهاجرين الذين أبعدوا من قرطبة عقب ثورة قام بها سكان أحد أحيائها، والمهاجرين القيروانين الذين كانوا وقتا ما يشكلون حرس أمراء افريقية ثم تخلص هؤلاء منهم فيما بعد .

وهكذا انقسمت المدينة التي قامت على وادي فاس الى شقين . عدوة الاندلس ، وعدوة القرويين ، لكل منهما مسجد كبير وأسواق ؛ بل ودار لصك النقود .

وسحر مدينة فاس ، يعود ، خصوصا ، الى توفر الماء بغزارة فيها . فان القنوات العديدة المشتقة من وادي فاس ، تتوغل مياهها الى كل منزل من منازل المدينة ، ذات الصحون الواسعة والمزينة بالنبات والرياحين

وشوارع المدينة مبلطة . وكل يوم ، كما يقول الجغرافي ابن حوقل (القرن العاشر) ، تطلق مياه نهر فاس على أسواقها لتغسل الارض وتنعش الجو . وكذلك تجري المياه فى عشر حمامات عمومية وتسير ثلاثمائة طاحونة . وقد شهدت فاس نموا سريعا ، فكان عدد سكانها فى نهاية القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر يبلغ 100ر000 نسمة .

وهذه هي الفترة التي يرجع اليها تاريخ البصرة التي تقع فى شمال المغرب الاقصى وهذه المدينة عفت آثارها ولم تبق يد الدهر منها الا على بعض أجزاء سورها . وأسوار البصرة مبنية بحجارة غليظة ومزودة بأبراج شبه مستديرة . وهذا النوع من الابراج من مميزات الفن العباسي، وقد وصل الى المغرب الاقصى عن طريق مصر وافريقية .

ومن المدن الأخرى التي شيدت فى هذا العصر ، مدينة وجدة التي بنيت فى سنة 994 ، وايغلي التي بنيت فى القرن التاسع الميلادي فى السوس الاقصى . وهذه المدينة ترتبط بمحطات القوافل التي تسير عبر الصحراء . وأخيرا ، مدينة مراكش التي شيدها المرابطون الذين جاءوا من الجنوب .

وهذه المعالم التي وضعت فى أزمنة متقاربة ، ذات دلالة هامة فى تاريخ العمران فى المدن الاسلامية . وهي تعطينا فكرة واضحة عن التجديد

الذي لحق الحياة فى المدن وعن ازدهار العمران فيها . وهذا الازدهار ، يتصل ، بطبيعة الحال اتصالا وثيقا بحدة العلاقات التي تربط المغرب بالمشرق والاندلس وصقلية ، وخصوصا ، بانفتاح آفاق جديد للتجارة مع بلاد السودان ، عالم الذهب والعبيد ، عن طريق الصحراء .

ومن جهة أخرى ، فان ازدهار العمران فى المدن ، يرتبط بتوسع ديموغرافي قوي.فقد كانت بلاد البربر فى العصور الوسطى العليا مستودعا للاحتياطي من الرجال ، كما يشهد بذلك استعمار أصحاب الجمال من البربر للصحراء ، وفتح اسبانيا وفتح جزيرة صقلية فى عهد الأغالبة ، ثم غزو مصر وسورية فى عهد الفاطميين بجيوش من أصل بربري .

ونمو حركة العمران فى المدن فى اسبانيا ، يخضع لنفس الاعتبارات العامة ، مع تحفظ واحد ، وهو أن قائمة المدن التي شيدها المسلمون أقل طولا ، وازدهار العمران فيها يقوم على النمو المعتبر الذي شهدته مراكز العمران القديمة التي انبعثت الحياة فيها بعد أن تضعضعت وتوقف نشاطها فى عصر البرابرة . وفى مقدمة هذه المراكز مدن المناطق الجنوبية التي يرويها النهر الاعظم (Guadalquivir)وهي قرطبة ، واشبيلية ، وقادس ومالقة ، والمدن الواقعة على نهر التاج ، طليطلة ، وأشبونة (لشبونة) ، ومدينة ابــرة ، سرقسطة .

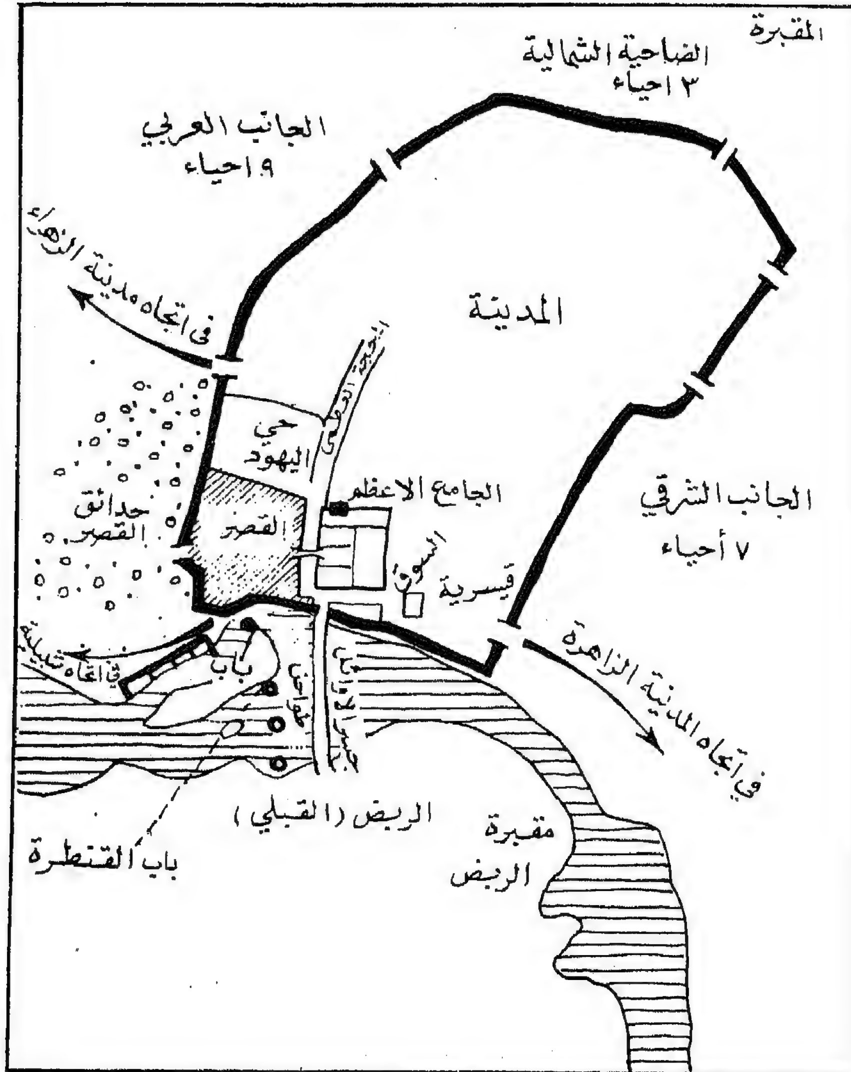
وكما سبق أن ذكرنا ، فان المدينتين الوحيدتين اللتين كانتا حقيقة من انشاء المسلمين ــ وانشاؤهما ذو مغزى كبير ــ هما الميناءان اللذان يحتويان على دور لصناعة الأسلحة ، والتابعان لمملكة قرطبة ، وهما : المريــة ، أو (برج المراقبة) فى البحر الابيض المتوسط ، وقصر أبي دانس الذي يقع على بحيرة شاطئية ، تواجه المحيط الاطلسي والمدينتان بنيتــا فى وقت متقارب ، بعد استيلاء أوائل ملوك بني أمية على الحكم فى الاندلس . وبقيام هاتين المدينتين ، انفتحت التجارة فى اسبانيا الاسلامية ،

فى نفس الوقت على البحر الابيض المتوسط ، وعلى المحيط الاطلسي . ومع ذلك ، فان المريــة التي بنيت فى سنة 706 م ، كانت أهم المدينتين . فقد كانت هذه المدينة ، الى جانب كونها ميناء ، مركزا نشيطا للتجارة وتأوي مختلف الصناعات كما تشهد أسواقها ومعارضها التي يتردد ذكرها فى الفرنسية القديمة . وكانت تصنع فى المريــة أنسجة الحرير التي يستعمل فيها الحرير الخــام الذي تنتجه منطقة البشرات (Alpujarras) وهي منطقة جبلية تمتد خلف المدينة . وفى المريــة أيضا تقع أحواض كبيرة لبناء السفن كانت سببا فى نمــو صناعة الخشب والحديد والقماش الذي تصنع منه أشرعة السفن .

ولكن الظاهرة الكبرى فى نمــو العمران فى شبه جزيرة ايبريا المسلمة ، هي بدون شك ازدهار قرطبة ونشاطها العمراني . فان عاصمة جنوب اسبانيا فى عهد الرومان (Corduba) ، لم تكن شيئا يذكر لدى وصول المسلمين الى الاندلس فى أوائل القرن الثامن الميلادي ، لأن المدينة الكبيرة فى ذلك العصر ــ ان صح استعمال هذا التعبير ــ كانت هي طليطلة ، عاصمة ملوك القوط . ولكن موقع قرطبة كان ملائما . فان جسرا رومانيا بني على الوادي الاعظم عند هذه المدينة ، يشكل حدا ونهاية للملاحة فى النهر . وفى سنة 719 ميلادية ، انتقل الوالي السادس للخلفاء الأمويين فى دمشق من اشبيلية الى قرطبة ، حيث شرع فى أعمال البناء الاولى : بناء سور حول المدينة واصلاح الجسر القديم وبناء طواحين على رصيف تستعمل التيار المتولد من ماء النهر .

وفى هذا العهد ظهرت الضاحية التي تمتد فى جنوب المدينة حيث خططت المقبرة الاسلامية . وفى غضون الأعوام التالية ، ستشهد المدينة تطورا ونموا سريعا : فقد ضاق بها السور وامتدت نحو الشمال والشرق والغرب، بينما استمرت ضاحيتها فى الامتداد الى الجنوب .

وقد شهدت قرطبة أوج ازدهارها فى غضون القرن العاشر الميلادي ، وخصوصا فى عهد الحكم الثاني وهشام الثاني .



الشكل رقم ١٥ ـ قرطبة .

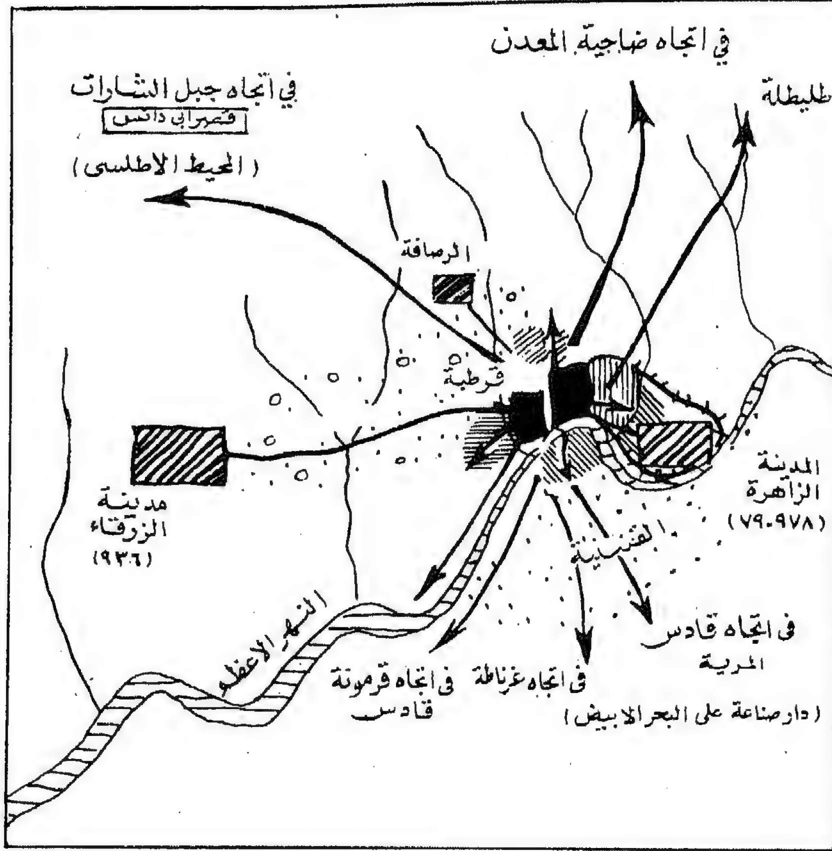
ومركز المدينة نفسها (Madina) له سبعة أبواب . وفى خارج المركز يمتد واحد وعشرون حيا تشكل ما يعرف بالربض الذي يمتد فى جميع الاتجاهات . تسعة أحياء فى الغرب ، وسبعة فى الشرق ؛ وثلاثة فى الشمال ، وحيان عبر النهر . وازدياد عدد سكان قرطبة يمكن أن نستنتجه أيضا من توسيع مسجد قرطبة المشهور مرات متوالية : ففي سنة 785 ميلادية ، أصلح عبد الرحمن الأول المسجد القديم ، وفى سنة 833 ، وسع عبد الرحمن الثاني المسجد وأضاف اليه مساحات معتبرة فى اتجاه الجنوب ، وفى سنة 961 ، قام الحكم الثاني بتوسيعه من جديد نحو الجنوب . وأخيرا زاد المنصور فى سنة 977،توسيع المسجد وأضاف اليه ثلث مساحته ، فى الاتجاه الشرقي . وهكذا يمكن تقدير عدد سكان المدينة على أساس أبعاد المسجد بحوالي 300ر000 نسمة .

ومن الظواهر التي تسترعي الاهتمام فى ازدهار قرطبة ، امتدادها نحو الضواحي . فهنا أيضا ، أصبحت الضواحي التي بنيت فيها قصور الخلفاء نواة لمدن جديدة ، على غرار قصور الأغالبة والفاطميين فى ضواحي القيروان .

وقد بنيت القصور الأولى فى ضاحية على مسافة 3 كيلو مترات فى الشمال الغربي ــ وكان ذلك فى عهد عبد الرحمن الأول ــ وهي الرصافة ، التي تذكر بالرصافة التي كانت وقتا ما مقرا للخلفاء الأمويين فى سورية ولكن الرصافة ليست الضاحية الوحيدة التي عمرها الخلفاء . لأن الضواحي ستتسع لتشمل الحدائق المجاورة للمدينة ، الأمر الذي نجم عنه انتشار المناطق السكنية والعمران فى سهل « فحص » قرطبة ، حيث ستبنى المنازل وتخطط المقابر وتغرس الحدائق .

ولكن أهم ضواحي قرطبة وأشهرها ، هي مدينة الزهراء التي بناها فى سنة 936 ميلادية عبد الرحمن الثالث لاحدى محظياته وسميت باسمها .

ومدينة الزهراء التي تقع على مسافة 5 كيلو مترات من قرطبة ، عبارة عن مباني تضم مساكن الأمراء والدواوين ، يحميها حرس من الصقالبة : وهنا أيضا نلاحظ اهتمام الخلفاء باستمرار سيطرتهم على العاصمة ،



الشكل رقم ١٦ - الامتداد العمراني في قرطبة

مع بقائهم بعيدا عنها بعض الشيء ، حتى لا يضطروا للحياة فى مدينة يتزايد عدد سكانها مع مرور الزمن ، ويتعرضوا للمخاطر نتيجة للقلاقل والاضطرابات التي تقع فيها ، مثل الثورة التي شهدها الربض فى القرن التاسع الميلادي .

وبناء مدينة الزهراء عملية مهمة اقتضت أعمالا استغـرق تنفيذهـا عشرات السنين واستخدم فيها 10ر000 عامل . وقد شملت هذه العملية استيراد المرمر من قرطجنة وسفاقس ، استخلص من المباني القديمة فى المدينتـين .

كانت التجارة مزدهرة فى مدينة الزهراء ، وكان اقبال التجار عليها كبيرا ، بحيث اقتضى الأمر فرض ضريبة على التجار الذين يسمح لهم بالاستقرار فيها ، مقدارها 400 درهم .

وفى سنة 978ـ979 ميلادية ، قرر المنصور بن عامر (11) الحاجب الذي استولى على الحكم فى قرطبة ، بناء مدينة أخرى ترمز لسلطانه الجديد والقوي . وقد غادر مقره فى العامرية ونزل فى شرق قرطبة فى المدينة الزاهرة . ولكن المقر الجديد لم يلبث أن أصبح مدينة التحمت بقرطبة ، وبذلك أصبح اسم « الزاهرة » يطلق على جميع الضواحي التي تمتد فى شرق قرطبة .

وهكذا نجد أن عمران قرطبة التي أحيطت بهالة من الضواحي فى المرحلة الأولى ، ثم تضخمت واتسعت أطرافها حتى وصلت الى تلـك الضواحي التي اندغمت فى المدينة الأم فى مرحلة تالية ، عمران نشيط حاد النشاط . وكذلك كانت المدينة وضواحيها ، ومدينة الزهراء والمدينة

---

11 ـ محمد عبد الله بن محمد بن أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري القحطاني «326 ـ 392 هـ » ، المعروف بالمنصور بن أبي عامر ، أمير فى دولة المؤيد الأموي واحد الشجعان الدهاة ، أصله من الجزيرة الخضراء قدم قرطبة شابا وتعلم فيها ، وقد عظمت مكانته بعد ما تولى النظر فى أموال السيدة صبح (أم هشام المؤيد) . ولي الشرطة والسكة والمواريث وأضيف اليه القضاء باشبيلية ، ولما مات المستنصر الأموي ، كان « المؤيد » صغير السن وخيف من اضطراب الأمن ، فضمن ابن أبي عامر لأم المؤيد استقرار البلاد وبعد ذلك ، قام بشؤون الدولة وغزا وفتح ودامت السلطة فى يده 26 عاما ، وكانت الدعوة فى أيامه على المنابر للمؤيد (وهو محتجب عن الناس) ولكن الملك كان فى يد ابن أبي عامر ، وقد غزت جيوشه فرانسا ، قشتالة ، وجاسكون Gascogne ووصـلت حتى ليون . « المترجم » .

الزاهرة مجتمعة ، منطقة عمرانية هائلة ، هي « قرطبة الكبيرة » التي تضم حوالي نصف مليون نسمة . وهذا رقم مرتفع جدا في الغرب ، اذا اعتبرنا أن باريس التي كانت أكبر مدن الغرب المسيحي بكثير ، لم يكن عدد سكانها في القرن الرابع عشر الميلادي يتجاوز 200 و 300 ألف نسمة .

بقي علينا أن نحول أنظارنا الآن ، الى جزيرة صقلية ، حيث نجد أن بلرم ، كما لاحظ ذلك المسافرون المسلمون ، قد شهدت نموا مشابها لنمو قرطبة . ففي الوسط يمتد القسم القديم من المدينة (القصر القديم (Cassaro vecchio) الذي تحيط به هالة من الضواحي .

ذكر ابن حوقل (القرن العاشر الميلادي) أن القصر القديم كان محاطا بسور تخترقه تسعة أبواب ، ويضم المسجد الكبير والسوق الرئيسية ومنازل التجار الأغنياء . وحول هذا المركز ، تمتد أربعة أحياء ، الخالصة، وهي مدينة ادارية يحيط بها سور تخترقه أربعة أبواب ويضم القصر ، والدواوين ، ودار الصناعة ، وحدائق . وسيصبح هذا الحي ، فيما بعد ، مقرا للملوك النورمانديين . ويأتي بعد ذلك ، حي الصقالبة ، وهو أكبر أحياء المدينة ويسكنه ، كما يدل على ذلك اسمه ، العبيد الصقالبة، ويأوي الميناء وأرصفته . وهذا الحي لا يحيط به سور ، وهو مفتوح وله واجهة كبيرة على البحر .

والحي الثالث هو الحي المعروف باسم جامع بن سقلاب وهو أيضا حي واسع يمتد بحدائقه وطواحينه التي تعمل بمياه الجداول حتى يلتقي بالريف . وهذه الضاحية عبارة عن سهل « فحص » مترامي الأطراف ، تزرع فيه مختلف أنواع البقول والفواكه التي تحتاج اليها المدينة .

وأخيرا ، يأتي الحي « الجديد » الذي يكفي اسمه للدلالة على ما عرفته بلرم الاسلامية من التوسع والامتداد .

من أهم المعلومات التي وصلت الينا عن بلرم الاسلامية ، تلك التي نقلها الينا الراهب ثيودوز (Theodose) (11) الذي أسر عندما سقطت سرقوسة فى سنة 878 ميلادية .

فان هذا الكاهن يقدم الينا فكـرة حسنـة عن ازدهار العمـران وحدة النشاط فى مدينة اسلامية كبيرة حيث يقـول : « انهـا ، أي سيراقوسة ، مدينة مشهورة عامرة بالسكان من الأهالي والأجانب ،وكأنما تدفق اليها جميع الجنس العربي ، من الشرق الى الغرب ، ومن الشمال الى البحر ، ضاقت المدينة بسكانها الجدد . ونتيجة لذلك ، فقد أخذوا فى البناء خارج أسوار المدينة . وبذلك تكونت عدة مدن فى ضواحيها ، أحيطت هي الأخرى بأسوار ولا تقل ازدهارا عن المدينة الأم » .

ذلك هو الامتداد والتوسع الذي شهدته الامبراطورية الاسلامية من طرف الى آخر . والآن بقي علينا أن نعرف كيف يعمل الناس فى هذه الامبراطورية وما هو نوع النشـاط الـذى يمـارسونه ، وما هـو الغليان الاجتماعي الناجم عن كل ذلك .

---

12 ـ راجع : C. Zuretti centinario della mascita di Michel Amari Palerme 1910, pp. 167-173 et par M. Amari Descr. de Palerme, Introd, pp. 7-8.

الفصل السابع

تنظيم العمل والحركات الاجتماعية

حقيقتان رئيسيتان تشكلان اطارا للتطور الاجتماعي فى المدن الاسلامية ، تدفق الذهب واتساع نطاق تداول النقد من جهة ، وسرعة التوسع العمراني فى المدن وازدياد الاستهلاك الناجم عن ذلك ، من جهة أخرى .

ان تعدد وسائل الدفع ، والنشاط الحاد فى ضرب النقود وسرعة تنقلها ، واتساع نطاق عمليات القروض المصرفية والاقبال على الاستهلاك الناجم عن اتساع العمران فى المدن ، كلها عوامل أدت الى ازدياد سرعة نشاط التبادل التجاري ، والى حيوية الانتاج الزراعي والصناعي ، والى انخفاض قيمة المعادن الثمينة وبالتالي الى ارتفاع الأسعار خلال مدة طويلة ، ذلك الغلاء الذي يسانده تدفق المعادن الثمينة « النقود » بصورة أقوى وأهم من ازدياد حجم الانتاج على الرغم من التقدم التقني الذي تحقق فى هذا المجال .

وارتفاع الأسعار ، انما تستفيد منه طبقة التجار وأوساط القصور . وتركز الثروة فى يد التجار ، يدفعهم الى السعي لاستثمار ثروتهم ، والى عقد صفقات تجارية كبيرة تضيف ثروة الى ثروتهم.وأما أوساط القصور، فانها تستنزف قسطا معتبرا من الثروة المتولدة وتغذى حياة البذخ ، عن طريق الضرائب وبواسطة أرباب المصارف الذين يتعاملون معها .

وكذلك يشكل رخاء التجار والبذخ الذي يسود فى قصور الأمراء ، ما يشبه العمود الفقري لحضارة المدن المادية . بل أن من الممكن القول ، اذا أضفنا رعاية العلوم والفنون والأدب ، أن هذا الرخاء والبذخ يمثل أساس الحضارة الاسلامية .

وفى هذه الأثناء ، ينتشر الفقر بين الجماهير الشعبية . فان الزيادة فى المرتبات والأجور أقل من الزيادة فى الأسعار ، وذلك بحكم توفر فائض من اليد العاملة .

وكذلك نلاحظ ، الى جانب ظاهرة ارتفاع الأسعار العامة ، وانتشار الرخاء فى القصور وبين طبقة التجار ، ظاهرة وسطية تدور حول التوزيع غير العادل للأرباح والفوائد بين مختلف الطبقات الاجتماعية .

وانتشار نفوذ المدينة فى الأرياف ، كان من نتائجه ضعف نفوذ الملاك الزراعيين . فان أشكال الثروة المتنقلة تحل تدريجيا محل الملكية الزراعية. وهذا الانفجار الذي لحق بخلية « الاقطاع » الزراعي سيكون من نتائجه تفكك الحياة الاجتماعية . وكذلك كانت ثورات الفقراء فى الأرياف ، استجابة لثورات العبيد والبؤساء فى المدن .

وهذه الحركات الاجتماعية ، كانت فى البداية متفرقة وتقوم هنا وهناك ، ولكنها فى مرحلة تالية ، ستندغم فى حركة شاملة وسينضم تحت لوائها جميع الثوار من العبيد والأحرار ، من المدنيين وسكان الأرياف، وهذه الحركة هي حركة القرامطة التي هزت العالم الاسلامي فى القرن العاشر الميلادي ، وأدت الى قيام تنظيم جديد للعمل على أساس المهن والحرف .

طبقة التجار والقصر :

كانت طبقة التجار هي الوحيدة التي استفادت من الاختلال النقدي ، كما لاحظ ذلك تل مهري (Tell Mahre) منذ النصف الثاني من القرن

الثامن الميلادي والواقع أن نشاط التجار ، كان يمثل الأساس الذي يقوم عليه الازدهار الاقتصادي . وروح المخاطرة والمبادرة فى مجال التجارة من التقاليد المتوارثة فى المشرق . وكانت المبادرة تتخذ شكل مشاركة رؤوس الأموال وانشاء شركات تجارية ومصرفية .

والتاجر صاحب الأعمال يعمد الى اقامة صناعة وتشغيل العمال فيها . وتوفير المواد الأولية وتقديم القروض ، كما يقوم بتوزيع المنتجات . والتاجر يميل الى المغامرة واستكشاف الأسواق فى البلدان البعيدة وهو الذي سيكتشف موارد الذهب فى السودان ويدفع فى مقابل حمل بعير من الذهب شحنة من الملح والسلع ذات القيمة الزهيدة . وهذا الذهب سينقله الى شواطيء المحيط الهندي والى بلاد السند عن طريق البحر ، حيث سيبيعه بأضعاف ثمنه ويشتري سلعا أخرى يوسقها الى البصرة فى عمليات تضمن للتاجر أرباحا طائلة .

فان شحنة سفينة آتية من الصين ، قدرت قيمتها بنصف مليون دينار . ومناطق الأنهار الكبيرة فى روسيا ، ستوفر العبيد ، وهي السلعة التي تضمن أوفر الأرباح فى أسواق النخاسين فى الشرق الاسلامي وفى كل مكان يسود نشاط يستهدف كسب الثروة سريعا . وقد نجم عن ذلك تعدد المراكز التجارية على طول الطرق المعروفة فى العالم . ومن هنا ارتفاع شأن طبقة التجار التي يمثلها التاجر الكبير وهو مسلم فى العادة ، ولكنه كثيرا ما يكون يهوديا أو مسيحيا أيضا .

والتاجر الكبير يملك أموالا طائلة من ثروته الخاصة ومن ثروة العائلة ويشترك مع غيره من التجار لينشىء دارا تجارية تقوم على الاعتمادات التي يضمنها جميع الشركاء ورؤوس الأموال الناجمة عن العمليات التجارية يعاد استثمارها باستمرار فى مشروعات تجارية تزداد اتساعا مع

مرور الزمن فى عالم تسري فيه حمى الأعمال والكسب ، كما تشهد بذلك الوثائق العبرية التي بين أيدينا .

فنحن مثلا نعرف رسالة (1) بعثها تاجر يهودي من سورية ، وهو من أصل مغـــربي ــ اعتبرنا اسمه المغــربي ــ فى أوائل النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي من القدس الى القاهرة عن طريق الفرما (2) بشأن وصول سفن الى جزيرة صقلية ويطلب فيها تزويده بمعلومات عن سفينة اسبانية وعن غيرها من السفن التي تصل الى الاسكندرية . وصاحب الرسالة يأمل فى الحصول على جواب سريع عن استفساراته من مراسليه فى القيروان وصيدا .

وكذلك ترينا وثيقة (3) أخرى يرجع تاريخها الى القرن العاشر الطريقة التي نظمت بها دار تجارية عائلية . فالدار الأصلية تقع فى الفسطاط ويقوم بادارة فرع للدار فى مدينة عدن . وهذا الابن قـــام بسفرين الى الهند
بادارة فرع للدار فى مدينة عدن وهذا الابن قام بسفرين الى الهنـــد
ووصل حتى سيلان وزار كلومبو . وأما خال الأولاد الذي أرسل الى الهند ليعمل فيها وكيلا وممثلا للدار فقد مات هناك .

والتاجر الكبير متعلم ــ ونحن نستطيع أن نتصوره مستغرقا فى مراجعة دفاتر حساباته ، وفى تحرير رسائله ، ومعالجة أوراق الاعتماد الخ . ،

R. Gotheil, Fragment - from the Cairo Genizah in the feer collection. New York, 1927, p. 116-129, n° XXVII.

2 ــ مدينة قديمة بين العريش والفسطاط خراب ، سفت الرمال عليها قرب قطية ، شرقي تنيس على ساحل البحر ، وبينها وبين بحر القلزم المتصل بالمحيط الهندي ، أربعة أيام ، وهو اقرب موضع بين البحرين ، وفى الفرما اصطدم العرب بالروم عند فتح مصر ، وفتحها عمرو بن العاص . والفرما هي التي ذكرهـا أبو نواس فى احدى قصائده اذ يقول :

واصبحن قد فوزن عن نهر فطـــرس   وهـــــن عن البيت المقـــدس زور

طـــوالب بالـــركبان غـــزة هـــاشم   وبالفـــرما من حاجهـــن شقـــود

3 ــ المصدر السابق ، صفحة 44 ــ 57

ومن جهة أخرى توجد كتب ورسائل تقنية تتجه عادة الى الموظفين ، يدل مضمونها على توفر حظ من الثقافة العملية عند رجال الأعمال . فان كاتبا فارسيا عاش فى خراسان وبغداد ، أبا الوفاء (940–997م) وضع كتابا مبسطا فى الحساب يشتمل على المعلومات الضرورية للكتاب ومديري الأعمال فى علم الحساب .

وهؤلاء التجار يعرفون فن الشفرة والرسائل السرية . وهم يعلمون الأرقام الهندية (التي نسميها العربية) التي تقوم على تسع علامات وصفر ، ومنذ منتصف القرن التاسع الميلادي جرى تعميم هذا النظام فى الكتب العلمية ثم بين العلماء وفى أوساط التجار .

والى جانب هذه الثقافة العملية ، كثيرا ما يتمتع التاجر الكبير بحظ كبير من الثقافة الحقيقية . وهو يفخر فى هذه الحالة خصوصا بمعلوماته فى العلوم الدينية وفى الشعر . ففي أوائل القرن الحادي عشر الميلادي كان شقيق الشاعر ابن اللبانة ينظم الشعر هو أيضا ، ولكنه لم يكن يعيش على قرض الشعر لأنه كان تاجرا .

ومن جهة أخرى فان الشاعر أبا بكر بن عبد العزيز الذي تلقى مبلغا معتبرا من المال مكافأة له على احدى قصائده قرر أن يستقر فى المرية ويشتغل بتجارة مربحة .

والتاجر الكبير يقوم بدور هام فى فعل الخير والرعاية بما يقدمه من الصداقة والاحسان للمعوزين فى الجماعة وهو يساهم كذلك فى تمويل تكاليف تحسين وتوسيع المعابد (المساجد والبيع والكنائس) ويمد بالمال المؤسسات الخيرية وهذه المؤسسات تشمل أيضا فى الاسلام انشاء مؤسسات ذات فائدة عمومية مثل المدارس والفوارات . والتاجر الكبير يقدم المأوى والضيافة للطلاب والعلماء كما يفتح أبواب منزله للحجاج

ولعابري السبيل والتجار الأثرياء من اليهود فى الاسكندرية والقاهرة .
وكذلك كانوا يقدمون الفدية لتحرير اليهود الذين وقعوا فى أسر القراصنة.
وهذه الفدية تمثل 33 دينار للرجل . وهو السعر المعمول به فى جميع
البلدان الواقعة على حوض البحر الأبيض وهذا المبلغ يمثل تأمينا شخصيا
للتاجر المسافر .

والتاجر الكبير ينفق بسخاء ويعيش عيشة واسعة فى منزله الفسيح فى
المدينة بين جماعات من العبيد والخدم والمقربين اليه ، محاطا بمكتبته وبما
اقتناه أو استجلبه معه أثناء أسفاره من البلدان البعيدة من التحف
والطرائف النادرة .

والتاجر الكبير يتمتع بمكانة اجتماعية مرموقة ، فان بعض التجار
الأثرياء الذين اتهموا بالاشتراك فى ثورة اعتقلوا بهذه التهمة ، ولكن
الوالي ، استدعاهم وقت الغداء لتناول الطعام على مائدته . وكبار التجار
كثيرا ما يتمتعون بالحظوة فى قصور الملوك والخلفاء . وهذه هي الحالة
خصوصا بالنسبة الى الصرافين المعتمدين لدى القصر ، والذين يقرضون
المال لكبار الشخصيات والمتعهدين بتموين القصور الملكية بالسلع-ولا
سيما البضائع الثمينة ، والذين يدفعون الضرائب المستحقة على الآخرين
ويتعهدون باستخلاصها . وكذلك نجد صرافا يهوديا فى البلاط يستخلص
الضرائب المستحقة فى الأهواز ثم يستثمر الحصيلة فى أعماله الكبيرة فى
صناعة السكر ، أو النسيج ، ثم يقدم اعتمادا للخليفة ليستخلص المبلغ
المستحق من بيت اليهودي فى بغداد . وهذا الصراف (الجهبذ) يؤمن
سرعة تنقل الأموال بعمليات كتابية بين الولايات وخزينة الخليفة ، دون
أية مخاطرة بتحويل الأموال نقدا .

بل اننا نجد فى نهاية السلم الاجتماعي ، أن التاجر قد يرتفع مقامه
ويشغل منصبا رسميا بل ولربما قلد الوزارة ووضع على رأس ادارة
الدولة للشؤن المالية .

ولكن التاجر الكبير ذي المركز الرفيع والنفوذ والجاه ، قد يفقد الخطوة وينزل مقامه فجأة . وفقد الحظوة كثيرا ما يرافقه الاستلاء على أموال التاجر وممتلكاته . وحينئذ تكون حياته العملية منتهية . والمثال المشهور فى هذا السياق هو ذلك الذي وقع فى القاهرة فى أوائل عهد المنصور الفاطمي (1036 — 1094 م) . فان الاخوة تستري من الصرافين والتجار اليهود فى الأهواز (وكانت تجارتهم فى البضائع الثمينة الآتية من شواطيء المحيط الهندي والصين) ، قد جلبوا للخليفة الظاهر (لاعزاز دين الله) جارية سودانية جميلة ولدت له خليفته على عرش الفاطميين ، المستنصر بالله . وهذه الجارية هي التي تولت الحكم أثرموت الظاهر حيث أن ابنها لم يبلغ سن الرشد بعد ، وكان ذلك بمساعدة الأخوة تستري . وقد دام حكم هؤلاء اثنى عشر عاما (1036 — 1048م) ولم يزحزحهم عن كرسي الحكم الا وزير ، من أصل يهودي هو الآخر ، ولكنه اعتنق الاسلام . وقد تقلد هذا الوزير منصبه بفضل الاخوة تستري ، ولكنه مع ذلك ، لم يتردد فى أن يأمر الحرس التركي باغتيالهم . وأما الملكة الوالدة ، فقد أخذت على نفسها أن تنتقم لسادتها النابقين . وبعد الحادث بتسعة أشهر ، قتل الوزير بدوره ..

وهذا المثال واضح الدلالة ، ولكنه لم يكن نادرا . لأن حوادث مماثلة وقعت وتوضح ما كانت طبقة كبار التجار تتمتع به من الثروة والنفوذ ، وكيف يشتركون فى المؤامرات التي تحيك فى القصور ويشكلون حلقة وصل بين القصر وطبقة الأغنياء فى المدينة . وهؤلاء التجار هم الأعوان الرئيسيون المحركون — مع كتاب الدواوين — للحياة الاقتصادية فى العالم الاسلامي . وهم العمدة التي تقوم عليها الحضارة الاسلامية العظيمة خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الثاني عشر الميلادي .

الضعفاء اقتصاديا فى المدن والأرياف :

المركز الاقتصادي للمدينة الاسلامية ، هو السوق الذي يتردد عليه ويعمل فيه الصناع والعمال الأحرار والعبيد والدلالون والحمالون . ونظرا للصعوبات المتزايدة التي تلقاها هذه الفئات من السكان لكسب الرزق ، فهي أبدا فى هرج ومرج وكثيرا ما تتعرض للفتنة .

وفى الأرياف يعيش صغار الملاك والمفلسين والعمال البائسين . فان الأثرياء والمرابين من سكان المدن يطردونهم من أراضيهم التي يستثمرون فيها جزءا من الأرباح الطائلة التي يحققونها من التجارة . وفى هذه الأثناء تزداد قبضة المدينة ونفوذها توغلا فى الأرياف ، سنة بعد سنة .

ومن جهة أخرى فان عبء الضرائب يزداد فدحا على سكان الأرياف مع تناقص القوة الشرائية للنقد . والادارة المركزية للامبراطورية تتوانى فى كل شيء الا فى جباية الضرائب .

ونحن نجد صورة مفصلة للبؤس الذي كانت تعاني منه الأرياف فى عدد مهم من المصادر النسطورية واليعقوبية ، بالنسبة الى ما بين النهرين وسورية ، وفى التواريخ السريانية وأوراق البردى ، بالنسبة الى مصر .

وقد كان الأمل الوحيد فى النجاة لسكان الأرياف ، هو الهروب الى المدن . وفى المدن يفقد القري كل روابطه وعلاقاته العائلية والاجتماعية ، حيث أنه يقصدها فى كثير من الحالات للتخفي وللتخلص من دائنيه المدنيين . وكذلك ينحدر شيئا فشيئا فى السلم الاجتماعي ، وربما أفضى به الأمر أن يحترف السرقة وقطع الطريق .

والآفة الكبرى التي تشكو منها الأرياف هي اضطراب الأمن العام — والحكومة تسخر قواتها للقضاء على الاضطرابات ، رغبة فى تأمين الاستقرار ، لكي تتمكن من جباية الضرائب وضمان فلاحة الأرض .

وكذلك أنشىء فى مصر مكتب خاص مهمته البحث عن الهــاربين ، وانتهى الأمر الى فرض جواز السفر على الأشخاص : فأما الأشخاص ذوو المكانة الاجتماعية فيمنحون وثائق تحمل ختما رسميا ، وأما أبناء الشعب والغوغاء فيحملون ختما ، فى أذرعهم أو أيديهم ، أو تعلق فى أعناقهم قطعة من الرصاص لاثبات شخصيتهم .

وهذا البؤس المنتشر بين الطبقات الشعبيــة فى الأرياف والمدن هو السبب فى ظهور كثير من الحركات الاجتماعية التي تنطوي على عناصر من الدين والشعوذة ، وتوهم العامة بأن ساعة الخلاص ستأتي ولا ريب ، وما عليهم الا أن يصبروا حتى يأتي المهدي المنتظر .

وهذه الحركات تجد اقبالا خصوصا فى ثلاث فئات اجتماعية : الفلاحين والعبيد ، والطبقة الشعبية المتواضعة فى المدن .

ففي طبقة الفلاحين نشاهد تيقظ الميول الايرانية القديمة لتحقيــق العدالة فى المحيط الزراعي ، تلك الميول التي كانت قد أوحت منذ عهد الساسانيين فى القرن الخامس الميلادي بالحركة المزدكية التي تتصل هي الأخرى ، من الناحية الاجتماعية ، بازدهار الحياة الاقتصادية والعمران فى المدن . وقد كانت ايران وبلاد ما بين النهرين فى القرن الثامن والقرن التاسع الميلادي مسرحا لعدد من الثورات التي كان يتزعمها أشخاص يدعون النبوة ويستمدون آراءهم وأفكارهم من تعاليـــم مزدك ، وفى مقدمة هؤلاء السنباذ المجوسي (754 — 755 م) وأستــاذ ســيس (766 — 769 م) ، وكلاهما كان موجها وقائدا لحركة قوامها الغــل

والحقد ، كانت بمثابة رد فعل لاغتيال الداعي العلوي والقائد العباسي ، أبي مسلم الخرساني (4) .

وبعد هذا التاريخ بقليل ، قامت ثورة أخرى فى أرمينيا (774—775 م) كانت نتيجة لتعسف محصلى الخراج وللبؤس المنتشر فى المنطقة . وأثر ذلك ، قامت ثورة مدعي النبوة الملقب (المقنع) فى خراسان (777—780م) ثم وقعت الاضطرابات التي قام بها الباطنيون فى جرجان (5) أي البلاد الواقعة على ضفاف بحر قزوين الجنوبية الشرقية . وهذه الثو رةالتـــي أتخذت لنفسها علما أحمر ، حققت نجاحا مذكورا فى سنة 782 — 783 ميلادية .

وفى حوالي سنة 800 ميلادية ، فى عهد هارون الرشيد ، قامت أهم هذه الثورات جميعا وأخطرها فى خراسان بزعامة بابك (816 — 838 م)

وكانت ثورة بابك التي تدور حول القضايا الدينية والمطالب الاجتماعية قد اجتاحت فى المرحلة الأولى أذربيجان . وبعد ما تركزت قوته فى قلعة جبلية حيث دعم قيادته وأعاد تنظيم أنصاره ، انطلقت قواته فى اتجـــاه

---

4 — عبد الرحمن بن مسلم الخراساني (100—137 هـ) مؤسس الدولة العباسية واحد كبار القادة العسكريين ، اتصل ابو مسلم فى شبابه بابراهيم بن الامام (من بني العباس) فأرسله ابراهيم الى خراسان داعية فأقام فيها واستمال أهلها ووثب على ابن الكرماني (والى نيسبور) فقتله واستولى على المدينة وخطب فيها باسم عبد الله السفاح ثم سير جيشا لمقاتلة مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية وقاتله بالزاب ، وهزم جيوشه ، وبذلك انقرضت دولة بني امية (سنة 132 هـ) وخلص الملك للسفاح ، ولما تولى الخلافة أخوه المنصور خشي من ان يطمع ابو مسام فى الملك ، فقتله برومة المدائن . وكان أبو مسلم فصيحا بالعربية والفارسية ، راوية للشعر ، هذا الى جانب ما كان يتصف به من الدهاء السياسي والشجاعة والحزم ، ولكن أبرز خصال أبي مسلم ، بدون شك ، هو قلة اكترائه بالمال وبمظاهر الترف حيث مات وليس له دار ولا عقار ولا عبيد ولا أمة ولا دينار . «المترجم»

5 — وقعت ثورة الباطنية فى سنة 500 هـ ، وانتهت بمحاصرة السلطان محمد بن ملكشاه قلعتهم التي تسمى دار شادر ، بالقرب من أصفهان ، وبعد محاصرة طويلة ، نزل بعض الباطنية بالأمان ، وبقي صاحب شادر ، واسمه أحمد بن عبد الملك بن عطاش مع جماعة يسيرة من أصحابه فيها ، فزحف السلطان عليها وقتل ابن عطاش وأصحابه وملك القلعة وخربها . «المترجم» .

أرمينيا غربا ، وخراسان شرقا ، والعراق جنوبا وبذلك انتشرت الثورة فى جميع أنحاء ايران وشملت جزءا من بلاد ما بين النهرين . وكان خطر هذا الثائر يتمثل فى أنه كان يقطع طرق القوافل ويعرقل حركة التجارة ، فى الوقت الذي شل فيه حركات عدد من الجيوش التي تتكون من الجنود المرتزقة الأتراك ، وجهها الخليفة للقضاء عليه . وأخيرا ، استولت قوات الخليفة على قلعته وخربتها وقبضت عليه وسلمته الى الخليفة المعتصم الذي أنزل به عقابا كانت فظاعته على قدر المخاوف التي أثارها : فقد تجولوا به فى شوارع بغداد بعد ما قطعوا يديه ورجليه ، على ظهر فيل يحمل أيضا لافتة كتبت عليها قائمة الجرائم التي عزي اليه ارتكابها ، وكانوا قد وضعوه فى جلد ثور حديث السلخ وخاطوا الجلد حوله ووضع قرني الثور عند مستوى أذنيه ، وذلك حتى تضغط رأسه فى جلد الثور الذي يجف تدريجيا ، حتى الموت .

والثورة الاخرى التي قام بها الفلاحون ، هي تلك التي أعلنتها قبائل الزط (الغجر) فى أسفل مابين النهرين فى عهد المأمون (813–833م)(6) ـ والزط (الجط أو الغجر) من أصل هندي أبعدوا من أسفل نهر مهران (السند) الى المستنقعات الخلفية فيما بين النهرين ، واستقروا فى هذه الأرض التي يكثر فيها القصب ، وكانوا يشتغلون بتربية الجاموس ، ولكن البؤس والشقاء دفعهم الى الثورة ، فهذه كانت ثورة المنبوذين اجتماعيا . ولذلك ، فسرعان ما وجدت صدى وانضم اليها منبوذون

---

6 ـ عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن ابي جعفر المنصور ، ابو العباس « 170 ـ 218 هـ » سابع الخلفاء واحد عظماء ملوك الاسلام فى علمه وسعة ملكه حيث كان ملكه يمتد من افريقية الى خراسان . ولي الخلافة بعد أخيه الامين « 198 هـ » فتمم ما بداه جده المنصور من ترجمة كتب العلم والفلسفة ، وقد طلب من الملوك الذين كان يبعث اليهم بالتحف والهدايا أن يصلوه بما لديهم من الكتب ، فبعثوا اليه بعدد كبير من كتب أفلاطون واريسطوطاليس وأبقراط وجالينوس واقليدس وبطليموس ، فاختار لها مهارة المترجمين ، فترجمت وحض الناس على قراءتها ، وكذلك قرب عبد الله العلماء والفقهاء والمحدثين وأهل اللغة والاخبار والمتكلمين وأطلق الحرية لأهل الجدل والفلاسفة ، توفي فى بذندون ودفن في طرسوس . « المترجم » .

آخرون ، ولا سيما من العبيد الهاربين . ولما قضت عليها قوات الخليفة ، أبعد الزط الى منطقة الحدود مع بيزنطة وسورية الشمالية والى مستنقعات نهر العاصي ومن هذه المناطق ، انتقل الزط الى الاناضول ثم الى بلاد البلقان وبوهيميا .

وأول حركة ثورية قام بها العبيد ، يرجع تاريخها الى سنة 770 م . حينما ثار العمال السود فى الزراعة والمناجم . ولكن الثورة الحقيقية التي قام بها الملونون ، ستأتي بعد ذلك بحوالي قرن من الزمن ، أي فى سنة 768 ميلادية ، حينما التجأ العبيد الى المستنقعات الواقعة فى أسفل نهر الفرات (وهي المنطقة التي ثار الزط فيها قبل ذلك بثلاثين سنة) ، بقيادة خراساني ، اتخذ لنفسه اسم « صاحب الزنج » ، واشتهر باسم « الخبيث » . وكان يدعي أنه من نسل علي ، بينما كان على مذهب مزدك. وعلى رأس قواته من العبيد ، سيقف فى وجه الخليفة خمس عشرة سنة ، حتى سنة 883 ميلادية ، ويحدث أضرارا كبيرة . وقد انضم الى جيش العبيد لاجئون ينتمون الى الطبقات الاجتماعية الفقيرة ، ونجحوا فى نهب المدن الغنية الواقعة على الخليج ، وفى أسفل ما بين النهرين ، أبله ، والأهواز ، والبصرة ، وواسط ، بعد ما ذبحوا سكانها . وكذلك قطعوا الطرق بين بغداد والخليج وشلوا حركة التجارة . وأما القوات التي بعث بها الخليفة لاخضاعهم ، فقد فشلت فى مهمتها بسبب صعوبة الارض وبسبب سرعة تنقل الثوار . ولكن الموفق شقيق الخليفة سوف يتحمل على عاتقه مهمة القضاء على ثورة الزنج الذين ضرب حصارا مشددا عليهم فى منطقة من المستنقعات . وبعد ما تحملوا الحصار مدة طويلة فى قلعتهم، قبضت عليهم قوة الخليفة وقتلتهم .

وأما الطبقة الفقيرة فى المدن ، فقد كان حظها من البؤس أكبر من حظ الطبقة الفقيرة فى الأرياف ، ومن ثم فقد كانت باستمرار هائجة مائجة .

وكذلك نرى أنه عند ما قام النزاع بشأن من يخلف هارون الرشيد اثر وفاته (7) بين ولديه الأمين والمأمون ، تمكن الفقراء من السيطرة على مدينة بغداد ومن الاستيلاء على الحكم وقتا قصيرا .

وفى عهد المأمون ، قام الصناع اليدويون الأقباط بثورة كانت ثورة اجتماعية خطيرة حيث أنها وقعت فى منطقة لصناعة المنسوجات الرفيعة . وهذه الصناعة كانت ترتكز على عدة مشاغل منتشرة فى عدد من المدن الصغيرة . وهنا أيضا تتسع الحركة الثورية وتتركز فى منطقة من المستنقعات ـ مستنقعات الدلتا ، وبالتحديد ، مستنقعات بحيرة بصتوم . وقد كانت هذه الثورة من الخطورة بحيث اقتضى الأمر توجيه قوات الخليفة لقمعها ، بل وسير الخليفة بنفسه الى مصر . وبعد اخضاع الثورة، أبعد آلاف من الثوار المندحرين ، بل وبيعوا فى أسواق العبيد فى سورية وبين النهرين . وكذلك تجمع الحركة الى جانب كل هذه العناصر ، الاتجاهات الاحتجاجية المختلفة التي عرفها القرن التاسع والقرن العاشر الميلادي ، والتي كانت موازية لحركة نمو هائل فى التجارة والصناعة والعمران فى المدن ، وبذلك تكون تجمعا يضم محركي الاضرابات وغير ذلك من مظاهر الأزمة الاجتماعية ، والساخطين والثوار . وكذلك وضع مذهب القرمطية الذي يتسم بالأصالة والالحاح على حرية الفرد ، ورفض قوانين الشريعة الاسلامية مع تأكيد الادعاء بأن كل شيء ذو طابع نسبي فى العلاقات البشرية .

---

7 ـ هارون الرشيد ابن محمد (المهدي) بن المنصور العباسي ابو جعفر (149 ـ 193 هـ) خامس خلفاء الدولة العباسية فى العراق واشهرهم ، ولد بالري لما كان أبوه أميرا عليها ونشأ فى دار الخلافة فى بغداد . ولاه أبوه غزو الروم فى القسطنطينيه . فصالحته الملكة ايرين (Irène) وبويع الخلافة بعد وفاة أخيه الهادي (سنة 170هـ) فقام بأعبائها وازدهرت الدولة فى أيامه وكذلك اتصلت المودة بينه وبين ملك فرانسا شارلمان (Charlemagne) ، فكانا يتهاديان التحف ، وكان الرشيد عالما بالحديث والفقه وبالأدب وأخبار العرب ، كما كان شجاعا كثير الغزوات حازما كريما متواضعا ويحج مرة كل سنة ، وهو أول خليفة لعب بالكرة والصولجان ، وكان الروم يدفعون الجزية اليه طول حياته ، وهو الذي أوقع بأسرة البرامكة الايرانية . «المترجم» .

وعلى الصعيد السياسي ، فقد تبلورت حركة القرامطة فى القرن العاشر الى خلافة الفاطميين الذين انتشر مذهبهم وسلطانهم من افريقية وصقلية الى مصر وسوريا وغربي شبه الجزيرة العربية . ومن جهة أخرى ، فان سلطان القرامطة كان يمتد ليشمل بلدان الخليج : المناطق الشرقية من شبه الجزيرة العربية وأسفل ما بين النهرين والشواطىء الايرانية .

ومن الناحية الروحية والاجتماعية ، اقترح القرامطة نموذجـا من « الطرق » الاسلامية ، ظهر فى القرن العاشر الميلادي ، أول ما ظهر فى المناطق التي كانت تحت سيطرة الفاطميين والقرامطة ، ثم انتشر بعد ذلك ، وهو لا يزال يحتفظ ببعض خصائصه الى يوم الناس هذا .

انه لمن أصعب الامور ـ لسوء الحظ ـ أن ندرس بتعمق حركة تلتزم السرية والتكتم وتفضل على تسجيل مبادئها فى وثائق ، تدريب أعضائها وتلقينهم شفويا . والصعوبات الاخرى ، التي تواجه الباحث هي فى عدم دقة لغة القرامطة واعتمادها على الاشارة والتورية ، على الأقل، فى النصوص التي وصلت الينا . ولكن هذه النصوص ، مع ذلك ، تتضمن حقيقة ثابتة ، وهي الاهتمام البالغ الذي يوليه المؤلفون القرامطة لطبقة الصناع اليدويين ، ولعالم العمل ، بصفة عامة ، ولاسيما ما يتعلق منه بالتقنية والتنظيم . فهؤلاء المؤلفون لا يفتأون يشيدون بنبل المهنـة اليدوية وعلو مكانتها .

وفى هذه الاثناء ، نجد المنظمات المهنية فى البلدان التي تدين بمذهب أهل السنة (غير القرامطة) تتعرض للاضطهاد ، أو على أحسن تقدير لكثير من القيود والمراقبة الشديدة التي تمثل استمرارا لروح التشكك وسوء الظن القديمة فى علاقات السلطة بعالم العمل . وهذه الروح لم يلحقها الا تغيير طفيف نتيجة للتنظيم الجديد الذي جاء به القرامطة .

وأما فى البلاد الخاضعة لسلطان الفاطميين ، على العكس من المعمول به فى البلدان التي تدين بمذهب أهل السنة ، فقد كانت المنظمات المهنية تتمتع بكثير من الحرية والرخاء ، حيث كانت الدولة تعترف بها ومن التنظيمات المهنية التي عرفت كثيرا من النجاح ، عقب تأسيس القاهرة (970 م) ، تلك التي كانت تضم طلبة وأساتذة جامع الأزهر (افتتح فى سنة 972 م) ونحن نجد فى هذا التنظيم دليلا على الاهتمام الذي كانت نظرية القرامطة توليه للتعليم — تلك الاهمية التي تؤيدها « انسيكلوبيديا » مشهورة ، « رسائل اخوان الصفا » ، حيث نجد فيها تركيزا على تمجيد العمل الذهني واليدوي .

وهكذا كان ازدهار التنظيم الذي جاءت به حركة القرامطة فى مصر ، عاملا من عوامل الرخاء والتوسع الصناعي والتجاري الذي شهده البلد . والحركة نفسها ، ستجد فى مصر ظروفا ملائمة لانتشارها فى اتجاه البحر الاحمر والمحيط الهندي . ولكن صلاح الدين الايوبي ، سيقمع الحركة ، على الاقل فى مصر ، ويحرم التنظيمات المهنية فى سنة 1171 ميلادية ، من الامتيازات التي كانت تتمتع بها .

وعدم قيام التنظيم المهني على أساس من الدين ، يشكل الفارق الاساسي بين التنظيم الفاطمي — القرمطي ، والتنظيم الذي كان سائدا فى الغرب المسيحي . وهذا التنظيم يذكرنا بأن نظرة الشرق عالمية وأنه كان مفتوحا لمختلف التيارات ، وأن كيانه الاجتماعي يتركب من عناصر متكاملة ، وذلك فى الوقت الذي كان الغرب المسيحي فيه يتمسك بعقائد جامدة ومغلقا على نفسه . فان المسلمين والمسيحيين واليهود ، كانوا يتمتعون بالعضوية فى التنظيمات المهنية فى العالم الاسلامي ، على قدم المساواة . بل اننا نجد أن غير المسلمين ، فى بعض هذه التنظيمات يشكلون أغلبية . وهذه هي الحالة خصوصا ، فى تنظيم الصياغة ، وفى التجارة

فى المعادن الثمينة وفى الصرافة ، حيث كان اليهود يقومون بدور معتبر ومعظم الأطباء كانوا مسيحيين أو من اليهود .

وفى الختام ، لابد من أن نربط الازدهار الاقتصادي المفاجىء الذي شهده العالم الاسلامي ، بالتوترات الناجمة عن انتشار الحركة الجديدة للتنظيم المهني . وأهم خصائص هذا التنظيم : تلقين الطقوس ، والتضامن المهني ، وأداء اليمين ، وانتخاب الرؤساء والنظرية تقوم على مبادىء سرية واجتماعية فى نفس الوقت .

وهذه الخصائص . هي التي تميز التنظيم المهني فى العالم الاسلامي عن التنظيم المهني الذي كان سائدا فى عهد بيزنطة ، وفى عهد الساسانيين، والذي كان ذا طابع رسمي تحت اشراف الدولة : ولا يكاد يتجاوز اجتماعات يعقدها الصنـاع اليدويون الذين يراقبهم موظفوا الدولـة ويخضعون لقواعد تمليها السلطة الحاكمة .

ومع ذلك ، فان التنظيم الجديد لم يكن خاليا تماما من كل تأثير للنظام القديم . بل على العكس ، فان رواسب هذا التأثير كانت فى الشرق عناصر سيعاد تركيبها ، بحيث يتكون منها نظام فى القرن العاشر الميلادي، يتميز ، كما قلنا ، عن التنظيم الذي سيسود فى الغرب المسيحي خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلادي . وهذا التنظيم الاخير ، سيقتبس كثيرا من التنظيم الشرقي ، وسيكيف العناصر التي اقتبسها لظروف البيئة الغربية التي تقوم على عقائد جامدة ، والتي لا تزال من بعض النواحي بيئة ريفية .

وفى هذا السياق تجدر الاشارة الى أهمية الحركات غير المتجانسة التي يعود أصلها الى التنظيم المهني الذي كان سائدا فى العالم الاسلامي،

والتي يمكن التقريب بينها وبين حركات البتران (Patarien) (8) فى ايطاليا الشمالية فى القرن الحادي عشر ، أو حركة (9) فى حوض الاكتيان (Aquitain) (10) (Abigeois) الألبيجوا وكلها ذات طابع ديني واقتصادي وصوفي واجتماعي : مثل حركة القرامطة .

---

8 ـ هو الاسم الذي يطلق على اعضاء عدد من الجمعيات الالحادية الهرطقية التي ظهرت فى القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر الميلادي ، خصوصا فى شمال ايطاليا . « المترجم » .

9 ـ أو « كاثار » (Cathares) اسم لطائفة انتشر نفوذها ابتداءا من القرن الثاني عشر الميلادي فى جنوب فرانسا (فى ناحية مدينة البي (Albi) كان البابا انوسنت الثالث قد أعلن حربا صليبية عليها (1209 م) وقد قاد الصليبيين فى هذه الحرب سيمون الرابع (Simon IV) صاحب مونفور (Montfort) فخربوا مدينة بيزيير (Beziers) ومدينة كركصون (Carcassonne) وعلى الرغم من مساندة الكونت دوتولوز ، ريمون Raimond السادس لها ، فقد هزمت هذه الطائفة فى معركة وقعت فى مور (Muret) سنة 1213 ثم فى مدينة تولوز (Toulouse) فى سنة 1218 ميلادية ، وقد كانت هذه الحرب كارثة على جنوب فرانسا لأن الحرب التي اشترك فيها لويس الثامن ، لم تنته الا بمعاهدة باريس 1244 م (Montseegm) وأما أنصار الطائفة ، فقد تشتت شملهم بعد تدمير مونتسيجور (1244 م) . «المترجم» .

10 ـ يتخذ حوض الاكيتان شكلا مثلث الأضلاع ويمتد بين سلسلة جبال أرموريكا (Armoricain) وسلسلة الجبال الوسطى ، وجبال البرانس (Pyrenees) الأطلسي ، وهو يشكل فى معظمه حوض نهر الجارون (La Garonne) « المترجم » .

الفصل الثامن

الانتاج وسلع التبادل التجاري

أهم الخصائص التي تميز المناخ الاقتصادي الذي كان ينمو فيه الانتاج فى العالم الاسلامي ، هي الاقبال على الاستهلاك.والاقبال على الاستهلاك منشؤه ظهور المدن الكبيرة وازدهار العمران فيها ، حيث أن طلبات السكان فى ازدياد مستمر الى الكمية والى النوع أيضا ، بسبب ارتفاع مستوى المعيشة . ولكن الاقبال على الاستهلاك يشمل أيضا الكماليات الرائجة فى قصور الملوك وبين طبقة السكان الثرية .

وفى هذا السياق ، يبدو من الضروري أن نقدم أولا ، وصفا جغرافيا للمنتجات التي ستشكل قائمة محلية للسلع التي يجري تداولها فى الاسواق .

وفى نهاية هذه الدراسة ، ستكون الخريطة التي نرسمها ، أكثر من مجرد عرض لهذه المنتجات (أ) حيث أنها ستسلط الأضواء أيضا على سلسلة من المشاكل الحيوية . ودراسة كل قطاع للانتاج على انفراد ؛ على ضوء متطلبات مراكز الاستهلاك ، سيسمح لنا بالتمييز بين الانتاج الذي يستهلك محليا ، والانتاج الذي يجهز للتصدير الى بلدان قريبة أو بعيدة ، وبعبارة أخرى ، السلع التي ينصب عليها التبادل التجاري مع الخارج .

وهكذا ، سنتمكن من تقييم تطور حاجات مراكز الاستهلاك وتحديد شكل الاستهلاك ، وقوة الطلب فى مختلف المراحل التاريخية التي مرت بها هذه المراكز : انشاؤها ، ونموها ، وازدهارها ، ثم انحطاطها .

(أ) ــ لم يتمكن الاستاذ الراحل من اتمام هذه الخريطة حيث عاجلته يد المنون فى وقت مبكر .

وهدفنا النهائي من هذه الدراسة ، هو تقديم وصف جغرافي للمنتجات التي يجري تداولها بنشاط من حيث المكان (مشاكل التموين) ، ومن حيث الزمن (مشكلة أنواع الطلب الى منتجات للاستهلاك) . وستكون دراسة المنتجات على أساس قوائم كبيرة ، الخطوة الاولى فى عرض مخطط عام لشبكة التبادل التجاري الخاضعة لمعطيات الجغرافيا الطبيعية والبشرية .

وعلى أساس هذا المخطط ، سندرس النباتات الغذائية ومنتجات تربية الحيوانات ، والاخشاب ، ومنتجات الغابات ، والمعادن والاسلحة والمنسوجات والاقمشة ، ومنتجات الحجر والارض . ومنتجات البحر ، ودعائم الكتابة : ورق البردى والرق ، والورق ، والمنتجات الطبية والرقيق .

النباتات الغذائية :

يقوم غذاء الشعوب المستقرة فى الشرق وعلى ضفاف البحر الابيض المتوسط ، أساسيا على النباتات . والنباتات الرئيسية هي الحبوب (الدقيق والخبز والعجين بمختلف أنواعه) والزيتون الذي يشكل زيته المادة الدسمة الاساسية ، والخضروات والفواكه ، ولاسيما الكرم الذي يؤكل عنبه أو يعصر خمرا ، وهو نبات خاص بحوض البحر الأبيض فى العصور القديمة ، والنخيل الذي يشكل انتاجه من التمر أساس الاغذية فى الواحات . وهذا الغذاء من النبات الخالي من الطعم فى حد ذاته ، يفترض استعمال التوابل لتحسين مذاقه .

وعلى العكس من ذلك ، فان غذاء شعوب آسيا الوسطى الرحل ، وايران وشبه الجزيرة العربية والصحراء ، يقوم على اللحوم ومنتجات الالبان . والمادة الدسمة للطبخ فى هذه المناطق ، هو السمن .

ودراسة العادات والانظمة الغذائية ـ وهي تكتسي طابعا من الاهمية لأنها بمثابة محرك للانتاج ـ يجب أن تكون مقرونة بدراسة المسائل التي تتعلق بنقل النباتات .

والمزروعات التقليدية فى العالم القديم فى حوض البحر الابيض المتوسط ، هي فى معظمها ، مما يزرع فى الارض الجافة : الحبوب (القمح والشعير) ، وشجر الزيتون والكرم . وأما المزروعات التي نقلت الى هذه المناطق ، فهي كلها ، من المزروعات التي تعتمد على الري : الأرز وقصب السكر وشجر البرتقال والنخيل . والامر كذلك بالنسبة الى المزروعات الصناعية : القطن وشجر النيلة .

وادخال هذه المزروعات الاستوائية وشبه الاستوائية ، يرتبط بطبيعة الحال ، ارتباطا وثيقا بتوسيع المناطق التي يشملها الري وبالتقدم التقني الذي تحقق فى مجال الزراعة .

وانتقال هذه المزروعات قد تم ، أو على الاقل ، زاد نشاطه حدة ، نتيجة لتكوين العالم الاسلامي الذي خلق حلقة اتصال بين منطقتين متكاملتين للانتاج ، بتوحيده شواطىء المحيط الهندي وشواطىء البحر الابيض المتوسط .

وانطلاقا من هذه الحقيقة ، كانت الطرق التجارية التي تستعمل لتبادل المنتجات ، تستخدم فى نفس الوقت وسيلة لنقل المزروعات .

ودراسة الازمنة التي انتقلت فيها المزروعات والطرق التي سلكتها ، والتوسع التدريجي الذي عرفته ، وما نجم عن هذا الانتقال من اتساع قائمة المنتجات الزراعية وتنوعها، تشكل فصلا جوهريا فى تاريخ الاقتصاد .

والاقبال على الاستهلاك ، يقوم أساسيا على حاجات المراكز العمرانية الكبيرة الى المواد الغذائية . وهذه الحقيقة مهمة من حيث الاسباب التي أدت اليها والنتائج التي أسفرت عنها . وهذا الاقبال نجم عنه ، خصوصا نمو زراعة البقول والخضروات ، في حدائق وجنات (فحوص) ، تختط في ضواحي المدينة الكبيرة .

والظاهرة الاخرى التي يمكن ملاحظتها هي ، أن بعض المزروعات تنتشر في مناطق مناخها غير ملائم ، وبالتالي ، فانتاجها ليس من النوع الجيد . ولكن الناس يبقون عليها ويقنعون بها لأنها قريبة المنال . وهذا ما حصل في الغرب المسيحي ، حيث كان الكرم يزرع في شمال فرنسا وأروبا ، وهي مناطق تقع خارج الحدود الطبيعية لنمو هذا النبات .

وأمثلة هذه الظاهرة كثيرة في العالم الاسلامي : قصب السكر في شمال اسبانيا ، والقطن في شمال افريقية والكروم في أديرة الصعيد (وكانت قد نقلت الى هذه المنطقة لأغراض دينية) .

ولكنه الى جانب هذه المنتجات ، توجد منتجات أخرى تتخصص في انتاجها مناطق معينة وتتمتع بشهرة عالمية ، يجري تصديرها بفضل النمو الذي شهده التبادل التجاري العالمي ، الى مناطق أخرى حيث يشتد الاقبال عليها . وهذه المنتجات هي التي يتحدث الرحالة والجغرافيون العرب عنها حين ينوهون بنوع مادة ويقولون عنها « وتجهز الى الاقطار ». ومثال ذلك ، تمر الجريد ، وجوز تبسة ، والتين والزبيب الذي تنتجه مالقه ، والبرقوق والمربى التي تنتجها ضواحي دمشق .

والحبوب ، ولاسيما القمح والشعير ، من المزروعات القديمة في حوض البحر الابيض المتوسط . ويعتمد انتاج الحبوب على ثلاث مناطق كبيرة ، تشكل « الاهراء » التقليدية . وأول هذه المناطق ، مصر التي

اشتهرت فى التاريخ بكثافة السكان ، وبالتالي ، فهي بلد قوي الاستهلاك. ومع ذلك ، فان مصر كانت دائما تنتج فائضا من الحبوب للتصدير . فان الضريبة من « محصول الحول » التي كانت مصر تدفعها عينا ، كانت تنتجه ، على التوالي ، الى روما ، ثم الى القسطنطينية ، ثم الى مكة والمدينة ودمشق .

وقد كانت التجارة فى الحبوب ، وهي فى مقدمة المنتجات التي تصدرها مصر تجري عن طريق القوافل فى اتجاه الواحات الليبية وفى اتجاه الصحراء الشرقية والنوبة ، أو بواسطة السفن الى برقة والموانىء العربية على البحر الأحمر ، والى عدن وشواطىء الخليج وعمان والبحرين والبصرة . ومن هذه المدينة الاخيرة ، ينقل القمح المصري الى بغداد .

وأما سورية ، فهي تصدر الدقيق عن طريق القوافل الى البلاد الداخلية فى شبه الجزيرة العربية ، وبواسطة القوارب التي تنزل فى نهر الفرات الى بغداد وغيرها من مدن ما بين النهرين .

وهكذا نجد بغداد ، مرة أخرى ، مع القمح المصري ، الذي يصل اليها بعد رحلة بحرية حول القارة ، والدقيق السوري الذي ينزل اليها عن طريق الفرات ونهر عيسى ، مركزا عظيما من مراكز التجارة العالمية فى المنتجات الغذائية .

والهرو الأخير من أهراء القمح فى العالم الاسلامي ، هي افريقية الشمالية ، ولا سيما سهول نهر مجردة ، وبجة التي كانت ترسل كل يوم ألف حمل بعير من الحبوب الى القيروان وتونس .

وكذلك كان المغرب الأوسط والمغرب الأقصى كلاهما غنيا بانتاج الحبوب . والمناطق المشهورة بانتاج القمح والشعير ، هي سهول قسنطينة،

وسطيف ، وشواطيء المحيط الأطلسي ، والهضاب العليا في المغرب الأقصى

وهذا القمح الذي تنتجه افريقية الشمالية ، يصدر بواسطة السفن الى اسبانيا وصقلية ، وبواسطة القوافل في اتجاه سجلماسة ، والصحراء الغربية وبلاد السودان (افريقية الغربية) .

والجدير بالتسجيل ، أن قوافل البربر كانت هي التي أدخلت زراعة القمح المروي في مواسم الجفاف الى سواحل افريقية الغربية ، خلال الفترة بين القرن العاشر والقرن الحادي عشر الميلادي .

وفي الاتجاه المعاكس ، اتخذت الذرة البيضاء (السورغو) التي هي من الحبوب الرئيسية ، التي تنتجها افريقية الغربية ، طريقها الى الشمال ، نحو النوبة ومصر العليا والواحات الليبية وبرقة والتل الجزائري ، في نقاط معينة ، ثم الى المغرب الأقصى .

وفي هذه الفترة ، انتشرت زراعة الأرز في حوض البحر الأبيض المتوسط ، بعد ما انتقل من الهند الى أسفل ما بين النهرين حيث كان يزرع منذ الفترة السابقة لميلاد المسيح . ومن أسفل ما بين النهرين ، انتقل الأرز تدريجيا الى جميع المناطق الملائمة في الجزء الواقع على البحر الأبيض المتوسط من العالم الاسلامي وكذلك صلحت زراعة الأرز بالري في منخفض الغور ، أي على ضفاف البحر الميت ونهر الأردن ، وفي الفيوم والواحات المصرية ، وفي السوس الأقصى ، في جنوب المغرب وقد لقيت هذه النبتة نجاحا ، بصفة خاصة في اسبانيا ، في سهول النهر الأعظم وفي منطقة بلنسية التي كان انتاجها وفيرا .

وهكذا نرى أن العالم الاسلامي ، قد أضاف الى زراعة الحبوب القديمة في البحر الأبيض الروماني ، الذرة البيضاء التي جاءت من الجنوب والأرز الذي جاء من الشرق .

والأساس الآخر الذي يقوم عليه انتاج المواد الغذائية : الزيتون وهو شجر موطنه البحر الأبيض المتوسط ، حيث أن انتشاره ينحصر فى المنطقة التي يسود فيها مناخ البحر الأبيض . ومراكز الانتــاج وتصدير الزيت متعــددة .

وأول هذه المراكز ، افريقية ، وخصوصا الساحل التونسي الــذي يسمى « غابة الزيتون » . وهذا الشجر مفخرة افريقية التي ورثته عــن الرومان ، قد قاوم عوادي الزمن ، بما فى ذلك الغزو الهلالي فى القرن الحادي عشر الميلادي .

وسفاقس ، هي الميناء الكبير الذي يصدر منه الزيت التونسي « مرسى الزيت » ، كما يسميها ابن حوقل . ومن هذه المدينة يتجه الزيت التونسي الى مصر ، وهو بلد لا يملك شجر الزيتون ، والى صقلية وايطاليا وبيزنطة والمغرب الأوسط .

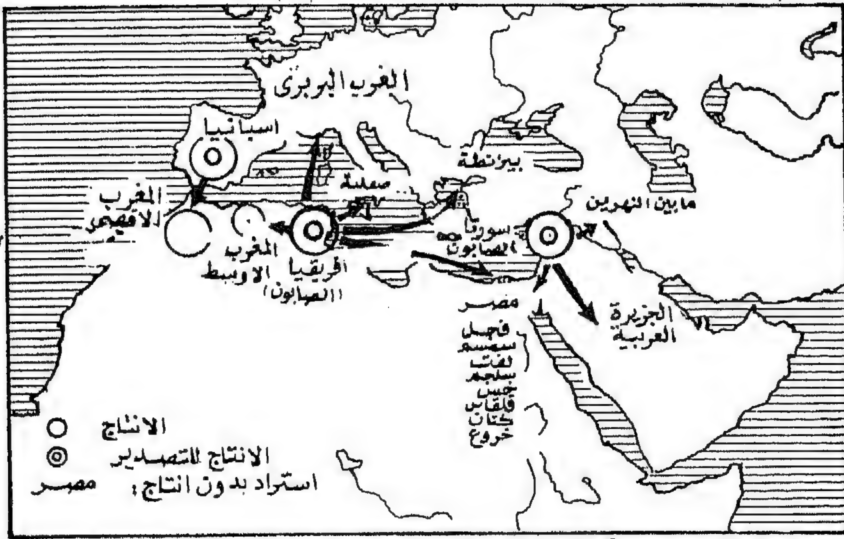
وأما سورية ، فقد عرفت انتشار شجر الزيتون الذي تمتد حقوله من فلسطين حتى منطقة انطاكية . وسورية من كبار البلدان المصدرة للزيت الذي ينقل عن طريق القوافل الى مصر وجزيرة العرب ، وعن طريق نهر الفرات الى ما بين النهرين .

واسبانيا كانت هي الأخرى تصدر الى المغرب الأقصى الزيت الذي تنتجه منطقة النهر الأعظم ، وخصــوصــا الشرف(Algarafe) الواقعة فى شمال اشبيلية .

ومن جهة أخرى ، فان المغرب الأقصى ، شهد نمو شجر الزيتون فى أرضه شيئا ، فشيئا ، ولا سيما فى مناطق فاس ومكناس (التي تسمى مكناس الزيتون) ، حيث سيحل تدريجيا محل شجر البرتقال .

وأما مصر التي ليس لها شجر الزيتون ، فهي تستورد ما تحتاج اليه من الزيت من سورية وافريقية .

وكذلك تعتمد مصر على انتاجها المحلي من فجل الخيل والسمسم واللفت والقلقاس والخس والخروع والكتان وما يستخرج من هذه النباتات من الزيتون .



المشكل رقم ١٧ - تجارة الزيتون في البحر الابيض الاسلامي

وقبل أن تترك موضوع الزيتون ، ينبغي ألا ننسى أن نشير الى أن زيت الزيتون يمون عددا من الصناعات ، مثل الصابون وزيت التواليت التي تقوم عليها صناعة الروائح العطرية . وفي هذا المجال أيضا ، نجد أن مراكز الصناعة الكبيرة ومراكز تصدير هذه المنتجات ، تقع في سورية وفي افريقيــة .

والكروم ، مثل شجر الزيتون ، من أقدم المزروعات التي انتشرت على ضفاف البحر الأبيض من سوريا حيث كانت العقيدة الدينية تتطلب

استعمال الخمر في بعض الطقوس . ولكن الاسلام حرم الخمر ، وكان بعض الخلفاء الأتقياء ، مثل الحكم الثاني الأموي في قرطبة ، يهددون باقتلاع الكروم . ولكنه على الصعيد العملي ظل الخمر مستعملا ومنتشرا في العالم الاسلامي في مجموعه ، كما كانت قصور الخلفاء كثيرا ما تتردد فيها أصداء القصائد التي يتغنى فيها الشعراء بالخمر .

والكروم تصلح في جميع الأراضي الواقعة على ضفاف البحر الأبيض المتوسط ، ولكن المناطق الكبيرة الانتاج والتي تنتج للتصدير ، هي فلسطين (خمر عسقلون) سورية الشمالية (بيت رأس) ، وخمور كلتي المنطقتين كانت مشهورة منذ العصور القديمة . وقد اشتهرت مصر بخمور دمياط ومريوط ، كما اشتهرت خمور ساحل افريقية .

وأما اسبانيا ، فقد كانت تنتج عددا من الخمور المشهورة التي أهمها : خمر مالقه وبريجو وجبريز . وهذا النوع الأخير يعصر من عنب كرمة استوردت من شيراز ، في ايران .

وهذه القائمة من الخمور التي يذكرها المؤلفون المسلمون بكل تسامح ، تدل على أن زراعة الكروم كانت تحظى بعناية على الرغم من تحريم القرآن للخمر وهذه الحالة سوف لا تتغير الا في القرن الحادي عشر الميلادي ، حينما تغير وضع الاسلام .

وعلى كل حال ، فان البلدان المذكورة نفسها كانت من أكبر المنتجين للزيت : دمشق والخليل في سورية ، وأسنى في مصر العليا ، ومالقه في اسبانيا .

وشجر النخيل موطنه الحقيقي والمفضل ، هو ما بين النهرين وايران . ومنذ الفترة السابقة للفتح الاسلامي ، كانت النخلة قد دخلت الى سورية الجنوبية ومصر وجنوب تونس . ولكن الفتح الاسلامي وسع زراعة

النخيل ، الى سورية الشمالية وجزيرة صقلية خصوصا ، (غابات النخيل فى مالطة وعين زربة) ، والى اسبانيا ، وخصوصا الى الصحراء الغربية حيث يعتبر التوسع فى تربية الجمل وانتاج العلف وحفر الآبار وزراعة النخيل ، عوامل أساسية فى اعمار الصحراء .

والمناطق الكبيرة الانتاج والتي تصدر التمر ، هي شواطىء الخليج ، وجنوب تونس والجزائر : الجريد ومنطقة بسكرة والزاب .

وأما قصب السكر ، فقد أدخلت زراعته من الهند الى ما بين النهرين (سوزيان) فى عهد كسرى أنو شروان (530 — 579 م .) (1) من الهند . وقد أصبحت ولاية سوزيان ، أو خوزستان فيما بعد ، مركزا مهما لزراعة قصب السكر ، يمون جميع مناطق الشرق الاسلامي بهذه المادة . ومنذ ذلك الوقت ، نلاحظ قيام صلة بين العمل فى مزارع قصب السكر واليد العاملة من العبيد السود الذين يستوردون من افريقية الشرقية .

ومن خوزستان ، ستنتقل زراعة قصب السكر ، فى مرحلة تالية ، وتنتشر فى حوض البحر الأبيض المتوسط فى العصر الاسلامي وخصوصا فى مصر التي صلح فيها قصب السكر وبوشرت زراعته فيها ابتداء من القرن الثامن الميلادي . ومنذ ذلك الحين كانت أخصب التربة المصرية تزرع بقصب السكر .

ومن مصر ، انتقلت زراعة قصب السكر الى سورية ثم الى جنـــوب المغرب الأقصى (منطقة وادي سوس) ، والى الشواطىء الاسبانيـــة الجنوبيـــة

---

1 — كسرى الأول ، أو خسرو انوشروان بن قباذ ، ملك ساساني حارب بيزنطة واحتل انطاكية ثم عقد معاهدة مع البيزنطيين واستولى على اليمن (570 م) . اشتهر بعدله وبمشاريعه الزراعية ولا سيما ، مسح الأرض واصلاح نظام الضرائب . «المترجم» .

ولكن مصر ، ستظل المركز الرئيسي في حوض البحر الأبيض المتوسط لانتاج السكر ولتصدير هذه المادة . وكذلك كانت مصر تستهلك (على الأقل ، في قصور الفاطميين) كميات كبيرة من السكر الذي سجلت صناعته تقدما معتبرا . وكانت الحلويات والمربيات المصرية تتمتع بشهرة واسعة . وكانت المربيات من أهم صادرات دمشق . ونحن ينبغي ألا ننسى أن عادة تناول « الحلو » بعد الوجبات عادة شرقية .

والسكر الذي يصنع في مصر والشام ، سرعان ما تجد كميات كبيرة منه طريقها الى بيزنطة ثم الى الغرب المسيحي . وأول شحنة من السكر (الاسم الذي لا تزال هذه المادة تحمله في اللغات الأروبية) سجل تاريخ وصولها الى البندقية ، تعود الى سنة 996 ميلادية .

وكما أشرنا ، فان زراعة الخضر والفواكه قد انتشرت حول المدن الكبيرة وقد تحسنت طرق الانتاج تحسنا معتبرا ، خصوصا بتوسيع المناطق المروية . وكانت اسبانيا مثالا لتطور زراعة الخضر والفواكه .

وفي هذه الفترة ، انتشرت زراعة الخرشوف والسبانخ والكراث الأندلسي والموز والأترج والليمون والبرتقال . وقد أدخلت زراعة البرتقال من بلاد ما بين النهرين الى سورية في سنة 943 م . ، وفي سنة 970 ، شوهد البرتقال في جزيرة صقلية وفي جنوب المغرب الأقصى وفي نهاية القرن العاشر ، وصل البرتقال أيضا الى مالقه ثم الى غرناطة وفي سنة 1047 ميلادية ، كان البرتقال يزرع في مصر على السطوح في أكياس خاصة . وفي سنة 1068 ميلادية ، وصل البرتقال الى برقة .

وهكذا تكونت « حديقة » أو ، ان شئت ، « واحة » البحر الأبيض المتوسط ، بما فيها من شبكة من قنوات الري ومن أنواع الخضروات وأشجار الفواكه النموذجية . وهذه الحديقة الاسلامية تختلف اختلافا

كبيرا عن الحديقة المنتشرة على ضفاف البحر الأبيض المتوسط فى العصور القديمة ، والتي أضيفت اليها أنواع كثير من النباتات والأشجار فى العصر الهليني ، مثل الجزر والكرز والخوخ والمشمش .

وفى فترة لاحقة ، سيتلقى حوض البحر الأبيض أنواعا جديدة من النباتات الأمريكية ، مثل الفاصوليا والطماطم والبطاطس والذرة الصفراء والتين الشوكي « الصبير » .

وكما نرى ، فان الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي ، تشكل فى مجموعها مرحلة هامة فى تاريخ المزروعات الغذائية ، وذلك بادخال أنواع جديد من المزروعات وبتنمية تقنية الزراعة والانتاج فى نفس الوقت .

تربية الحيوانات :

ينبغي أن نفرق بين تربية الحيوانات فى المدن للأغراض المنزلية ، وتربية البدو الرحل للحيوانات ، حيث أن نشاط الفئة الأخيرة يكتسي أهمية أكبر بسبب تعدد الأغراض التي تستخدم الحيوانات فيها (توفير اللحوم والدهون ومنتجات الألبان) . والحيوانات التي تنتجها الفئة الأخيرة توفر أيضا المادة الأولية للصناعات (الصوف والجلود) ، كما توفر الطاقة المحركة (الفرس والجمل والبغل والحمار) . وهذه الحيوانات ، من جهة أخرى . هي أساس القوافل التي تتكون من عدد كبير من حيوانات النقل والتي تربط بين الطرق التجارية فى اليابسة . ويضاف الى ذلك ، ما تنتجه هذه الحيوانات من طاقة الدفع والجذب لتسيير النواعير (2) والآلات التي يستخلص بها الماء لاغراض الري .

---

2 – راجع : G.S. Colin, La Noria marocaine et les machines hydrauliques dans le monde arabe, Hisperis, XIV, 1932, pp. 22 et suivantes.

نمت تقنية تخصيص الحيوانات لأغراض معينة فى العالم الاسلامي ، ولا سيما تقنية الفروسية تحت تأثير حضارة آسيا الوسطى : الركاب ، والسرج ، وأكليل الجواد ، وقلادة الشد ، ولعبة كرة الفرسان «البولو». والنتائج الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي ترتبت على نمو تقنية تربية الحيوانات وتخصيصها للأغراض التي تلائمها ، نتائج خطيرة الشأن ، ومن هنا أهمية دراسة مناطق تربية الحيوانات وامتداد هذه المناطق وتعددها ، وتنقل الحيوانات .

انتشر الجمل فى مركزين واسعين : أولا : آسيا الوسطى بلد الجمل ذي السنامين (المسمى البكترى) ، وبلده الأصلي هي المنطقة التي تمتد بين النهرين الكبيرين ، أموداريا وسرداريا ، ثم جزيرة العرب ، ولا سيما وسط الجزيرة « نجد » ، بلد الجمل ذي السنام الواحد .

وقد كانت المناطق الرئيسية لتربية الجمل فى غضون الفترة التي تمتد بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي ، هي : آسيا الوسطى وايران وما بين النهرين من جهة ، والجزيرة العربية (نجد وعمان وحضرموت والحجاز) ، ثم أثيوبيا والنوبة (جمال بجة) وواحات الصحراء الغربية ، من جهة أخرى .

ولكن منطقة الجمل ستتبع لتشمل سوية الشمالية ، وآسيا الصغرى ، وضفاف بحر قزوين من روسيا الجنوبية ، وأسبانيا ، والسودان ، وكذلك تعددت طرق انتقاء السلالات والتهجين ، ولا سيما بين قطعان الساقية الحمراء ، التي ستنتج البعير القوي والبطيء لحمل الأثقال ، والبعير السريع الذي يستعمل للركوب ، وخصوصا لنقل الأخبار .

والفرس له أربعة عروق أساسية : الفرس التركي — المنغولي الذي أصله آسيا الوسطى ، وهو صغير ، مكتنز ، قوي العضلات ، شديد

المراس ، وقنوع . وهذا الفرس ، هو الذي تتكون منه خيالة كبار الغزاة الأسيويين . وأصل هذا الفرس يمتد شرقا الى الصين الشمالية ، وغربا الى السهوب وأوروبا الشرقية وأوروبا الوسطى .

والفرس الايراني مفتول العضلات ، ويستطيع أن يحمل فارسا مدججا بسلاح ثقيل ، وهذا الجنس يصدر كثيراً الى الخارج ، وقد وصل الى الهند ، عن طريق الخليج ، فكان تجار الخيل الايرانيين هم الذين كونوا خيالة مهرات (3) .

والفرس البربري ، أصله من نوميديا (4) ، أو بعبارة أدق هو ينتمي الى التلال المرتفعة الشمالية والى أطراف الصحراء فى هذه المنطقة ، وهو حيوان صغير نوعا ما ، قوي البنية شديد المراس ، ومنذ العصور القديمة ، كانت خيول جميع البلدان الواقعة على ضفاف البحر الأبيض المتوسط الغربية تلقح تدريجيا بدم الفرس البربري ، وذلك خصوصا فى ايطاليا وأسبانيا وفى جنوب الجولوا ، وغزو المسلمين لأسبانيا وصقلية بجيش يتغلب فيه العنصر البربري ، سيعزز هذا الاتجاه ، وينجم عنه الحصان الأندلسي الذي يسمى باللغة الاسبانية « جنيت » (Jinet) أي زناتي ، نسبة الى القبيلة البربرية الكبيرة ، التي اشتهرت بفرسانها ، والتي كانت تقطن الهضاب المرتفعة فى المغرب .

والجنس الأخير فى الخيول المشهورة ، هو الفرس السوري الذي ظهر منذ عهد الرومان ، نتيجة لتهجين الفرس البربري الذي كان يستورد الى شمال سورية ، بالسلالة الايرانية التي كانت ترعى فى الشتاء فى سهوب الصحراء « بادية الشام » ، ثم انتشر فى العصر

---

3 — شعب هندي يسكن ولاية مهاراشتر (Maharashtra) « المترجم ».

4 — تمتد نوميديا بين قرطجنة والمغرب الاقصى فى عهد الرومان ، والجزائر تشكل تقريبا ، نوميديا ، مع تعديل خفيف فى الحدود الشرقية . «المترجم» .

الاسلامي الى نجد ، وهي منطقة رعي مرتفعة فى وسط الجزيرة العربية ، والحصان العربي الخالص ، هو حصان للسرج والركوب ، وله شكل رفيع وذو حرارة وحركة سريعة ، وكان الحصان العربي يصدر الى الشرق عن طريق الخليج ، حيث يختلط بالخيول الايرانية التي تصدر الى الهند ، كما كان يصدر الى الغرب فى اتجاه البحر الأبيض المتوسط .

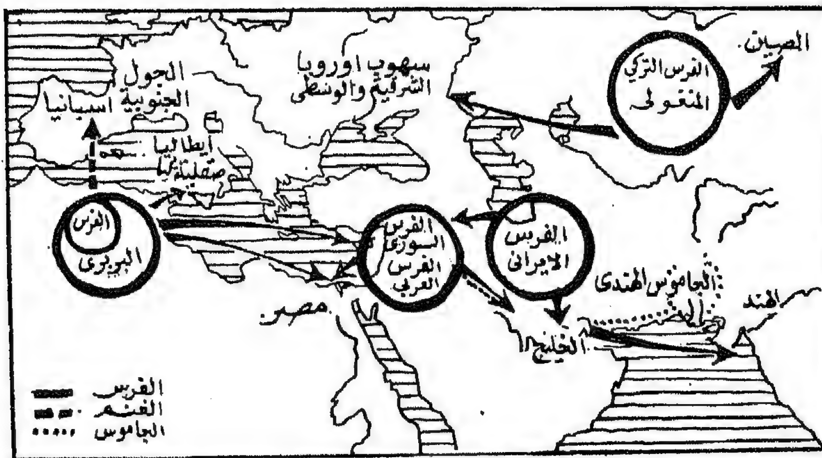
وقد كانت مصر هي الأرض التي التقى فيها الحصان العربي الفارسي بحصان افريقية الشمالية ، ومن هنا كانت خيالة مصر تبعث الرعب فى نفوس الغزاة المنغول والصليبيين .

وفى مقابل النمو الذي شهدته تربية الخيول ، نلاحظ تقدما تقنيا كبيرا فى دراسة خصائص الخيول وأصولها ، كما تشهد بذلك الكتب العديدة التي وضعت فى هذا الموضوع ، فان الدارسين للفرس اهتموا بتصنيف مزايا الخيول وعيوبها وأمراضها وسرعتها ، بدقة . وهذه العناية والتدقيق ، كانت أساسا لمصطلحات تقنية كثيرة ولطرق البحث سيطورها البيزنطيون والغرب المسيحي ، ولكنهم سيحتفظون ، مع ذلك بكثير من المصطلحات والكلمات العربية التي لا يزال المختصون فى تربية الخيل يستعملونها حتى الآن .

ومن المسائل المهمة التي تتصل بتربية الخيل ، مسألة التوسع فى زراعة النباتات الضرورية لغذاء الفرس ، مثل الشعير والبرسيم فان السهوب وأطراف الصحراء ، تحتوي على مراعي طبيعية ولكن مناطق الزراعة الكثيفة والحدائق ، تحتاج الى خلق مساحات للرعي بطرق صناعية ، مثل المروج المروية .

وكذلك رأينا زراعة البرسيم تنتشر من ايران الى ما بين النهرين ثم الى مصر وأسبانيا غربا ، والى الصين عن طريق آسيا الوسطى شرقا .

والغنم يربى لتوفير الغذاء للرحل ، ولكنه يربى ، خصوصا ، لانتاج الصوف ، ومن ثم ، فان من الطبيعي أن يرتبط التوسع والتقدم فى تربية الغنم ، بنمو صناعة الصوف ، وهذه الظاهرة ، سنشاهدها فى انجلترا خلال القرن الثاني عشر والثالث عشر الميلادي،حيث كانت قطعان الأديرة الانجليزية تقدم المادة الأولى الضرورية لصناعة الأجواخ الفلمنكية .



الشكل رقم ١٨ - انتقال انواع من الحيوانات وتاقلمها فى العالم الاسلامي
(خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر)

وفى غضون الفترة التي تهمنا (القرن الثامن ــ القرن الحادي عشر الميلادي) ، كان العالم الاسلامي هو المنتج الوحيد للصوف فى العالم . ونحن هنا ، بالطبع نتحدث عن انتاج واسع النطاق ومن النوع الجيد .

والموطن الأول لتربية الغنم ، هي السهول المرتفعة التي تمتد فى شمال افريقية ، حيث كانت تربى سلالات ذات صوف رفيع غزير مجعد نادر . وهذه السلالات ، تكيفت فى أسبانيا بفضل البربر الذين استقروا فى هذه الديار . والغنم البربري ، لا يزال يحمل باللغة الاسبانية اسم « مرينو » (Merino) المشتق اما من بني مرين ، وهي قبيلة بربرية من الرحل فى المغرب الأقصى أو من الكلمة العربية « مرن » ، أي لين ناعم (الصوف) .

والى جانب تلقيها لهذه السلالة من الغنم ، استقبلت أسبانيا أيضا ، طريقة البربر لتربية الغنم ، وهذه الطريقة تقوم على التربية الجماعية للغنم ، بمعنى أن مجموعة من السكان تعهد بقطيع كبير للرعي الى راع مسؤول يساعده عدد من الرعاة ، على معرفة تامة بالمراعي الجيدة فى الصيف وبالمناطق الجبلية ، وبهذا النظام الذي يسمى « المشتى » تملك أسبانيا ، مؤسسة للرعي نادرة فى العالم ، سيستمر العمل بها حتى القرن العشرين ، بكل ما تنطوي عليه من الامتيازات والطرق التي تسلكها القطعان ، والمراعي المخصصة لها ، والقوانين التي تضبط نشاطها ، والمصطلحات المستعملة فى تربية الغنم والرعى فى اللغات القشتالية (الشهيرة بالمراعي وتربية المواشي) واللغة البلنسية ، واللغة البرتغالية ، يعود كثير من ألفاظها الى أصل عربي ، مثل « مشتى » (Masta) و « المشترك » (Mustrah) و « الغنام » (Alganame) ومنذ القرن الثامن والقرن التاسع الميلادي ، قامت فى أسبانيا اتحادات وجمعيات تضم الرعاة وملاك قطعان الغنم . وفى هذه الفترة ، بدأ تنظيم مؤسسة المشتى التي ستتسع وتقوى ، خصوصا فى القرن الثاني عشر الميلادي ، وهو عصر استعادة المسيحيين للأندلس ، وهذا العصر الذي أصبحت فيه أسبانيا مسيحية من جديد ، هو الذي ستكرس فيه جهودها لتنمية وتوسيع كثير من المؤسسات الاسلامية . و « مرينو »

و « المشتى » مؤسستان فى مجال تربية الغنم ، من وضع البربر فى أسبانيا .

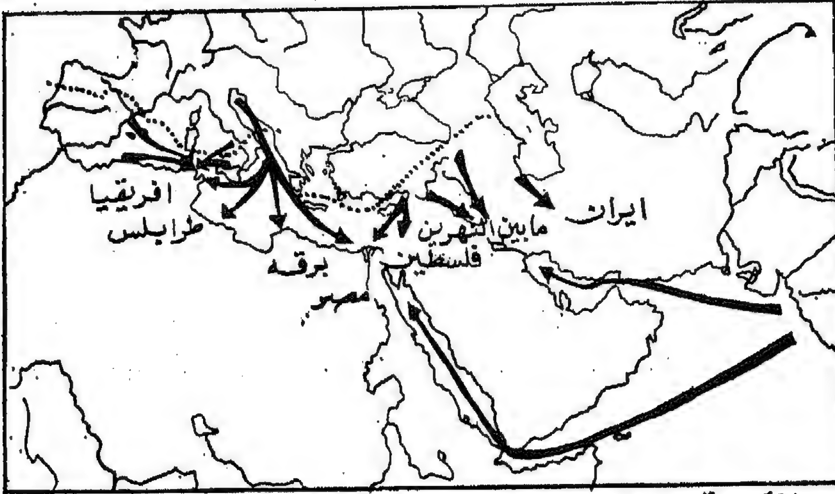
وأما تربية سلالات البقر ، فقد كانت لها أهمية أقل فى العالم الاسلامي ، حيث أن حياة البقر ترتبط ارتباطا وثيقا برطوبة المناخ وبالعشب الغزير . وكذلك نرى أن تربية البقر نشاط يمارسه ، خصوصا سكان السهول الواقعة على ساحل المحيط الأطلسي فى المغرب الأقصى ، وفى بعض المناطق المحظوظة فى التل الجزائري ، وفى أسبانيا . والنقطة التي تستحق التسجيل فى هذا السياق ، هي وصول الجاموس الهندي الى العالم الاسلامي عن طريق هجرة قبائل الزط . وقد انتقل الجاموس من منطقة المستنقعات التي تمتد فى دلتا نهر السند (وهي التربة المفضلة للجاموس) . ولما أبعد الزط فى منتصف القرن الثامن الميلادي من هذه المنطقة الى المستنقعات الواقعة فى أسفل ما بين النهرين ، استصحبوا معهم هذه الحيوانات . ومن هناك ، انتقل الجاموس الى سورية الشمالية حيث تكيف وتأقلم فى مستنقعات نهر العاصي .

وبصفة عامة ، فقد شهد نشاط تربية الحيوانات فى العالم الاسلامي توسعا وتحسينا لنوع الانتاج . ولكن هذا النشاط واجه عقبات جمة من أهمها تخريب الرعاة للغابات التي يشعلون النار فيها لكي يحولوها الى مراعي ، وانحطاط نوع التربة والقضاء على البراعم والنباتات الصغيرة . والافراط فى استغلال مناطق الرعي بطريقة المشتى سيحدث أضرار كبيرة فى جزء مهم من الأراضي الاسبانية . فان سوء معاملة الغابات الناشئة ، مضافا الى ذلك أحوال المناخ وتقلبات الطقس فى حوض البحر الأبيض المتوسط وفى جميع بلدان الشرق الاسلامي تهدد الغابات بأن تتحول تدريجيا الى سهوب ثم الى صحاري والافراط فى استغلال الأرض للرعي ، سيؤدي الى قيام مشكلة مهمة جدا : مشكلة الغابات .

الخشب ومنتجات الغــابات

مناطق الغابات الحقيقية محدودة فى العالم الاسلامي فالغابات الواقعة على الضفاف الجنوبية لبحر قزوين ، انما هي امتداد فى الاتجاه الشرقي لغابات مملكة البونت (سابقا) التي تنتشر بهذا الشكل من الشواطىء الشمالية فى آسيا الصغرى الى الشواطىء الجنوبية لبحر قزوين (جبال البــرز) .

وبنفس الشكل ، تمتد الغابات السورية عند أطراف سهول الأناضول، حتى لبنان . وكذلك توجد بعض الغابات فى جزيرة صقلية وفى المغرب وأسبانيا وهذه هي مساحات الغابات فى العالم الاسلامي . ووراء هذه البقع الخضراء من الشجر ، فى بلاد ما بين النهرين أو الجزيرة العربية ، وفلسطين ، ومصر ، وبرقه ، وطرابلس ، وأفريقية ، والصحراء لا يوجد أثرا للغابات .



الشكل رقــم ١٩ ـ تموين العالم الاسلامي بالخشب

والغابات التي تقع خارج العالم الاسلامي ، أقربها هي التي تمتد على الشواطىء الشمالية للبحر الأبيض المتوسط : غابات الغـرب المسيحي الذي يسيطر عليه البرابرة (أبنين ، والألب ، ايسترى ، ودالماتيا) ، وغابات الامبراطورية البيزنطية (البلقان وآسيا الصغرى) . ولكننا اذا توغلنا في شرق العالم الاسلامي ، وراء منطقة واسعة الأطراف مـن السهوب والصحراء ، ووراء امتداد المحيط الهندي ، فان الغابات التي ستقابلنا ، هي غابات شواطىء الهند الغربية ، وخصوصا ، غابات الساج في ملبار .

وأما موارد الغابات القديمة في الشرق وفي الحوض الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط ، فقد أفرط في استغلالها منذ وقت طويل ، في عهـد حضارة ما بين النهرين وحضارات الفنيقيـين والمصريين . ففي هـذه العهود ، كانت الغابات تقدم المادة الأولى لمراكز الصناعة ولتعمير المدن ، وخصوصا لبناء الأساطيل ، ولا سيما أساطيل الفنيقيين . ونتيجة لذلك ، وقع تخريب وتدمير للغابات لا يمكن تعويضه ، زاد من خطورته استغلال الرومان . لموارد الغابات بدون تمييز ولا رعاية . وقد كان لبنان ، من أكبر المنتجين لخشب الأرز في العالم القديم ، وكان يمد جميع مصانع السفن في حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقي بالخشب . ولكـن هذا البلد توقف عن تصدير الخشب منذ العصور الوسطى العليـا . ونحن الآن نعرف ماذا جرى لغابات لبنان التي كانت من أجمل غابات العالم ، حيث لم يبق منها سوى بقع وأشجار منتشرة هنا وهنالك .

ومع ذلك ، فان الجبال كانت خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي ، أقل عريا مما هي الآن .

ومثال ذلك ، فان جبل الأنصارية (جبل العلويين) الذي شهد فى القرن العاشر والقرن الحادي عشر استغلالا واسع النطاق ، وكان ينتج الخشب للتصدير ، أصبح الآن عاريا أجرد كلية .

ومما يزيد مشكلة الغابات تعقيدا ، أن الاقبال على الخشب كان يتزايد مع مرور الزمن بظهور حاجات جديدة الى استعماله . والحاجة الى الخشب كانت ، أولا ، لتوفير الوقود للصناعة : صناعة المعادن والزجاج القديمة ، والصناعات الجديدة مثل السكر ، المنتشرة على ضفاف البحر الأبيض المتوسط .

وهذه الظاهرة ـ ظاهرة تعري الجبال من الغابات ـ ستشهدها جزر الانتيل ، بدورها ، فى غضون القرن الثامن عشر الميلادي ، نتيجة لانتشار صناعة السكر المستخرج من قصب السكر .

وبعد ذلك ، تأتي الحاجة الى الخشب لبناء المنازل فى المدن التي تزداد اتساعا مع مرور الزمن ، ثم لأغراض الري ، حيث أن الخشب ضروري لصنع رافعات الماء ، ولتبطين الآبار . ثم الحاجة الى الخشب لبناء السفن : لبناء الأساطيل التجارية التي تزداد الحاجة اليها باتساع نطاق التبادل التجاري بالطرق البحرية والنهرية ، من جهة ، ولبناء الأساطيل الحربية لمواجهة بيزنطة التي دخلت فى نضال طويل مع العالم الاسلامي من أجل السيطرة البحرية ، من جهة أخرى . ونتيجة للتغير الذي طرأ على تقنية صناعة السفن التي زادت أحجمها وأصبحت تحمل سارية طويلة للشراع المعروف بالشراع اللاتيني ، احتاج الأمر الى قطع طويلة من الخشب ، وبالتالي الى أشجار أكبر .

وأخيرا ، الحاجة الى الخشب لصناعة الأثاث ، تلك الصناعة التي ينشطها انتشار حياة البذخ فى منازل الأغنياء وفى قصور الملوك .

ومتحف القاهرة يحتفظ لنا بنماذج رائعة من الخشب المحفور والمنحوت والمرصع . وينبغي أن نلاحظ فى هذا السياق أن الخشب يجمع قطعة قطعة . وهو يشكل مادة ثمينة يسعى الصناع جهدهم لاستغلال كل قطعة منه لغرض من الاغراض .

والنتيجة الغريبة التي نلاحظها ، هي أن تقنية استخدام الخشب سجلت تقدما فى العالم الاسلامي أكبر من الذي شهدته البلدان التي تنتج كميات كبيرة من الخشب . وكذلك نرى أن البلاط البابوي قد التجأ فى القرن الرابع عشر الميلادي الى العمال والصناع العرب فى أسبانيا لوضع سقف قصر البابا فى أفينيون ولتزيينه .

وقد كان الطلب للخشب قويا ، خصوصا ، فى بلاد ما بين النهرين ، ومصر، وافريقية الشمالية، وهي من البلدان القوية الاستهلاك والتي لا تملك موارد من الخشب . ومصر أقل هذه البلدان غابات وأشدها اقبالا على استهلاك الخشب ، حيث أنها تملك صناعة متقدمة ، تتطلب كثيرا من الوقود (صناعة السكر ، مثلا) فى الوقت الذي تحتاج فيه الى كميات كبيرة من الخشب لأغراض الري ، ولبناء المدن ، ولا سيما القاهرة الجديدة التي شيدها الفاطميون (لبناء المنازل ولصنع الأثاث) ، ثم لبناء قطع أسطولها الكبير التي تستعمل للملاحة النهرية وللملاحة البحرية : البحر الأبيض المتوسط ، والبحر الأحمر .

ولحل مشكلة الخشب ، كانوا يعتمدون ثلاث وسائل : أولا : تنظيم استعمال الموارد المحلية المتواضعة من الخشب . فقد كانت جميع قطع الخشب التي يمكن استعمالها لبناء السفن فى مصر الفاطمية تخصص لدور صناعة السفن التابعة للدولة . وفى نفس الوقت تحاط الغابات العمومية بعناية خاصة ومراقبة دقيقة لقطع الخشب .

وثانيا : كانت السفن المصرية والسورية تقوم بشن هجمات على شواطىء الاناضول ودالماتيا التابعة لبيزنطة للحصول على الخشب .

وثالثا وأخيرا ، استيراد الخشب من البلدان البعيدة التي تملك ثروة من الغابات . وكذلك كان خشب أرمينية ينزل بواسطة تعويمه فى دجلة حتى مدينة بغداد .

ومن الهند ، يستورد خشب الساج الذي ينقل الى بلاد ما بين النهرين عن طريق الخليج ، والى مصر ، عن طريق البحر الأحمر وقناة أمير المؤمنين التي يوصل فيها على طولها الطبيعي الى مستودع الخشب فى ساحل الخشبة .

وأما الغرب المسيحي ، فيصدر الى العالم الاسلامي أخشاب الصنوبر والتنوب التي تنتجها غابات أبنين والألب وايسترى ، عن طريق أمالفي والبندقية . وكما حدث بالنسبة الى الأسلحة فقد كان تصدير الخشب ، ولا سيما فى شكل قطع طويلة ممنوعا بعد ما حرم هذا النشاط الأباطرة البيزنطيون الذين كانوا فى نضال دائم مع المسلمين من أجل السيطرة على حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقي . ونحن نذكر بأن سلطات القسطنطينية قد أحرقت فى سنة 971 ميلادية ، ثلاث سفن تابعة للبندقية كانت تنقل الخشب وكان اثنتان منهما ، على وشك الاقلاع فى اتجاه المهدية ، والثالثة فى اتجاه طرابلس .

على أن تجار البندقية لم يكونوا يحترمون قرار حظر تصدير الخشب الى العالم الاسلامي ، أكثر مما كانوا يهتمون بالقرار الذي يتعلق بحظر تصدير الأسلحة الى هذه المنطقة . فان هذا النشاط التجاري كان موردا لأرباح طائلة ، حيث أن التهريب كان فى جميع العصور أوفر مكسبا من التجارة المشروعة .

وكذلك نجد أن العالم الاسلامي كان يواجه حالة دقيقة للغاية ، فيما يتعلق بالحصول على ما يحتاج اليه من الخشب . وهو يعتمد على مناطق غابات بعيدة تفصل بينه وبينها مسافات طويلة وتخترقها طرق تتعرض لجميع المخاطر التي تتعرض لها العلاقات بين طرفين متباعدين . وهذا الخشب الطبيعي كثير التكاليف ويدفع ثمنه بالذهب . وفيما يخص هذه النقطة ، نجد أن العالم الاسلامي فقير ، بالقياس الى الغرب المسيحي الذي يملك موارد لا تستنزف من الخشب . وقد ظل الغرب المسيحي يتمتع بهذا الوضع حتى القرن الرابع عشر الميلادي ، حينما أخذ يواجه صعوبات فى تموين المدن الكبيرة بالخشب .

وهذه الطرق التي يسلكها الخشب الى العالم الاسلامي ، هي نفس الطرق التي تسلكها منتجات الغابات الأخرى ، مثل عسل النحل والقار والفراء .

المعـــــادن

أدى النقص فى الخشب الذي كان يشكو العالم الاسلامي منه الى فرض قيود على نمو صناعة المعادن . فان الطرق القديمة لمعالجة المعادن تحتاج الى كميات كبيرة من الخشب أو من الفحم الخشبي . وهذه الكميات من الضخامة بحيث تستهلك غابات بأسرها : فان الحصول على 10 كيلو جرام من الحديد النقي ، يتطلب 150 مترا مكعبا من الفحم الخشبي . وكذلك كانت صناعة المعادن فى الحضارات الشرقية القديمة « تبتلع » الغابات بسهولة .

وأخطر من النقص فى الخشب فى تقييد صناعة المعادن فى العالم الاسلامي ، هو فقره فى المعادن . وهذا الفقر مرجعه الى فقر جوف الأرض نفسه . فان الشرق لا يحتوي الا على مناطق قليلة من الأرض

الغنية بالمعادن . ويضاف الى ذلك ، استنزاف العروق المعدنية السهلة المنفذ ، بسبب الافراط فى استغلالها خلال آلاف السنين فى بعض الحالات . وأخيرا يجب ألا تنسى النقص فى تقنية معالجة المعادن ، ذلك النقص الذي ينجم عنه ضياع كميات من المعدن النقي ضمن الخبيث أثناء المعالجة .

وهنا أيضا ، سيعوض الاستيراد من البلدان البعيدة ، على الأقل جزئيا ، عن النقص : فان السفن الاسلامية والقوافل ، كانت تقصد البلدان الواقعة على أطراف العالم الاسلامي ، وبعضها بعيد جدا ، وتحمل منها المعادن الخام (الذهب ، والحديد ، والقصدير) أو المنتجات الكاملة الصنع (السيوف وأدوات الطبخ المصنوعة من النحاس) .

وأما البلدان المنتجة ، (وهي مراكز لصناعة المعادن) ، فهي القوقاز ، وجبال الآرال ، وجبال الآلطاي ، والهند ، وافريقية السوداء ، أو الغرب المسيحي . وكذلك نرى أن قاعدة المعادن التي يقوم عليها الاقتصاد الاسلامي غير متينة . فالعالم الاسلامي ، هنا أيضا ، يعتمد على الخارج .

ففيما يتعلق بالمعادن الثمينة ، الذهب والفضة ، التي هي أساس صناعة الصياغة ، فقد سبق أن أشرنا ، في سياق الحديث عن المناطق المعدنية التي تمون دور الضرب ، الى أن العالم الاسلامي لا تحتوي أرضه الا على عدد صغير من مناجم الذهب . وهذه المناجم تقع فى الجزيرة العربية وفى أرمينيا ، ويضاف الى ذلك مغسلان لتراب الذهب فى كرمان وفى أسبانيا (عند نهر التاجو) . ولكننا رأينا أيضا أن كميات كبيرة من الذهب المكتنز قد أدخلت فى دائرة النقد المتداول أثناء الفتوحات الاسلامية ، وأن الذهب كان يتدفق على العالم الاسلامي ، نتيجة لاتساع نطاق التبادل التجاري مع البلدان الواقعة فى الشمال

وفى الشرق وفى الجنوب . فأما الذهب الآسيوي ، فهو يأتي من القوقاز والآرال والألطاي والتبت وتركستان . ولكن ذهب افريقية السوداء أوفر من ذهب آسيا ونحن نستطيع أن نميز ثلاث مناطق منتجة للذهب فى القارة الافريقية .

أولا : المنطقة التي تمتد بين نهر النيل والبحر الأحمر .

ثانيا : بلاد النوبة .

ثالثا : ساحل افريقية الشرقية .

ومن هذه المناطق ينقل الذهب الذي يستخرجه السود من مناجم تقع فى الداخل الى المراكز التجارية التي أقامها المسلمون على الشواطىء ، التي من بينها « سفالة الذهب » (وربما كانت هي المنطقة التي تسمى أوفير (Ophir) فى العصور القديمة) . والى الشمال من ذلك ، يقع مركز بلاد الزنج . وأخيرا ، ينقل الذهب من شواطىء افريقية الغربية « السنيغال ، والنيجر ، وساحل الذهب » ، على ظهر الجمال وقوافل البربر عبر الصحراء ، الى بلاد المغرب .

وهذا الذهب هو الذي يوفر المادة الأولى لسك الدنانير ولصناعة الصياغة التي كانت مهمة . فان معامل الصياغة فى القصور وفى الحواضر، مثل أسواق الصياغة ، نشيطة فى كل مكان . ونقود الذهب المتداولة تسبك وتصاغ ، ثم تذاب ويعاد سبكها مرة أخرى . وهذه الحقيقة تشهد بها قائمة مخلفات القصور الفاطمية ، على الرغم من قلة ما وصل الينا من تحفها .

والفضة تستخرج فى كثير من الحالات من مناجم الرصاص التي تحتوي على معدن الفضة . وبعد استخراج المعدن المختلط ، يعالج ثم

يفصل الرصاص عن الفضة . والمنطقتان الرئيسيتان اللتان يستخرج العالم الاسلامي منهما ما يفي بحاجته من المعدن الأبيض ، هما : شريط من الأرض التي تحتوي تربتها على معدن الفضة ، يمتد فى شمال ايران (من القوقاز حتى تياتشان) ، حيث تقع مناجم بنجهر الشهيرة ، فى شمال كابول ، ومناجم أسبانيا المسلمة التي استغلت بافراط ، بحيث لم تعد تحتوي فى عصرنا هذا الا على عروق من الرصاص .

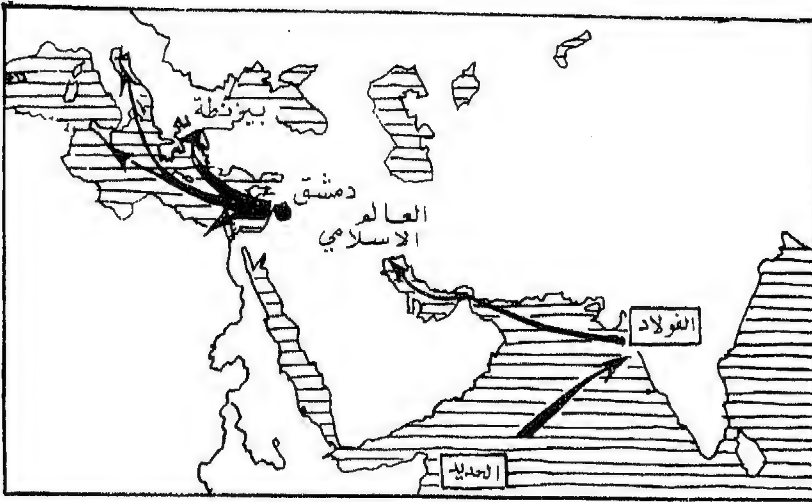
ومعدن الفضة الضروري للصياغة ولصك النقود « الدرهم » ، تستورد منه كميات كبيرة الى مصر الفقيرة من هذا المعدن الذي يحظى فى البلد بمكانة لا تقل عن مكانة الذهب نفسه ، كما تشهد بذلك الآثار والنقوش التي لا تزال محفوظة فى مساجد القاهرة .

والعالم الاسلامي لا يملك الا ثروة قليلة من معدن الحديد . واستغلال مناجم الحديد ، فى معظم الحالات يقتصر على طبقة سطحية من الأرض يسهل الحفر فيها . وهذه المناجم كانت معروفة منذ زمن بعيد ، وتقع فى لبنان ، وفى افريقية الشمالية وفى أسبانيا ، وخصوصا ، تلك التي تمتد فى « قسنطينة الحديد » فى غربي قرطبة عند سفوح جبل الشارات (Sirra Morina)

وفى هذا المجال أيضا ، يحتاج العالم الاسلامي الى تكميل موارده الخاصة من البلدان المجاورة ، أو من البلدان البعيدة . فمن القوقاز ، مثلا ، يستورد العالم الاسلامي الحديد والخبراء فى صناعة الحديد ممن ورثوا تقاليد قديمة فى صناعة المعادن : فان سكان وادي داغستان ، كانوا متخصصين فى صناعة الدروع والزرود .

ولكن العالم الاسلامي كان يتجه خصوصا الى الهند والى الغرب المسيحي ، وهي البلاد التي انتشرت فيها طرق تقنية خاصة لصناعة الفولاذ والسيوف المشهورة والتي يشتد الطلب عليها .

أصل شرقي ، تسمح لنا بتقدير أهمية التجارة فى السلع الثقيلة ، وتخصص مراكز الانتاج التي تضع فى دائرة التبادل التجاري منتجات نشاهدها مادة أولية ثم منتجات نصف مصنعة ، ثم منتجات تامة الصنع .



الشكل رقم ٢٠ - انتقال حديد افريقيا الشرقية وفولاذ الهند

وأما الغرب المسيحي ، فان أرضه تحتوي على عدد من مناجم الحديد التي يستخرج الحديد منها من مستودعات غير عميقة ، وجبال الألب الشرقية ، وجبال التيرول ، ومنطقة استيري التي كانت تسمى «نوريكم» (Noricum) فى عهد الرومان ، كانت مراكز هامة لانتاج الأسلحة ، وكذلك يجب أن نذكر فى هذا الصدد بلاد الموزل والموز ، وبلاد رينان والشمبان ، فى جهة نوجن أن باسيني ، وجبال البيرينز الشرقية . وقد كانت جميع هذه المناطق غنية بالغابات ويتوفر فيها الوقود بكثرة . وهذا يفسر لنا نمو صناعة المعادن نموا معتبرا فى الجول الرومانية وفى جبال الألب الشرقية .

فان الهند عرفت تقدما كبيرا فى صناعة معدن الحديد ، وهذا البلد هو الذي اكتشف فى أوائل العصر الذي تلى ميلاد المسيح الفولاذ المذوب فى بوتقة . وهذه الطريقة التي تقوم على تكوير الجزئيات ، تنتج فولاذا من النوع الرفيع وهياكل كبيرة الحجم ، ويمكن طبع رسوم على المنتجات النهائية ، وترى خصوصا على شفرات السيوف .

والمعروف أن بلدان البحر الأبيض المتوسط كانت تستورد الفولاذ الهندي منذ عهد الرومان الذين كانوا يسمونه (Ferum sericum) . وربما كانت مملكة الشراس الواقعة فى وسط دكان وفي جنوبها ، هي التي تنتج هذا الفولاذ وتصدره . وقد اشتد الطلب على الفولاذ الهندي فى العصر الاسلامي ، وأصبح يعرف باسم « هنداوي » أو « هندي » (وهذه التسمية ، اشتق الاسبان كلمة (ألندى) (Alinde) وهو عبارة عن مرآة من الفولاذ المصقول) .

وهذا الفولاذ الجاهز للصنع يصل الى دمشق وغيرها من المدن التي تصنع فيها الأسلحة ، ولا سيما ، مدينة طليطلة . ولكنه يستورد أيضا مباشرة من الهند فى شكل مصنوعات تامة الصنع ، مثل السيوف التي كانت مجرى المثل فى الأدب العربي لقوتها وحدتها ومرونتها .

والجدير بالملاحظة ، أن المادة الخام للحديد الذي يصنع منه الفولاذ الهندي فى الولايات الجنوبية ، كانت تستورد من شواطىء افريقية الشرقية ومن بلاد الزنج . وهذا الحديد كان يعتبر أفضل من الحديد الهندي لصنع الفولاذ . فهذا المعدن الذي يستخرجه السود فى شكل خام لم يعالج الا معالجة خفيفة ، ينقله التجار المسلمون الى الهند ، حيث يحول الى فولاذ هندي ، ثم يعاد شحنه الى العالم الاسلامي فى شكل فولاذ خام أو سيوف هندية . وهذه الطريق ــ طريق الحديد والفولاذ التي تمكنا من التعرف عليها بفضل قطع من الفسيفساء من

ومن الحقائق الأساسية فى الموضوع . أن البرابرة لم يحاولوا القضاء على هذه الصناعة ، بل العكس ، استغلوها لتكميل تسليح جيوشهم . وزيادة على ذلك ، فقد أضاف البرابرة طرقا تقنية جديدة الى هذه الصناعة التي أصبحت تنتج صفائح من الفولاذ أفضل من التي كانت تنتجها فى عهد الرومان . وهذا يصدق خصوصا على ما يسمى « الدمشقي المقلد » . وطبقا لهذه الطريقة . تصنع قضبان رفيعة من معدن مختلف التركيب . بعضها من الحديد اللين . والبعض الآخر من الحديد الصلب ، وتغشى بالفولاذ . وبعد ما تشبك القضبان طبقا لطريقة متنوعة فى التركيب . تلتحم ثم تسوى وتطرق ويعاد تطبيقها ، فتتخذ القطعة فى شكلها النهائي مظهرا يشبه الدمشقي الحقيقي . ولكن هذا المظهر يستخلص بعد عمليات من الطرق واللحام ، بينما يستخلص الدمشقي الحقيقي من كتلة الفولاذ نفسها بطريقة التبريد بعد الصهر فى البوتقة .

وعلى كل حال ، فان الأسلحة التي تصنع من كلا النوعين من الفولاذ متماثلة حيث أن كلا منهما يشتمل على مزيج من جزء صلب وآخر أقل صلابة . ومن هنا متانة السيوف وقوة احتمالها وحدتها . مضافا الى ذلك المرونة .

وهذه الأسلحة أمكننا أن ندرسها ، خصوصا بفضل الآثار التي اكتشفها المنقبون فى مقابر الميروفانجيين . وأما قبور الكارولانجيين . فقد كانت مخيبة للآمال ، حيث أن عادة دفن المحاربين بأسلحتهم ، كانت قد أهملت فى القرن التاسع الميلادي . ولكن السيوف الكارولانجية ، موجودة فى البلاد السكاندينافية وفى منطقة الأنهار الروسية ، حيث ظلت عادة دفن الفرسان بأسلحتهم معمولا بها حتى القرن الحادي عشر الميلادي .

ومهما يكن من شيء ، فان لدينا نصوصا عديدة تحدثنا عن أسلحة الغرب المسيحي . وهذه النصوص ، أصلها من الامبراطورية الكارولانجية والاطونية أو من العالم الاسلامي .

فان سيوف « الفرنجة » أي سيوف الغرب المسيحي الذي يسيطر عليه البرابرة ، مشهورة جدا . وقد كان العالم الإسلامي يستورد كميات كبيرة من هذه السيوف ، عن طريق بلاد الصقالبة والأندلس . وكان استيراد سيوف الفرنجة ، الى الشرق الاسلامي يتم بواسطة الأنهار الروسية وعن طريق بحر قزوين . وأما الغرب الاسلامي ، فيتلقى هذه السيوف عن طريق وادي الرون والبندقية التي كانت متخصصة ، كما رأينا فى تجارة التهريب ، والتي كانت تخرق أوامر أباطرة بيزنطة التي تقضي بتحريم بيع الأسلحة والخشب للمسلمين .

بقي معدن النحاس ومعدن القصدير . ان وضع العالم الاسلامي فى انتاج النحاس أحسن من وضعه فى انتاج الحديد . ومناجم النحاس الرئيسية تقع فى آسيا الوسطى وفى أعالي ما بين النهرين (منجم أرغانة) وجنوب المغرب الأقصى وأسبانيا .

واذا كان العالم الاسلامي يستورد القصدير من الجزر البريطانية ومن شبه جزيرة ماليزيا ، فهو ، فى مقابل ذلك ينتج الزنك (التوتيا) فى أرمينيا وفى افريقية الشمالية . وقد كانت صناعة النحاس والبرونز والليطون ، مزدهرة فى العالم الاسلامي ، وكان صناعو الأدوات النحاسية والتجار فيها يترددون على أسواق جميع المدن الاسلامية الكبيرة .

وخلاصة القول ، أن فقر العالم الاسلامي فى المعادن (باستثناء النحاس) ، قد أحوجه الى استيراد جميع المعادن بكميات كبيرة .

وكانت الحضارة الاسلامية ـ وهي فى توسع دائم ـ فى حاجة مستمرة الى المعادن الثمينة لصناعة الكماليات ولصك النقود ، والى المعادن الأخرى لسد الحاجات اليومية . وفى مقابل العالم الاسلامي ، يمتد الغرب المسيحي الغني بمعدن الحديد والذي يملك ثروة كبيرة من الغابات التي توفر الوقود الضروري لمعالجة الحديد . وكذلك كان الغرب المسيحي يبدو ، بثروته المعدنية التي لم تكد تمتد اليها يد الانسان ، وكأنه عالم حديث الاكتشاف ، فى مقابل بلدان قديمة أفرط فى استغلال ثرواتها الطبيعية .

الاقمشة :

ان الحضارة الاسلامية ، حضارة تقوم على صناعة النسيج لصنع الملابس ، ولكنه خصوصا لصنع الأثاث ولو أن قطعة الأثاث الأساسية ، وأحيانا الوحيدة ، فى المشرق ، هي السجاد ! والأقمشة تستعمل لصنع الملابس ولتزويق المنازل من الداخل ولصنع الخيم ، ولكنها تستعمل أيضا لصنع الأعلام والرايات . وفى جميع أنحاء العالم الاسلامي كانت المشاغل تعمل بدون انقطاع لانتاج أقمشة رائعة : أقمشة رفيعة من الكتان والصوف الموصلي والقطن والحرير المطرز بالذهب . والمشاغل الخاصة أو « الطراز » كانت تعمل لمد القصور بما تحتاج اليه من الأقمشة الغالية التي تزيد من عظمة الحفلات الرسمية . والأقمشة تعتبر من الأشياء الثمينة ، وبمثابة مال احتياطي ، بحيث أن كلمة « الخزانة » فى اللغة العربية تعني فى نفس الوقت خزانة الدولة ، وخزانة الملابس الشخصية .

والأقمشة تستعمل فى مناسبات كثيرة مكان النقود ، فتمنح هدايا وتدفع بها المرتبات وتخلع على الأشخاص على سبيل المكافأة .

وكسوة الشرف التي تطرز باسم الأمير ، هي التي استوحى منها أمراء الغرب أزياءهم . وقد قام فى العالم الاسلامي نظام اجتماعي هرمي الشكل على أساس فخامة الملابس الرسمية . وهذه العادة يرجع أصلها الى قصور الملوك الشرقيين البيزنطيين والساسانيين اعتمدها الخلفاء العباسيون رغبة منهم فى احياء تقاليد قدماء ملوك ايران باتباع المراسم وطرق التشريف التي كانت سائدة فى صورهم .

وصناعة النسيج ، تعتمد فى المرتبة الأولى على الصوف الذي تحدثنا عنه بمناسبة الحديث عن تربية الغنم فى آسيا الوسطى وأرمينية وافريقية الشمالية وأسبانيا . والكتان ، يزرع خصوصا فى مصر ، حيث كان منتشرا فى الدلتا وفى مختلف المناطق الواقعة على ضفاف النيل . والتربةالمصرية المشبعة بالطمي تلائمه كثيرا كما كانت القنوات والبحيرات الشاطئية توفر له الماء الضروري .

والخيوط المستخرجة من الكتان المصري من النوع الرفيع وتستعمل لصنع ثياب من النوع الرفيع (قصب وشرب ودبيقي) . ونفس الشروط التي تضبط الانتاج فى مصر ، نجدها متوفرة فى أعالي ما بين النهرين ، وخصوصا ، فى سويزان ، هذا بالاضافة الى بعض المناطق المحدودة الانتاج بسبب قلة المياه ، مثل سورية وافريقية الشمالية وأسبانيا .

ولكن زراعة القطن ستحل محل الكتان فى أعالي ما بين النهرين ، كما سيحل محل الكتان فى سويزان ، قصب السكر ، وهي نبتة تتطلب ظروفا طبيعية وبشرية تشبه الظروف التي تتطلبها زراعة الكتان : تربة عميقة ، وماءا غزيرا . وزراعة الكتان سوف لا تحتفظ بمكانة مهمة الا فى مصر ، حيث تنتشر زراعة قصب السكر أيضا (ولكن زراعة القطن لم تنتشر فيها بعد) .

والقطن الذي هو مادة للنسيج ، أصله من الهند : أدخلت زراعته الى ما بين النهرين في القرن السابع الميلادي ، وانتشرت في رقعة فسيحة في أعالي ما بين النهرين والخابور الكبير وحران ، بين دجلة والفرات . وأول ذكر لزراعة القطن في تركستان ، على الطريق البوذية التي تربط الهند بالصين ، عن طريق الهند ــ كتش وآسيا الوسطى ، يعود الى القرن السادس الميلادي . ولكنه في القرن التالي ، حينما أقيمت دعائم العالم الاسلامي ، توغلت زراعة القطن (الذي أخذ الأسبان اسمه من العربية " Algodon " في حوض البحر الابيض المتوسط . ونحن نجد القطن بكثرة ، في المرحلة الأولى ، في سورية ، ثم في المنطقة التي تمتد بين الفرات وحلب . وهذه المنطقة تمثل امتدادا طبيعيا لمنطقة الخابور الكبير . وفي مرحلة ثانية ، انتشرت زراعة القطن في منطقة الغور ، على ضفاف البحر الميت حيث سيجد تربة منخفضة عن مستوى البحر ذات طقس حار مشرب بالرطوبة ، ثم في منطقة سليسي ، ولا سيما بين جبال طوروس والتضاريس السورية .

وكذلك نجد أن سورية كانت من أكبر البلدان المنتجة للقطن في العالم في العصور الوسطى . ولكن زراعة القطن لم تنتشر في مصر ، حيث ظل الكتان ذي الانتاج الوفير والرفيع ، يحتفظ بمركز قوي . وهكذا ، كانت مصر في العصور الوسطى تستورد ما تحتاج اليه من منتجات القطن من سورية والهند .

وفي المرحلة الأخيرة ، انتشرت زراعة القطن الى شمال افريقية لتشمل الجنوب التونسي (الجريد) والمغرب الأقصى (أعالي نهر أم الربيع وسهول تادلة) ، (وبواسطة الري حتى السوس الأقصى) ، وأسبانيا (أسفل الوادي الأعظم) ، وصقلية (ضواحي بلرم) ، وجزيرة قبرص .

فيما بعد ، حيث ازدهرت زراعة القطن خصوصا فى عهد اللوزانيين (5)، ثم أخيرا فى جزيرة كريت حيث اتسعت زراعة القطن فى عهد البندقيين .

ومادة النسيج الجديدة الثانية فى العالم الاسلامي ، وهي الحرير ، الذي يقوم انتاجه على زراعة التوت وتربية دودة الحرير . ومن المعلوم أن تربية دودة القطن بدأت وانتشرت فى المرحلة الأولى فى الصين ثم فى آسيا الوسطى ، على ضفاف بحر قزوين وأرمينية . وفى القرن الخامس الميلادي ، أدخلت تربية دودة الحرير الى بيزنطة ، فى سورية الشمالية . وقد تم نقل نشاط تربيـة دودة الحـرير من آسيا الـوسـطى الى الامبراطورية البيزنطية عن طريق النساطرة .

وكما أن زراعة القطن التي استقرت فى أعالي ما بين النهرين ، لم تدخل الى مناطق أخرى ، الا بعد قيام العالم الاسلامي ، فان تربية دودة القطن لم تنتشر الا بعد قيام تكتل اقتصادي اسلامي واسع الأرجاء .

ومن الظواهر الغريبة أن نلاحظ فى سياق انتشار المنتجات الزراعية والتقنية الزراعية فى العالم الاسلامي ، أنه فى الوقت الذي انتشرت فيه تربية دودة الحرير من تركستان الى شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، أي ، فى القرن السادس الميلادي ، كانت تركستان تتلقى زراعة القطن من الهند .

وبعد الفتوحات الاسلامية ، انتشرت تربية دودة الحرير فى جميـع شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، حيث كانت صناعة المنسوجات الرفيعة الباذخة ممكنة بفضل الاقبال الشديد على منتجات الحرير . وكان من ضمن المناطق المنتجة للحرير ، جنوب سورية ، وجـزيرة قبـرص ،

---

5 – (Lusignan) اسرة اقطاعية اصلها من بواتو (Poiton) استقر أحفادها فى الشرق اللاتيني ، وفى قبرص فى عهد جي دولو زينيان « 1129 – 1194 م » وفى مدينة القدس تحت هيوج الثالث (مات فى سنة 1284 ميلادية) . «المترجم» .

وجنوب تونس (منطقة قابس) ، وخصوصا أسبانيا الجنوبية ، وجزيرة صقلية . وكان السوريون هم الذين أدخلوا تربيـــة دودة الحـــرير الى منطقة البشرات وضواحي جيان فى الأندلس . وهؤلاء السوريون الذين استقروا فى المناطق المذكورة فى القرن الثامن الميلادي ، جاءوا الى أسبانيا من منطقة قنسرين الواقعة فى شمال سورية والمشهورة بازدهار الزراعة فيها .

وقد كان الأندلس يحتل مكانة مرموقة فى الغرب المسيحي خصوصا، بفضل صناعة الحرير فيه .

وأما حرير صقلية ، فقد انتشر أولا ، فى الغرب المسيحي ، قبل أن يصل الى جنوب ايطاليا وشمالها .

وهكذا نمت صناعة الحرير فى جميع أنحاء العالم الاسلامي وفى عهد الساسانيين ، كانت مادة الحرير المستوردة من الصين تتجه فى المكان الأول ، الى المشاغل الايرانية ، ولكنه لا يستبعد أن تسر كميات من الحرير الصيني عن طريق ايران الى بيزنطة .

وأما فى العصر الاسلامي ، فقد توقف استيراد الحرير الخام مـــن الصين فى وقت مبكر ، ولكن استيراد المنتجات المصنوعة من الحرير من الصين ظل على المستوى الذي كان عليه سابقا . ومن جهة أخرى ، فان العالم الاسلامي لا يصنع فى مشاغلة جميع الكميات التي ينتجهـــا من الحرير الخام ، حيث أنه كان يصدر نسبة معتبرة منها الى بيزنطة . وكذلك كانت مصانع نسج الحرير البيزنطية يتوقف نشاطها كلية عـــن المادة الخام التي يزودها بها العالم الاسلامي ، وذلك على الرغم من أن منطقة بتونمي كانت تنتج الحرير فى القرن الثاني عشر (وقيل أن هذا الانتاج بدأ فى القرن العاشر الميلادي) .

والمادة المستعملة للصباغة فى صناعة الحرير ، هي فى المكان الأول النيلة ، والقرمز ، والزعفران ، وقد دخلت الصباغة بالأزرق من شجرة النيل من الهند وما بين النهرين الى المناطق الحارة المنخفضة والمروية فى الغور ، ثم انتشرت الى الواحات الليبية وشط الجريد وشط الحضنة والسوس الأقصى .

وبدخول شجرة النيل الى هذه المناطق ، توقفت زراعة ورد النيل الذي كان يلون به . والقرمز عبارة عن حشرة خضراء متطفلة ، تعيش فى السنديان ، وتستعمل فى الصباغ باللون الأحمر ، وقد كانت تعالج فى أرمينية وفى أسبانيا . والقرمز كان ينافس البقم (أو عود البزازيل كما يسمى الآن) الذي جاء من الهند . وبانتشار البقم والقرمز ، تخلى الناس عن نبات الفوة (نبات صيفي) والمريق الذي كان يستعمل فى الصباغ الأرجواني .

ولكن الصباغ بالزعفران (اللون الأصفر) كان هو المفضل والكثير الاستعمال فى المصابغ الشرقية . واللون الأصفر الذي هو لون الشمس، ولون الأكاسرة الساسانيين ، كان يستعمل لصبغ الثياب . وتحت تأثير الصين التي كان اللون الأصفر فيها ، هو لون الأباطرة ، كان ورق الوثائق الرسمية فى العالم الاسلامي يلون بالأصفر . وكذلك اتسعت زراعة الزعفران الذي كان يستعمل أيضا لتحسين مذاق الطعام ، وشملت مناطق شاسعة .

وقد نجم عن انتشار زراعة المواد الأولية للنسيج ومواد الصباغة فى العالم الاسلامي ، تقدم كبير فى الطرق التقنية لصناعة النسيج وتلوين المنسوجات . وصناعة النسج بالنول المنخفض والنول المرتفع ، وبالدواسة ، من أصل صيني . وهي تشمل صناعة السجاد ذي الخيط

المعقود في نهايته (آسيا الوسطى) والسوسنجرد الذي تكف حواشيه بالابرة ، والسجاد المصري المنسوج .

والأنواع المشهورة : هي السجاد الأرميني والمصري والطرطوسي (سورية) وكذلك اشتهرت الأقمشة الجرجانية التي تنتجها المرية (الاندلس) ، والأصفهانية (أنطاكية) ، والدبيقي (من مدينة تقع في دلتا النيل (، والعتابي (بغداد) والصقلي المنتشر في مصر وفي أعالي ما بين النهرين وفي الأندلس .

ففي كل مكان نلاحظ امتزاج الطرق التقنية وتحسنها ، وفي كل مكان تؤكد مراكز الانتاج الكبيرة مكانتها بتعدد أنواع منتجاتها وبالشهرة العالمية التي تكسبها هذه المنتجات .

فكل مدينة كبيرة تتخصص مراكز النسيج فيها في انتاج نوع معين من الأقمشة التي لها مكانتها الخاصة بها في الأسواق الدولية . بل ان بعض مناطق العالم الاسلامي ، كانت مناطق تتميز بانتشار صناعة النسيج فيها ، حيث تقبل المدن والقرى الصغيرة بنشاط على العمل لانتاج الأقمشة فيها .

وتسويق منتجات النسيج ، يفترض وجود تجار يقدمون للصناع المواد الخام ويتولون تسويق المنتجات المصنوعة . والأقمشة المصنوعة تحمل على حافاتها اسم المدينة التي صنعت فيها . وكذلك اشتهرت . مثلا ، مدينة القسا ، في فارس ، بثيابها الموشاة بالقصب والمصنوعة من أقمشة الحرير الثقيلة المتموجة المظهر والتي كانت الزي المفضل في قصر المعتصم العباسي ، كما اشتهرت بسجادها المصنوع من الصوف الثمين ، وبأغطيتها المصنوعة من الخز وتحمل رسوما (وهي تعمل للخليفة دون غيره) ، وبما لا يعرف بالفارسية بالسوسنجرد (أي الأقمشة المطرزة

بالابرة) ، وهي أفضل من النوع المعروف بالقرقوب ، لأنها أمتن منها . والتطريز فى النوع الأول يقوم على قماش من الصوف بينما يقوم التطريز فى القرقوب على الحرير . والفسا ، تنتج أقمشة من الصوف والحرير ، كما تنتج أقمشة من الحرير الخالص التي يشتد الاقبال عليها فى كل مكان . ومنطقة فارس ــ خوزستان تضم ، فى قرقوب نفسها ، مشغلا رسميا لا يعمل الا للانتاج لسد حاجات الخليفة وحاشيته . وهذا المشغل الكبير يتكون من عدة مشاغل صغيرة للنسيج ، وينتج أقمشة فاخرة وأقمشة من النوع العادي ، تصدر الى الخارج عن طريق ميناء البصرة وسيراف .

والمنطقة الأخرى الكبيرة الانتاج ، هي الدلتا المصرية التي تنتج أقمشة من النوع الفاخر ومن النوع العادي ، والتي تشكل أهم مناطق الانتاج بدون نزاع ، فى حوض البحر الأبيض المتوسط . وأقمشة الدلتا المصرية ، كانت تصدر الى الشرق الاسلامي والى شواطىء المحيط الهندي والى الامبراطورية البيزنطية والى المغرب والى الموانيء الايطالية .

والمادة الأولى لصناعة النسيج فى مصر ، هي الكتان الذي ينتج محليا ولكنه يمزج بالحرير الذي يستورد من سورية أو بخيوط الذهب . وأنواع المنتجات ، هنا أيضا ، متعددة ، وتتراوح بين «الشرب» الرفيع والأقمشة الثقيلة الصباغة والمطرزة الحواشي بالذهب .

وصناعة النسيج فى الدلتا المصرية تجري فى حوالي عشرين مدينة ، لكل منها « طرازها » الخاص ، وفى قرى تابعة لهذه المدن وتعمل بتعاون معها .

ومن أهم هذه المدن : دمياط ، ودبيق ودميرة وخصوصا تنيس التي تقع فى بحيرة تحمل اسمها «المنزلة» . وتنيس التي كانت تسون بواسطة القوارب وتعيش على صيد السمك الوفير على أرض تغطيها المياه كلها تقريبا ، كانت تملك المياه الغزيرة التي تحتاج اليها زراعة الكتان . وكذلك كان طقسها المشبع بالرطوبة يسمح بفتل خيوط الكتان الرفيعة بسهولة . وقد كان فى المدينة خمسة آلاف نول : وكان من ضمن ما تنتجه كسوة الكعبة .

ومراكز صناعة النسيج فى الدلتا يتخصص بعضها فى صنع الأقمشة البيضاء والبعض فى تبييض خيوط النسيج ؛ والبعض فى دعك الأقمشة البيضاء ، والبعض الآخر فى صقل الأقمشة وتلميع الحرير (بالصمغ الذي ينتجه السودان) ؛ أو فى الصباغة ، أو فى رسم الزخارف بالذهب على الأقمشة .

وجميع هذه المنتجات كانت تصدر الى الخارج وذلك فى الوقت الذي تنتقل فيه الى البلدان الأجنبية الطرق التقنية التي تصنع بها ، مما سينجم عنه محاولة تقليدها هنا وهناك . وهكذا نجد مثلا ، أن « القصب » و « الدبيقي » ينتج أيضا فى مشاغل ما بين النهرين وفارس .

وبفضل تنوع منتجاته ، احتل العالم الاسلامي مكانته الى جنب الصين وبيزنطة وهذه هي الكتل الثلاث للبلدان الكبيرة الانتاج والمصدرة للأقمشة الفاخرة .

منتجات الحجر والارض

واذا استثنينا بعض الأعمدة واللوحات المنقوشة وأحواض الوضوء ، مثل التي نجدها فى مدينة الزهراء ، فان العالم الاسلامي لم يكن يصنع

شيئا من الحجر . ومادة البناء ، هي الطوب المكوي للحيطان والأقواس على السواء ، وذلك بسبب نقص الخشب . فان سلطات الفسطاط ، مثلا اضطرت الى الاستيلاء على أعجاز النخل لتوفير الخشب لقصر الحكومة (دار الامارة) . وفى بناء المساجد كثيرا ما يعاد استعمال أعمدة المرمر المأخوذة من مباني قديمة . وكذلك كانت قرطجنة محجرا استخلصت منه مواد بناء مدينة القيروان الجديدة وتونس . وقد استعملت أعمدة قرطجنة وأعمدة سفاقس أيضا لبناء مدينة الزهراء بالأندلس . وأما الحيطان فهي تبنى عادة بالطوب المكوي الذي يغطي من الداخل بطبقة من مادة أخرى أفضل ، بقصد اخفاء مظهر الطين المتواضع : الجص المنحوت والمنقوش والمحفور والملون أو المذهب كما فى سر من رأى ، وفى منازل بني طولون فى مصر ، وفى شمال افريقية وخاصة ألواح الزجاج الملون ، وهو ثمرة التطور التقني الذي وقع فيما بين النهرين وايران كما تشهد بذلك آثار قصور ملوك الفرس وهذه التقنية ستنتشر فى جميع البلدان الاسلامية الواقعة على ضفاف البحر الأبيض المتوسط .

على أن البلدان التي كانت خاضعة لبيزنطة ، قبل الاسلام ، ستظل على عادة التزويق بالفسيفساء المصنوعة من قطع من الزجاج المذهب ومن عجينة ملونة . وكذلك كان الأمويون فى دمشق أولا ، ثم فى قرطبة بعد ذلك ، يلجئون الى الفنانين البيزنطيين لتزويق المساجد الكبيرة . وهؤلاء الفنانون يدربون تلامذة لهم فى البلاد الاسلامية يضمنون استمرار العمل بالطرق التقنية البيزنطية فى مجال التزويق بالفسيفساء .

والصناعة الأخرى التي تستخلص مادتها الأولية من الأرض ، هي صناعة الخزف والصيني . فان الحضارة الاسلامية قد أنتجت مروحة واسعة من الصحون والزهريات وأحواض غسل الأيدي التي أبقى الدهر لنا على بعضها . وفى هذا المجال أيضا ، كما لاحظنا ذلك فى

التزويق المنزلي ، نجد تأثيرا لفنون ما بين النهرين وفنون ايران الساسانية . ولكن صناعة الخزف كانت ، الى جانب ذلك ، تحت تأثير نفوذ الصين الذي وصل الى العالم الاسلامي عن طرق آسيا الوسطى التي تربط الري بسر من رأى التي اكتشفت ضمن آثارها قطع من الفخار الصيني ، أو عن طريق المحيط الهندي والبحر الأحمر التي تنتهي عند الفسطاط ــ القاهرة ، حيث كشفت الحفريات أيضا عن الصيني . وكلمة « الصيني » و « الصينية » ، مشتقة ، كما هو واضح من الصين .

وتقنية صناعة الفخار الصيني بلغت درجة عظيمة من التقدم ، ولا سيما ، تلك التي يصنع بها الفخار الملمع والذي يعكس بريقه لونا ذهبيا هو نتيجة لطلاء الصحن أو الآنية بمزيج معدني قبل احراقه . والمراكز الكبرى لصناعة الفخار الصيني هي الري ، في ايران ، وسر من رأى في القرن التاسع الميلادي ، ومصر في القرن التاسع والقرن العاشر ، وافريقية الشمالية والأندلس ، ولا سيما في مدينة الزهراء ، في القرن العاشر الميلادي .

وهذه التقاليد التقنية في صناعة الفخار الصيني ستستمر خلال القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر ، وستكون صحون الفخار الكبيرة المذهبة (العربية الاسبانية) ، أصل صناعة الفخار في جزيرة مايورقة وفي ايطاليا في عصر النهضة .

وصناعة الزجاج ، صناعة قديمة في حوض البحر الأبيض المتوسط ، اشتهرت بها في العصور القديمة مدن ، مثل صور ، وصيدا ، والاسكندرية حيث يوجد نوع من الرمل الممتاز لصناعة الزجاج .

وقد ظلت سورية ومصر خلال العصور الاسلامية ، أكبر المراكز التي تنتج الزجاج ، وذلك فيما يتعلق بالزجاج العادي ، وزجاج البذخ ، على السواء .

ومع ذلك ، فقد ظهر مركز جديد : العراق ، كان يصدر منتجات الزجاج التي تحمل اسم « العراقي » والتي تتحدث عنها الوثائق الاسبانية المسيحية فى القرن العاشر والقرن الحادي عشر الميلادي . وكؤوس البذخ التي تنتجها مصر وسورية أو العراق : كؤوس ملونة : مذهبة ، مطلية بالميناء ، مخدومة الحواشي ، أو منقوشة ، كانت تصدر الى الصين ، فى مقابل الفخار الصيني الذي يستجلب من هذا البلد .

وفى عهد الحروب الصليبية ، سيقوم الصليبيون بنهب تحف الكؤوس الملونة السورية ، وهم يعتقدون أنها قد نحتت من الأحجار الكريمة .

وأما البندقيون ، فسيحملون قطع الكؤوس التي نهبوها وتحطمت ليعيدوا صهرها فى البندقية . ومن هذه العملية ، ظهرت صناعة الكؤوس فى البندقية .

وفى القرن التاسع الميلادي ، ظهر مركز آخر لصناعة الزجاج فى الأندلس الاسلامية ، حيث اكتشف عباس بن فرناس طريقة لصنع البلور ، باضافة عنصر الرصاص الى العناصر التي يصنع منها الزجاج .

وفيما يتعلق بالأحجار الكريمة ، يمكن القول بأن المسلمين كانوا يحتكرون التجارة فى هذا القطاع . فالزمرد الذي يستخرج من صحراء الجزيرة العربية ومن أعالي مصر ، سيظل ، حتى اكتشاف أمريكا ، الزمرد الوحيد المعروف فى العالم . فان بامير ، فى بلاد بدخشان ،

تنتج يا قوتة مشهور ، وهي يا قتوتة « بلدخش » ، التي حرف اسمها باللغات الأوروبية الى « ياقوتة بالي » .

وأما الماس ، فكانت تنتجه سيلان والهند ، بينما كانت بلاد المغرب والأندلس تنتج البلور الطبيعي .

وفى كل مكان ، كانت توضع كتب ورسائل يصف أصحابها مختلف النواحي التي تتصل بالأحجار الكريمة . وهذه الكتب هي التي تستوحي منها فى الغرب المسيحي فى العصور الوسطى نظريات تعزو الى الأحجار الكريمة خصائص سحرية .

ومن قطع الأحجار الكريمة والأحجار الصلبة بلغ أوجه فى الدقة . فقطع الضلع والنقش كان ممتازا . بالأحجار الكريمة المنقوشة والعقيق المحفور ، وقطع البلور الصخري الرائعة المعروفة لدينا ، هي خير شاهد على ذلك . وكثير من القطع الثمينة التي صنعت فى العصر الاسلامي ، لا تزال محفوظة فى متحف اللوفر وفى متحف البندقية وغيرهما من المتاحف الأوروبية . وفى النقش على الأحجار الكريمة الذي حافظ عليه العالم الاسلامي ونماه كان قد اختفى فى الغرب المسيحي ، ولم يعد اليه الا فى وقت متأخر .

منتجات البحر

يملك الشرق الاسلامي امتدادا واسعا من السواحل : البحر الأحمر وسواحل جنوب الجزيرة وسواحل الخليج . والسمك فى هذه المناطق يشكل الغذاء الرئيسي للسكان . وأما فى شواطىء البحر الأبيض ، فان نشاط صيد السمك أقل أهمية ، بسبب ضيق المناطق السمكية حيث أن سطح امتداد القارة فى البحر محصور ، ويبدأ عمق البحر على مسافة قليلة من الشواطىء وصيد السمك غير ممكن الا فى عدد

من المواقع : البحيرات الشاطئية التي تمتد فى دلتا النيل ، ومسطح مضيق صقلية ، وشواطىء تونس الشرقية ، ومنطقة مضيق جبل طارق ، مضافا الى ذلك شواطىء المغرب الأقصى على المحيط الأطلسي .

وفى جميع هذه المواقع ، كانت تستخدم الطرق القديمة لصيد السمك .

وأما صيد سمك التونة ، فيجري خلال الموسم السنوي الذي يهاجر فيه هذا الحوت . والطريقة المستعملة هي ، اما الخطاف (وهي الطريقة التي يسير عليها صيادو السمك فى مضيق صقلية فى أيامنا هذه) ، أو المذربة ، وهي عبارة عن مجموعة من الشباك تمد وتوجه اليها أسماك التونة . وهذه الشباك تسمى فى الوقت الحاضر فى مضيق صقلية (تونارية)(Tonnaria) وكلمة «مذربة» (جمع : مذارب) ومنها اشتقت الكلمة الاروبية (Madrague) كانت تطلق على قفة لصيد السمك معمولة فى شكل زجاجة ذات عنق ضيق .

والملح ، وهو عنصر ضروري لطبخ الطعام ، كما يستعمل فى صناعة حفظ الأغذية وغيرها (الجلود) ، يستخرج من ملاحات على الشواطىء أو من مناجم الملح فى داخل البلاد . والملح يشكل مادة هامة فى التبادل التجاري مع بلاد السود . فان القوافل تنقل الملح من تغازي ؛ وهي واحة تقع فى شمال الصحراء الى تلك البلاد ، وتعود من شواطىء السنيغال ونهر النيجر محملة بالذهب والعبيد .

ولكن البحر مستودع كذلك لمواد ثمينة ، مثل المرجان واللؤلؤ والحرشف والسلحفاة والعنبر ، والمرجان الأحمر الذي هو من خصائص شواطىء البحر الأبيض المتوسط . وهو يستخرج من مرسى الخرز ومن القل ، (فى شرق عنابة) ، ومن هذه المنطقة تصدر كميات كبيرة منه

الى الخليج العربي الذي لا يوفر المرجان الأحمر ، والى الهند ، حيث تصنع منه الحلي والتمائم التي يحملها الناس لدفع الشر ولجلب الخير . ومن هنا شدة الاقبال على المرجان الأحمر فى الهند .

وقد كان المرجان الأحمر مادة كبيرة الأهمية للبيوت التجارية اليهودية فى الفسطاط ــ القاهرة ، حيث كانت تتولى تصديره الى شواطىء المحيط الهندي .

وأما اللؤلؤ ، فموطنه المحيط الهندي . وقد كانت مصايد اللؤلؤ فى الخليج العربي تغذي المدن الاسلامية بما يصدر من انتاجها .

والتجارة فى المرجان واللؤلؤ ، تفترض أسطولا مهما للنقل وتنظيما محكما للمصايد ، ومراقبة دقيقة من التجار والسماسرة وأرباب الأعمال ، وخصوصا من جباة الضرائب والولاة ، لهذه المصايد وأما قشر السلحفاة ، فيأتي خصوصا من شواطىء افريقية الشرقية ، ويصدر الى الفسطاط ــ القاهرة ، حيث يوجد الصناع المتخصصون فى تصنيع هذه المادة .

والعنبر يتصلب فى معدة السمك المسمى عنبر ، وهو يوجد خصوصا فى شواطىء المحيط الهندي وشواطىء المحيط الأطلسي . وقطع العنبر تلتقط على شواطىء الجزيرة العربية وافريقية الشرقية وافريقية الغربية ، على المحيط الأطلسي وشبه جزيرة الأندلس .

والعنبر يستعمل رائحة عطرية ، كما يوفر المادة الخام لصناعة الروائح العطرية ، حيث يخلط بمواد أخرى .

وكذلك ، نرى أن المسلمين الذين كانوا سادة التجارة فى الأحجار الكريمة ، كانوا يسيطرون أيضا على مختلف المواد الثمينة التي تستخرج من البحر .

دعـــامة الكتـــــــابة

كانت الدعامة المفضلة للكتابة فى العالم القديمة ورق البردى والرق . والبردى عبارة عن صفحات من القشور مضغوطة ترتب طبقات بصورة افقية أو عمودية وتغرى ثم تلصق بمادة كيميائية . وأما الرق فيصنع من جلد الغنم الذي يرقق ويصقل . وكان فى المرحلة الأولى يصنع فى آسيا الصغرى . وقد استعملته أسرة السلوقية (6) بينما استمرت أسرة لاجيد (7) على استعمال أوراق البردى .

وأما الامبراطورية الرومانية والامبراطورية البيزنطيـــة ، فكـــانت كلتاهما تستعمل أوراق البردي المصرية لكـــتابة الـــوثائق الرسميـــة والوثائق المكتوبة على ورق البردى لها قيمة الورق الذي يحمل طابعا ضريبيا . وأما الرق ، فقد كان يستعمل للوثائق الرسميـــة فى مختلف عهود ملوك الفرس ، بما فى ذلك عهد الساسانيين .

وفى عهد الخلافة الأموية ، كان المسلسون يستعملون ورق البردي فى جميع الدواوين . وفى القرن الثامن الميلادي ، كانت الكتابة عـــلى ورق البردى بالحروف العربية ، بدلا من الحروف اليونانية وكان ذلك فى نطاق سياسة تعريب الدواوين وانشاء عملة اسلامية .

وفى عهد الدولة العباسية التي كانت أكثر ميلا الى اعتماد التقاليد الايرانية تحت تأثير وزراء بني العباس من البرامكة ، استبـــدل ورق البردى بالرق فى دواوين عاصمتهم الجديدة ، بغداد ، فى منتصف القرن الثامن الميلادي .

---

6 — اسرة هلينية حكمت فى آسيا خلال الفترة بين 305 — 64 . ق.م. انشأها سيلوقوس الاول ، وكانت سوريا مركز قوة السلوقيين ودعامة دولتهم التي قضى عليها الجنرال بومبي الروماني . «المترجم» .

7 — أسرة حاكمة اسسها أحد قواد الاسكندر المقدوني ، بطليموس بن لاجوس ، حكمت مصر من سنة 306 حتى سنة 30 ق.م . «المترجم» .

وفى منتصف القرن الثامن الميلادي ، وقع تحول جوهري فى دعامة الكتابة ، حين أمر جعفر البرمكي ، وزير هارون الرشيد وحفيد خالد ابن برمك ، بادخال الورق الى الدواوين الرسمية . وأسباب هذا التحول ، فيما يروي الكتاب العرب ، ترجع الى قلة تكاليف الورق ، وخصوصا الى استحالة غسل الورق أو محو الكلمات المكتوبة عليه دون أن يترك ذلك أثرا ، على عكس ورق البردى والرق . وباعتماد الكتابة على الورق فى عهد بني العباس تحولت الأوراق الى وثائق رسمية حقيقية .

ولكن من أين جاء الورق ؟

كانت الصين تعرف استعمال الورق منذ القرن الأول الميلادي . وكان الورق يصنع من الكتان وألياف القنب . وأقدم الوثائق المكتوبة على الورق ، فيما نعلم ، يرجع عهدها الى القرن الثاني والقرن الثالث الميلادي . وقد وصلت الينا هذه الوثائق من تركستان الشرقية التي كانت تقع فى منطقة النفوذ الصيني حتى القرن الثامن الميلادي . وهذه الوثائق محفوظة فى المتحف البريطاني .

وكذلك انتشرت صناعة الرق من الصين الى آسيا الوسطى وأما امبراطورية الساسانيين ، فهي ، اذا كانت لا تصنع الورق ، فقد كانت ، على كل حال ، تستورد هذه المادة من الصين . وبعد معركة طالاس التي انتصر فيها الجيش الاسلامي فى سنة 751 ميلادية انفتحت أبواب آسيا الوسطى أمام المسلمين . والقصة التي تقول بأن أسرى صينيين قد أدخلوا صناعة الورق الى سمرقند التي كانت محاطة بحقول شاسعة من مزارع الكتان ، قصة تمثل حقيقة تاريخية . وقد كان دخول تركستان فى فلك العالم الاسلامي اقتصاديا وسياسيا ، عاملا من شأنه أن يسهل هجرة الفنيين وطرق الصنع التقنية فى الاتجاه الغربي .

ومما يجدر بنا ملاحظته فى هذا السياق أن أخا جعفر البرمكي (الذي أنشأ أول مصنع للورق فى بغداد فى سنة 794 أو 795 ميلادية) ، كان هو الوالي على سمرقند من قبل العباسيين فى هذا التاريخ .

وهكذا انتشر استعمال الورق خلال القرنين التاسع والعاشر الميلادي فى جميع بلدان العالم الاسلامي . وقد كانت مصانع الورق منتشرة فى سورية حيث كان المناخ ملائما لزراعة القنب ، وفى صقلية حيث كان يصنع فى الشاطبة الورق المعروف بالشاطبي (وهذا الاسم لا يزال يطلق فى المغرب الأقصى على نوع الورق الغليظ) . بل أن مصر نفسها ، ستتخلى عن استعمال ورق البردى ، حيث توجد نسخة من القرآن الكريم مكتوبة على الورق يرجع تاريخها الى القرن العاشر الميلادي . والوثائق الرسمية لم تعد تكتب فى القرن التاسع والقرن العاشر على ورق البردى الذي لم يحتفظ الا باسمه «ورق» . وكذلك تخلت المصالح الادارية البابوية وادارة بيزنطة عن استعمال ورق البردى فى نهاية القرن العاشر الميلادي .

والوثائق الغربية الأولى المكتوبة على الورق والمحفوظة يرجع تاريخها الى القرن الثاني عشر الميلادي . وهذا الورق مستورد ومن انتاج مصانع الأندلس وصقلية . وبيزنطة نفسها كانت تستورد الورق من سورية أو من مصر .

وأما تقنية صنع الورق ، فانها لم تصل الى الغرب المسيحي الا فى القرن الثالث عشر الميلادي ، حينما أنشئت مصانع الورق الأولى فى ايطاليا وفى جنوب غربي فرانسا .

المنتجات الطبية

نمى علم الطب وتطور فى العصر الاسلامي ، بفضل الأطباء العرب واليهود على أساس المعلومات الطبية اليونانية المترجمة الى اللغات

السريانية والآرامية والعربية . ويضاف الى المعلومات التي هي من أصل يوناني ، معلومات أخرى من أصل شرقي من ايران ، ولا سيما من مدرسة جنديسابور (8) ، ومن الهند .

والمعلومات الطبية اليونانية ، مثل الفكر اليوناني بصفة عامة ، تختلط بالمعلومات التي اشتملت عليها كتب أريسطوطاليس ، وهذه المعلومات مرت خصوصا ، بالمراحل التالية : انتقلت من اليونان الى سورية ثم ترجمت الى اللغة السريانية والآرامية والعربية ثم انتقلت الى المراكز العمرانية الكبرى فى العالم الاسلامي ، مثل بغداد والقاهرة وقرطبة ، حيث عمل اليهود الأندلسيون لترجمتها الى اللغة اللاتينية ؛ وهو الشكل الذي وصلت فيه الى الغرب المسيحي : الى سلرن فى القرن التاسع الميلادي ، ثم الى مونبيلي .

وفى غضون الفترة التي تمتد بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي ، كانت بيزنطة تمثل جزيرة من وجهة نظر الطب . فقد كانت الاتصالات بين الشرق والغرب اللاتيني عن طريق غرب البحر الأبيض المتوسط الاسلامي ، أوثق من علاقات التبادل القائمة بين الشرق الاسلامي وبيزنطة . فان سيميون سيث (Simon Seth) كان أول من تحدث عن السكر فى بيزنطة فى سنة 1075 ميلادية ، وعن العقاقير الطبية التي يستعملها العرب . ولكن العرب لم يدخلوا عالم الطب فى الحقيقة الا فى القرن العاشر الميلادي ؛ حيث كان النساطرة عهدا طويلا هم الذين يديرون مدرسة جند يسابور .

---

8 ـ هكذا شكلها صاحب مراصد الاطلاع . واما البكري ، فيوردها باسم جندا سابور (مثنى مضاف اليه سابور من بلاد فارس) . مدينة ايرانية تقع فى خوزستان ، أسسها سابور الاول واسكن فيها أقواما من اليونان اسرهم . فتحها ابو موسى الأشعري فى سنة 17 هـ . ، فى عهد عمر ابن الخطاب رضي الله عنه وقد اشتهرت جند يسابور بمدارسها الطبية التي كانت تستعمل فيها اللغة الأرامية . (المترجم) .

والعلوم الهندية التي كانت تحظى برعاية خاصة فى عهد الساسانيين ، ستلقى عناية فى العهد العباسي ابتداء من سنة 750 ميلادية . وفى هـذا العصر ، اكتسب علم الطب العربي ثروة جديدة . ففي هذا الوقت درست خصائص السكر الذي تنتجه خوزستان ، فى جند يسابور : وازدادت أهمية السكر فى صناعة الأدوية الشرقية لتحلية العقاقير الطبية وجعلها سائغة المذاق .

وقد كان انتشار الكتب والرسائل العلمية فى موضوعات الطب ، وتعدد المراكز الطبية والمستشفيات (9) والصيدليات فى العالم الاسلامي، عاملا يفسر لنا ما سجله علم الطب وصناعة العقاقير والأدوية من التقدم .

وكذلك كان من نتائج التقدم فى الدراسات الكيميائية والصيدلية ، ظهور امكانيات جديدة لصنع الكماليات مثل ماء الورد والبنفسج والقرنفل ومختلف أنواع الدهان والمراهم والمساحق والروائح العطرية والمشروبات . وأثر ذلك اكتست التجارة فى العقاقير ومنتجات الزينة أهمية كبيرة . وكان من بين العناصر التي ازدهرت التجارة فيها الشب المصري ، والبورق الذي تنتجه أرمينيا ومصر ، وكبريت صقلية ، وغير ذلك من المنتجات المستخلصة من الحيوانات والنبات مثل القنب

9 ـ اول المستشفيات فى الاسلام بناه الوليد بن عبد الملك « 88 هـ » . وفى ايام الخلافة العباسية كثرت المستشفيات (والمستشفى كان يسمى بيمارستان : من الفارسية) فى بغداد وفى الأمصار . وكان كبار بناة المستشفيات هم هارون الرشيد والبرامكة وبدر غلام الخليفة المعتضد ، والمقتدر العباسي ، وام المقتدر ثم معز الدولة بن بويه واخوه عضد الدولة ، وقد كانت مصر من البلدان التي حظيت بعناية خاصة ، حيث بنى الأمويون مستشفى فى الفسطاط ثم بنى الفتح بن خاقان وزير الخليفة المتوكل العباسي مستشفى آخر فى الفسطاط ، وفيما بعد بنى أحمد بن طولون المستشفى (الأعلى) كما بنى كافور الاخشيدي الاسفل (346 هـ) ، ولما استولى الفاطميون على مصر وبنو الجامع الازهر ، بنوا قربه بيمارستان القشاشين ؛ وفى عهد صلاح الدين بنى المستشفى الناصري فى القاهرة وبيمارستان الاسكندرية ، وقد كثرت المستشفيات فى سوريا وفلسطين والعراق خصوصا لمواجهة الحاجة التي نجمت عن الحروب الصليبية . (المترجم) .

والأفيون المنتشر استعمالها فى العالم الاسلامي للأغـراض الطبيـة . وكذلك كان الاقبال كبيرا على الرتنج وصمغ جاوة وصمـغ البلسم ، والنعناع ، والأهليج ، والراوند ، والسنا ، والخروع ، الخ ..

بل ان الخمر نفسه يؤخذ على أنه نوع من الدواء ، فيشرب بعـد اضافة بعض التوابل التي تحسن رائحته . وقد حل السكر محل العسل فى عجن العقاقير الطبية . وأصل بعض هذه الأدوية محـاط بالغموض والأسرار ، والبعض الآخر تروى عنه قصص وأساطير ، أو يزعمون أنه ترياق نافع لكل داء .

وفى هذه الأثناء كان البحث يجري بنشاط عن عدد كبير من النباتات الطبية التي لا يزال بعضها يستعمل حتى يومنا هذا ، لتصـديرها . ولكن العالم الاسلامي كان يستورد أيضا أعشابا طبيـة خصوصا مـن الهند والصين ومن شواطىء افريقية الشرقية . وتتيجة لذلك ، فقـد اتخذت التجارة الدولية فى العقاقير أهمية كبيرة ، وساهمت مساهمـة فعالة فى نمو التبادل التجاري بين العالم الاسلامي والبلدان البعيـدة كما ساعدت على تغيير العادات والتقاليد ، ففي هذا العصر انتقلت زراعة الأفيون من ايران الى آسيا الوسطى والشرق الأقصى .

الـرقيـق

عرف العالم الاسلامي الرقيق الذي ورث التجارة فيه عن الحضارات الكبيرة القديمة ، وخصوصا عن الحضارة البيزنطية . وقد كان العبيد القوة المحركة فى العمل الجماعي فى المزارع الكبرى وفى المناجم ، كما كانت اليد العاملة فى المدن تتألف من العبيد والعمال الأحـرار عـلى السواء .

والخدم فى المنازل أيضا كانوا من الخصيان والجـواري والعبيـد وكذلك كان الموسيقيون والمغنون فى قصور الملوك ومنـازل الأعيـان فان قصر الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث فى قرطبة كان يحتـوي على 6ر300 جارية ، بينما كان عدد الجواري فى قصور الفاطميين فى القاهرة يبلغ 12ر000 جارية ، وقد كانت الجوقات الموسيقية التي هي من لوازم حياة الترف والبذخ ، تتكون من الرقيق الذين أنشئت مدارس خاصة لتعليمهم وتدريبهم على فنـون الغناء والعـزف (10) والرقص والنحو والشعر (11) ، فى بغداد ، والمدينة وقرطبة . والعبيد الذين يتلقون التعليم والتدريب ، يباعون بأسعار مرتفعة جدا (12) . وهذه كانت حالة اشراق السويدة ، الجارية السوداء التي اشتهرت فى الأندلس فى القرن العاشر الميلادي بتضلعها فى النحو وفى علم العروض .

---

10 ــ روى صاحب الاغاني عن ابراهيم الموصلي مغنى الرشيد قوله : « لم يكن الناس يعلمون الجارية الحسناء الغناء ، وانما كانوا يعلمونه الصفر والسود ، وأول من علم الجواري المثمنات أبي . فانه بلغ بالقيان كل مبلغ ، ورفع من أقدارهن » . وفى هذا السياق يقول أبو عيينة الشاعر ، وكان يهوى جاريـة اسمها « أمان » طالب مولاها فيها ثمنا كبيرا :

قلت لما رأيت مـوني أمـان قد طغى سومه بهـا طغيانـا
لا جـزى الله الموصلي أبا اسحـاق عنا خيرا ولا احسـانا
جـاءنا مرسـلا بوحي من الشيطـان أغـلى به علينـا القيانا

والجدير بالذكر أن ابراهيم الموصلي ، جريا على سنة أبيه ، ألف هو ويزيد حوراء شركة لشراء الغواني وتعليمهن الغناء والمشاركة فى ربحهن . (المترجم) .

11 ــ كان تعلم الغناء يستتبع تعلم الأدب ، لأن الناس كانوا فى ذلك العهد يتغنون بالشعر الفصيح ، مثل شعر عمر بن أبي ربيعة وبشار ومسلم بن الوليد ، وكانت المغنية تحتاج لاجادة الغناء ، الى حفظ كثير من الشعر ومعرفة مخارج الحروف ودراسة علم اللغة ، وذكر المبرد عن الجاحظ عن ابراهيم بن السندي أنه قال : كانت تصل الى جارية «حمدونة» فى حاجات صاحبتها ، فأجمع نفسي لها وأطرد الخواطر من فكري وأحضر ذهني جهدي ، خوفا من أن تورد علي ما لا أفهمه ، لبعد غورها واقتدارها على أن تجري على لسانها ما فى قلبها . (المترجم) .

12 ــ اشار صاحب الأغاني الى هذه الظاهرة وقال ان تعلم الجارية يغلي قيمتها أضعافا مضاعفة . فقد عرضت جارية بثلاثمائة دينار ، فلما علمها ابراهيم بن المهدي الغناء ، عرض فى ثمنها ثلاثة آلاف دينار ، وقد بيعت عريب المغنية الشهيرة بخمسة آلاف دينار ، وكان دحمان يشتري جارية بمائتي دينار ، فيعلمها ويبيعها بعشر آلاف دينار ؛ وكذلك اشترى الرشيد جارية من الموصلي بستة وثلاثين ألف دينار . (المترجم) .

والنوع الآخر ، والمهم أيضا فى الرقيق ، هو الرقيق العسكري ، فان حرس الملوك والأمراء ، يتكون أساسيا من العبيد ، وحرس بني طولون فى الفسطاط فى القرن التاسع الميلادي ، كان يتكون من 24 ألف من الأتراك و 40 ألف من السود ، وأما خلفاء بني أمية فى قرطبة ، فقد كانوا يملكون عشرة آلاف عبدا ، وهذا الحرس الذي تتولى قيادته ضباط يختارون بعناية من المعتوقين كان دائما يقوم بدور فى الدرجة الأولى من الأهمية فى الحياة العامة . وقد كان ابن طولون بن عبد تركي معتوق ، كما كان أبو المسك كافور (13) ملك مصر (905 — 968 م) عبدا مخصيا .

وكما حدث بالنسبة الى العبيد المعتوقين فى الامبراطورية الرومانية ، والمخصيين فى الامبراطورية البيزنطية ، فان الشخص الذي كان عبدا فى السابق ، كثيرا ما يلعب دورا خطيرا فى الحياة السياسية والعسكرية والاجتماعية فى العالم الاسلامي .

ومهما يكن من شيء ، فان التجارة فى ارقيق كانت من أهم القطاعات التجارية فى العالم الاسلامي .

ولكن سكان العالم الاسلامي لا يباعون ولا يشترون عبيدا . وبعد مرحلة الفتوحات ، لم يكن يوجد فى داخل الحدود الاسلامية سوى مسلمون وذميون تحميهم الشريعة الاسلامية : اليهود والمسيحيون وأتباع ديانة زرادشترا ، وهذه الفئات جميعا يحرم الاسلام استعباد أفرادها

13 — كافور بن عبد الله الاخشيدي ، الأمير المشهور ، صاحب المتنبي ، ورد تاريخ ميلاده فى النص غلطا ، 966 م ، والصواب ما ذكرنا (وهو يوافق 356 — 357 هـ) وكافور كان عبدا حبشيا اشتراه الأخشيد ملك مصر (312 هـ) فنسب اليه واعتقه فترقى فى السلم الاجتماعي حتى وصل الى ملك مصر فى سنة 355 هـ واخباره كثيرة توسع صاحب النجوم الزاهرة فى ذكرها ، وقد كان يدعي لكافور على المنابر فى مكة ومصر والشام ، ولما توفى حمل تابوته الى القدس ودفن بها . (المترجم) .

اذا استثنينا حالات نادرة ، مثل الأقباط الـذين قاموا بالثـورة التي تحدثنا عنها فى الدلتا المصرية . ونتيجة لهذه الوضـعية ، فان العالـم الاسلامي يحتاج الى استيراد العبيد من البلدان الواقعة خارج حـدوده اذا لم يقع فى يد المسلمين أسرى فى الحرب .

وهكذا نجد ثلاثة بلدان ، أو مناطق ، هي التي توفر الرقيق ، وهي : بلاد الصقالبة (ومنها اشتقت كلمة (Slave) الأوروبية ومعنـاها العبيد) ، وهي بلاد الغابات الواسعة التي تمتد فى أروبا الوسطى وبلاد الأتراك ، أو تركستان ، أي سهوب آسيا الوسطى ، وأخـيرا ، بـلاد السودان التي تمتد على حافات الأدغال الافريقية .

كان الصقالبة خلال الفترة بين القرن الثامن والقـرن الحـادي عشر الميلادي ، يحتلون فى الغرب المناطق التي انتشروا فيهـا عقب هجـرة الجرمانيين نحو الغرب (بين القرن الثالث والقرن الرابع الميلادي) . وهذه المناطق تمتد حتى نهر الأيلب ونهر صال وجبال الألب الشرقيـة وايستري ودالماتيا والباقان ، بل وحتى جزر البليبونيز التي ردوا منها على أعقابهم بعد القرن السادس الميلادي .

وفى الشرق ، تمتد أرض الصقالبة على وجه التقريب حتى حـدود الغابة الشمالية الكبرى وتشمل أعالي نهر الدنيبير ، وأعالي نهر الدون ، وأعالي نهر الفولجا ، مع ألسن متقدمة فى السهول ، حيث اصطدمت شعوب البوليان (Pohanes) بشعوب الدريفليان (Drivilianes)

ووراء بلاد الصقالبة تمتد فى أتجاه بحر البلطيق ، أراضي الشعوب الفينلاندية التي تشملها عند الجغرافيين العرب كلمة « الصقالبة » .

وفى السهوب الروسية الجنوبية ، وفى جنوب نهر الدانوب ، كانت تعيش الشعوب التركية ـ المنغولية الأصل ، الخـزر ، والبلغـار . والمجر .

والصقالبة يعيشون عيشة تعتمد على منتجات الغابات : صيد السمك، وصيد الحيوانات والقطف والجني . وهم مـوزعون فى قبـائل مشتتة لا التحام بينها . ولكن الصقالبة أخذوا يتبلورون الى كيانات متماسكة فى القرن العاشر الميلادي ، حين أسسوا دولا فى منطقتين : بوهيميا ، وبولندا . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فان السكاندينافيين كانوا يجوبون ، ابتداء من القرن الثامن الميلادي ، منطقة الأنهار الروسيـة الكبرى (الفولجا والدون والدنيبر) ، حيث شكلوا فى القرن التاسع الميلادي أمارات روسية اسـكاندنافية فى كييف وعـلى ضفاف نهـر الدنيبر .

وأما التجارة السكاندينافية ، فكانت تتجه نحو بحر الشمال وأروبا الغربية (ومن هناك تصلها طرق التجارة المؤدية الى الأندلس والمغرب الاسلامي وشواطىء البحر الأبيض المتوسط) ، ونحو الجنوب ، الى بحر قـزوين والشرق الاسـلامي ، وأخـيرا ، نحـو البحر الأسـود وبيزنطة .

وكانت هذه التجارة تنصب خصوصا على الرقيق الصـقلبي الذي كانت تصدره أمارة كييف فى اتجاه العالم الاسلامي وبيزنطة .

وفى الاتجاه الشرقي كان العبيد يمرون ببلاد الخزر ، فى أسفل نهر الفولجا . وقد كانت مدينة أتيل الواقعة على ضفاف بحر قزوين تفرض ضرائب (جمركية) على الرقيق الذي يجري توزيعه فيها بين الطريق البرية المؤدية الى باب الأبواب ، والى أرمينيا التـي كـانت مركـزا

للخصي ، والطريق البحرية عبر بحر قزوين ، في اتجاه طبرستان ، والري ، وبغداد .

وطريق العبوز (الترانزيت) الأخرى لتجارة العبيد ، هي التي تجتاز بلغاريا الكبرى وتمر بمدينة بلغار الواقعة عند ملتقى نهري الفولجا ونهر كاما . وهذه الطريق التي تمر بالسهوب تؤدي الى خوارزم حيث كانت أورجانش السوق الرئيسية للرقيق في آسيا الوسطى . والمدينة كانت تابعة للدولة السامانية التي كان سلطانها يمتد ليشمل أيضا سمرقند وبخارى ، اللتين كانتا مركزين للخصي ، ومن الشواهد التي تدل على أهمية التجارة في الرقيق في الدولة السامانية ، تلك الكميات الكبيرة من الدراهم السامانية التي عثر عليها ، على طول الأنهار الروسية الكبرى (14) حيث كانت عملة الدفع لشراء الرقيق ، وغيره من السلع التي كانت تمر بمدينة بلغار : الفراء ، والعسل ، والخيول ، والجلد .

ومن خوارزم ، ستتجه قوافل العبيد الى آسيا الوسطى ، الى ايران وما بين النهرين ، حيث توزع في مختلف أسواق العالم الاسلامي .

وفي الاتجاه الغربي ، كانت تجارة الرقيق تجري على يد الفرنج ، ولا سيما التجار اليهود الذين ينتمون الى أعالي الدانوب والراين والأراضي الواقعة على أنهار الموز والصاوم والرون . ومن بوهيميا ،

14 – راجع : A. Markof. Topografia Kladof vostotchnykh monet, Saint Petersbourg, 1910.

Trudy numizmatcheskoj وكذلك التكميلات التي قدمها R Vasmer وابتداء من سنة 1972 في Komisij

وكذلك Beitrage Zur kun de Estlands

راجع كذلك المقالات العديدة التي ظهرت عن قطع النقود العربية في المجلات العلمية البولندية ، ولا سيما : R. Gupieniec, Bibliografia Numismatyky Polskiejzalata Archeslogiczne bibliotera Nmizmatyczna 1.

حيث كانت مدينة براغ مركزا للخصي ، يتجه العبيد الى مدينة راتسبون فى ألمانيا . ومن هناك يوزع الرقيق على الأسواق الجرمانية الواقعة على ضفاف أنهار الأيلب والصال ، ويصل الى فردان ، التي كانت سوقا كبيرة للعبيد ومركزا للخصي فى نفس الوقت ، ثم الى مدينة ليون حيث يقوم التجار اليهود بتوزيع سلعتهم البشرية . وهذه الأسواق يؤكد وجودها ابن خرداذبة الذي كان يكتب فى سنة 847 ميلادية ، كما تؤكدها رسائل أسقف مدينة ليون ، أجوبار (توفي فى سنة 840 ميلادية) (15) . ومن مدينة ليون ، كان الرقيق يمر الى أرل ونربونة ، ومن هناك يتجه الى أسبانيا ، وعن طريق البحر مباشرة الى مصر وسورية .

وأخيرا ، تتجه التجارة فى العبيد الى الجنوب ، نحو البندقية التي تعتبر قاعدة أساسية لهذه التجارة . فان البندقية تتلقى الرقيق الصقلبي الآتي من أعالي الدانوب ومن بلاد رينان عن طريق ممرات جبال الألب ، أو من جبال الألب الشرقية وايستري ودالماتيا . وبعد ذلك ، يقوم البحريون البندقيون بتصدير هذه البضاعة البشرية الى موانىء المشرق فى البحر الأبيض المتوسط . والتجارة فى الرقيق كانت مربحة للغاية ، وكانت تزيد الموارد الهامة التي كانت البندقية تجنيها من تهريب الأسلحة والخشب الى البلدان الاسلامية .

وكذلك نجد أن التجارة فى الرقيق كانت تجارة واسعة ويجني منها من يقومون بها أرباحا طائلة . ففي القرن العاشر الميلادي ، ذكر ليوتبراند (Lintprand) ، التجارة فى الرقيق و «صناعة» الخصي فى مدينة فردان ، ووصفها بأنها « تدر أرباحا طائلة » (16) . ومما يدل

15 – راجــع : Mon Germ, Espitol III, pp. 183 et 185.

16 – راجــع : Antaprondosis. Mon. Germ. Hist. Scriptones III, p. 156

أيضا على اتساع نطاق التجارة فى الرقيق ، تلك الأرقام التي أسفر عنها تعداد العبيد الصقالبة الذي أجرى ثلاث مرات متوالية فى قرطبة فى عهد عبد الرحمن الثالث (912–961م) . وهذه الأرقام ، كانت على التوالي : 3750 و 6087 و 13750 عبدا . وهذا معناه ازدياد عدد العبيد بعشرة آلاف نسمة فى فترة نصف قرن من الزمن ، وذلك فى نقطة واحدة من العالم الاسلامي .

وبعد ما تفككت خلافة قرطبة فى القرن الحادي عشر الميلادي ، استولى الضباط من العبيد الذين نالوا حريتهم على مقاليد الحكم فى العهد المعروف باسم «ملوك الطوائف» ، وخصوصا فى دانية وبلنسية .

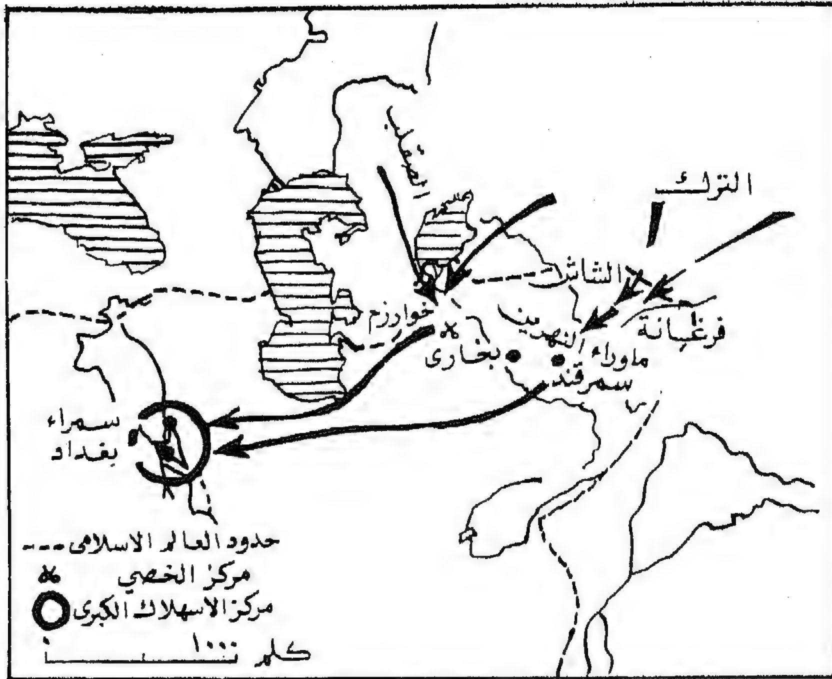
وبينما كان الصقالبة يعيشون فى الغابات ، كان الترك يقيمون فى سهوب آسيا الوسطى التي تمتد حتى المناطق الجنوبية فى روسيا . والنقاط التي يدخل منها الرقيق الى العالم الاسلامي هي المناطق التي تقع فيها فرغانة ، والشاش ، وما وراء النهر ، مع أسواق سمرقند ، وبخاري الواسعة ، من جهة ، وخوارزم التي تصل اليها ، كما رأينا ، واحدة من أكبر الطرق التي ينقل فيها العبيد الصقالبة والتي تسيطر عليها دولة السامانيين (القرن العاشر الميلادي) من جهة أخرى .

ومن هذه المناطق ، يعاد توزيع الرقيق الصقلبي الى جميع الأسواق الايرانية وأسواق ما بين النهرين ، وغيرها من أسواق العالم الاسلامي .

والمهمة الأولى التي تناط بالعبيد الصقالبة والأتراك فى العالم الاسلامي، هي تشكيل حرس الأمراء والملوك . وكذلك نرى أن الخلافة العباسية التي ولدت فى خراسان ، قد اتجهت الى الاعتماد كثيرا على المماليك . ويكفي لكي ندرك أهمية هذا الاعتماد ، أن نعرف أن الخليفة المعتصم

الشكل رقم ٢١ - التجارة في الرقيق الصقلبي

العباسي « 833 — 824 » ، كان لديه حرس يتكون من 70ر000 عبدا تركيا . وهذا الحرس الضخم سيقوم بكثير من الاضطرابات فى بغداد ، الأمر الذي حمل المعتصم على بناء سر من رأى واتخاذها عاصمة لملكه ، عوضا عن بغداد ، وبعد ذلك ، سيوالي العنصر التركي توغله فى أجهزة الدولة باستمرار . فان الضباط من العبيد العتوقين ، سيقوى نفوذهم ويزداد سلطانهم ، بعد ما يصبحون قوادا للجيش أو للحرس الملكي ، بل وملوكا فى بعض الأحيان ، مثل ابن طولون فى مصر . فهؤلاء الضباط الأتراك ، هم الذين ألقت الأقدار فى أيديهم مفاتيح الحل والعقد فى الخلافة الاسلامية . فان عودة الخليفة الى بغداد فى سنة 892 ميلادية سببه رغبة المعتصم فى التخلص من الأتراك الذين بسطوا نفوذهم على سر من رأى .



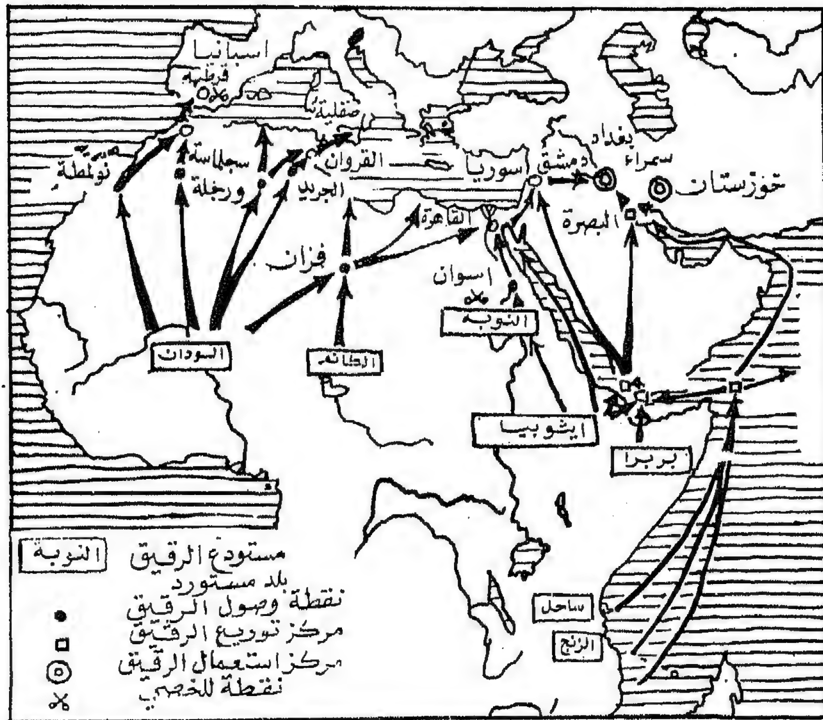
الشكل رقم ٢٢ - التجارة فى الرقيق التركي

وهذا التوغل التركي فى الجيش والادارة ، كان من العوامل التي سهلت انتشار الدين الاسلامي فى بلاد الترك التي بقيت خارج حدود الخلافة الاسلامية وهيئت الأسباب لقيام الامبراطورية الاسلامية بعد الفتوحات التي قام بها الأتراك فى القرن الحادي عشر الميلادي ، وبعد القرن الثالث عشر الميلادي ، سيبلغ المماليك (17) الذين استولوا على الحكم فى مصر ، أوج سلطانهم ، ويصبح معظم العالم الاسلامي خاضعا لحكم الحرس التركي .

---

17 ـ المماليك هم العبيد الأتراك والشراكسة الذين استعان بهم الأيوبيون فى القرن الثاني عشر والثالث عشر الميلادي للخدمة العسكرية ، فتمكن بعض زعمائهم من الوصول الى الحكم واسسوا دولتي المماليك البحرية والبرجية وكان سلطان الممالك فى وقت من الاوقات يمتد من برقة غربا ، حتى حلب شرقا ومن مصوع جنوبا حتى البحر الابيض شمالا . «المترجم» .

والعالم الأسود ، يشكل المورد الثالث والكبير للعبيد . وهذا المورد يشتمل على عدة مناطق : فالنوبيون يستوردون من أعالي النيل عن طرق أسوان التي هي المدخل الجنوبي للبلاد المصرية والتي كانت مركزا للخصي ، ولا سيما فى الأديرة المسيحية التي تقع فيها . فهؤلاء هم سكان بربرا الذين يوجهون خصوصا الى الخدمة فى المنازل . وأما الرقيق الحبشي ، فيستورد عن طريق النيل الأزرق ، أو عن طريق موانىء البحر الأحمر الى مصر وشبه الجزيرة العربية . والعبيد الصوماليون يأتون عن طريق الزيلغ الى عدن حيث ينقلون لتوزيعهم الى سوق زبيد الكبيرة التي أنشئت فى القرن الثامن الميلادي .



الشكل رقم ٢٣ - تجارة الرقيق الاسود

وأما الزنج الذين يأتون من شواطىء افريقية الشرقية ، أي البنطوس ، فيشكلون موردا هاما لتوفير اليد العاملة فى حقل التجارة الاسلامية التي عرفت ازدهارا وتوسعا كبيرا فى المحيط الهندي . وهؤلاء العبيد السود ، يقعون فى الأسر أثناء الغزوات أو يشترون فى مقابل بضائع زهيدة القيمة من الملوك ورؤساء القبائل الزنوج . ومن شواطىء افريقية الشرقية تمر هذه البضاعة البشرية الى جزيرة سقطرة والى عدن ، حيث يحشدون استعدادا لاعادة تصديرهم الى مصر عن طريق البحر الأحمر ، أو الى ما بين النهرين عن طريق الخليج . ونحن سبق أن تحدثنا عن ثورة الزنج الفظيعة فى الفترة بين 868 ــ 883 ميلادية . وكانت كثرة العبيد الزنوج من أهم الأسباب التي أدت الى هذه الثورة .

والمورد الأخير للعبيد ، كانت هي المناطق الغربية فى السودان . وهذه الأراضي كانت تستغل لتوفير العبيد خصوصا بفضل تنظيم تجارة القوافل فى الذهب والعبيد عبر الصحراء . وأهم فئات رقيق السودان ، هم التكرور السينغاليون ، والصونكي الغانيون ، والصونغاي من جوا ، والصاو ، من الكانم الذي تمتد أراضيه غير بعيد من التشاد فهذا الرقيق يصدر الى نولمطة والى سجلماسة ، ومن هناك يتجه الى المغرب الاقصى والأندلس ، أو الى ورجلة والجريد ثم الى افريقية وفزان وطرابلس وبرقة ومصر ، وما وراءها من البلدان الاسلامية فى الشرق .

والى جانب الصقالبة والأتراك والزنوج ، توجد شعوب أخرى تساهم بحظ فى توفير الرق . فان العبيد الأنجلوساكسن ، يوجهون عن طريق الجول ، الى ضفاف الرون وايطاليا الشمالية والبندقية ، أو مباشرة عن طريق ايرلاندا والمحيط الأطلسي الى موانىء الأندلس : ليشبونة وقصر أبي دانس . وأما رقيق الهند ، فيدخل عن طريق الهند كتش ، وبلخ وسمرقند . ويضاف الى ذلك الأسرى الذين يأخذهم المسلمون فى الحروب ضد بيزنطة أو فى الغزوات التي يشنونها على

البلدان المسيحية فى اسبانيا الشمالية والأسرى الذين يبيعهم النورمانديون واللومبارديون الذين يشتريهم نخاسو أمالفي وغيرهم من نخاسي ايطاليا الجنوبية ، يوجهون الى الشواطىء المقابلة للبحر الأبيض ، مثل صقلية ، وافريقية الشمالية ، ومصر .

والواقع أن الرق كان من أهم العوامل فى الحياة الاقتصادية فى العالم الاسلامي . فان تدفق العبيد يسمح بشن الحرب ويساعد على استمرار تدفق التبادل التجاري وتوسيع هذا النشاط الذي يمتد بين آسيا الوسطى والغابة الشمالية الكبرى والسودان الغربي وشواطىء افريقية الشرقية والجزر البريطانية والهند . ولكنه ابتداء من القرن الحادي عشر ، أخذ الرقيق يقل ، فان عهد الفتوحات الكبرى قد انتهى، والصقالبة الذين اعتنقوا المسيحية لا يباعون للمسلمين . وأما الأتراك الذين اعتنقوا الدين الاسلامي ، فقد أصبحوا غير قابلين للاسترقاق . ومن ثم ، فلم يبق سوى السود . ولكنه حتى فى هذه المناطق ، تقلصت الأراضي التي توفر الرقيق نتيجة لانتشار الاسلام فى افريقية السوداء .

ونتيجة لهذا التطور ، سنشاهد أزمة حادة فى سوق اليد العاملة ، كما حدث فى عهد الامبراطورية الرومانية فى القرن الرابع الميلادي . وكان من نتائج هذه الأزمة ظهور ، أشكال جديدة من تنظيم اليد العاملة .

وحركات الغزو التي وقعت فى القرن الحادي عشر الميلادي (الترك وبنو هلال والمرابطون) ، ستتخذ الطرق التي كان يسلكها الرقيق . وقد كان فتح هذه الطرق التي تربط بين المدن الاسلامية والمجتمعات المتوحشة التي كانت مستودعا للعبيد ، بداية عهود جديدة .



ان الانتاج الزراعي والصناعي في العالم الاسلامي خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي ، ينطوي على عوامل القوة وعلى عوامل الضعف في نفس الوقت . فأما عوامل القوة فمرجعها الى الفترة الزمنية نفسها . فان قواعد سيطرة العالم الاسلامي الاقتصادية ، تقوم في المكان الأول على التركة الايجابية التي ورثها عن الحضارات القديمة التي اعتمد الاسلام طرقها التقنية وحسنها . وفي نفس الوقت ، استطاع الاسلام تفادي آثار النواحي السلبية في تلك الحضارات . وكذلك تمكن العالم الاسلامي بفضل وجود نظم للتجارة مع البلدان البعيدة ، لتموينه ببعض المنتجات وبفضل وجود شبكة من المدن التي تحول فيها تلك المنتجات ، من الحصول على المواد التي لا يملكها أو التي لم يعد يملكها بسبب الافراط في استغلالها في عهود الحضارات القديمة التي كانت تبذر المواد الأولية .

ونواحي الضعف في العالم الاسلامي ، مرجعها ، بالضبط الى النقص في موارده الخاصة ، ولا سيما من الخشب والمعادن ، والمياه فان المناطق التي يشملها الري ، لا يمكن توسيعها الى غير نهاية . وضيق هذه المناطق يحد من قاعدة النباتات الغذائية الشرقية . وكذلك كانت قوة الاسلام الاقتصادية معلقة على صيانة شبكة الري وشبكة الطرق التي يتدفق منها الذهب ، وعلى ازدهار العمران في المدن .

وهذا يفسر لنا كيف أن القوة التي كان مرجعها الى ظروف تاريخية معينة ، قد تحولت الى ضعف حينما اختفت امكانيات التنقل في فضاء فسيح ، أي في القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر . تحت تأثير الغزو : غزو الأتراك في الشرق ، وغزو بني هلال في افريقية الشمالية ، والموحدين في الأندلس ، والنورمانديين في صقلية والصليبيين في أسبانيا وسورية .

وأزمة العالم الاسلامي التي هي الأزمة المتكررة فى بلـدان الشرق القديمة التي أفرط فى استغلال مواردها وتعرضت للغزو ، زاد مـن خطورتها منافسة الغرب الذي هو بلاد جديدة ، بعدما تعرض للتأثيرات الخلاقة والمحرضة على العمل والتقدم التي تلقاها من المراكز المحركـة فى العالم الاسلامي نفسه . وقد استطاع الغرب بفضل تلك التأثيرات تنظيم استغلال موارده الهائلة من الماء والخشب والمعادن ــ تلك الموارد التي ظهرت أهميتها خصوصا ، بالقياس الى ضآلة موارد بلدان العالم الاسلامي التي استنزفت الآن .



القسم الثالث

قوة تيار التبادل التجاري

الفصل التاسع

التبادل التجاري في العالم الإسلامي

استعرضنا فى الفصول السابقة الخطوط الرئيسية لتدفق النقد ولوصول الذهب الحديث الاستخراج الذي ينعش الدورة العامة المتبادل التجاري فى العالم الاسلامي ، ثم درسنا دور كبريات المدن الاسلامية بوصفها مراكز الاستهلاك والمحرك الحقيقي للاقتصاد . ولكننا نحتاج الى تكميل هذه الدراسة التي تتعلق بتيارات النقد : بدراسة أخرى عن الاتجاهات الرئيسية لتيارات السلع . وهذا البحث يضطرنا الى الحديث أولا ، عن الوسطاء فى التجارة : اليهود ، والمسيحيون ، والمسلمون .

الوسطاء من اليهود

كان احتراف اليهود التجار يقوم فى أساسه على مجموع الجماعات اليهودية التي انتشرت فى مختلف أنحاء العالم بسبب التشرد الأول (فى عهد نابوشودونوصر (Nabuchodonosor) (1)) ، ثم بالتشرد الثاني (بعد تدمير معبد القدس) . وهذه الجماعات ، كونت صلات وروابط وثيقة بينها ، واستقرت على حافات الطرق التجارية العالمية . وهذه الطرق الدينية والتجارية ، تصل ما بين النهرين فى عصر الساسانيين وأرمينيا ، وبلاد القوقاز وشواطيء بحر قزوين وبلاد الخزر (أسفل

---

1 ـ ابن نابو بولاسار (Nabopolossar) ملك بابل (605 ـ 562 ق.م) شن عدة حملات على مصر وخرب مملكة يهوذا وعاصمتها القدس فى سنة 586 ق.م ، ثم غزا مناطق من الجزيرة العربية . (المترجم) .

الفولجا والسهوب التي تمتد بين مملكة البونت وبحر قــزوين) من جهة ، وايران (2) وخراسان وخوارزم وما وراء النهـــر ، وشواطـــيء الخليج ، وأخيرا الهند « شواطىء ملبار » .

ومن سورية ومصر البيزنطية ، خرج اليهود فى المرحلة الأولى الى شمال الجزيرة العربية والى المناطق الجنوبية الشرقية فيها (اليمن) ، والحبشة وانتشروا فى جميع البلدان الواقعة على البحر الأحمر ، وفى مرحلة تالية ، هجروا الى الواحات الواقعة على خط القصور ، مــن مصر حتى المغرب الأقصى على طول الأطـــراف الشماليـــة للصحـــراء . والهجرة التي وقعت فى المرحلة الثانية سيمارس فيها اليهود تأثيرا عميق الأبعاد على العالم العربي البدائي ، وعلى البلاد الواقعة على شواطىء البحر الأحمر ، وعلى العالم الصحراوي ، حيث تعـــزو الأســـاطير الى اليهود ادخال عدد من الطرق التقنية الى المناطق الواقعة فى جنـــوب جزيرة المغرب .

وفى المرحلة الثالثة ، اتجه المشردون من اليهود من القسطنطينية ومن آسيا الصغرى الى شواطىء البحر الأسود وشبه جزيرة القرم وروسيا الجنوبية ، حيث تصل اليهودية التي تنتشر من ضفاف بحر قزوين ــ بلاد الخزر . (3) وفى المرحلة الاخيرةانتشرت اليهودية من ايطاليا واسبانيا الجنوبية ، وهي منطقة تضم كثيرا من المدن التجارية القديمة وتعتبر من ضمن المناطق التي شملها النفوذ الفنيقي ، أي السامي فى القديم . وعن طريق مضيق جبل طارق كان اليهود يتوغلون أيضا فى الغرب المسيحي

---

2 ـ كان يوجد فى ايران بلدتان تسمى كل منهما « اليهودية » احداهما بجرجان ، والأخرى بأضبهان . (المترجم) .

3 ـ ذكر احمد امين فى كتاب ضحى الاسلام ، نقلا عن بنيامين ، أحد الرحالة اليهود الذين رحلوا فى سنة 1165 م (560 هـ) ان عدد اليهود فى المملكة الاسلامية غير العرب ، كان نحو ثلاثمائة ألف . وهذا بطبيعة الحال مجرد تقدير ، وأهميته فى أنه صادر عن يهود رحالة يفترض فيه معرفة أحوال قومه . (المترجم) .

الذي يسيطر عليه البرابرة ، وخصوصا الى لانجدوك ، ووادي اللوار ، والرون ، والصاوم ، والموز ، ووادي الراين . ومنذ العصر الميروفنجي ، نجد جريجوري دوتور (Gregoire de Tours) ، يتحدث عن «السوري» أي ، اليهود والمسيحيين الشرقيين .

فهذه المناطق كلها ، ستكون مسرحا لتجارة اليهود فى العصور الوسطى . على أن الجماعات اليهودية التي استقرت فى بعض المناطق ، كانت أكبر عدد وأوسع نشاطا من جماعات تقع فى مناطق أخرى .

وأقوى الجماعات اليهودية وأكبرها عددا ، كانت هي الجماعة التي استقرت فى الشرق الساساني ، ولا سيما بلاد ما بين النهرين حيث كان للمستعمرة اليهودية رئيس سياسي يسمى « راش جالوت » أو رئيس المنفى ، وحيث كان نفوذ الرؤساء الدينيين « جيونيم ، مفرد : جاون » قويا جدا . وهؤلاء الرؤساء يمثلون مدرستين دينيتين يمتد نفوذ احداهما فى سورا ، قرب الأنبار ، ونفوذ الأخرى فى بومبيديتا (Pumbidita) التي تقع فى الجنوب : ونحن نعرف أن النص الذي يسمى بالبابلي من التلمود ، قد خرج من مدرسة سورا .

وفى الامبراطورية البيزنطية ، كانت فلسطين المركز الأكبر لليهودية . ومن مدينة القدس ، ثم من طبرية ، بعدما طرد اليهود من القدس ، خرج النص الذي يحمل اسم مدينة القدس من التلمود . وكذلك كانت مصر مركزا حيا لليهود . ونحن نعرف أن أقدم نصوص الانجيل (4) ، قد خرج من الوسط اليهودي فى الاسكندرية .

---

4 ــ هو النص الذي يحمل اسم « سبعين » (Septant) ، ويمثل الترجمة الاغريقية للعهد القديم ، وهذه الترجمة التي وضعت فى القرن الثاني والقرن الثالث الميلادي ، هي اقدم واشهر ترجمة للانجيل . (المترجم) .

وأما فى الغرب المسيحي : فنحن نلاحظ بصفة خاصة نشاط الجماعة اليهودية المقيمة فى جنوب أسبانيا ، ذلك النشاط الذي لفت أنظار القوط الى اليهود وعرضهم للاضطهاد .

وفى صقلية وايطاليا الجنوبية كانت تقيم جماعات من اليهود نجد آثار نشاطها واضحا فى التواريخ اليهودية ، ولا سيما فى أروبا ، وباري، وروسانو .

على أن المراكز التي تقيم فيها الجماعات اليهودية ، لم تكن الاتصالات بينها محكمة . وهنا أيضا ، نجد انفصالا تاما بين العالم الساساني والعالم البيزنطي ، اللذين يشكلان منطقتين اقتصاديتين احداهما مستقلة عن الأخرى . وبالاضافة الى كونها قليلة التنظيم وتجد منافسة من التجار اليهود والمسيحيين الشرقيين . فان الجماعات اليهودية فى المنفى تتعرض للاضطهاد . فاليهود الذين كانوا يقيمون فى أراضي الامبراطورية الساسانية . سيضطرون الى الهجرة جماعات ووحدانا ، الى أرمينيا والى شواطىء بحر قزوين والمحيط الهندي .

وأما الجماعات اليهودية التي يشملها حكم بيزنطة ، فقد عملت السلطات البيزنطية على نفي كثير من أعضائها خصوصا من القدس ، وعمدت الى حمل آخرين على اعتناق المسيحية بالقوة ، بعد ما رحبوا بالغزاة الفرس فى القرن السابع الميلادي . وهنا أيضا ، سيقوم اليهود بهجرة فى اتجاه البحر الأسود والى شواطىء بحر قزوين .

وفى الاسكندرية كانت روح العنصرية والتمييز ضد اليهود تسود منذ أقدم العصور . وكذلك كان اليهود المقيمون فى صقلية يفرون من سيطرة القسطنطينية المحصورة فى المدن البحرية ويعبرون البحر الى ايطاليا .

وأما ممالك القوط الغربية ، فانها لم تكن أكثر رحمة باليهود ، حيث أدى اضطهادهم العنيف في الجنوب ، وخصوصا في مالقة ونربونة الى هجرة واسعة النطاق الى المغرب الأقصى حيث ستقوى تيارات التهويد .

وهذه الاعتبارات تفسر لنا ترحيب الجماعات اليهودية بالفتح الاسلامي . وهذا الترحيب بلغ في كثير من البلدان ، ولا سيما في سورية ومصر ، درجة التواطىء مع المسلمين ، مما سهل استيلاؤهم بسرعة على تلك البلاد .

وأما اليهود الذين هجروا الى المغرب الأقصى ، فان عددا كبيرا منهم ، سيقومون في مؤخرة الجيش البربري الفاتح لاسبانيا بمهمة حراسة المدن المفتوحة ، بينما تتقدم الجيوش الاسلامية المظفرة في اتجاه الشمال .

وعلى الرغم من أن هذه الجماعات اليهودية لا ترتبط فيما بينها الا ارتباطا خفيفا ، فقد بدأت في تكوين طبقة من التجار والصناع اليدويين الذين تدفعهم روح الكسب ويعملون وفقا للطرق التقنية التجارية والصناعية الشائعة في العالم السامي القديم . وكذلك كان اليهود يمارسون الحرف التي تتصل بالمعادن الثمينة والصياغة والدباغة والزجاج . وفي الوصف الذي خلفه لنا حاخام طليطلة ، بن يامين (القرن الثاني عشر) ، للجماعات اليهودية نجد أن اليهود كانوا يعملون في التجارة وفي أعمال المصارف والطب والصباغة والصياغة والدباغة وفي صناعة الزجاج .

وهكذا ، فقد تهيأت الطائفة اليهودية غداة الفتح الاسلامي لتوفير الاطارات ولتمارس نشاطا مهما في هذه المجالات .

وهذه القاعدة اليهودية التي كانت موجودة فى كثير من البلدان قبل الاسلام ، تفسر لنا الى حد ما ، سرعة تقدم الفتح العربي السريع وانتشار اللغة العربية ، خارج الكتل اللغوية الواقعة خارج مناطق اللغات السامية التي تتكون من الجزيرة العربية وسورية وما بين النهرين ، أي ، انتشارها فى مصر وشمال افريقية على الأقل فى المدن والمناطق التي تتوفر فيها طرق المواصلات خارج جبال البربر — وفى أسبانيا .

ولكن القاعدة اليهودية ، تفسر لنا بصفة خاصة ظاهرة ازدهار التجارة اليهودية التي ترتبط بالتيارات التجارية السائدة فى العالم الاسلامي فى الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي . وبعد ما اتخذ العالم الاسلامي شكل كتلة اقتصادية موحدة ، تكونت شبكة متجانسة منسقة من الجماعات اليهودية التي تعمل فى حقل التجارة .

وهذه الشبكة ستمتد لتشمل الجماعات اليهودية القديمة المنعزلة والتي تقع على الطرق التجارية . وستلتحم هذه الجماعات وتنضم الى مراكز التوسع والتوغل اليهودية الرسمية . واثر ذلك ، سيقوم اتصال بين الجماعات اليهودية فى خوارزم والقوقاز والبحر الأحمر والواحات الصحراوية وبين مجمع الأحبار الرسمي ، وبين هذه الجماعات وبين جماعات التلمود البابلي فى بلاد ما بين النهرين وجماعات التلمود الفلسطيني ، ومركز اليهودية المصرية فى الاسكندرية .

ولما قام بنو العباس فى القرن الثامن الميلادي ، بتأسيس بغداد التي ستكون عاصمة لخلافتهم وقطب النشاط الاقتصادي للعالم الاسلامي أخذت مراكز اليهودية فى أسفل ما بين النهرين ، تعمل لتدعيم كيانها الديني ولاثبات تفوقها الذهني .

كانت الجماعة الرئيسية اليهودية فى بلاد ما بين النهرين تقطن فى حي الكرخ فى بغداد (5) . وكان رئيس هذه الجماعة ، كما ذكرنا ، هو الراش جالوت الذي كان من كبار الشخصيات المقدمة فى الحفلات الرسمية فى بلاط بني العباس .

والمدرستان الدينيتان اللتان تقع احداهما فى سورا ، والأخرى فى بومبيديتا ، غير بعيد من بغداد (والأولى يربطها بعاصمة بني العباس ، نهر اليهودية) كانتا قد اشتهرتا بمكانة رؤسائهما ، مثل جاون سعدية ، فى القرن التاسع الميلادي ، الذين كانوا يبعثون بردودهم على أسئلة اليهود فى مختلف الأماكن .

وفى مقابل ذلك ، لم يكن رؤساء مدارس فلسطين يردون على الأسئلة الا نادرا .

وكذلك نجد أن التلمود البابلي هو الذي اعتمدته الجماعات اليهودية فى أسبانيا والجول وبلاد رينان . والأموال التي تجمعها الجماعات اليهودية فى الشرق والغرب للأغراض الدينية انما كانت ترسل الى المدارس البابلية . وهكذا تبدو لنا مراكز اليهود فى توستار ، فى خوزستار ، ومراكز ما بين النهرين ، بمثابة مراكز عالمية لليهودية .

وهذه المراكز كانت تتجاذبها مختلف التيارات الدينية والفلسفية والصوفية ، وكانت تتفاعل مع تيارات مماثلة فى الأوساط الاسلامية فالى جانب سلطة الأحبار التقليدية الثرية ، كانت توجد نزعة اشراقة صوفية (كبال) تعارضها .

---

5 ـ وكذلك كان يوجد ببغداد درب يسمى درب اليهود ، نسب اليه عدد من المحدثين منهم أبو محمد عبد الله بن عبيد الله بن يحي اليهودي . (المترجم) .

وابتداء من سنة 762 م ، وطدت نفسها طائفة « القرائين » ، التي تنادي بقراءة الانجيل وتخليصه مما وضع حوله من الهوامش وبانضمام عناصر اليهودية القديمة الى هذه الحركة الاصلاحية تكونت شبكة أخرى من الجماعات اليهودية التي تعزز شبكة الجماعات اليهودية التقليدية .

وهذه الشبكة الاصلاحية تضم جماعات أكثر التحاما فيما بينها ، وبالتالي ، فقد كانت فعالة على الصعيد الاقتصادي ، ولا سيما حيث كانت تشكل أقلية فى حضن اليهودية التقليدية ، وكانت تتعرض للاضطهاد مع مرور الزمن . وهذا الازدواج فى صفوف الجماعات اليهودية الذي انطلق تياره من مراكز تقع فى بلاد ما بين النهرين ، سيكون ذا أثر فعال وأهمية أساسية فى تنظيم العلاقات التجارية .

وهكذا التحمت الجماعات اليهودية فى مختلف المناطق فى الشرق والغرب بعمل الأحبار الرسميين الذين كانوا يمارسون نشاطهم فى داخل العالم الاسلامي . وقد كان كثير من علماء الدين اليهود البابليون خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي ، ينتمون الى بلدان تقع على شواطىء البحر الأبيض المتوسط وهذه هي حالة الحاخام سعدية الذي ينتسب الى أسرة من شمال افريقية .

ولكن رسم شبكة التبادل الثقافي والديني بين الجماعات اليهودية ، يساوي رسم طرق التجارة العالمية اليهودية ، بل وفى بعض الحالات ، تحديد هذه الطرق بدقة ووضوح . ومركزية النفوذ الديني كانت ظاهرة موازية لانطلاق العلاقات التجارية من المراكز الاقتصادية المحركة فى بلاد ما بين النهرين فى العصر العباسي وهذه العلاقات تمتد لتشمل مناطق تقع خارج حدود العالم الاسلامي ، عن طريق الجماعات اليهودية التقليدية والجماعات الاصلاحية لتي تقيم فى بلاد السود ،

أو فى بلاد الخزر أو فى مناطق الأنهار الروسة أو فى الغرب المسيحي الخاضع لسيطرة البرابرة .

وتنظيم الجماعات اليهودية . هو الاطار الذي يجري فيه النشاط التجاري اليهودي . وهذا التنظيم يقوم على أساس المسؤولية والتضامن الضروري لكسب الثقة فى المعاملات التجارية وفى عمليات الاعتماد والائتمان . وسواء أكان الأمر يتصل بالضامنين والمراسلين والشركاء ، أو بالبيوت التجارية التي تملك فروعا فى مختلف البلدان ، فان تنظيم الجماعة اليهودية المحكم ، قد وفرت له السلطات الاسلامية التي تجد فيه فائدة لحفظ الأمن العام وموردا للضرائب ، أفضل الظروف وأكثرها ملاءمة .

ونحن نعرف أن نظام الحكم التقليدي فى الشرق يقوم بصفة عامة على اعتبار رؤساء مختلف الجماعات ، الدينية مسؤولين عن أتباعهم . فاليهود والمسيحيون يسكنون أحياء خاصة بهم ويسكن مراقبتها بسهولة . والجماعة اليهودية لها رسول خاص ينبهها الى وصول القوافل والى أهمية شحناتها ونوع السلع التي تنقلها . كما تحتفظ الجماعة بكيس للاغاثة ، وترتبط بعلاقات مع الضامنين الذين يقومون بايواء المسافرين ، ولها قاض خاص يحكم فى المعاملات التجارية ، ومراقب للمعاملات والأسواق ، ومأمور مهمته فدية الأسرى من أبناء الجماعة ، على أساس تعرفه معمول بها فى جميع شواطىء البحر الأبيض المتوسط .

والتجارة المربوطة بالبر والبحر ، من اختصاص اليهود الردانية (6) الذين نعرفهم بفضل نص مهم لابن خرداذبة « 748 م » (7) ويبدو أن

6 ـ راجع الخريطة 24 ص 320 اسفله .

7 ـ كتاب المسالك والممالك ، تحقيق دوخويه BGA ليدن ، 1889 ، ص 114 ـ 116 .

كلمة راداني ، مشتقة من كلمة «نهر» رودنو : الرون . وهذا التفسير أقرب الى الواقع من الاشتقاق الذي اقترحه العالم الهولندي ، دوخويه ، منذ نحو قرن من الزمن ، والذي يقول بأن الكلمة مشتقة من الكلمة الفارسية «رهذان» ، أي «العارف بالطرق» أو «الدليل» (8) .

فهؤلاء التجار اليهود ، يشكلون عدة جماعات موزعة على ضفاف أنهار الموز والصاوم والرون ، من فردان وسان جان دولوسن وليون ، حتى آرل ، ونربونه ، الميناء الكبير الذي تعكس ذكراه أسماء بعض الأسر اليهودية ، مثل «النربوني» ، وهو اسم — لا يزال منتشرا بين اليهود فى حوض البحر الأبيض المتوسط .

ولكن نص ابن خردذبه الذي أشرنا اليه ، اذا كان عظيم الأهمية ، فهو ليس النص الوحيد الذي بين أيدينا ، لأن عددا من المؤلفين العرب والفرس يؤيدونه كما تؤكده تواريخ اليهود والتواريخ اللاتينية فى الغرب المسيحي .

ومهما يكن من شيء ، فان نسبة مهمة من التجارة كانت محتكرة فى يد اليهود وفى البيوت التجارية اليهودية التي لا تتخصص فى سلعة واحدة ، كما جرى العمل فى العصور الوسطى . فان اليهود يشترون ويبيعون جميع المنتجات التي يجنون منها فائدة : ويأتي فى المكان الأول ، الأقمشة ، ومنتجات الحرير فى العالم الاسلامي ، والنسيج المقصب والديباج الذي يستورد من بيزنطة والذي كان يباع فى أسبانيا

---

8 — راجع بشأن معنى كلمة راداني عن التجار « الرودانيين » :

L. Rabinowitz « The routes of the radinites, the Jewish Quarterly review, 35 1944, pp. 251-280 et the Jewish ». Merchant Adventurers, London, 1948.

وعن التجار الذين يسلكون هذه الطرق :

C. Cachen, Revue historique, 205, 1951, pp. 119-120 et B. Blumekraz, Juifs et Chrétiens dans le Monde occidental (430-1096) Paris - La Haye, 1960, pp. 13-15, et y-a-t-il eu des Radanites ? Revue des Etudes Juives, 1964, pp. 499-506.

في القرن العاشر الميلادي . وفي المكان الثاني ، تأتي التجارة في الحبوب ـ تجارة الجملة ـ التي تصدرها مصر الى شواطىء البحر الأحمر الخليج العربي وبغداد ، والتجارة في السكر الذي تنتجه مناطق خوزستان والأهواز . والتجارة في هذه المادة ، تسمح بتحويل الأموال الى بغداد بامضاء بسيط ، كما يضمن اليهودي بالكتابة للخليفة ريع الضرائب في هذه الولاية . والى جانب ذلك ، توجد التجارة في التوابل والعقاقير الطبية ، وتجارة الذهب والمصوغات والتحف الصينية . وبالاختصار ، التجارة في كل ما هو غالي الثمن ويأتي من البلدان النائية . ونحن لا ننسى خصوصا التجارة في الرقيق ، ولوازمه مثل « صنع » الخصيان ، وتعليم وتدريبهم . وأخيرا ، يمارس اليهود التجارة في العملة ، وهي عمليات مصرفية .

وأهمية هؤلاء التجار اليهود ظلت في ازدياد مستمر في عهد بني العباس وبلغت أقصاها في عهد الفاطميين في القاهرة (9) . فقد كان اليهود بصفة عامة يحتلون مكانة مرموقة في بلاط العبيديين . وجوهر المعروف بالصقلي ، الذي هو من ايطاليا الجنوبية والذي غزا مصر وبنى القاهرة ، واحد من هؤلاء اليهود (10) . وكذلك يعقوب بن

---

9 ـ راجع J. Mann, The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimid Califs. Oxford 1920-1922, I, pp. 116 et suite.

10 ـ جوهر بن عبد الله الرومي ، أبو الحسن ، كان من موالي المعز العبيدي ، سيره من القيروان الى مصر ، بعدما أخضع كثيرا من ولايات المغرب الأقصى وقهر زناتة مع زيري بن مناد ، الى مصر فدخلها في سنة 358 هـ . ولما استقر له الامر ارسل الجيوش لفتح بلاد الشام وضمها الى ملك الفاطميين . وقد ظل حاكما على ولايات الفاطميين في الشرق ، حتى انتقل المعز الى مصر في سنة 362 هـ . فحل محله وبقي جوهر في مقدمة عظماء القواد ورجال الدولة وكان بناء جوهر للقاهرة في سنة 358 هـ ، وسماها « المنصورية » ولكنه بعد ما قدم المعز اليها سماها القاهرة ، واما الجامع الأزهر ، فقد فرغ من بنائه في سنة 361 هـ ، وتوفي جوهر في القاهرة في سنة 992 . « المترجم » .

كلس (11) وزير العزيز بن المعز الفاطمي ، والتستوريين اليهود ذوي النفوذ في عهد المستنصر بالله الفاطمي .

والجدير بالاشارة أن عددا من الرسائل وضعت تندد باليهود وبنفوذهم الطاغي في عهد الفاطميين . بل أن البعض ذهبوا الى أبعد من ذلك واتهموا الفاطميين بأنهم من أصل يهودي . وقد كان التجار والصرافون والجماعة اليهودية التي تتمتع بثروة طائلة في الاسكندرية والقاهرة ، موضع حسد خاص في المملكة .

وهكذا نرى أن المراكز التجارية الخطيرة الشأن والتي كان اليهود يحتلونها قبل الفتح الاسلامي ، قد سمحت لهم بالقيام بدور في العصر الاسلامي في غاية الأهمية . فان اليهود قد حلوا تدريجيا محل منافسيهم من المسيحيين السوريين في التجارة في الغرب في العصر الكارولانجي ثم في عهد الأطونيين (Ottomien) . فأما المسيحيون السوريون ، فقد كانوا يقومون خصوصا باستيراد سلع الترف الشرقية الى الغرب المسيحي . وقد كانت مراكزهم التجارية في الشرق ، بينما كانت أسواق ترويج بضائعهم في الغرب . وأما اليهود الرادانية ، فقد كانوا ، كما يؤكد ذلك نص ابن خرداذبة ، يصدرون الرقيق والفراء والسيوف ، وهي تجارة مركزها في الغرب المسيحي (على ضفاف الراين والموز

---

11 ــ يعقوب بن يوسف بن ابراهيم بن هارون بن كلس ابو الفرج (930 ــ 990 هـ) وزير من الكتاب الحساب . ولد ببغداد ، وسافر به أبوه الى الشام ، ثم أنفذه الى مصر ، وهناك اتصل بكافور الأخشيدي ، صاحب المتنبي ، فولاه ديوانه بمصر والشام وكان من أقرب المستشارين اليه ، وفي أيام كافور أسلم ابن كلس (356 هـ) الذي كان يهوديا ، وقد ذكر صاحب النجوم الزاهرة أنه بعد موت كافور ، ولي الوزارة بمصر جعفر ابن الفرات الذي قبض على عدد من الأشخاص ، منهم يعقوب ابن كلس ، وقد هرب الأخير الى المغرب حيث اتصل بالمعز ودخل في خدمته ، وقد لقبه المعز في سنة 368 هـ بالوزير الأجل ، ولكنه اعتقله في سنة 373 هـ ، ثم أطلق سراحه بعد شهور ، ولما خلف العزيز والده ، ولاه وزارته وعظمت منزلته عنده ، وليعقوب بن كلس رسالة في الفقه على مذهب الباطنية تعرف بالرسالة الوزيرية . (المترجم) .

والصاوم والرون وفى لنجدوك) ، وأسواقها تقع فى الشرق الاسلامي . وتغيير اتجاه التجارة بين الغرب والشرق ، يعود خصوصا الى ظهور أهمية العالم الاسلامي الاقتصادية . وهو عامل سيتيح مسرحا واسعا لنشاط الشبكة اليهودية ويقدم لها النموذج المثالي المنشود للتجارة .

على أن دور اليهود فى التجارة العالمية ، سيصبح ثانويا فى القرن الحادي عشر الميلادي حيث أخذت منهم هذا الدور فى الغرب البيوت التجارية والمصارف الايطالية ، وفى الشرق ، التجار الأرمن . وكذلك كان اليهود يطردون مع مرور الزمن من الأسواق بطرق مختلفة ، مثل انشاء الشركات (فى المدن الايطالية) ، وبردود الفعل العنيفة لسيطرتهم، وبمنعهم من ممارسة الأعمال ، وبالمذابح التي تعرضوا لها (بلاد رينان خلال الحملة الصليبية الأولى) . ولما أبعدهم البندقيون عن تجارة البحر، لم تبق لديهم سوى التجارة بالطرق الداخلية التي تربط أعالي الدنوب ببلاد الصقالبة . وحتى فى هذا المجال ، سيضعف دورهم ويصبح ثانويا بحيث لا يبقى أمامهم سوى تجارة التفصيل وممارسة عمليات الأقراض بالربا الفاحش .

ولكن اليهود تمكنوا خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي ، من السيطرة التامة على طرق التجارة وعلى أسواق العالم القديم . واذا لم يكن اليهود محتكرين للتجارة العالمية فى تلك العصور ، فقد كانوا على الأقل أهم الطوائف التي تمارس التجارة ، وكانوا موجودين ويعملون فى كل مكان .

الوسطاء المسلمون والمسيحيون

كان السوريون المسيحيون حتى العصر الاسلامي سادة التجارة بين الشرق والغرب . ولكن اليهود أبعدوهم تدريجيا عن التجارة البحرية

(البحر الأبيض والمحيط الهندي) ، فلم تبق لهم أهمية الا فى العلاقات التجارية فى البر ، فى مصر وسورية وما بين النهرين وأرمينيا وايران وآسيا الوسطى . وهذه المراكز ، انما احتفظوا بها بفضل جماعات اليعاقبة والنساطرة المنتشرة فى هذه المناطق .

ونحن قد رأينا المكانة التي يتمتع بها رئيس الطائفة النسطورية فى بلاط الخلفاء العباسيين ، والمجمع الكنيسي كان يعقد اجتماعاته فى بغداد . ولكن الشيء الذي يستحق التنويه أكثر من كل شيء فى هذا السياق ، هي وظيفة الأديرة الاقتصادية ، حيث كانت الأديرة تقوم بدور المستودعات للمال وبدور المصارف ، كما كانت الشخصيات الكبيرة كثيرا ما تلجأ اليها لاخفاء الثروات التي يكسبونها بطريقة غير شرعية . وكذلك كانت الأديرة تقوم بدور الفنادق للمسافرين ومحلات لشرب الخمر . وأخيرا ، كانت الأديرة مراكز لخصي العبيد ، وخصوصا فى أرمينيا والصعيد .

والمعلومات التي نستقيها من مصادر قبطية وسريانية وعربية ، تسمح لنا بوضع الخطوط الرئيسية لشبكة العلاقات التجارية التي تربط المراكز المسيحية بعضها ببعض ـ تلك الشبكة التي تتصل اتصالا وثيقا بالحج الى بيت المقدس وزيارة الأماكن الدينية فهنا أيضا ، نجد المناخ ملائما للعمليات التجارية . وهذا المناخ نجم خصوصا ، عن طابع الأقليات الذي يسود الجماعات المسيحية ، والثقة المتبادلة بين هذه الجماعات . على أن هذه الشبكة تنحصر فى الطرق التجارية الداخلية .

والأرمن لهم مكانة خاصة فى عالم التجارة (12) . وتجارتهم تشمل خصوصا منطقة الاتصال بين العالم الاسلامي والامبراطورية البيزنطية ،

---

12 ـ راجع اسفله الخريطة رقم 25 ، ص 322 .

ولا سيما التجارة التي تسلك الطريق الكبرى الممتدة بين أعالي ما بين النهرين وأطرابزندة . والتوسع الذي شهده الأرمن ، يذكـرنا بعض الشيء بما حققته الجماعات اليهودية التجارية فقد هاجر الأرمن الى مابين النهرين ، ثم الى بغداد حيث شكلوا جالية مهمة . وكذلك دخلوا الى آسيا الصغرى والى القسطنطينية ، حيث سيعملون جنودا مرتزقة ، ومهندسين معماريين وتجارا . بل أن الامبراطور البيزنطي ، بازل الأول (أواخر القرن التاسع الميلادي) نفسه ينحدر من أصل أرميني . وكذلك هاجر الأرمن الى سورية الشمالية حيث سيصبحون سادة التجـار فى عصر الحروب الصليبية . وأخيرا ، نزح الأرمن الى مصر ، حيث أصبح أحد الأرمن ، بدر الجمالي (13) ، فى أواخر القـرن الحـادي عشر الميلادي وزيرا للفاطميين . وقد جمع لنفسه حرسا من الأرمن ، كما كان يشجع هجرة المهندسين المعماريين والتجار الأرمن الى القاهرة .

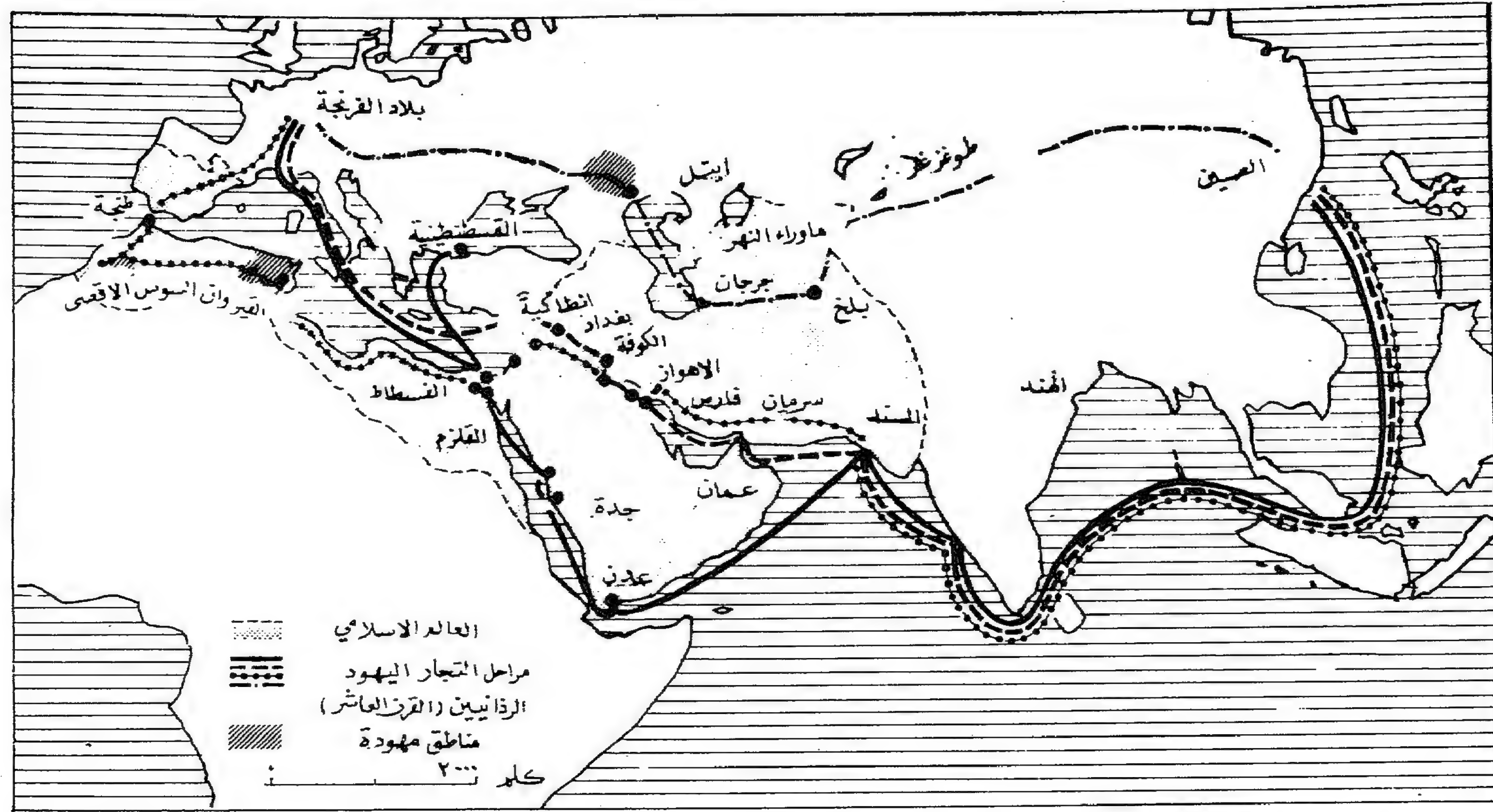
وأما المسلمون ، فان العبارة التي يستعملونها فى مستهل رسائلهم فى المعاملات والتي هي دعاء للمخاطب بأن يوفقـه الله ويوفـق بقيـة المسلمين (التجار) ، تدل على أنهم يشعرون بخطر منافسة الطـائفتين اليهودية والمسيحية (14) .

ونحن نعرف نمط التجارة الخاصة بالمسلمين والتي يمارسـونها فى أسواق مكة فى موسم الحج . وهذه التجارة تستهدف تزويد الحجاج بما يحتاجون اليه ، ولكنها أيضا تنصب على السلع التي يحملها الحجاج

---

13 – بدر بن عبد الله الجمالي ، ابو النجم « 450 – 487 هـ » ، امير الجيوش المصرية ، ووالد الملك الأفضل شاهنشاه . اصله من ارمينيا ، اشتراه جمال الدولة غلاما ، فتربى عنده ونسب اليه ، وتقدم فى الخدمة حتى ولي امارة دمشق للمستنصر صاحب مصر « سنة 455 هـ » ، ثم استدعاه الى مصر وقلده وزارة « السيف والقلم » واصبح الحاكم فى دولة المستنصر وصاحب الرأي المسموع . « المترجم » .

14 – راجـــع J. David Weill. Papyrus arabe d'Eflou. Bulletin de l'Institut Français d'Archeologie Oriental du Caire, XXX, 1931, pp. 33-44.



الشكل رقم ٢٤ مراحل التجار اليهود

معهم ، وخصوصا الأحجار الكريمة التي تغذي متاجر الصياغة والتي أشهرها الحجر المعروف باسم « المكي » ، لأنه كانت تباع كميات كبيرة منه أثناء موسم الحج . ولكننا نجد ، هنا أيضا ، أن الجماعات المنعزلة والتي تقوم على الطائفية ولا تساير التيار العام للدين الرسمي المنتصر (الاسلام) ، هي التي تشكل شبكة من الاتصالات التي تقوم عليها العلاقات التجارية .

والنموذج الذي يصلح ذكره لهذه الجماعات ، هم الخوارج (15) فى أفريقية الشمالية . والمعروف أن الخوارج الذين انقسموا على أنفسهم الى الصفرية والأباضية ، قد استطاعوا تأكيد استقلالهم فى وجه حكومة الخليفة المركزية . وكذلك أسس الخوارج الذين كانوا يسعون لايجاد ملجىء لهم فى الصحراء ، مدينة سجلماسة فى سنة 757 ميلادية .

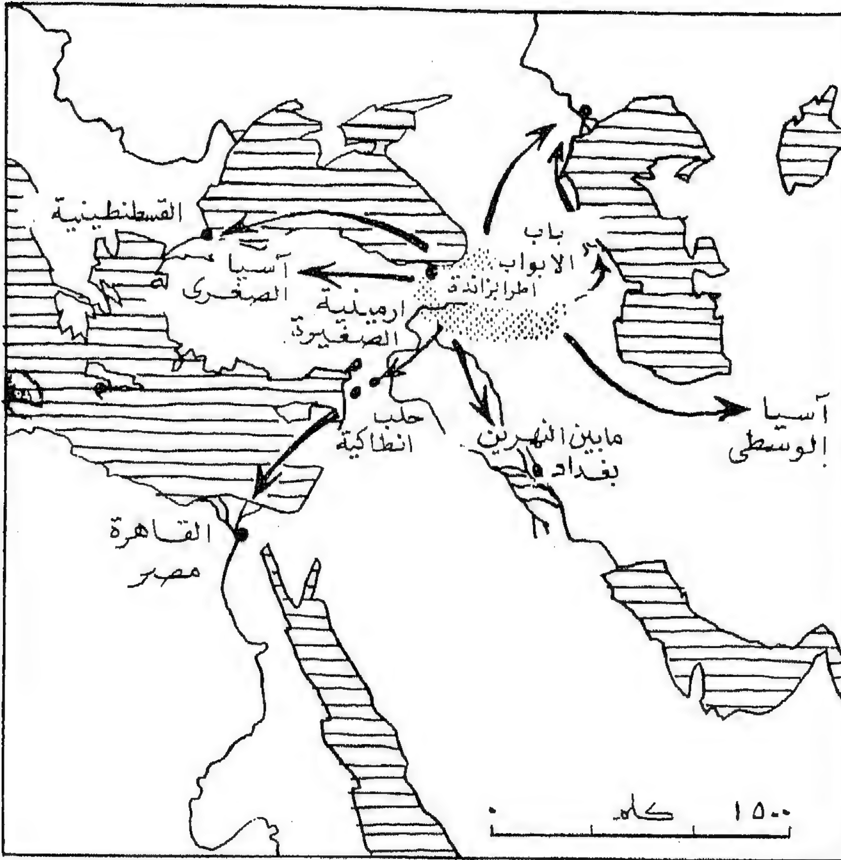
وقد أصبحت سجلماسة مركزا لدويلة محلية (بنومدرار) (16) منذ أواخر القرن الثامن الميلادي ، كما تحولت بسرعة الى ميناء صحراوي وسوق كبيرة للذهب والعبيد .

وفى نفس الفترة ، وفى المغرب الأوسط ، سطع فى تيارت (تيهرت) نجم الرستميين الذين هم من أصل فارسي . وقد التجأ الرستميون الى افريقية الشمالية حيث اقتطفوا ثمرة حركات الخوارج التي هزت هذه البلاد خلال النصف الأول من القرن الثامن الميلادي . وقد احتل

---

15 – راجع : الخريطة رقم 26 ، ص 323 .

16 – من المؤسف ان المعلومات التي لدينا عن دولة بني مدرار (من الصفرية) قليلة للغاية ، والذي ذكره ابن خلدون عنها يدل على انها دولة يتمتع الشعب فى احضانها بحرية تذكرنا بالديمقراطية اليونانية فى منشئها ، حيث ان اتباع الطائفة من حقهم خلع الامام الحاكم . ، واهم مصدر لدينا عن بني مدرار ، هو ابو عبيد البكري الذي ذكر اصلهم كما تعرض لبنائهم سجلماسة (راجع : كتاب المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب – تحقيق دوسلان الطبعة الثانية ، باريس 1965 ص 148 – 152) . (المترجم) .



الشكل رقم ٢٥ ـ تجارة ارمينية

الرستميون جميع المغرب الأوسط والواجهة الصحراوية : فى الاتجاه الجنوبي ، وفى الجنوب الشرقي من أراضي دولة الأغالبة فى افريقية . وهي دولة سنية تابعة لبغداد . وكذلك كانت أراضي الدولة الرستمية تمتد من الغرب الأوسط فى اتجاه جبل نفوسة ؛ وواحات غدامس ؛ وفزان ، وطرابلس ، وجزيرة جربة (وفى وقت ما ، كانت تشمل جون قابس) ، وفى الاتجاه الجنوبي الغربي ، لتشمل الأراضي الواقعة فى جنوب أراضي دولة الأدارسة التي مقرها فاس والتي قامت فى أواخر القرن الثامن الميلادي . بل ان سلطان الرستميين قد امتد حتى

سجلماسة ، حيث كان بنومدرار يعترفون بسلطتهم ، وحتى السوس الأقصى ، ونولمطة وشواطىء المحيط الأطلسي .

وهكذا تكون خط مهم من طرق التجارة التي يمارسها الخوارج يمتد من فزان ، حتى جنوب المغرب الأقصى . وهذا الخط يحكم فى الجنوب (عن طريق واحة الحضنة وواحة ورجلة) فى التجارة مع بلاد



الشكل رقم ٢٦ - تجارة جماعات الخوارج

السودان بواسطة القوافل عبر الصحراء وتسمح بتوغل تجارة الخوارج نحو الجنوب حتى قلب المغرب .

وأما تيهرت ، فقد كانت عاصمة الرستميين المتشددين فى الأمور الدينية ، ولكنها كانت أيضا مدينة لرجال يتصفون بالحذق والبراعة والأمانة فى المعاملات . وهؤلاء هم الذين وسعوا أبعاد طائفة دينية مغلقة على نفسها ، لتصبح دولة تسيطر على الطرق التجارية وتنظيم العلاقات التجارية مع الخارج على أساس من الطائفية . وهذا التنظيم من جهة أخرى ، لا يخلو من بقايا نفوذ اليهودية البربرية والصحراوية القديم .

وفى أوائل القرن العاشر الميلادي ، حل الفاطميون العبيديون محل الأغالبة فى افريقية . وفى سنة 909 ، زحف جيش الفاطميين على سجلماسة . وفى طريقه الى هذه المدينة ، خرب مدينة تيهرت الخاريجية. وقد اضطر آخر الأمراء الرستميين الى الانسحاب من تيهرت الى الجنوب ليؤسس مدينة سدراته ، غير بعيد من ورقلة .

وفى وقت متأخر (فى القرن الحادي عشر الميلادي) ، تعرض الخوارج للاضطهاد ، فتوغلوا فى واحات مزاب ، حيث سيحفرون آبارا ويبنون مدنا . وهذه المدن تحتل موقعا عظيما وستستخدم محطات لطرق القوافل الآتية من البلاد التي تصدر الذهب والعبيد السود .

وفى العصور الحديثة ، سيتوغل بنو مزاب فى اتجاه الشمال ويتسربون الى الساحل ، حيث ستظهر منهم طبقة من التجار الأثرياء الذين يمارسون خصوصا تجارة الأقمشة . وكذلك نجدهم فى جميع مدن افريقية الشمالية يديرون حوانيت وبقالات . فهؤلاء التجار

يستنزفون الذهب من المناطق الشمالية ويوجهـونه الى مـزاب حيث يكتنزونه ويغلقون عليه الخزائن فيقل الذهب فى الأسـواق وكـذلك تعتبر بلاد مزاب ضمن البلدان التي تكتنز (أو « تبتلع ») الذهب .

تيـارات التبـادل التجـاري

تمتد تيارات التبادل التجاري على طول شبكة من الطرق التي تنتهي عند مراكز العمران الكبيرة فى بلاد الاسلام . ففي الواجهة الشمالية بايران وبآسيا الوسطى ، ثم ببلاد الترك ، ثم بالصين أو المناطق الشمالية الغربية للهند . وفى الواجهة الجنوبية الشرقية تمتد الطـرق البحريـة فى المحيط الهندي من بلاد ما بين النهرين والخليج العربي ، من جهة ، ومن مصر والبحر الأحمر ، من جهة أخرى ، فى اتجاه شواطىء الهند الغربية وملبار ، ثم فى اتجاه سيلان وأندنوسيا والهند الصينية وجنوب الصين ، أو فى اتجاه بلاد الزنج « شواطىء افريقية الشرقية » وجزيرة مدغشقر .

وفى الواجهة الجنوبية الغربية ، تمتد طرق القوافل عبر الصحراء بين بلاد افريقية الشمالية وبلاد السودان .

وأما الواجهة الشمالية الغربية ، فتمتد فيها طـرق المـلاحة النهرية والبحرية والطرق البرية التي تؤدي اما الى ما بين النهرين وأرمينيـة وضفاف بحر قزوين والأنهار الروسية وما وراءها فى اتجاه بلاد البلطيق وأوروبا الوسطى ، واما الى الموانىء الاسلامية فى البحر الأبيض ، أو الموانىء الايطالية وموانىء لنجدوك ، وأما الى موانىء أسبانيا والممالك الواقعة فى شمال أسبانيا وما وراءها ، عن طريق الممرات الجبليـة فى البيرينيز ، فى غربي بلاد الفرنجة ، واما الى بلاد الأندلس الاسلامية ، عن طريق المحيط الأطلسي والى الجزر البريطانية .

الواجهـــة الشمالية الشرقية (17)

الخط الرئيسي فى هذه المنطقة ، هي « طريق الصين » القـديمة . والتي انبعثت الحياة فيها فى العصر الاسلامي وازدهر النشاط التجاري فيها بقوافل الخيل ، وخصوصا قوافل الجمال (الجمال الكبيرة ذات السنامين) التي تسلكها غادية ورائحة . وهذه القوافل تصعد من بلاد ما بين النهرين وتمر بالنجود الايرانية حتى تصل الى المناطق الشمالية الشرقية : خراسان ، وتجتاز نهر جيحون (آموداريا) لتصل الى ما وراء النهر ، ثم الى الشاش وفرغانة . وبعد ذلك ، تمتد ثلاث طرق مختلفة : فالطريق التي تمتد فى اتجاه الشـمال الشرقي ، تمر بالسهـوب التي يستنجعها الأتراك الرحل . والطريق التي تتجه الى الشرق وتمر فى جنوب بلكاش ثم تصعد مع مجرى نهر اتل ؛ أو تجتاز كشغار وتقطع حوض نهر تاريم (18) حتى تصل الى منعطف النهر الأصفر (19) ؛ وتمر بسهوب أردوس ثم تقطع السور الأعظم ، لتصل الى عاصمة شمـال الصـين . خمدان (Hsi-ngan) عـن طريـق ممـر الهنـد كـتـش ، الـذي كان الـرقيق الهندي يدخـل منه الى العالم الاسـلامي (وكثـيرا ما كـان العبيـد يموتون فى طريقـهم هنا مـن البـرد والتعب) . وقد كانت القوافل تتجه من الباميـان ومن كابل الى وادي السنـد الذي كان تحت حكم المسلمين (منطقة السند) ؛ ومن هنالك تنطلـق الى مختلف مناطق الهند الشمالية .

---

17 ـ راجع الخريطة رقم 3 ، ص 54 .

18 ـ نهر فى الصين فى ولاية سين ـ كيانج ، طوله 2000 كيلو متر ، وهو ينحدر من قرقرم ، ثم يضيق ويضعف كلما ابتعد عن منابعة حتى يضيع فى منخفضات لوب ـ نور . (المترجم) .

19 ـ أو هوانـج ـ هـو (Honang-Ho) نهر من أنهار الصين الشمالية تقع منابعه فى التبت ، ويمد البحر الأصفر (جون يوهاي) بمياهه . ويبلغ طول مجراه 5ر200 كيلو متر ، ومجرى النهر غير منتظم الاتجاه ، وفيضانه كبير الأخطار ، وطمية يميل الى الصفره . والجدير بالذكر ، أن سلطات الصين الشعبية تقوم فى الأعوام الأخيرة بأعمال كبيرة لترويض هذا النهر ، لتحسين الملاحة فيه ولاستغلال مياهه للري ولتوليد الكهرباء . (المترجم) .

وهكذا تتضح لنا أهمية ثلاثة مراكز : خراسان (فى جوانب مرو ، وحراة ، وبلخ ، وخصوصا نيسبور التي كانت تنافس بغداد فى القرن الحادي عشر الميلادي) . وخراسان تقع عند مفترق الطرق التي تتفرع عن الطريق التجارية الكبيرة المؤدية من بغداد الى الهند ، وخوارزم والصين . وخوارزم ، المركز الثاني المهم ، هـو منطقـة دلتا جيحون (الاكسوس) على بحر آرال . وهذه المنطقة التي يقع فيها عدد من المدن الكبيرة ، مثل أورجاش (المدينة التجارية الخطيرة الشأن) ، تعتبر قطب الدائرة فى التجارة مع الأتراك والهند والصين ، وهي فى نفس الوقت مفتاح المداخل الى الطرق المؤدية الى ضفاف بحر قزوين وبلاد البلغار (أي وادي الفولجا) وأوروبا الشرقية .

والمركز الثالث المهم ، هي منطقة الواحات الواقعة فيما وراء النهر ، والتي تسيطر على الطرق التجارية المؤدية الى بلاد الترك والصين .

فهذه المناطـق التي حددنا أهميتهـا ، تقع تحت سيطرة الـدولة السامانية (875 — 999 م) التي كان سلطانها يمتد على خراسـان ، وخوارزم ، وما وراء النهر ، أي من حافة بلاد الأتراك فى الشرق ، حتى شواطىء بحر قزوين . وقد كانت بخاري وسمرقند ، العاصمتان السامانيتان ، تسيطران على الطرق المؤدية الى آسيا الوسطى ، وتشهد بهذه الحقيقة تلك الكمية الكبيرة من النقود السامانية التي عثر عليها على جنبات الطرق الموازية للأنهار الروسية ، وفى بلاد البلطيق ، وبلاد بحر الشمال والبلاد الواقعة على شواطىء البحر الأسود . وهذه النقود ، كانت محملـة متداولة قانونيـا فى أسـواقماينص(Mayance) (20) فى القرن العاشر الميلادي . ونحن نلاحظ خصوصا كثرة النقود المكتشفة

20 — ذكر الرحالة العربي الطرطوشي ، الذي ينتمي الى المدينة الأندلسية طرطوشة ، انه شاهد فى سنة 973 ميلادية فى اسواق ما ينص دارهم ضربت فى سمرقند خلال الفترة بين 913 — 915 ميلادية . راجع : القزويني عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات تحقيق : (المترجم) : Wütenfenfeld Göttingen, 1848 - 9 - 4

فى المناطق التي تشكل حدود العالم الاسلامي وهي مناطق يشتد الاقبال فيها على الاستيراد : منطقة خوارزم ، وخراسان ، وما وراء النهر وكل واحدة من هذه المناطق تتلقى سلعا مستوردة من المناطق المجاورة لها .

فمن بلاد الترك وبلاد الصقالبة ، تمر المنتجات عبر مدينة بلغار الى البلاد الواقعة على شواطىء بحر قزوين ثم الى البلاد الواقعة على الضفاف الغربية والجنوبية لبحر آرال (فى جوانب مدينة أورجاش) فهذه البلاد ، تستورد الفراء (فراء السهوب وخصوصا ، فراء غابات سيبيريا) ، والرقيق (ونحن قد رأينا الاقبال الشديد فى بلاط الخلفاء العباسيين على المماليك ، والمعادن : الحديد الخام والأسلحة (التي كان الأتراك يعتبرون خبراء فى صنعها) والنحاس الخام والأواني المصنوعة من النحاس واللبد (من اختصاص النورمانديين) .

وفى مقابل هذه المنتجات ، كان العالم الاسلامي يصدر الى بلاد الأتراك أنواعا من الأقمشة الحريرية وبعض المنتجات الزهيدة القيمة ، ولكنه كان يصدر خصوصا قطع النقود .

ومن الصين ، كانت تستورد المنتجات الحريرية (حرير الصين وخوطان) ، ولو أن انتشار الطرق التقنية لتربية دودة الحرير فى العالم الاسلامي سرعان ما جعل هذا المورد بدون فائدة . على أن المنتجات المصنوعة من الحرير ، سيستمر الاقبال عليها وتستورد باعتبارها من منتجات الترف والصينيون بدورهم ، على الرغم من درجة الكمال التقني الذي وصلت اليه صناعتهم . وعلى الرغم مما تمتاز به منتجاتهم من الجودة الفنية . كانوا يقبلون على شراء الأقمشة الرفيعة التي ينتجها العالم الاسلامي . وهذه الحقيقة تثبتها المصادر الصينية . ويشهد بها تأثير الزخارف المطبوعة الايرانية ـ الاسلامية على بعض النماذج من الأقمشة التي لا تزال محفوظة لدينا من نسيج الحرير الصيني .

ثم ان منتجات الحرير ، ليست هي السلعة الوحيدة التي تنصب عليها التجارة بين العالم الاسلامي والصين . فان الصين كانت تصدر الى العالم الاسلامي أيضا الفخار الصيني ، والورق المذهب ، والتحف الصينية . والتجارة بين الصين والعالم الاسلامي عن طريق آسيا الوسطى ، تتميز بدخول وخروج العملة بصورة يبدو الميزان التجاري فيها متوازنا .

ومن شمال الهند ، أي ، أعالي نهر مهران ، وأودية جبال الهملايا والتبت ، كان العالم الاسلامي يستورد الرقيق الهندي والتبتي ، وأقمشة الكشمير ، وشعر الماعز ، والروائح العطرية ، وخصوصا المسك الذي يأتي من بلاد التبت (وهو من أفراز الايل الأسمر) .

وتجارة العالم الاسلامي مع الهند ، مثل تجارته مع بلاد الترك تتسم بتأرجح الميزان التجاري فى صالح البلدين الأخيرين .وباستنزاف عملة الذهب (ومن هنا اكتناز الذهب فى الهند) وعملة الفضة الاسلامية (الهند كانت تسير على نظام النقد الذي يقوم على الفضة . والروبية معناها باللغة السنسكريتية « الفضة ») .

الواجهة الجنوبية الشرقية

الأفق التجاري هنا ، هو المحيط الهندي ، وهي منطقة للملاحة من الغرب الى الشرق ومن الشرق الى الغرب . وتنظيم الملاحة فى الاتجاهين يخضع خصوصا للرياح الموسمية (Moussons) بالفرنسية (Monças) بالبرتغالية ، والكلمة من أصل عربي) . وأما فى جنوب خط الاستواء فان الرياح تهب من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي . والفاصل بين منطقة الرياح الموسمية والمنطقة الواقعة جنوب خط الاستواء هو الفاصل بين منطقة استكشفت ويجري فيها نشاط الملاحة ، ومنطقة خالية لم تستكشف بعد .

المحيط الهندي منطقة كان العرب والفرس يمـارسون فيها نشـاطا ملاحيا قويا منذ أقدم العصور • وكذلك عرفها الملاحون الاسكندريون ابتداء من القرن الأول بعد الميلاد ، كما عرفها ملاحو ماليزيا الذين كانوا يسيرون فيها بالـرقاص • والرأي متفق على وجـود هجرة من ماليزيا الى جزيرة مدغشقر فى عصر قديم نسبيا (21) •

وفى غضون الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي كان البحارة المسلمون يسيطرون على نشاط الملاحة فى المحيط الهندي وفى هذه الفترة وقع حدث هام : ظهور الشراع المثلث الأضلاع الذي كان من خصائص الملاحة فى المحيط الهندي ، فى البحر الأبيض المتوسط، حيث أصبح يعرف باسم « الشراع اللاتيني » •

وقد سمحت الملاحة فى المحيط الهندي بقيام تبادل تجاري مهم ، كما سمحت بنقل مزروعات هندية الى شواطىء الخليج العربي والى سورية ، من جهة ، والى شواطىء أفريقية الشرقية ، وجنوب الجزيرة العربية ، والبحر الأحمر ومصر ، من جهة أخرى : فان الوثائق ، مثلا ، تشهـد باستعمال التنبول فى اليمن منذ القرن التاسع الميلادي • وكذلك سمح طريقان ، طريق الخليج وطريق البحر الأحمر ، بالتحام منطقتين ، المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط ، وبالتقاء الطرق التقنية والثقـافات والعادات فى احدى المنطقتين بمثيلاتها فى المنطقة الأخرى •

---

21 ـ المصدر الوحيد الذي تعرض لذكر هذه الهجرة ، فيما نعلم ، هو ابن سعيد المغربي (القرن السابع الهجري) ، عندما تحدث عن جزيرة القمر (مدغشقر) ، وقاعدتها ، قمرية . والنص الذي يتعرض لهذه الهجرة من كتاب الجغرافيا ، اعتبره بعض العلماء الأروبيين المتخصصين فى تاريخ آسيا الجنوبية الشرقية من أهم الوثائق التي نقلها الينا العرب عن أصول الأجناس وتنقلات الشعوب القديمة (راجع : ابن سعيد المغربي ، كتاب الجغرافيا ، تحقيق اسماعيل العربي ، طبع بيروت 1970 ؛ ص 86 ـ 87 ، وتعليق المحقق على هذا النص ، ص 222 ـ 223) • (المترجم) •

ولكن سيطرة العالم الاسلامي على المحيط الهندي تنطوي على بعض التحفظ . فقد أدى ازدهار بغداد والبصرة والحاجات التي نجمت عنه الى السلع والمنتجات فى العصر العباسي ، خلال الفترة بين منتصف القرن الثامن ومنتصف القرن العاشر الميلادي ، الى ظهور أهمية الخليج العربي . ولكن الفاطميين كونوا مملكة منافسة للعباسيين فى نهاية القرن العاشر ، ونتيجة لذلك ، اشتد التنافس بين الخليج العربي والبحر الأحمر . قد كان ميناء القلزم وخصوصا ميناء عيذاب ، حلقة وصل بين هذا البحر ، من جهة ، والنيل والبحر الأبيض المتوسط ، من جهة أخرى .

ومهما يكن من شيء ، فان الفترة التي تمتد بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي ، كانت فترة نمو وتوسع للتجارة الاسلامية على جميع شواطىء المحيط الهندي ، وفى الطرق المؤدية الى الصين . وهذا التوسع ، كان يعتمد على الجاليات الاسلامية التي استقرت فى مختلف البلدان ، وعلى السفن الاسلامية التي كانت تبنى بخشب الساج . وعلى النقود الاسلامية ، حيث كان الدينار الاسلامي يسير فى كل اتجاه مع طرق التجارة العالمية .

ونتيجة لهذا التوسع ، أخذت تظهر مدن على شواطىء افريقية الشرقية (بلاد الزنج) ، وفى مقدمتها مبصة وبراوة ، حيث وجدت نقوش بالخط الكوفي يعود عهدها الى القرن الثامن الميلادي . وأما مسجد زنجبار ، فيرجع عهده الى القرن الحادي عشر . ووراء هذه السواحل التجارية ، تمتد الخطوط التي انتشر الاسلام عن طريقها الى داخل افريقية ، وهي الطرق التي كان السود ينقلون بواسطتها منتجاتهم الى منشآت المسلمين التجارية على الشواطىء .

وكذلك اتسمت التجارة الاسلامية بالتوسع على شواطىء ملبار (حيث بنى المسلمون مسجدا ، وكان للجالية الاسلامية فيها قاضيها الخاص الذي يسمى : هونارمان) وفى سيلان (سرنديب عند المؤلفين العرب ، وسري لانكا حاليا) ؛ وفى جزر الصند (حيث لم ينتشر الاسلام حقيقة الا فى وقت متأخر ؛ ولكن نقوشا عربية وجدت فيها ويرجع عهدها الى سنة 1082 ميلادية) ، وفى الهند الصينية (حيث وجدت نقوش عربية يعود تاريخها الى القرن العاشر والقرن الثاني عشر الميلادي) ، وأخيرا فى الصين ، فى ذروة عهد سلالة الطانج وأباطرة الصونج الأوائل (بين القرن السابع والقرن الحادي عشر) ؛ حيث كان المسلمون يترددون على ميناء قانطون المشهور والذي يسميه الجغرافيون العرب ، خانفو .

وأما طريقة التبادل التجاري فى المحيط الهندي ، فيمكن تحليلها كما يلي : يشحن التجار فى مصر سلعا زهيدة القيمة (المرجان وأمشاط العظم وقضبان الحديد) ، أو حبوبا ، ويحملونها الى شواطىء المحيط الهندي حيث يبادلونها بمنتجات تلك البلدان (البخور والعاج وقرون وحيد القرن ودرع السلحفات والكافور والعود السقطري) التي ينقلونها الى الصين ، وهناك يستبدلون هذه المنتجات بدورها بمنتجات صينية غالية القيمة (الحرير والفخار الصيني ، والتحف الخ) ، يحملونها الى مصر ، ومن هناك يعيدون تصديرها الى الأسواق العالمية الكبيرة .

ولكن التجار المسلمين يمونون العالم الاسلامي أيضا مباشرة بالقصدير الذي تنتجه ماليزيا ، وبالخشب والنيلة والبقم الهندي والأحجار الكريمة، واللؤلؤ الذي يستخرج فى سيلان وفى الخليج العربي والبحر الأحمر ، والكهرمان والأسلحة ودروع السلحفات التي تنتجها البحار الجنوبية والتي تزود بها أسواق الصناع فى مدينة الفسطاط .

وأخيرا ، فان شواطىء المحيط الهندي تمثل المورد الرئيسي بل الوحيد ، للتوابل والعطور والطيب والأعشاب الطبية . وقد اتسعت التجارة فى العقاقير بصفة خاصة خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي . نتيجة للتقدم الذي حققه الطب العربي . وقد كان ميناء الاسكندرية هو المركز الذي يعاد فيه توزيع العقاقير على مختلف المناطق الواقعة فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، ولا سيما الى قرطبة والى الغرب المسيحي ، من جهة ، والى بيزنطة حيث حاول ليون الأرميني ، امبراطور بيزنطة (813 — 820 م) وقتا ما وضع حد لهذه التجارة بمنعه رعاياه من السفر الى مصر وسورية ، بينما أمر بأن تعرض فى الأسواق أعشاب (مشابهة للأعشاب التي ترد الينا من الهند) .

الواجهة الجنوبية الغربية

وهنا أيضا ، نشاهد استمرارا وازدهارا : فان العالم الاسلامي قد استحوذ على تيار العلاقات التجارية القديمة ووسع نطاقها توسيعا كبيرا . وهذا التيار هو الذي دفع بالبربر الرحل أصحاب الجمال فى غضون الفترة بين القرن الرابع والقرن الثامن الميلادي الى التوغل الى الجنوب ، عبر الصحراء الكبرى ، والى الشمال ، فى اتجاه الساحل الجزائري .

وهذه الظاهرة البالغة الأهمية فى العصور الوسطى العليا ، لا تزال مع الأسف ، مجهولة التفاصيل التاريخية . كما أن تقدمها فى الرقعة الجغرافية غير معروف ، بسبب عدم وجود مصادر معاصرة للأحداث .

ومهما يكن من شيء ، فنحن نشاهد منذ القرن الثامن الميلادي (وسجلماسة أسست فى سنة 757 م) تجارة العالم الاسلامي تضم هذه الشبكة من طرق القوافل الى الشبكات التي تمتد فى الشرق أو على

ضفاف البحر الأبيض المتوسط ، وتفتح بذلك آفاقا واسعة فى العلاقات التجارية العامة بحيث تضم عالم السود ، أو بلاد السودان . والسلع الجديدة التي ينصب عليها التبادل التجاري فى هذه المنطقة . هي : كما رأينا ، الذهب والعبيد والعنبر الذي تنتجه شواطىء افريقية الغربية على المحيط الأطلسي ، والصمغ الذي يستعمل لتلميع منتجات الديباج فى الأندلس والطرق التي يسلكها التجار ، هي أيضا طرق من منافسة نولمطة لها .

ومن هاتين المدينتين الواقعتين فى شمال الصحراء . تنطلق ثلاثة طرق ثانوية ، يساير أحدها شواطىء المحيط الأطلسي حتى السينغال (التكرور، سيلا ، جاديارو .) . التي تصل اليها القوافل ، بعد سفر يستغرق شهرين . والطريقان الآخران يفترقان عند سجلماسة أحدهما يؤدي الى ألوير ، والاخر الى تغازي ، ثم يلتقيان عند محطة القوافل الكبرى ، أودغست . وأودغست ، على اتصال بسلكة غانة . والمدينة عبارة عن مدينتين : يسكن احداهما المسلمون التجار والوسطاء ، ويسكن الأخرى السود الصونكيون — وهي مدينة مشهورة بالثراء وبالعدد الكبير من المحاربين الشجعان من أبنائها .

وهذان الطريقان الأخيران هما أقصر من الأول ، حيث لا يستغرق السفر فيهما سوى شهر ونصف الشهر ، ولكنه أكثر تكاليف للمسافرين (22) .

والشبكة الثانية من الطرق ، تتكون من الطرق الثانوية المؤدية الى المغرب الأوسط : تيهرت وجنوب الجزائر . وهذه الطرق التي تنطلق

22 — قام بدراسة هذه الطرق دراسة مفصلة مؤخرا العالمان :
فى كتابهما :
D.S. Robert et J. Devisse
Tagdaoust I, Recherches sur Aoudagost. T.I. Paris 1970.

من ملجأ الخوارج فى ورجلة وسدراته ومزاب ، تؤدي اما الى تغازي وأودغست ، أو الى تدمكة (السوق حاليا) ، فى أدرار ايفوجة ، وراء كاوكاو (جاو — Gao) فى بلاد السونغاي . وتدمكة تتكون ، هي الأخرى ، من مدينتين ، على غرار أودغست .

والشبكة الثالثة من الطرق . هي الطرق التي تمتد لنشر النفوذ الثقافى وغيره ، من الشمال الى الجنوب . وهذه الطرق ، هي التي انتقلت بواسطتها زراعة القمح والقطن وانواع جديدة من الحيوانات (الجمل والفرس) ، وطرق جديدة للصناعة ، وأنماط جديدة للتنظيم الاجتماعي (المدينة والدولة) .

وهذه الطرق التجارية الكبيرة تتفرع عنها ثلاث شبكات من طرق القوافل ، حفرت على أطرافها آبار وتمتد عليها واحات النخيل . انطلاقا من جزيرة المغرب ، حتى ساحل السنيغال .

والشبكة الأولى ، تنطلق من جنوب المغرب (السوس الأقصى) ومن فاس فى اتجاه المدخلين الكبيرين الى الصحراء ، وهما نولمطة الواقعة عند مصب نهر نون (بين وادي سوس ووادي درعة) وسجلماسة ، قاعدة القوافل الكبرى الجديدة التي يمكن مقارنتها من حيث الأهمية ، بمدن القوافل فى العصور القديمة ، مثل تدمر والبتراء (سلع) ، ومكة. وسجلماسة التي تقع وسط حدائق النخيل فى منطقة تافيلات (وادي زيز) ، كانت دائما موضع نزاع بين الرستميين والفاطميين ، وقد بلغت سجلماسة أوج عظمتها فى القرن العاشر الميلادي ، وهي الفترة التي تتعرف فيها على جالية كبيرة من أبناء سجلماسة فى أودغست ، التي كانت محطة لقوافل البربر فى الجنوب .

وقد بلغ ما كان يجبيه الفاطميون من الضرائب على تجارة القوافل الآتية من السودان فى القرن العاشر ، 400٫000 دينار سنويا .

ولكن وضع سجلماسة سيتأثر فى القرن الحادي عشر فى الاتجاه الشرقي وتتصل بافريقية ، وخصوصا بمدينة القيروان الواقعة فى الجنوب التونسي . ونقطة الانطلاق ، هي مدن الجريد « توزر ، قابس ، ونفطة) ، وهي منطقة تقع على البحر الأبيض وتنفتح على الصحراء الكبرى فى نفس الوقت ، من جهة ، وطرابلس . وبرقة التي تقع على طريق مصر ، من جهة أخرى .

ومن هذه المراكز ، تنطلق الطرق فى اتجاه النيجر ، عن طريق غدامس وتدمكة ، أو فى اتجاه الكانم (التشاد) مارة بفزان وكوار .

فهذه هي الطرق التي تستنزف ذهب السودان فى اتجاه بلاد المغرب . ومن هذه البلاد يوزع الذهب على مختلف بلدان العالم الاسلامي .

والبيوت التجارية المغربية فى محطات القوافل فى الجنوب تحتفظ بشبكة من المراسلين والوسطاء الذين يعلمون لشراء الذهب لحسابها ، بالمقايضة الصامتة ، مع قبائل السود التي تشتغل فى التقاط الذهب . وهذه التجارة هائلة الحجم والنطاق . فان ابن حوقل (القرن العاشر الميلادي) يذكر أنه شاهد بنفسه وثيقة تجارية تبلغ قيمتها 40ر000 دينار . وهذا المصدر تؤيده مصادر أخرى وتنوه بالثراء الفاحش الذي كان من حظ التجار الذين يعملون فى التبادل مع السودان .

والمادة الاساسية ، هي التبر الذي يستبدل بسلع من مختلف الانواع : منتجات زراعية وصناعية من المغرب ، ومن مصر . وكذلك تستبدل بالتبر بضائع زهيدة القيمة تنتج خصوصا للتبادل التجاري مع السود ، تماما كما سيصنع التجار الاروبيون فيما بعد (فى الفترة بين القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر الميلادي) للتبادل مع سكان شواطىء افريقية الغربية .

ونحن نعرف أنه كانت توجد فى سبتة فى العصور الوسطى سوق يعمل الصناع المتخصصون فيها لانتاج القلائد ، والمصوغات الزجاجية ، وقلائد المحار ، وغير ذلك من التوافه التي تدفع مقابل الذهب السوداني. ولكن التجار المغاربة يقومون أيضا بتصدير القمح ، والأقمشة الزهيدة القيمة ، وأواني النحاس والصفر التي كان تجار أنفير يصدرونها فى بمنتجات النحاس والصفر التي كان تجار أنفـير يصدرونها فى القرن السادس عشر فى اتجاه افريقية الغربية .

وكذلك كان التجار المغاربة يصدرون الى هذه المناطق الجلد المدبوغ الذي تنتجه زويلة وغدامس وتافيلالت وآغمات ومراكش ، والعـود الصمغي والقـار (للقرب ولاستعماله لمعالجة الجرب فى الجمال) ، ومنتجات دبغ الجلود التي كانت تنتج فى جنوب المغرب الاقصى ، وأخيرا، منتجات الملح الذي يستخرج من منجم تغازي والذي يشتد اقبـال السود عليه كثيرا .

فهذه السلع كلها ، ليست ذات قيمة فى حد ذاتها ولكن قيمتها تزداد بسبب المسافات الطويلة والسفر المضني الذي يتطلبه نقلها الى البلدان التي تحتاج اليها ولا تملكها . وقد تعرض أحد الجغرافيين العرب للتبادل التجاري بين بلاد المغرب والسودان فقال ان التجار البربر يحملون معهم سلعا لا قيمة لها ولكنهم يعودون من السودان بجمال مثقلة بأحمالها من التبـر .

وهكذا نجد أن الواجهة الجنوبية الغربية حيوية للاقتصاد النقـدي فى العالم الاسلامي . فمن هذه الواجهة يتدفق الذهب الذي يسمح بضرب السكة وبنشاط تداول الدينار الاسلامي . وقد أقيمت فى سجلماسـة ورجلة دور لضرب السكة (ومن هذه الكلمة اشتقت الكلمة الايطالية : (Zecca) . ومن هاتين المدينتين تنطلق طرق الذهب السوداني الى مختلف أنحاء العالم الاسـلامي .

الواجهة الشمالية الغربية :

يجب أن نميز هنا بين ثلاثة آفاق مختلفة : بيزنطة ومنطقة الانهار الروسية ، والغرب المسيحي .

الأفق الاول : بيزنطة . يعتبر الميزان التجاري الاسلامي مع هذه المنطقة أيضا ايجابيا ، مع ملاحظة أن الذهب الذي يدخل الى العالم الاسلامي من بيزنطة ليس بالذهب الخام ، بل هي نقود الذهب البيزنطية . وأهمية التجارة مع بيزنطة ، تعود الى موقع الامبراطورية بالقياس الى العالم الاسلامي الذي يحيط بها من الشرق والجنوب ويضطرها الى الالتجاء اليه ليكون وسيطا فى تجارتها فى الكماليات والمواد الخام الثمينة الضرورية لصناعات الترف فى بيزنطة ـ وهذه المنتجات والمواد كلها ، تأتي من آسيا أو من افريقية .

والصلات التي تربط العالم الاسلامي ببيزنطة ، هي من نوع العلاقات التي تربطه بالصين : انها علاقات بين عالمين متقدمين يعيش كل منهما فى ظل حضارة فى أوج عظمتها . والتجارة بين الدولتين ، تخضع لمعاهدات ولتوجيه ومراقبة (23) وتمارس التجارة فى القسطنطينية جالية من التجار السوريين الذين يعيشون فى حي خاص وكان لهم مسجد يقع بجوار كنيسة سانت ايرين . ووضع الجالية السورية فى القسطنطينية ، مشابه لوضع الصقالبة الذين كانوا ، هم الآخرون يعيشون فى حي خاص يقع فى ضاحية سانت ماماس . ولكن جماعات من التجار العراقيين والايرانيين والأرمنيين (خصوصا فى أطرابزنده) والبلغار والايطاليين كانوا يقومون أيضا بدور الوسطاء التجاريين للعالم الاســلامي .

---

23 ـ راجع قسطنطين الثالث ، بور فيروجنين Porphyrogenete "912 ـ 959 م" : De Ceremonilis anlae byzantine Libri II. نشر : الترجمة الانكليزية A. Vogt, Paris, 1967 والترجمة الفرنسية G. Moravcsik نشر De Adminitrando Imperio وكذلك R. J. H. Jenkins, Budapest, 1949 الترجمة الانكليزية Nicole, Genève 1893 نشر Le livre du Préfet .

وكذلك كانت معارض اطرابزنده وأسواقها ، مثل معارض لاموس على الحدود البيزنطية توفر ملتقيات عظيمة الفائدة التجارية ، ولاسيما ، أثناء تبادل الأسرى فى المدينة الاخيرة بين الطرفين .

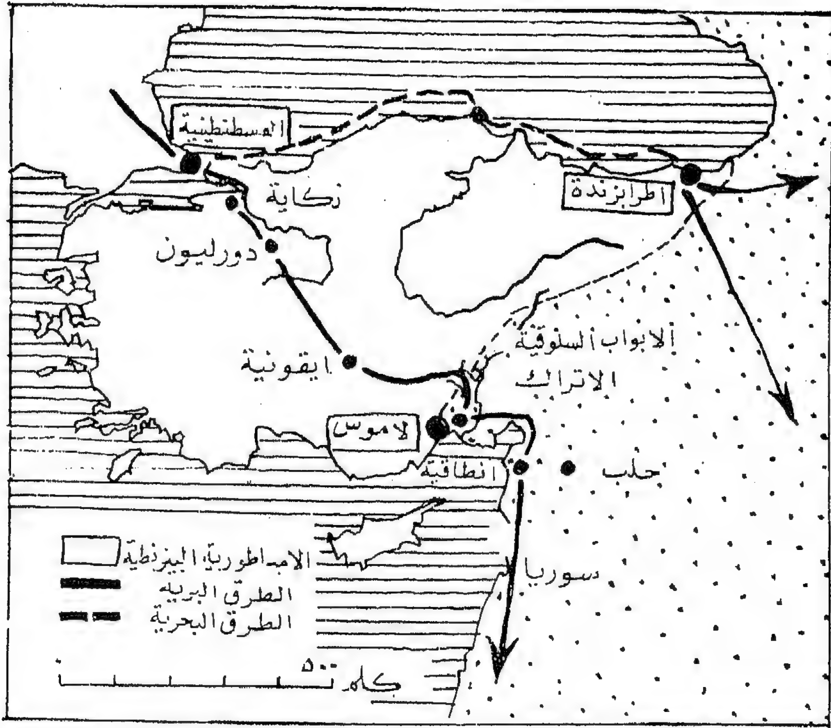
ومن جانب بيزنطة ، نلاحظ وجود تجار يونانيين متخصصين فى استيراد (Lamos) الواقعة على النهر الذي يحمل نفس الاسم فى الثغور الاسلامية الحرير الخام (Metaxopratai) ، وفى استيراد — الديباج (Prandiopratoi) وفى استراد الروائح العطرية (Myropsoi)

والقواعد التي تضبط التجارة ، تضمن ، مثلا ، للتجار المسلمين تسويق جميع سلعهم ، مهما كانت درجة جودتها ، ومهما كانت كمياتها . واذا رفضت البيوت التجارية البيزنطية شراء جزء من السلع التي يعرضها عليهم التجار المسلمون ، فان والي المدينة مضطر الى أن يأمر بحمل تلك السلع المتبقية الى الأسواق لتباع فيها بطريقة ملائمة .

وهكذا نرى أن تجارة بيزنطة ، تجارة سلبية : فمن حيث هي تجارة تعتمد على الوسطاء ، يتوقف ميزان المدفوعات فيها على قيمة وارداتها من العالم الاسلامي . وأما صادرات بيزنطية ، فهي تتجه خصوصا عن طريق البندقية وأمالفي .

وفى مقابل ذلك ، تقوم القسطنطينية ، بدور الوسيط بين الشرق الاسلامي والغرب المسيحي . وكذلك تقوم بيزنطة بدور الموزع والمنتج المصدر . وهذا الدور الأخير ، انما تقوم به على أساس المواد الأولية

والسلع التي تهم التجارة بين العالم الاسلامي وبيزنطة هي (السلع الآتية من العالم الاسلامي) : الحرير ، والديباج ، والأحجار الكريمة ، واللؤلؤ ، والعاج ، والتوابل ، والعطور ، والطيب ، والأبانوس ، وعرق اللؤلؤ .



الشكل رقم ٢٧ - طرق ومراكز التجارة مع بيزنطة

والسلع الآتية من بيزنطة الى العالم الاسلامي ، هي : أنواع معينة من الاقمشة الرفيعة التي احتفظ البيزنطيون بسر صناعتها وذلك ، مثل الاقمشة الحريرية التي تتغير ألوانها بانعكاس الضوء والتي تسمى هيبوكلامون .(Hypocaralamon) وحرف العرب اسمها الى «بوقلمون» وكذلك نلاحظ فى هذه القائمة الكتان ، الذي يستورد من « ثراس » ومن مقدونية ، والمواشي التي تستورد من أرمينيا البيزنطية . وهي منطقة مشهورة بتربية الحيوانات ، ولاسيما الأنعام الكبيرة والغنم الذي ينتج الصوف واللحم لتموين القسطنطينية فى المكان الاول . وللتصدير الى سورية الشمالية الاسلامية .

وعلى الجملة ، فان التبادل التجاري فى هذه المنطقة . كان سببا لاستنزاف الذهب من بيزنطة لصالح العالم الاسلامي . ومما يزيد من خطورة العجز الذي يعاني منه الميزان التجاري البيزنطي أن الاباطرة البيزنطيين كانوا يدفعون ضريبة ثقيلة الى الخلفاء على أن خسارة بيزنطة من نقود الذهب . تعويضا مما تبيعه فى أسواقها للايطاليين والصقالبة .

والأفق الثاني : منطقة الانهار الروسية التي يتجه اليها الايرانيون وهي تمتد من بحر آرال ، حتى بحر قزوين ، ومن خوارزم ومدينة أورجاش ، حتى أران (ما وراء القوقاز) ومدينة برذعة وباب الأبواب (Derbend) وهذه هي بلاد السهوب التي تحيط بها من الوراء الغابة الشمالية الكبرى التي تشكل أطرافها ما يشبه أهلة واسعة من الارض المكشوفة . وهي منطقة الانهار الروسية الطويلة والبطيئة الجري . وبالتالي فهي قابلة للملاحة . وهذه الانهار ، تنزل من منطقة الغابة وتنصب فى بحر قزوين والبحر الاسود الفولجا ، والدون ، والدنيبير . ومن جهة الشمال ، تسمح أنهار أخرى مثل لوفات (Lovat) وعدد من البحيرات ، بالاتصال ببحر البلطيق . والمرور بين حوض نهر الى حوض نهر آخر سهل . وبحر قزوين ، والبحر الاسود ، وبحر البلطيق ، تتداخل شواطئها ، حتى أن الخريطة التي رسمها الادريسي لهذه المنطقة تمثلها وهي تربط بينها أنهار .

والقوارب مهمة للملاحة فى هذه الانهار . وهي أحيانا مصنوعة من قطعة واحدة من الخشب ، وأحيانا عبارة عن قوارب كبيرة من نوع القوارب التي يستعملها التجار السكاندينافيون والتي تصفها المصادر العربية .

وفي هذه المنطقة يقع اتصال بين تجارة العالم الاسلامي وتجارة البلدان السكاندينافية . والتجار المسلمون الذين يقومون بالعمليات فيها ينتمون الى الحضارات القديمة التي تمرست عن فنون التجارة ، من الايرانيين أو التي تأثرت بالنفوذ الايراني ، من خوارزم وجرجان وأذربيجان .



الشكل رقم ٢٨ - التجارة في منطقة الانهار الروسية

وصف ابن حرداذبة في منتصف القرن التاسع الطرق التي يسلكها التجار الروس ، فقال : « فأما مسلك تجار الروس ، وهم جنس من

الصقالبة ، فانهم يحملون جلود الخز وجلود الثعالب السود والسيوف من أقصى صقلبية الى البحر الرومي ، فيعشرهم صاحب الروم ، وان ساروا فى تنيس نهر الصقالبة مرورا بخليج مدينة الخزر ، فيشعرهم صاحبها ، ثم يصيرون الى بحر جرجان فيخرجون الى سواحله . وقطر هذا البحر ، خمسمائة فرسخ ، وربما حملوا تجارتهم من جرجان على الابل الى بغداد ويترجم عنهم الخدم الصقالبة ، ويدعون أنهم نصارى ، فيؤدون الجزية » .

« فأما مسلكهم فى البر ، فان الخارج منهم يخرج من الاندلس ، أو من فرنجة ، فيعبر الى السوس الاقصى ، فيصير الى طنجة ، ثم افريقية ثم الى مصر ، ثم الى الرملة ، ثم الى دمشق ، ثم الى الكوفة ، ثم الى بغداد ثم الى البصرة ، ثم الى الاهواز ، ثم الى فارس ، ثم الى كرمان ، ثم الى السند ، ثم الى الهند ، ثم الى الصين . وربما أخذو خلف رومية فى بلاد الصقالبة ، ثم الى خميلج ، مدينة الخزر ، ثم نحو جرجان ، ثم الى بلخ وما وراء النهر ، ثم الى ورت تغزغو ، ثم الى الصين » .

وهكذا ثبت لدينا أن التجار الروس ـ السكاندينافيين كانوا يصلون الى بغداد . ولكن المصادر العديدة والوثيقة التي بين أيدينا ، تدل أيضا على وجود التجار المسلمين على طول الطرق التي تربط العالم الاسلامي وشبكة الطرق التي تمتد فى أحواض الانهار الروسية ، فهم يسلكون طريقا تؤدي من خوارزم عبر السهوب ، حتى مدينة بلغار الواقعة عند ملتقى نهر الفولجا بنهر كاما . وبلغار ، هي عاصمة بلغاريا الكبيرة التي تقع تقريبا فى المكان الذي بنيت فيه ، فيما بعد ، مدينة كازان . وفى مدينة بلغار كانت تعيش جالية مهمة من المسلمين الذين كان لهم مسجدهم ودار للسكة تضرب فيها النقود باسم الخليفة العباسي فى القرن التاسع الميلادي .

والى جانب ذلك ، توجد طريق أخرى يسلكها التجار المسلمون تنطلق من جرجان وتمر بأذربيجان وأران وبحر قزوين ، وطريق برية أخرى

تمر ببرذعة وباب الأبواب متجهة الى عاصمة الخزر ، خمليخ (اتل) عند مصب نهر الفولجا (24) . وفي هذه المدينة أيضا نجد أن للمسلمين أحياءهم الخاصة وقد كان المسلمون يمثلون ثلث سكانها .

ومن مدينة اتل ، يقصد التجار المسلمون الى مدينة بلغار عن طريق نهر الفولجا ، ثم يمرون ببلاد البرطاس التي تمتد عند ملتقى الفولجا نهر الأوكا (Oka) ، حيث تقع مدينة نيجني نوفجورد (Nijni-novagord) الحالية .

ولكن التجار المسلمين ، يمكنهم أيضا أن يسلكوا طريقا تنطلق من أسفل الفولجا وتتجه نحو نهر الدون ثم نحو كيافة (كييف (Kieve) »« ومن هناك يتخذون الطريق الشمالية المؤدية الى البلطيق ، أو الطريق الجنوبية المؤدية الى البحر الأسود وبيزنطة ، أو الطريق الغربية المسايرة لجبال الكربات (Carpates) (25) وتمر ببراغ وبأعالي الدانوب لتصل الى بلاد رينان ؛ حيث نجد ذكرا لنقود السامانيين فى القرن العاشر الميلادي .

ونحن نشير فى هذا السياق ، الى أن الطريق الأخيرة هي التي كان يسلكها اليهود الرادانية ، الذين كانوا يأتون ؛ كما أشرنا من قبل ، من

---

24 ـ كثيرا ما اقترح التعرف على موقع اتل فى المكان الذي تحتله مدينة أسطراخان حاليا ، ولكنه لم يمكن العثور على أي أثر للمدينة القديمة التي كانت عاصمة شعب الخزر . وقد اقترح جوميليف (L.N. Gumilev) مؤخرا فرضا لتفسير اختفاء اتل يقول بأن ذلك مرجعه ارتفاع مستوى مياه بحر قزين ، ابتداء من القرن التاسع الميلادي وغرق أنقاض المدينة الذي نجم عن ذلك . راجع :
S. Szyszman « Deconver te De Khazarie Annales E.S.C. 1970, p. 820.

25 ـ سلسلة جبال أوروبا الوسطى ، وتمتد فى شكل قوس فى تشيكوسلوفاكيا وبولندا وأكرانيا (فى الاتحاد السوفييتي) ، ورومانيا . وهذه الجبال أقل ارتفاعا فى المتوسط من جبال الألب ، وهي كثيفة الغابات ومشهورة منذ القدم باستغلال الغابات وتربية الحيوانات ، وباطنها غني بالمعادن ، وخصوصا بالنفط والغاز الطبيعي الذي يستغل حاليا فى رومانيا . (المترجم) .

ضفاف الرين والدانوب الى براغ وجبال الكربات . وكييف . وأخيرا الى بلاد الخزر الذين اعتنقوا اليهودية فى أواخر القرن الثامن الميلادي .

وهذه الطرق لم تكن موضوعا لوصف الرحالين والجغرافيين فحسب، بل أن جنباتها تحتوي على آثار متنوعة اكتشفت مؤخرا ولا سيما من قطع النقود الاسلامية التي يرجع تاريخها الى الفترة بين القرن السابع والقرن الحادي عشر الميلادي « وخصوصا . نقود الدولة السامانية » . وهده القطع عبارة عن دراهم مضروبة من الفضة ، وهي ظاهرة تدل على أن نظام النقد المتداول كان يقوم على أساس معدن واحد « الفضة . ومع ذلك فان قطعا من الذهب اكتشفت أيضا ، ولا تزال محفوظة فى المتاحف الروسية والسكاندينافية . أو أعيد تصديرها الى القسطنطينية فى مقابل شراء منتجات من المصنوعات البيزنطية .

ومن بلاد الصقالبة ، يستجلب الى العالم الاسلامي الرقيق الذي يصنع منه الخصيان ، والفراء ، والعسل وشمع العسل ، وهي من منتجات غابة الشمال الكبيرة . ومن الغرب المسيحي . فى عهد الكارولانجيين ، كانت تستورد الى بلاد الصقالبة السيوف التي يعاد تصديرها الى العالم الاسلامي ، وكذلك الخيول والجلد البلغاري المدبوغ . وجميع هذه المنتجات تمر بخوارزم ، أو بباب الأبواب . فى اتجاه المدن الكبيرة فى ايران وما بين النهرين .

وفى مقابل هذه السلع ، كان العالم الاسلامي يصدر الى تلك البلاد منتجات ، مثل الأقمشة الشفافة ومختلف الأواني ، وخصوصا قطع النقود المضروبة من الفضة ، وبدرجة أقل ، النقود المضروبة من الذهب .

وأزمة الفضة ــ بصفتها معدن النقد ــ التي واجهتها آسيا الوسطى وايران فى القرن الحادي عشر الميلادي ، لا تفسر بالظروف الجديدة

التي نجمت عن توسع السلجوقيين التجاري فحسب ، بل وأيضا بالنزيف الذي نتج عن التجارة مع منطقة الأنهار الروسية وفي هذه المنطقة نجد أن ميزان العالم الاسلامي التجاري ، يشكو من عجز مزمن .

والأفق الثالث والأخير ، في الواجهة الشمالية الغربية : الغرب المسيحي . والمقصود هنا ، هو التبادل التجاري الذي يجري مع البلدان الواقعة خلف بيزنطة والتي اندمجت شبكة علاقاتها التجارية في العالم الاسلامي .

والتجارة مع البلدان الأروبية التي كان مستواها الاقتصادي متخلفا تقوم على تلبية طلبات المراكز العمرانية في الأندلس والمغرب . وفي مقدمة المنتجات التي تصدرها البلدان الأروبية الى العالم الاسلامي ، منتجات الغابات : الفراء وخشب البناء لأحواض السفن ، والرقيق ، والمعادن ، والأسلحة التي سبق أن ذكرنا أنها تصدر أولا الى الشرق ، عن طريق أروبا الوسطى ، وبلاد البلطيق ، والأنهار الروسية في اتجاه العواصم الاسلامية ، وخصوصا ، بغداد . ولكن هذه المنتجات تتجه أيضا الى الغرب ، سالكة الطرق التي تمر بألمانيا وبحر الشمال والجول الكارولانجي لتصل الى المدن الاسلامية في الأندلس وخصوصا الى قرطبة .

وفي مقابل المنتجات الأروبية ، يقدم العالم الاسلامي ، قطع النقود من الذهب والفضة ، وبعض منتجات الترف ـــ وخصوصا ، الأقمشة التي تفلت من وساطة بيزنطة . وفي هذه الواجهة أيضا ، يتسم الميزان التجاري الاسلامي بعجز مزمن .

والوسطاء في التجارة بين العالم الاسلامي وأروبا الغربية هم في المكان الأول اليهود ، وخصوصا ، يهود نربونة الذين تقطن جماعاتهم

فى المنطقة التي تمتد من بلاد رينان والموز حتى منخفضات الرودانيان (أي وادي الرون ، بين سلسلة الجبال الوسطى ، والجبال التي تسبق امتداد جبال الألب) . وهؤلاء اليهود النربونيون ، يقصدون الى الأندلس سالكين الممرات الجبلية التي تقطع جبال البرنيز ، أو عن طريق البحر ، حتى طرطوشة ، ومن هناك يتجهون الى افريقية الشمالية ، ولكنهم قد يقصدون الى العالم الاسلامي أيضا مباشرة عن طريق موانىء الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط .

والى جانب اليهود ، كان تجار المدن البحرية الايطالية يقومون بدور متزايد الأهمية فى الوساطة التجارية بين العالم الاسلامي وأروباالغربية . والمدن التي كانت مراكز للوسطاء على شواطىء بحر الأدرياتيك هي : باري ، وخصوصا ، البندقية . وفى المنطقة الغربية : سلرن ، ونابلي ، وجايت ، وخصوصا ، أمالفي ، التي كان تجارها منذ القرن العاشر الميلادي ، يترددون على مختلف المدن التجارية الاسلامية على شواطىء البحر الأبيض المتوسط : المرية ، وتونس ، والاسكندرية ، وانطاكية ، بل والفسطاط — القاهرة ، والقدس ، أيضا . وقد كان ترددهم على المدينة الأخيرة مرتبطا بحركة الحج الى الأماكن المقدسة ، حيث كانت تقام معارض وأسواق سنوية تجري فيها معاملات فى غاية الأهمية .

وفى ايطاليا نفسها ، كانت تقام معارض وتنظم أسواق مشهورة خصوصا فى بافي (Pavie) ، كان يقصدها ، الى جانب البندقيين وغيرهم من الايطاليين تجار من مختلف البلدان ، ولا سيما من الأنجلوساكسن الذين يصلون اليها عن طريق الممرات التى تقطع جبال الألب . وكانت الضرائب والمكوس تفرض فى هذه الأسواق ، خصوصا ، على التجارة فى الرقيق والسيوف ، والقصدير .

وفى الاتجاه الآخر ، كان الشرقيون ، ولا سيما اليهود . ينزلون فى الموانىء الايطالية وفى أبسفل لنجدوك . ونحن قد رأينا أن جوهر الذي غزا مصر لحساب الفاطميين ، كان يهوديا من ايطاليا الجنوبية . وهذه الحقيقة نستقيها من مصدر عبري مهم ،وهو تاريخ الحاخام أخيماس من أوريا (Oria) وهي مدينة تقع بين برنديزي (Brindizi) وطارنت (Trente)

وعن طريق هذه الجماعات الشرقية ، انتقلت فنون التجارة وبعض الطرق التقنية الصناعية (مثل صناعة أقمشة الترف والصباغة وصناعة الجلد) التي مكنت التجارة الايطالية من الازدهار ، وسمحت للمدن الايطالية ، ابتداءا من أواخر القرن الحادي عشر الميلادي ، بتسجيل تقدم فى الانتاج . فهذه الجماعات الشرقية ، لعبت دورا خطيرا فى التعليم والتدريب التقني فى ايطاليا الجنوبية ، قبل أن يطردها منها منافسوها من المسيحيين .

والطريق الاخيرة التي ينبغي الاشارة اليها ، هي طريق المحيط الاطلسي التي تنطلق من المنطقة التي يسميها الجغرافيون العرب ، « بريطانيا » ، وهي تسمية يقصدون بها أنجلترا وبلاد السيلت . ومن بريطانيا تصل الى الارموريك (26) وخليج بسكونية (27) ثم الى الموانيء الاسلامية الواقعة على المحيط الاطلسي : ليشبونة ، وقصر أبي دانس ، حيث ينزل العبيد الانجلوساكسن ، وحيث تفرغ شحنات القصدير والفراء والسيوف .



26 – L'Armorique هي المنطقة التي تشكل حاليا فى فرانسا ، بروطانيا La Bretagne

27 – بسكونية (المترجم) . Le Golfe de Gascogne

وهكذا نرى فى أعقاب هذه الدراسة التي عالجنا فيهـا الواجهات التجارية ، أنه يوجد عدد من شبكات الطرق التي تدخـل الى العالم الاسلامي وتتوغل فيه حتى تصل الى المراكز المحركة للاقتصاد . وهي المدن الكبيرة التي تربط بينها شبكة من العلاقات النشيطة .

والخط الرئيسي ومركز القوة فى هذه العلاقات ، هي طريق القوافل الكبيرة التي تربط آسيا الوسطى ، انطلاقا من سمرقند وبخاري وتمر بنيسبور والري ، لتصل الى بغداد . ومن هذه المدينة ، تتجه عن طريق نهر عيسى والفرات الى حلب ، وانطاكية وأساكل المشرق وفى الاتجاه الجنوبي الغربي ، تؤدي طريق فرعية الى دمشـق فعسقلـون . فالى منطقة بورسعيد ودلتا النيل : الاسكندرية والفسطاط ــ القاهرة : ثم برقة والقيروان وهضاب المغرب ثم فاس أو مضيق جبل طارق وتنتهي الى مدن الأندلس : اشبيلية وقرطبة .

وهذه الطريق الكبيرة ، تلتقي بشبكات أخـرى مهمـة من الطرق البرية والبحرية والنهرية : طريق الأنهار الروسية التي تربط شواطىء بحر قزوين بالري ، وطرق المحيط الهندي والخليج العربي (البصرة ــ بغداد) ، وطريق البحر الأحمر وعيذاب ، أو القلـزم ووادي النيـل والقاهرة ، والطرق العابرة للصحراء الكبرى متجهـة الى المغـرب ، والطرق المؤدية من الغرب المسيحي الى الأندلس والموانىء الاسلامية الحركة الاقتصادية فى الغرب المسيحي الى الأندلس والموانيء الاسلامية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط .

صحيح ، أن المسلمين لم ينشئوا جميع هذه الطرق . فان الفتوحات الاسلامية كثيرا ما سارت فى شبكات من الطرق القديمة أو فى طـرق عرفها القدماء ولكنها محيت معالمها ، أو قطعت بسبب غزو البرابرة . ولكن المؤكد ، هو أن تكوين العالم الاسلامي قـد لحم بين مختلف المناطق التجارية فى العالم . وأبرز ما حققه الاسلام فى هذا المجال ، هو

ضم منطقة الصحراء ــ السودان ــ التي خلق البربر التيارات التجارية فيها منذ القرن الرابع الميلادي ، الى مناطق التبادل التجاري العالمية الكبيرة . وكذلك ضم الاسلام الى تيار التبادل التجاري العالمي ، منطقة الأنهار الروسية التي كانت عناصر من الصقالبة والفينلانديين والسكاندينافيين منذ وقت تحاول تنظيمها .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فان الطلب المتزايد فى مراكز العمران الاسلامية للاستهلاك ، قد أيقظ النشاط وبعث الحياة فى الحركة الاقتصادية فى الغرب المسيحي الذي يسيطر عليه البرابرة حيث انطلقت تجارته واشتد نشاط تبادل العملة وانتعشت مراكز العمران فيه تحت تأثير النفوذ الاسلامي .



مكانة العصر الاسلامي
فى التـــاريخ العـــالمي

قررنا فى عدة مناسبات فى الفصول السابقة ، أن العالم الاسلامي ينقسم الى ثلاث مناطق متميزة : منطقة البـــرازخ ، وايـــران وآسيا الوسطى ، والغرب الاسلامي . وهذا التقسيم ضروري لضمان وضوح العرض ، ولكنه أيضا يقوم على أسس معقولة . فان كل واحدة من المناطق الثلاث المدروسة ، تمثل اطارا جغرافيا لا يزال موجودا ومؤثرا ، كما تمثل مراحل مختلفة فى النمـــو الاقتصـــادي ، وحظا من تركـــة الحضارات القديمة ، يختلف عن حـــظ كـــل واحـــدة من المنطقتـــين الأخريتين .

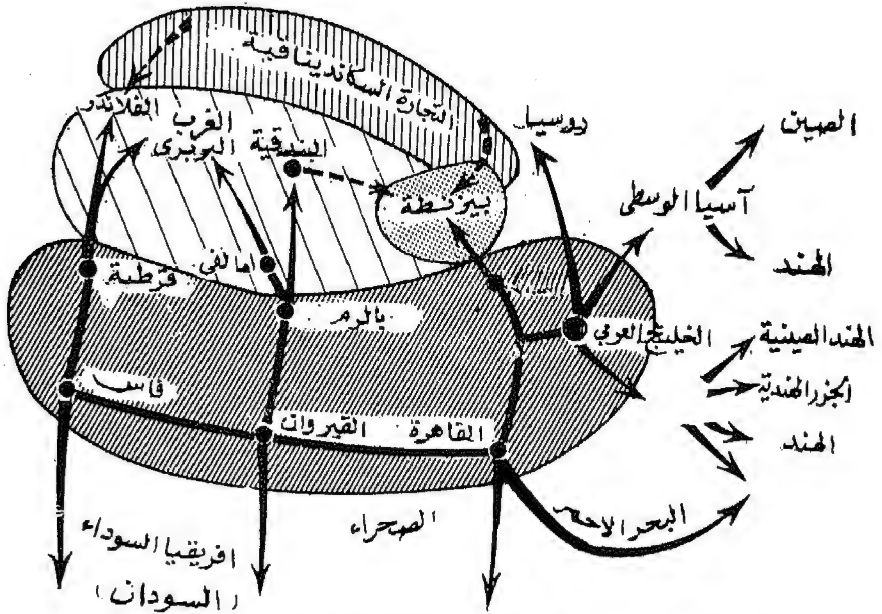
فهل ينبغي أن نبحث فى نهاية هذه الدراسة عن الخطوط العـــامة والاطار الذي يجمع بين هذه المناطق ؟

يجب أن نقول أن العالم الاسلامي ، لم يكن خـــلال الفـــترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي ، مجـــرد نقطـــة انطلاق لتاريخ طويل : تاريخ الحضارة الاسلامية . لأن العالم الاسلامي كان فى هذه الفترة أيضا . نقطة وصول ، وهو لا يزال حتى الوقت الحاضر قمة تاريخ طويل : تاريخ الحضارة التي تقوم على المدن فى الشرق القديم الذي شهد أقدم الحضارات البشرية المعروفة ، والتي تجمعت خلال لحظة من التاريخ فى امبراطورية الاسكندر الكبير .

واذا كان العصر الاسلامي على اتصال بتاريخ العالم من حيث الزمن ، فهو يتصل به أيضا من حيث المكان .

فان العالم الاسلامي . بفضل موقعه فى قلب العالم القديم . وبفضل سيطرته على منطقة البرازخ الواقعة بين بحرين عظيمين ـ المحيط الهندي والبحر الأبيض ـ وبفضل امتلاكه للطريق البرية الكبيرة . طريق السهوب والصحراء والواحات التي تنطلق من آسيا الوسطى الى افريقية الغربية ، كان على اتصال مباشر مع مراكز للعمران المدني والحضاري . وقد كان العالم الاسلامي على علاقات تجارية ، علاقات الند للند ، مع الهند والصين وبيزنطة . ولكنه كان أيضا على اتصال بالعوالم الجديدة ، عالم الغابات الذي يخضع للبرابرة أو لنفوذهم : عالم السهوب التركية ومناطق الأنهار الروسية والعالم الأسود ، والغرب المسيحي الذي سيعرفه الاسلام باشعاع حضارته فى الوقت الذي يستعير منه قوى حيوية .

لقد كان العالم الاسلامي بمثابة جسر يجمع بين العوالم الجانبية ومن هنا أهمية الطرق التي تشهد بالتقدم السريع أو البطيء ، المستمر أو المتقطع ، للنفوذ الذي يخترق المنطقة المميزة التي يمتد فيها العالم الاسلامي حتى القرن الحادي عشر الميلادي . فمن قلب هذه المنطقة انتشر التأثير الحضاري ليشمل المغرب الاسلامي والمناطق التي تقع خلفه . وهذه الحضارة تقوم على النتائج التي استخلصتها من عملية تطورها بلدان الشرق القديمة وحورتها ثم أضافت اليها ثراء بالمقابلات والاتصالات التي وقعت فى داخل المنطقة نفسها ، وبفضل ألوان النفوذ الجديدة التي وصلت اليها سالكة الطرق التجارية التي تربطها بالبلدان البعيدة ، من الصين والهند وآسيا الوسطى .



الشكل رقـم ٢٩ ـ امتداد العلاقات التجارية والاشعاع الاقتصادى للعالم الاسلامى خلال الفترة بين القرنين ٨ ـ ١١

ومن هنا أيضا ، أهمية شبكة مراكز العمران . فان المدن الاسلامية تجمع بينها علاقات اقتصادية وروابط ثقافية ، والطرق انما تستخدم خصوصا لنقل تأثير المد الحضاري . وشبكة العواصم الاسلامية . هي التي توفر اطار النمو الاقتصادي والتقدم الاجتماعي والثقافى فى العالم الاسلامي . والمراكز القوية فى هذا الاطار ، فى غضون الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي ، هي : بغداد ، ودمشق ، والقاهرة ، والقيروان ، وفاس ، وبلرم .

وأما المحطات التجارية الكبيرة الواقعة فى منتهى الطرق ، فهي سمرقند فى الشرق ، وقرطبة فى الغرب ، وهاتان المدينتان تشهدان بالوحدة العجيبة التي تتسم بها حضارة كانت تركية فى منطلقها ، ينتقل فيها

الرجال والسلع والأفكار بحرية وتنعدم فيها الرواسب الحضارية الريفية أو التي تعود الى أصل مجتمع الرحل

وأخيرا ، ومن هنا أهمية الاقتصاد النقدي الاسلامي : التوسع في ضرب الدنانير ، تتيجة لتدفق الذهب الجديد على العالم الاسلامي وازدهار الائتمان والاعتماد ، مما يضاعف تيار التبادل النقدي . فقد لاحظ ابن خرداذبة في القرن التاسع الميلادي ، أن نمو الثروات وازدياد المعاملات التجارية ، بلغ حدا من الاتساع ، بحيث يجري تداول قطع النقد حتى في القرى النائية التي كان نظام المقايضة دائما أساسا للتبادل التجاري فيها . وهكذا يلتقي نمو نفوذ المدن الكبيرة على القرى والأرياف ، باتساع نطاق تبادل النقد والعملة .

ولكن الاقتصاد الاسلامي الذي يقوم على الدينار ، له جوانب قوة وجوانب ضعف . فهو في المكان الأول ، يتوقف على التبادل التجاري . ولذلك ، فهو مرتبط بالاحتفاظ بالطرق ، كما يرتبط بالسيطرة على شبكة العلاقات مع البلدان البعيدة التي يمكن للعالم الاسلامي بل ويتحتم عليه ، الحصول منها على المنتجات التي تنقصه والتي هي ضرورية لاقتصاده ولازدهار حضارته ــ الذهب أولا ، ثم الخشب والمعادن والأسلحة ــ ذلك الاقتصاد وتلك الحضارة اللذين تعودا على شراء كل شيء ، وبنقود الذهب ، من البلدان البعيدة .

واذا ارتخت العلاقات مع البلدان البعيدة ، بتحويل الطرق أو انقطاعها، واذا كان وصول الذهب غير منتظم ، فان الاقتصاد سيتعرض للاضطراب .

وفي النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي ، أخذ العالم الاسلامي يواجه أزمات عديدة واضطرابات خطيرة ، قامت حركات للغزو في مختلف أطرافه . وقد كان من نتائج ذلك تدهور مراكز العمران وانقطاع

التيارات الاقتصادية : فان أحياءا فى بغداد وفى القاهرة أصبحت خرابا ، والقيروان هجرها بنو زيري الذين التجأوا الى المهدية . وكذلك هجر بنو حماد مدينة القلعة ليلجئوا الى بجاية . وأما مدينة فاس ، فقد سقطت فى يد المرابطين .

وفى الأندلس ، مزقت مملكة غرناطة الى امارات ، هي التي تعرف باسم « ملوك الطوائف » .

وبانقطاع طرق التجارة والمواصلات ، تحطم العالم الاسلامي واتخذ الاسلام أشكالا اقليمية ، وأصبح الناس يسمعون بالاسلام التركي ، والاسلام المصري ، والاسلام المغربي ، والاسلام الأندلسي . وهكذا انبعثت النعرات والمميزات الاقليمية التي كانت شرارتها لا تزال حية ، كما تحولت الحضارة الاسلامية التي صهرت التراث الحضاري القديم فى جميع هذه المناطق الى « حضارات » اسلامية .

وبعد القرن الحادي عشر الميلادي ، تحول مركز الثقل من العالم القديم . فان المراكز المحركة والمنشطة للازدهار والتوسع الاقتصادي المستمر ، لم تعد فى الشرق وفى المدن الاسلامية الكبيرة ، بل هي انتقلت الى الغرب ، فى المدن التجارية الايطالية وفى الفلاندر وفى أسواق الشامبان ، حيث يجري تبادل منتجات البلدان الشمالية ومنتجات بلدان البحر الأبيض المتوسط . وبعد تعثر ومصادمات وفترات من الانتصار وأخرى من الانكسار ، أصبحت القوة الاقتصادية والتوسع المادي والنشاط الخلاق — لعدة قرون — من خلال أروبا الغربية .

ومع ذلك ، وعلى الرغم من تدهوره الاقتصادي سيستمر الاسلام وقتا طويلا مصدر اشعاع ثقافي فى العالم الذي سيكون مدينا له بعلومه ، وخصوصا علم الطب ، وفلسفته . وسيلعب العالم الاسلامي بعلم الطب

دورا خطير الشأن ، ليس فى عصر النهضة فحسب بل حتى فى القرن التاسع عشر الميلادي . ولكن معظم أمهات الكتب التي استمرت قيمتها ، كانت قد وضعت خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي ..

الشكل رقم ٣٠ ـ مخطط عام لانقلاب القوى من القرن ٤ الى القرن ١٥

بين الصين والهند ، بين بيزنطة وبلاد البرابرة ، فى العصور الوسطى ، منذ نهاية الامبراطوريات القديمة ، حتى قيام الدول الحديثة ، كـانت الحضارة الاسلامية فى مجدها الأول ، بوتقة زمنية وجغرافية ــ كانت نقطة تقاطع ، ولحظة تاريخية مواتية ، وموعد لقاء خطير الشأن فى تاريخ البشريـة .

يلاحظ القاريء الكريم أن التواريخ الواردة فى الكتاب كلها بالتقويم الميلادي . وتحويل هذه التواريخ الى التقويم الهجري أمر فى غاية الصعوبة، بل ويكاد يكون مستحيلا ، ما لم يعرف الشهر واليوم الذي وقع فيه الحادث . ولمساعدة القاريء الذي يهمه الامر على القيار بنفسه بعملية التحويل اضع تحت تصرفه جداول للمطابقة بين التاريخ الهجري والتاريخ الميلادي للتواريخ الواردة فى الكتاب ، وهي تعطي بكل دقة الفترة التي يعالجها الكتاب (القرن الثامن ــ القرن الحادي عشر الميلادي) .

(المترجم)

جدول المطابقة بين التقويم الميلادي والهجري

القرن السابع القرن الثامن القرن التاسع

م	هـ	م	هـ	م	هـ	م	هـ	م	هـ
629	8	700	81	766	149	800	184	875	262
634	13	705	86	768	151	801	195	876	263
637	16	706	88	769	152	805	190	878	265
639	18	709	91	770	153	809	194	883	270
641	21	711	؟	772	156	810	195	886	273
642	22	712	94	774	158	813	198	892	279
643	23	714	96	775	159	814	199	893	280
644	24	719	101	777	161	816	201		
645	25	726	108	780	164	820	205		
647	27	728	110	782	166	827	212		
652	32	730	112	783	167	829	214		
660	40	731	113	785	169	831	216		
670	50	741	124	786	170	833	218		
685	66	748	131	789	173	836	222		
693	74	749	132	794	178	838	224		
694	75	750	133	795	179	840	226		
695	76	751	134	796	180	842	228		
696	77	752	135			845	231		
697	78	754	137			847	233		
		755	138			850	236		
		756	139			863	249		
		757	140			867	253		
		761	144			872	259		
		762	145			868	254		
		763	146			870	257		
						872	259		

جدول المطابقة بين التقويم الميلادي والهجري

القرن العاشر				القرن الحادي عشر وما يليه			
م	هـ	م	هـ	م	هـ	م	هـ
900	288	971	361	1007	398	1328	720
902	290	972	362	1010	401	1384	786
903	291	974	366	1014	405	1513	919
905	293	976	367	1020	411	1515	921
908	296	977	368	1025	416	1555	963
909	297	978	369	1030	422	1622	1032
910	298	979	337	1035	427	1888	1306
912	300	987	380	1036	428	1960	1380
913	301	990	384	1044	539	1971	1391
915	303	994	386	1048	440		
917	315	996	387	1047	439		
932	320	997	- 389	1054	446		
935	324	999	389	1055	447		
936	325			1057	449		
940	325			1060	452		
942	329			1061	453		
943	331			1068	461		
944	332			1075	468		
945	333			1077	470		
946	334			1082	475		
948	335			1085	478		
949	337			1089	482		
954	338			1094	487		
961	343			1144	539		
962	348			1165	561		
967	350			1171	567		
968	367			1244	642		
970	358						
	360						

فهرست عام للأعلام

حرف الألف :

حرف البـاء :

حرف التاء :

حرف الثـاء :

حرف الجيم :

حرف الحاء :

حرف الخاء :

حرف الدال :

حرف الراء :

حرف الزاي :

حرف السين :

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حـرف العـــين

حرف الغين

حرف الفاء

حــرف القـــاف

حـرف الكـاف

حـــرف اللام

حـرف الميـــم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

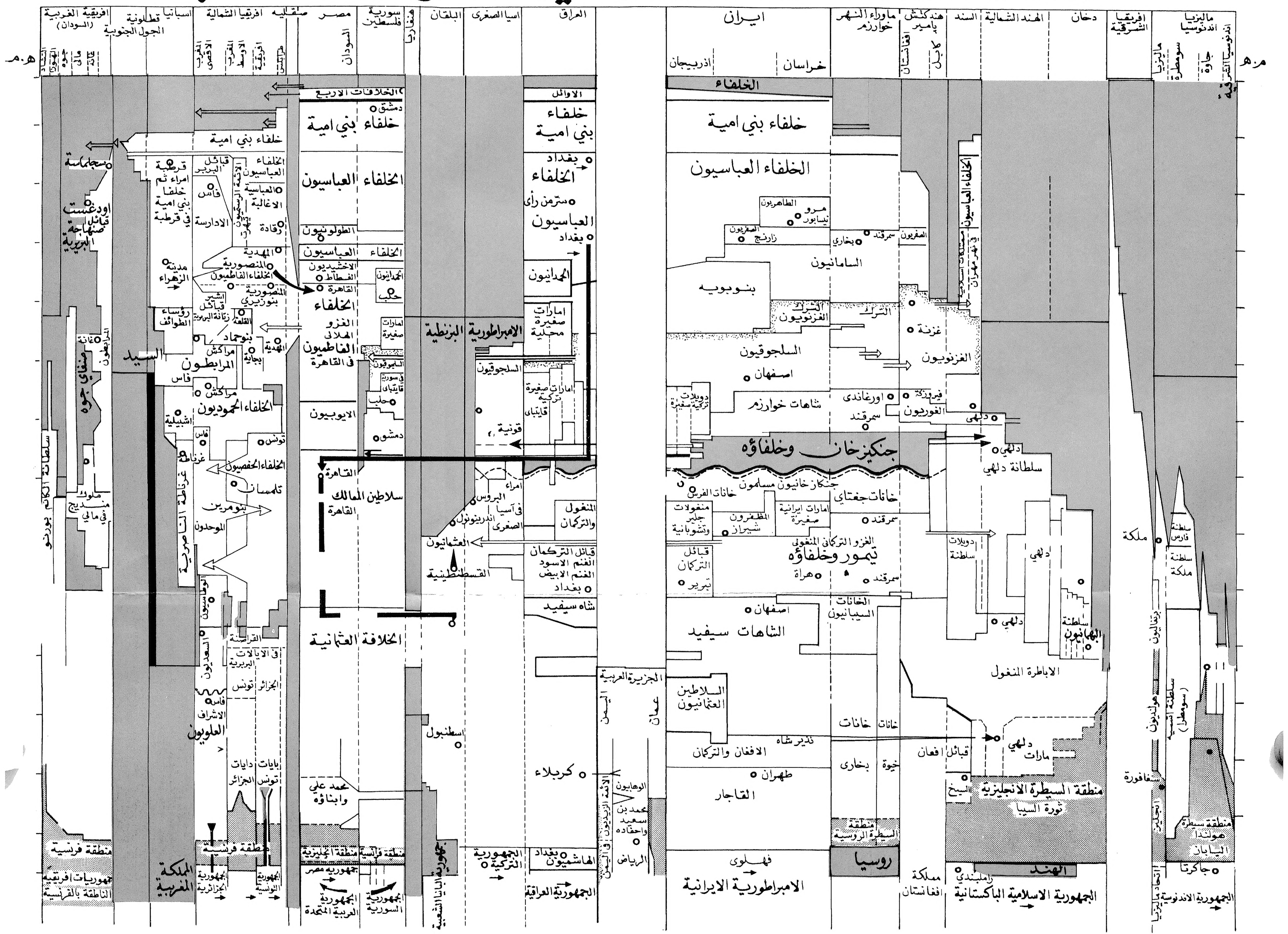
حرف الياء

فهرست الرسوم والخرائط

فهرس عام بأسماء الأشخاص والأماكن

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء
الايداع القانوني رقم 1990/903

الممالك الاسلامية ومناطقها



هذا الكتاب

يعالج موضوع الأسس المادية التي تقوم عليها الحضارة الإسلامية في المشرق والمغرب والأندلس، فيتناول الدورة الاقتصادية كلها ويعرض صورة عامة للمواد الخام وطرق استخراجها ومعالجتها لتوزيع الانتاج الصناعي ولشبكة طرق المواصلات وبصفة خاصة طرق القوافل التي هي الشريان الذي تتدفق منه الثروة، والقنوات الأساسية للتوزيع، وذلك في الوقت الذي يعرض فيه صورة للحضارة الإسلامية في أزهى وأعظم مظاهرها، على خلفية سياسية وثقافية تشمل رقعة العالم الإسلامي كلها. والعلاقات الخارجية في داخل العالم الإسلامي نفسه (بين المشرق والمغرب والأندلس الخ.) ومع بقية الكتل الدولية المعاصرة للأمبراطورية الإسلامية، تشكل سدى ولحمة هذا الكتاب.

